

A Y M A N A L - O T O O M

رواية
Novel

أَيْمَنُ الْعَتُومِ

الوَحْشِ



الإبداع والفكر

الوُحُوش

المؤلف: د. أيمن العتوم

الناشر

شركة الإبداع الفكري للنشر والتوزيع - الكويت

العنوان: حولي - شارع تونس - قطعة 4 - مجمع صالح المطوع - الدور 10

رقم الإيداع: 1595-2025 الترخيم الدولي: 978-9921-714-89-0

الطبعة الأولى: يوليو 2025



الإبداع الفكري

هاتف: 22060887 (965)+

العنوان البريدي: ص.ب 28589 الصفاة 13146 الكويت

fb yd @ ebdaafekry

info@ebdaafekry.com

ebdaafekry.com

جميع الحقوق محفوظة للناشر (شركة الإبداع الفكري)
(يمنع النسخ أو التصوير أو النقل أو النشر في موقع الشبكة الالكترونية أو الاقتباس
من هذا الكتاب أو أي استخدام آخر مادته إلا بإذن خطي من الناشر لعدم التعرض للملاحقة القانونية)

الإهداء

إلى شهداء البوسنة المعروفين والمجهولين.

الشهداء الذين غُيِّرَ على قبورهم وأولئك الذين لم يُعَثر لهم على أثر.

إلى شهداء مذبحة سربرنيتسا

ذكرى الضحايا التي لا تُنسى في الحادي عشر من تقوز عام

1995م

(1)

لن نَعُودا!

إنها شمس نيسان، لم تكن لطيفةً على عاداتها، بل كانت حارقة؛ هل تكون الشمس حارقةً في نيسان؟! كانت كذلك؛ قتلت الربيع الذي مزَّ ركُضًا، حيث لا يُمكن للمرء أن يعرف كيف تحدث الأمور بهذه السرعة. النهار ظلمات، والليل حزن، والانفجارات نغم، وصوت الرصاص كلاب. والنهايات بغتة. وأنت حيث لا تريد دائمًا.

كانَ بيثنا وادِعًا، أنا حارث وأبَوَاي وأختي سلمى ذات الأعوام القمائية. المدرسة غير بعيدة، وكنا لا نرى في السَّبُورة غير الغد الذي كلما كبرنا صفاً بدا لنا أكثر صفاءً وأشدَّ تحقيقًا. وعلى السَّبُورة كتبنا أجمل أحلامي وأعذب آمنياتنا في غفلةٍ من المُعلِّمين الذين كانوا يجهدون في تذكُّر اسمي، ربَّما لأنني لم أكن مُتفوقًا ولا مُشاغبًا، وهل يتذكَّر الأساتذة إلا هذين؟! كنتُ أعيش في الظل، كان الظل يعني لي الأمان، ووجدت فيه راحتي من الأسئلة المُقلِّقة، وبطبيعتي لم أكن أحب الأسئلة ولا مَنْ يطرحها.

(فوتشا) - حيث نعيش - بلدةٌ من الوداعة بحيث إذا مرَّ النسيم على حَدها جَرَحَها، كانت تمرُّ بها قوافل الثَّجار ماضين إلى إسطنبول وهم يحملون في قلوبهم الحب، قال أبي ذلك. لم تكن البلدة لتؤمن بالموت، كانت تفتح ذراعيها للعشق والورد، غير أن الغربان التي لم يُعجبها غناء البلابل سَعَتْ في زمانٍ أو اثنين إلى حَنَقِها.

وكانت أمي في الأعياد تشدُّ على رِثَّيها من أجل أن تملأ الثَّفاخة

(البالون) بالهواء، فإذا صار حجمه كبيرًا رَبطَته من فمه، ثم تُعلّق بكلّ واحد أو أكثر صورة من صورنا نحن الأربعة، وتُطيّزها في الهواء، وتفتح الأبواب والنوافذ، فإذا كان اتجاه الهواء مُناسبًا خرجت تلك (البالونات) من تلك الأبواب والنوافذ وطارث عاليًا في الفضاء، وكنت أتبعها لكي أعرف أين تحط، ولكنها كانت تظلّ تطير وتطير وألحقها في شوارع (فوتشا) راكضًا ورأسي إلى الأعلى لأتابعها، فلا أهتدي إلى مكانها، فأعود حسيّزًا، وأستعيض عن خيبتني تلك بالزجوع إلى البيت ومتابعة ما علّق من تلك (البالونات) بسقف العُرف. وكانت فقرة البالونات تلك في صبيحة أيام الأعياد أجمل ما يحدث لي، كانت فرصةً للتحليق بعيدًا عن هذا العالم، ولو كان الأمر في خيالي فحسب.

وكان أبي يقول: "إنّ الوحوش مرّت من هنا قبل نصف قرن، لا تنخدع بما ترى، الحقيقة عزيزة لا تبذل نفسها لِمَن هبّ ودبّ، عليك أن تُدقّق النظر جيّدًا، أترى هذه الورود الحمراء في تلك السهوب، وتلك الزنابق البيضاء على ضفاف نهر درينا؟! لو حفرت تحتها لوجدت جماجم فارغة العيون فاغرة الأفواه"، ولم أكن أفهم تمامًا ما يقول.

تحت شجرة الثوت الأحمر التي تتوسط جنيّة البيت الصغيرة، وتتوزّع أغصانها الرفيعة كأنها مظلة، كنت أسند جسدي التحيل إلى جذعها العتيق، كان أبي يقول: "إنّها من عُمر جدّه الذي قاتل في الحرب العالميّة الثانيّة، زرّعها في أربعينيات القرن العشرين، وكنت كلّما نضجت حبات الثوت وسقطت على أوراقها، فركتها فسال دُمها على بياض الورق، وهناك كتبت رسائل إلى فتاة أحبّها ولا أعرف

اسمها مُدْعِيَا أَنَّ هذا الأحمر الجميل إنما هو دمي. وعلى العشب ركضت وحدي مع الكرة التي كنت أركلها مِنِّي إِلَيَّ، وكان الجدار الذي من جهة الباب يُساعدني في لَعْبِي المُنفرد، كان صديقًا، مَنْ يدري كيف يكون الجدار صديقًا؟!

وكانت لي قِطَّة جميلة تُشاركني اللّعب دائمًا. كانت بيضاء تمامًا كالثلج، وعيناها خضراوان، أطلقت عليها اسم (ساسي)، وكنت أقسم طعامي بيني وبينها، وكانت تنتظرني أوانَ عودتي من المدرسة على الباب الخارجي لحديقة بيتنا، وكنت أركض في المئة متر الأخيرة من الشّارع المؤدي إلى البيت؛ لأحتضنها، أربّت على رأسها، ويبدأ نهاري الحقيقي معها، ولولا أَنَّ الأمر مُتَعَذِّر لأخذتها معي إلى المدرسة، أمّا رسائلي التي كتبتها إلى الحبيبة المُتخيلة فكانت تبدأ باسمها دائمًا: "إلى حبيبتي ساسي... أنا هُنا وحدي..."، فلم أكن أعرف أَنَّ فتاةً في الكون يُمكن أن تكونَ أجمل من قِطّتي، وأمّي تضحك وهي تعبث بشعري الأشقر قائلةً: لماذا ليس لك أصدقاء؟ فأردت: ألا ترين (ساسِي)؟!

صارت أمّي تُحتضني في الأسبوع الأخير من شهر إبريل كلّما رأثني، وثعانقني بعمق، لم تكن تقومُ بذلك من قبل، كان الأمر غريبًا، لماذا تفعل أمّي ذلك في اليوم أكثر من عشر مرّات؟! بقيت مُحْتَارًا إلى اليوم الذي سمعتها تهمس في أذن أبي في غرفتهما بكلامٍ عن (أمير) ابن جارتنا (عادلة) الذي لا يبعدُ بيّته عن بيتنا كثيرًا، كانت تقول لأبي: "أخاف أن يحدثَ له ما حدثَ لأمير، هل ترى ألا نبعثَ به إلى المدرسة؟". كان باب غرفتهما مفتوحًا، وكنت أسترقُ النّظر، وأبي يهزّ رأسه مُغمغمًا بكلماتٍ لا أدري ما هي. اقتربتُ من الباب

دون أن يرياني وألصقت أذني بالجدار، كانت أمي تقول: "إن أميرًا رفض الذهاب إلى المدرسة في ذلك اليوم، أمه قالت له إنني لن أبقى في البيت، فلدي عمل، فيرد: سأبقى عند جدتي، لكنها سحبت يده عنوةً، ومضت به في الشارع الذي كان شبه خالٍ، فجأة سقطًا معًا، كيف يسقط طفل وأمه هكذا دون مقدمات؟! صارت تُنادي عليه: أمير... أمير... ولكنه لم يكن يتحرك، كان ساكنًا كأنه نائم، وراحت تفقد وعيها تدريجيًا، وحين استيقظت من غيبوبتها كان أمير قد رحل. لكنها لم تُصدّق ذلك، صارت تركّض في الشارع كالمجنونة وتنادي عليه، وكانوا يقولون لها: "لقد مات... ألا تريد أن تُصدّقي؟!". ومثل من لم تسمع ما قالوا كانت تواصل النداء عليه حتى تسقط على الأرض من الإعياء دون أن يردّ عليها أو تعرف أين ذهب... ظلّت على ذلك أسبوعًا، ويوم أخذها زوجها إلى المقبرة وأراها قبره انهارت، ولما أيقظوها ظلّت تحتضن شاهدة القبر وهي تنسج حتى تنهار مرّة ثانية.

كانت تذهب في الأيام الأولى إلى قبره ومعها طعامه المفضل، وتنادي عليه من أجل أن يقوم من قبره ويأكل ما أعدّه له، وحين تيأس، تترك الضحن عند شاهدة القبر وهي تهمس في الفراغ: "حين يستيقظ لن يشعر بالجوع"، وفي اليوم الثاني تفعل ما فعلت أميس، بقيت على هذا سبعة أيام، ولما وجدت الطيور تنتظرها في اليوم السابع عادت ومعها الضحن، ولم تعد إلى القبر ثانية، واحتفظت بذكره في كرسيه الذي ظل فارغًا كلما جلست إلى الطاولة لتأكل.

أعرف (أمير) جيدًا مع أنه لم يكن صديقًا، كان أذكى طفل في الصف، كان يسأل أسئلة كثيرة، وأنا أكره الأسئلة، وبالطبع أكره

الإجابات، كان الضمت خيارى المفضل، وهو كان مُزعجاً من هذه الناحية، ولكن الأساتذة كانوا يُحبّونه، كان يفيض حيوية وأدباً معاً، ومنذ ذلك اليوم المشؤوم لم أعد أراه، أنا لا أعرف إن كان ما قالته أمي عنه صحيحاً، ولكنني بالفعل لم أعد أراه، لماذا يغيب واحد منا عن المدرسة إذا كان الأساتذة يُحبّونه، ويستمعون إليه؟!

نعم لم يعد (أمير) إلى الصف بعد ذلك اليوم، انطفأت عيناه اللامعتان، وذاب بياض أسنانه في العتمة، ولم تعد ضحكته الصافية تملأ الفضاء، وذاب كما لو كان ذكرى، واختفى كما لو كان خلقاً، ولا أدري كيف تذوب الذكريات ولا كيف تختفي الأحلام، إذا لم تكن تشبه ذوبائه واختفائه على نحو ما؟!

تبدل كل شيء منذ شهر؛ لم يعد هناك جدار جهة الباب. وشجرة الثوت يبست أوراقها فجأة ولم تعد تحمل حبات الثوت الحمراء الناضجة، وقطعتي انزوت في الزاوية البعيدة في المطبخ، ولم تعد تنتظرني أوان عودتي من المدرسة، بل إنني صحوث قبل يومين وناديثها باسمها فلم تُجب، وحين فُتشت البيت كله بحثاً عنها لم أجدها، غابت فجأة، وحزنت حزناً شديداً، وانخرطت في البكاء، وذهبت مُحاولات أمي لتهدئتي أدراج الرياح، كانت تُحاول تعزيتي: "ستعود يا بُني، لو كانت تُحبك فعلاً ستعود". وكنت أنظر إليها من خلال عيوني المغرورة بالدموع، وأقول: "إنها تُحبني فعلاً، لا يمكن أن تكرهني ولا أن تُفكر في ذلك". وفي الليل لم يكن ينقطع تفكيري بها وبرحيلها المفاجئ لحظة، وسمعت أمي تطرق علي باب غرفتي، وتقول بصوت مبحوح: "ربما لن تعود، أعتقد أنها لن تعود؛ لقد أخذها اللصوص، هؤلاء الذين صاروا يملؤون الشوارع، ويدخلون البيوت!".

لزمْتُ غرْفتي، في اللَّيل أقومُ من السَّرير لأرسمَ لون عينيها،
لأقول لها إنني أحبُّها، وسأنتظرها حتَّى لو غابت مئة سنة، أرهفُ
سمعي إلى حفيف أوراق شجرة الثَّوت الحزينة، وأتخيّلها تُخرِبُشُ
هناك على العشب تحتها، أو أتخيّل وقع خُطواتها النَّاعمة وهي تعبر
الممرَ الطَّويل من المدخل حتَّى تدخل إلى غرْفتي، إنها تعرفُ أنني
أحبُّها، كيفَ يُمكن أن تعرفَ ذلك ولا تعود؟! كيفَ طاوَعها قلبُها أن
تتركني، وكيفَ خطرَ ببالها أن ترحل دون مُقَدِّمات، أثارني فعلتُ شيئًا
أزعجها؟! لو أنها قالت ذلك قبل الزَّحيل لكُنْتُ اعتذرتُ لها، ومسَّختُ
على رأسها، واحتضنتُها، وبكيث ندمًا. ولكنَّ كلَّ ما تخيّلته لم يحدث.

غَرِقَ كلُّ شيءٍ في الظُّلام، كانت الظُّلْمة تنتشر انتشار الأغرْبة
السوداء في كلِّ مكان، البيوت كلّها مُظْلِمة، الشَّوارع، الحدائق،
المدارس، مكتب البريد، والحزن يُعشّش في الحدائق، وينمو على
شبابيك العُرف. ولم تَزْنا الشَّمْسُ منذُ ذلك الجين!

(2)

نَظَرَاتُ أُمِّي

نَظَرُ أَبِي بِحَذَرٍ مِنَ النَّافِذَةِ الْمُغْلَقَةِ بَعْدَ أَنْ أَزَاخَ السَّتَارَةَ بِبَطءٍ،
وَالْتَمَعَتْ عَيْنَاهُ بِرَعْبٍ كَادَتْ مَعَهُ أَنْ تَقْفِزَا فِي الْفَرَاغِ، رَأَاهُم فِي
مُوَاجَهَتِهِ تَمَاقًا، أَعَادَ سَحَبَ السَّتَارَةِ مَكَانَهَا لِيُخْفِيَ مَا شَاهَدَ، أَوْ
لِيُخْفِيَ ذَلِكَ عَنَّا، وَلَمْ يُمَهِّلْهُ الْوَقْتُ لَكِي يَسْتَدِيرَ نَحُونًا وَيَصْرُخَ
بِصَوْتٍ مَكْتُومٍ: "اخْتَبِئُوا، إِنَّهُمْ صَارُوا هُنَا، هَيَّا... هَيَّا...". رَكُضْتُ أَنَا
وَأُخْتِي بِدَافِعٍ غَرِيزِيٍّ، اخْتَبَأْتُ أَنَا تَحْتَ السَّرِيرِ فِي غُرْفَتِي، وَرَأَيْتُ
أُخْتِي تَدْخُلُ غُرْفَةَ أَبَوَيَّ وَتَخْتَبِئُ تَحْتَ سَرِيرِهِمَا، وَلَمْ نَكُذْ نَفْعَلْ ذَلِكَ
حَتَّى انْخَلَعَ بَابُ الْبَيْتِ وَأَحْدَثَ سُقُوطَهُ دَوِيًّا مَرَعَبًا.

وَاخْتَلَطَتْ أَقْدَامٌ كَثِيرَةٌ عَلَى الْأَرْضِ، رَاحَتْ تَخْبِطُ بِسُرْعَةٍ فِي كُلِّ
اتِّجَاهٍ، كُنْتُ أَسْمَعُ صَوْتَ خَفَقَانِ قَلْبِي وَأَنَا لَا أَكَاذُ أُسْتَطِيعُ التَّنَفُّسَ.
سَحَبُوا أُمِّي إِلَى غُرْفَتِي، وَدَفَعُوا أَبِي مِنْ ظَهْرِهِ بِأَعْقَابِ الْبِنَادِقِ،
تَوَلَّى أَحَدُهُمْ تَكْبِيلَ يَدَيْهِ عَلَى مَا يَبْدُو، فِيمَا رَأَيْتُهُمْ قَدْ ضَرَبُوا أُمِّي
فَسَقَطَتْ عَلَى الْأَرْضِ، كَانُوا يَصْرُخُونَ وَيَشْتُمُونَ، وَبَعْدَ زَوْبَعَةٍ مِنَ
الْخَوْفِ وَالْهِيَاجِ، قَالَ أَحَدُهُمْ: "يَجِبُ تَطْهِيرُ هَذِهِ الْأَرْضِ مِنْكُمْ أَيُّهَا
الْقَذَرُونَ، نَحْنُ نَعْرِفُ كَيْفَ نَفْعَلُ ذَلِكَ".

أُمِّي كَانَتْ تَصْرُخُ: "خَذُونِي أَنَا، خَذُوا زَوْجِي، وَلَكِنْ اتْرَكُوا
الْطِّفْلَيْنِ". قَهَقَهُ أَحَدُهُمْ: "لَا تَقْلَقِي أَيُّهَا الْعَاه... كُلُّ شَيْءٍ سَيَكُونُ
عَلَى مَا يُرَامُ". لَوْ أَنَّهَا لَمْ تَقُلْ هَذِهِ الْعِبَارَةَ لَرَبَّمَا كُنَّا نَجُونًا، وَلَكِنْ مَنْ
يَرْبِطُ عَلَى قَلْبِ الْأُمِّ وَلِسَانَهَا؟!

وجه أحدهم فوهة بندقيته إلى رأس أبي، سَمِعَتْ سَخَبَ الأقسام،
فيما اقتربَ جندي آخر من أمي، وحدث ما لم يمكن أن أتوقعه أو
أنساه. نَزَعَ ثيابها بعنف، وأنزلَ بنطاله، واقتربَ منها، حتّى لاصَقَ
جسده الهائج كالقور جسدها المرتجف، وغامت بي الدنيا، وحاولت
أمي أن تقاومه، فضربها بحربة البندقية على مؤخرة رأسها فانثَعَبَ
الذم على شعرها الناعم، ونَزَّ خطوطًا، ثم التصقَ بها، وراح يترجرج
فوقها وهو يلهث، وهي تبكي وتستغيث، وأبي يصرخ: "الرحمة..
الرحمة... ماذا فعلنا لكم؟"، ولم يكن أحدٌ يسمع نداءات أبي، كانَ
يُشاهد زوجته تُغْتَصَبُ أمام عينيّه، ولَمَّا انتهى منها الجندي الأول،
سحبَ بنطاله إلى الأعلى، وهو يُطلق تنهيدةً طويلةً، ويقول للآخر:
"دورك". وَغَطِثَ عينيّ، وكادَتْ تندّ مني صرخةً لولا أنني عاجلثها
بكفي، ولم أستطع أن أستمرّ في النظر، فأشخت بوجهي إلى الجهة
الأخرى، وراح جسدي يرتعش، ومن هناك كنتُ أسمع أصوات كل من
في الغرفة، نخير الجنود، وحشرات أمي، وتوشلات أبي، ولا أدري
كم قرنا مز على ذلك، ولكن صوت أمي انخمد في النهاية مع آخر
نخيرٍ لآخر جندي، الذي أفرغَ فيها رصاصاته بأسرع مما أفرغَ فيها
قذاراته، وغرقت أمي بدمائها هائمة لا حراك فيها، مسلوبةً من كل
شيء، من الحياة، والشرف، والعدل، والحقيقة...

كان وجه أمي المُسَجى على أرضية الغرفة قُبالتي تمامًا، شعرت
أن عينيها تنظران نحوي مباشرةً، كانتا باردَتين ورجاجيتَين لا أثر
للحياة والضياء فيهما، كانتا تختصران وحشية الوجود، وحشية
الكائنات التي لا يُمكن أن تكون بشرًا. كانت عيناها جامدتين، وفيهما
ألف معنى يُقال ولا يُقال، وفي لحظات الوجد التي مَزَتْ كأنها قرون،

رأيت في تلكم العيَّين ألف سؤال وسؤال، وكان السؤال الذي رأيته أكثر من سواه: "لماذا؟" سترافقني نظرات أمي طوال حياتي، لا يمكن للإنسان أن يتخلص من نظرات أمه الأخيرة، النظرات التي تتحدث بألف لغة، اللغة التي لا يفهمها إلا من كان في موضعي في ذلك اليوم الكئيب الذابح.

ظل دم أمي بعد الطلقات الأخيرة يسيل في خطوط متعرجة، أخذ هذه الخطوط سأل باتجاهي، كنت أراه يتقدم نحوي ببطء كأنما يستأذني أن يحتضني حضناً أخيراً بعد أن غادرت الروح الجسد، وصل الدم في سيره البطيء حتى مس أنفي، شمفت رائحة لا توصف، رأيت في الزائحة ثلاث عشرة سنة هي كل حياتي في حياتها، كانت الزائحة تختصر عمري القصير في هذا الحظ وفي هذه الزائحة. الحياة أسرع من عقارب الساعة، العقارب بطيئة جداً مقارنة بها. الموت يأخذ الشهيق مع كل ثانية، ويرسل زفيره في الثانية التي بعدها.

سمعت أحدهم يسأل أبي: "أرأيت؟ أين بقية عائلتك أيها الجرذ؟". لم يتفوه أبي بشيء، سمعت صوت أقسام البندقية، يبدو أنهم سيقتلون أبي كذلك، صاح جندي آخر: "لا تفعل، إنه يمكن أن يكون مفيداً؟". ورغم صوت الجندي الآخر، إلا أن صلياً من الزشاش دوت في أرجاء الغرفة، وشعرث أن الجدار انهار، وقهقه الجندي صاحب الصلية، فيما قال صوت ثالث: "ابحث في الغرف".

تقدم بسطاران باتجاه السرير الذي أختبئ خلفه، راح بحربة البندقية يُثقب الفراش الذي فوقه، كانت الحربة تنفذ من خلال الفرشة

وتهبط نحوي، راح يطعن الفراش بقوة، نفذت واحدة من طعناته
إلي وانغرزت في ذراعي، صرخت: "آه...آه". واختصرت أهتي كل
شيء. قهقه الجندي، وقلب السرير، وأخرجني من تحته، فيما لم
يكن أبي موجودًا في الغرفة حين جذبني الجندي من ذراعي، مع
أنني رأيت رَشَقَات من الدم لا تزال تسيل على الجدار وتلظخه،
الجدار الذي تخيلت أنهم كانوا يُقيدون أبي إليه، كان دمي يسيل من
ذراعي ويلون كنزتي، ولم يصدر عني ما يدل على أنني أتألم أو أنني
جرحت، رأيت أمي ما تزال عيناها تنظران باثجاها، وهي مُسجاة
شبه عارية على الأرض، سكبني جندي إلى الخارج، فيما رأيت أختي
من خلال باب البيت تُدفع إلى سيارة عسكرية، ولم أر أبي ولا جثته،
وحين أرادوا أن يضعوني في السيارة التي وضعوا فيها أختي،
أمسك أحدهم برأسي ورفع به باثجاها، وراحت عيناها الذئبتان
الكحليتان تتمعنان في، وعلى وجهه الشمعي تظهر ابتسامة تفتز عن
زاوية فمه، وقلب وجهي يمنة ويسرة، وهتف: "كم عمرك يا جرو؟".
ولم أجب، وناذى على جندي آخر: "تعال"، فجاء، وكان لا يزال يمسك
بيديه الجاسيتين وجهي ويقلبه: "كم عمر هذا الولد يا ترى؟"، وحقق
الضربي في وهتف: "لا أدري، اسأله". لقد سأله ولكنه لا يجيب، يبدو
أن القطة ابتلعت لسانه، وأعاد الضربي التمعن في، وهتف: "يمكن
أن يكون سبع سنوات أو ثمانيا". ولم أقل شيئًا. وفرح الجندي: "إنه
مناسب، لن يصعد في السيارة، سيصعد في الشاحنة. إنهم يرحبون
بهذا النوع من الأولاد، يبدو ذكيًا، أليس كذلك؟". وولى الضربي ظهره
قائلًا بانزعاج: "إن القساوسة لن يهتموا بذكائه، ما دام غمرة مناسبًا".
ورأيتهم يدخلون المطبخ، فيأخذون كل ما فيه من طعام،

ويدخلون غرفة أبوي، فينبشونها نبشًا، ويسرقون ذهب أُمي وكل مُتعلقاتها، ثم سرقوا الثُلفان، والطاولات الصغيرة، ودخلوا إلى مكتبة أبي، فأهالوا الكتب على الأرض، وداشوا على المصحف الشريف، وخرقوا بالجِراب صَفَحَاتِه، ورأيت أحدهم يحمل فوق رأسه أريكة غرفة الجلوس، وآخر بعض الأواني الفضيّة الصغيرة، وساعة الحائط، وحقيبة أبي الجلديّة، وأشياء أخرى كثيرة.

ونزل في هذه اللّحظة من الشاحنة جندي لم يكن معهم في أوّل الأمر، وبيده (جالون) من الكاز، فرش ما فيه على الأرضيات، وتعمّد أن يزيّد صبّ الكاز على مكتبة أبي التي تضم كتبًا نادرة، ووثائق، وبعض المخطوطات القديمة، وأوقد شعله ورمها على المدخل فهبّث النّار، ثم اندلعت ألسنتها بسرعة وراحت تلتهم البيت بما فيه، وصرخت: "ماما...". ولم يرَ أبي - أو هكذا خيل إليّ - النّار التي ستأكل حبيبتيه؛ أُمي والمكتبة، ولم أستطع أن أصمد طويلاً، فسقطت، وتحركت الشاحنة، وأيقظتني ركلة من بُسطار أحد الجنود في بطني، فصحوث وأنا أتلوّى من الألم، وعاجله جندي آخر: "لا تضرب أحدًا من هؤلاء الأطفال، إنهم يريدونهم أسوياء". وتهادّت الشاحنة تسير في الطّريق، وتقف أمام كلّ بيت ربع ساعة أو أكثر قليلاً، وتفعل فيه ما فعلت ببيتنا.

ورأيت النّاس يهربون من البيوت كالنمل المذعور في كلّ اتجاه، يركضون دون أن يدروا إلى أين؟ كانوا يهربون من الموت فيتلقاهم الموت على يد عددٍ من القناصين المُتمركزين خلف الرّشاشات المُثبتة على السيّارات العسكريّة، كانوا يقنصونهم بلا رحمة وهم يتسلّون ويُقهقهون، ويتسابقون من يصبّد أكبر عددٍ منهم، ورأيت اللاّئذين

بالفرار يتساقطون ويتخبطون، ثم يقوم من نجا، أو أخطأه رصاصة ما، فلا يكاذ يركض بضعة أمتار حتى تأتيه طلقة في الرأس فيخز على أثرها بلا حراك.

ومشى رتل السيارات العسكرية في شوارع (فوتشا)، كنت أنا في الشاحنة، وكانوا يخرجون الأطفال الذين لم يدخلوا المدرسة بعد أو الذين لا تزيد أعمارهم فيما يبدو عن عشر سنوات، ويقذفون بهم إلينا، وتزايد عدد الأطفال، وكانت القرية كلها تحترق، البيوت ذات القرميد الأحمر، وأشجار الثوت والصنوبر، وشجيرات الورد، والحدائق الغناء، كانت كلها تحترق، وتخيلت منظر البشر الذين لم يسعفهم الحظ في الهرب من البيوت، وحاصرتهم النيران، وبدأت تتقدم نحوهم وكلما اقتربت منهم رجفوا من الدعر، ثم ها هي تنقض عليهم في لحظة خاطفة، فيشاهدون لحم وجوهم وهو يسقط على صدورهم، ويشقون رائحة شواء أجسادهم وهم ينتظرون موتًا قاسيًا لا يمكن أن تفر منه مهما حاولت. وتخيلت أنه يوم القيامة، وأن هؤلاء زبانية النار، وإلا فما معنى أن ينتشر الجحيم في كل بيت من بيوت القرية، ومز اليوم وأنا في الشاحنة، وجمعوا فيها أكثر من أربعين أو خمسين طفلًا، وخيل إلي أنهم أصدوا إلى ظهرها أطفال القرية كلهم. ولم أعرف أن في القرية هذا العدد من الأطفال، ولم يدز في خلدي أنني سألتقي بهم في ظرف لم يكن في الخيال ولا الحسبان، كان أكثرهم ممزق الثياب، زائغ النظرات، يجلس مقرضًا في قعر الشاحنة، وهو يمسح دموعه عن خديه، وكان معنا عدد من الطفلات، وفكرت أن أختي ستكون من بينهن، وفشت عنها بينهن، نظرت في عيونهن جميعًا فلم أجدها.

وأثناء تمشيّط الشوارع في القرية، كان يُمكن أن تشم رائحة الأجساد المُحرّقة، وأن تسمع أصوات الاستغاثات اليائسة التي تصدر من البيوت، وأن ترى النار تلتهم حتى القطط والكلاب، وكانت كُتل النيران تندفع من الثوافذ المُتجاورة كأنها تندفع من فم بركان، وتتراقص في العُرف كأنها تنانين تتميز من الغيظ، وكانت أسطوانات المنازل تنفجر جزاء اللهب فتتطاير الأبواب والخزائن والحدائد لِحدِّث فراغًا في الجدران، ورأيث من خلال وهج النار خيالات أجساد تتهاوى، وأيدي مُستجيرين تتعالى، وصرخات مُختلطة لم تكن لتعرف هل هي أصوات النار المُزمجرة أم أصوات المُحترقين المُتوشلة، وكان كل شيء يسقط، وتحول النهار إلى جحيم.

وكانت السيّارات العسكريّة تدوش على جُثث القتلى، وتهرش تحت عجالاتها الثّقيلة عظامهم، وكان بعضهم لا يزال حيًا، أو فيه رمق من حياة، وكان يرفع جذعه، ويمدّ يده كأنما يحاول الإمساك بخيط الحياة الرفيع، فلا يكاد يفعل ذلك حتى تسحقه العجلات المُجنزرة، فيختلط عظمه مع لحمه بتلك الجنازير، ولقد سمعت من أصواتهم الأخيرة ما ظللت أسمعه لسنوات البؤس التي يبدو أنها لن تنتهي، وأن هذه لم تكن إلا البداية.

ومررنا على جامع (ألدوا)، وقفزث إلى ذهني ذكرياتي الجميلة فيه، كان دوحة الأمان والرّضا، وموئل الأنس والسلام، كان أبي يأخذني إليه أيام الجُمُع، وأيام صلاة التراويح في رمضان، وكنت لا أزال أتذكر صوت الإمام (شريف) الذي كان يُرثل الآيات من سورة (الكهف) أو سورة (يس) أو سورة (ق) في عتمة الليل فأشعر بالزّوعة والجمال، كان المسجد قد قُصِف على ما يبدو بقذائف

المدفعية المتمركزة على التلال القريبة من نهر (درينا)، رأيت المئذنة مهذمة، نصفها الأعلى متناثرًا على الأرض، وعلى بوابة الجامع رأيت الإمام (شريف) وقد عَزَّوه من ثيابه كاملة، ولم أعرفه إلا من عمامته التي أبَقوها على رأسه، وقد شنقوه بسلسلة من الزرد تتدلى من سقف المدخل، وكان المسجد خلفه يحترق، والأدخنة تهرب من الثوافظ.

بقيت القرية تحت نيران المدفعية، ورشاشات القناصين، وجنازير الذبابات التي تجوش في الشوارع أكثر من أسبوعين، قتلوا كل من يدب على قدمين فيها، ولم ينج أحد، الرجال ذبحوا، والنساء اغتصبن، ومعظم الأطفال أخذوا معي في الشاحنة، أو في شاحنات أخرى في الأيام اللاحقة، وسمعتُ أحدَ الحرس الذين سعدوا معنا في بطن الشاحنة: "لن يبقى فيها أحد بحلول الأسبوع القادم"، فيرد عليه آخر: "يجب أن تعودَ لأهلها، يجب أن تعودَ لنا". "لقد احترقت بالكامل". "لقد تطهرت من رجسهم". "لا بُدَّ من أن تهدمَ البناء الفاسد من أجل أن تُقيم فوقه بناءً كَ الظاهر".

كان صوتُ نَشِيجِ الأطفال يُغْطي على ضجيج مُحركِ الشاحنة، وعلى أصواتِ القذائف، وعلى صياح جنود (التشيتنيك) أما أنا فكنتُ أبكي من دون دموع، ولم أكن أعرف أنني سأبكي بعد ذلك لآخر يوم في حياتي!

(3)

لماذا؟

أخذنا خارج (فوتشا)، لم يتوقف جسدي عن الارتجاف طوال الطريق، مشيت الشاحنة على ضفاف نهر (درينا) حتى هبط المساء، تركناها خلفنا تموت، وتغوص في الظلام الذي كانت تقطعه السنة الثيران المتراقصة فوق البيوت المهذمة والأجساد المتفحمة. لا يمكن لأي إنسان أن يستوعب ما حدث، كنت أريد أن أصرخ، أن أقول شيئاً، ولكن لساني لم يتحرك داخل فمي، ولم أستطع أن أحل فكّي اللذين كانا يطبقان على أسناني بشدة، وصمت صمّاً سيظل عُقدتي لسنوات الفجيعة القادمة. وماذا يمكن أن يقول المرء بعد أن يرى هذا كله؟ من أين تأتي الرغبة في الكلام؟! من الشعور. لقد داسوا على شعوري، وخنقوه بحيث لم يجذ فُسحة لأن يتنفس، ولا أن ينبس بحرف واحد.

ظلت السيارة تسير باتجاه الشمال، عرفت ذلك من الشمس التي كانت في ذلك اليوم تغرب عن يسارنا، وهي تودّع يوماً داميّاً، وترسل أشعتها الكسلى على صفحات الماء المنسابة بهدوء كأنها غير معنيّة بما يحدث لنا، فيما ظلّ نهر (درينا) يُرافِقنا طوال مسيرنا. في الشاحنة لم أعرف أحداً من الأطفال، كانوا جميعاً غرباء بالنسبة لي، وكلّما تحدّث أحدهم مع رفيق له يعرفه أسكته الحرس بصوت غليظ يحمل شتيمةً بذيئة، كان يحرسنا ثلاثة توزّعوا على أطراف الشاحنة التي طولها حوالي عشرة أمتار، وعرضها أربعة أمتار تقريباً.

لا أدري إن كنا قد بثنا ليلتنا الأولى في شمال (فوتشا) أم مضينا

أبعدَ من ذلك، ذلك أنَّ النهر لم يغب عن ناظري، وإن تبدلت المناظر حوله، وتغيرت طبيعة الجبال قليلاً، وتعزج هو في طريقه كأنما يُراقض النائحين على ضفتيه. غير أنه من المؤكد أننا دخلنا منطقةً محمية، بعيدةً عن القصف، ذلك أنَّ هدير المدافع، وأزيز الرصاص كانا قد خففاً في آخر ربع ساعة بشكل ملحوظ.

دخلت الشاحنة من بوابة كبيرة يقف عندها عددٌ من الجنود المُدججين بالأسلحة، واستقرت في ساحةٍ واسعةٍ أمام مبني كبير، كان المبنى قديماً، أخذاً في الطول، يتكوّن من طابقين، وزجاج نوافذه ملوّناً تتمايل خلفه أشباح قاطنيه، وأمام مدخله الحجري على هيئة مثلث بين عمودين من الزخام أسطوانيين ترتفع سارية عليها علم، عرفت أنه علم (صربيا)، "مؤكد أننا ما زلنا في بلادنا"، همست لنفسي، قبل أن أردف: "نحن لم نبتعد كثيراً على تقديري، وما دام النهر موجوداً فنحن لم نخرج من البوسنة".

نزل الحرس الثلاثة من بطن الشاحنة، ونزل معهم السائق العسكري والذي يرافقه، وتوجه الخمسة إلى داخل المبنى، فيما تولى جنديان جديان حراسة الشاحنة، كانت تتناهى إلى مسامعنا أصوات غناء وهياج من داخل المبنى، وكانت حركة الجنود سريعة، ولا تتوقف.

ومن هنا كان لا يزال بإمكانني أن أرى نهر (درينا) ينساب هادئاً، ولا يفصلُ بيننا غير سياج هذا المبنى الذي يكشف كل شيء، ومسافة لا تزيد عن عشرة أمتار، ويبدو أن المكان قد ضُفم لكي يكون مُنتجعاً، أو مقراً للترفيه، لا أدري. كان هادئاً من القصف الذي ظل يقرع جمجمتي، ويخطف بصري مذ ظهيرة هذا اليوم.

غربت الشمس تمامًا، وفكرت أن أنام، ولكن هيهات، كيف ينام من رأى ما رأى؟ أقعيت على أرضية الشاحنة، وأسندت ظهري على أحد جوانبها، ورحت أنظر في وجوه الأطفال الذين لم يجمعني بهم من قبل جامع. كانوا مثلي تمامًا، منحورين في أعماقهم، مذبحين في أحزانهم، ييكون بصمت، ولا يدرون ما الذي حدث. وسرخت قليلاً أفكر فيما حدث قبل أن ثوقظني صيحات بعض الجنود، وصوت البوابة الكبيرة التي فُتحت، ودمدمة عجالات ترج الأرض. كانت هذه دمدمة شاحنة جديدة مُحملة بالأطفال، ظلت تسير حتى ركنها السائق إلى جانب شاحنتنا، ونزل منها خمسة جنود آخرون، وغابوا من بوابة المبنى قبل أن يتبادلوا صيحات تسي بالفرح مع حارسين جديدين وقفا متأهبين على جانب الشاحنة الأبعد.

وسرى سكون الليل في الأرجاء، وبعد فترة انقطع الصوت القادم من المبنى، ولا أدري إن كانوا قد توقفوا عن احتفالهم أم أن الأبواب المغلقة أوقفت هدير الأصوات تلك. ومضت ساعة ثم اثنتان والليل صامت، ولم نعد نسمع شيئاً باستثناء أصوات مدافع بعيدة تنطلق قذائفها من حين لآخر، ووقفت على قدمي، ومشيت عليهما بصعوبة إلى أول شاحنتنا، واختلشت النظر إلى الخراس، فرأيتهم قد اقتعدوا الأرض، ووضع كل واحد بندقيته في حجره، وغشيهم النعاس، فذهبوا - كما يبدو - في نوم عميق، وفكرت في الهرب لحظتها، ونظرت إلى البوابة الخارجية الكبيرة فرأيته موصدة، ورأيت ثلاثة خراس يتمشون عندها وهم يقبضون على كعوب بنادقهم، وقلت في نفسي: "من حماقة أن أهرب من هناك"، وأرسلت نظرة أخرى إلى السياج فرأيت أشجاراً متباعدة لا يزيد طولها عن مترين تنتشر على

حدوده، وهو مُسيّجٌ بالأسلاك الشائكة، وقلتُ: "إنني قادرٌ على القفز،
يُمكن أن أتسلق أية شجرة وأرمي نفسي خارج السياج"، وتحققتُ
بشدة للهرب، ورأيتُ نفسي أفعل ذلك حقًا، ولكنني تخيلتُ أن أحدَ
الحُرَّاس انتبه، فأطلقَ عَلَيَّ رصاصةً في ظهري كما فعلوا ظهيرة
هذا اليوم مع البشر الهاربين من البيوت كالثمل المذعور، فأخزَ على
وجهي ميتًا مثلهم. وعدتُ عن ذلك، وفكرتُ مرةً أخرى أنه يُمكن أن
أمرَ عبر الأسلاك الشائكة، فجسدي نحيلٌ، ولكن ماذا لو كان مُكهربًا،
سأرتعش مثل عصفورٍ مذبوح وأعلقُ هناك، سأبدو مثلَ ذبابة ضِيعت
صعقًا، وشعزتُ بالضعة حقًا تسري في جسدي، فانتفضتُ، وهمستُ
في أعماقي: "إنها ميتةٌ شنيعة"، وأرسلتُ نظرةً ثالثةً بالاتجاه المقابل
لسياج الشجيرات، فرأيتُ جدارًا عاليًا أملس، لا يُمكنني أن أتسلقه،
فَحَقَّتْ حماسي، ثم انطفأ ذلك الحماس تمامًا حينَ قتلته بسؤال
جارج: "وافرضُ أنني تمكّنتُ من الهرب، فإلى أينَ أهرب؟". وشعزتُ
أنني تعبتُ من طرح الأسئلة على نفسي، وأنا أكره ذلك، فقررتُ أن
أستسلم هذه الليلة، وأرى ماذا يُمكن أن يحدثَ في الصباح، ثم إنني
فكرتُ في أن أرى ما خلف الشجيرات التي من جهة البوابة عن يمين
الخارج منها، فتسلقتُ جانب الشاحنة، وأرسلتُ نظرةً جهة الجنوب،
ولم يكن فيه غير الظلام، الظلام الذي كان يهربُ أمام حرائق ثرى من
بُعد بضعة كيلومترات، وقدزتُ أنها (فوتشا)، وأنها ما تزال تحترقُ
إلى الآن!

وبحثتُ لي عن مكانٍ في زحمة الأطفال الذين انهار بعضهم من
التعب، ونامَ آخرون وهم يتكفرون على أنفسهم كالجنيين في بطن
أمه، لافين أذرعهم على وجوههم، ثم إنني عثرتُ على جزءٍ عزيزٍ من

المساحة الممتلئة، فنفت فيه مثل البقية.

أيقظنا صياح الجنود، لم تكن الشمس قد أشرقت خلف الجدار الأملس، وكان الليل يحاول أن يلملم أذيال ثيابه التي نشرها على الأرض، سامحاً لبعض الثور أن يأخذ مكانه في دوره المُتفق عليه مُسبقاً بينهما، كأنهما لاعبان يؤدي كل واحد منهما مهمته دون أن يجور على وقت الآخر، وصاح الجنود بنشيد لم أتبينه، ولكنه كان نشيداً حماسياً، ونغمة الكلمات تشي بذلك، ووقفت على قدمي، لأرى حناجر الجنود تنشق صائحةً بالنشيد الذي يحفظونه عن ظهر قلب، وفي التفتاة عابرة اكتشفت أن هناك شاحنةً ثالثة، كانت مُحملة بالرجال، يبدو أنهم جاؤوا بها إلى هنا بعد منتصف الليل، وبنظرة فاحصة، قُدرت عددهم بعشرين أو خمسة وعشرين رجلاً، وقد كانوا واقفين منكوشي الرؤوس، معصوبي الأعين، مُقيدي الأيدي إلى الخلف. ورأيت فيهم من شاب شعره وانحنى جذعه، وتقوس ظهره.

وخرج من بوابة المبنى ضابط يبدو أنه قائدهم، لأنهم أدوا له التحية، وتوجه إلى أول واحد في مجموعة الجنود وأصدر له أمراً، وفي الحال ركب خمسة منهم في الشاحنة، وتحركت في لحظات خارجة من الباب، وتابعتها بعيني، فرأيته تنفلت بعد أن خرجت من البوابة الخارجية جهة اليمين، وسارت تتهادى بحمولتها إلى النهر، ووقفت غير بعيد عنا، وبسرعة أنزل الخراس الرجال، وفكوا العصاة عن أعينهم جميعاً وأبقوا على أيديهم المُكبلة، ثم أمروا أن يصطفوا صفًا طوليًا، وتحفز اثنان من الخراس في المقدمة، ورأيتهما قد أضجعا الرجل الأول، ثم أمالوا عُنقه باتجاهنا، فصار وجهه في وجوهنا، وأخرج أحدهما سكيناً كبيرة لمعت على ضوء

الشمس، وشدَّ يُمناه شعر الرّجل إلى الورااء فبرزت ثُفّاحة عنقه، ثمّ بحركة مدروسة ذَبَحَه، وفي الحال خارَ، ورشّقت عنقه المذبوحة الدّم كنافورة صغيرة، وسمعت حشرة روحه وهي تخرج، ورجلاه وهما تتخبطان، وجذعه وهو يتلوى كالسمكة التي أخرجت للثو من الماء، وبقي الجندي الذي ذبحه جاثيًا عليه، حتّى صَفى دَمَه من أوداجه وحلقومه، ثمّ مسح سِكينه ب صدره المذبوح، وأكمل جَزَ عنقه حتّى كسر عظام الرّقبة، واستلّ رأسه ثمّ وقف ورفعها عاليًا، وأمال جذعه إلى الورااء، وقذفها بِقُوّة إلى النهر. حدث ذلك كلّه في أقلّ من دقيقتين، ولم أتمالك نفسي، ودارت بي الأرض، وقبل أن أسقط، أمسكت بجدار الشاحنة، وانتشر البكاء والعيول بين الأطفال، وضّجت حركاتهم، وماج بعضنا في بعض، وتحفّز الحرس فأطلقوا صلّيات من رشاشاتهم فانخرست أصواتنا، وتحولت إلى نسيج مكتوم.

ورأى صفّ الرّجال ما حلّ بأول واحد منهم، فسقط بعضهم على الأرض من الخوف، وجاء اثنان من الحرس فحَمَلا الجسد المقطوع الرأس، ورَمَيا الجُثة في النهر، وراحت تغرق ببطء مُحدِثَةً حولها فقايع ثَبِقِيق، وانطبعت أصواتها على جدار جمجمتي. ثمّ حان دور الثاني، ففعلوا به ما فعلوا بالأول، وألقوا جثته كذلك في النهر، ولم أصدّق ما أرى، وظننت أنّه كابوس أراه في منامي تَسبَّبَ به ما مررت به يومَ أمس، ولكنّ نسيج الأطفال المَكتوم، وصيحات الجنود التي تأمر الرّجال بالتقدّم للذّبح، وفقايع الماء التي ثَبِقِيق مع كلّ جثة تُلقَى أخلفت ظنّي، وأكّدت لي أنّي لا أحلم، وأنّ هذا ليس كابوسًا، بل حقيقة لم تكن لتخطر لي على بال.

وبعد أن ذبحوا ما يقرب من عشر جثث، طفت بعض هذه الجثث على سطح النهر، فرأيت أحد الجنود يتقدم باتجاه الذباح فيوجه إليه كلامًا لا أدري ما هو، ورأيتُه يهز رأسه موافقًا، ويطلب من زميل آخر له على ما يبدو أن يخرج سكينه، وفعل، وصاروا يذبحون الرجال مثل الخراف، وينحرونهم كالشياه، ثم ينبقرون بطونهم قبل أن يلقوا بهم إلى النهر. ولم تعد الجثث تطفو بعد ذلك.

ورأيتهم يوقظون الرجال الذين أغمي عليهم بحراب بنادقهم، فإذا لم يستيقظوا، جزّوهم من أذرعهم، وفعلوا بهم ما فعلوا بمن سبقهم، ولما لم يتبق إلا خمسة من الرجال، تعب الذباح، فأراد أن يرتاح، فتقدم جندي آخر ليكمل المهمة عنه، فنهزه، ومسح العرق عن جبينه، وصرخ بشتائم وصلت إلى مسامعنا، ثم راح يرشم الصليب على أجساد المتبقين، قبل أن يجزّ أعناقهم، ويلقي بهم إلى النهر، ولما أكمل المهمة، تقدم إليه الحرس الآخرون، فعانقوه، وشدوا على يده، وربتوا على كتفه، وتبادلوا معه صيحات الفرح بإنجاز المهمة، ثم قفزوا إلى بطن الشاحنة، وعادّث بهم إلى ساحة المبنى، ونزل الجنود منها، وتلقاهم الآخرون على البوابة الداخلية مهتئين، ومن خلف البوابات سمعنا أصوات غنائهم ورقصهم تهذّر في الفضاء!!

وقفزت إلى ذهني فكرة الهرب ثانية، وأردت أن أتوجه إلى أول الشاحنة، وأقفز، وأجري بكل ما أملك من طاقة نحو البوابة الخارجية، وحدثت نفسي: "لو أنهم أطلقوا عليّ الرصاص، فعلى الأغلب سأخز صريعًا، ولكن ستكون لدي فرصة للنجاة ولو كانت ضئيلة، وهي إلى ذلك أفضل بكثير من أن أرى منظرًا كهذا مرة أخرى. وأردت أن أفعل ذلك، لكن جسدي كان يرتعش مثل جناح بعوضة،

وضربت بكفي على بطني كي أهدئ قرقرتة، ولكنه لم يهدأ، واستمر جسدي بالارتعاش من أعلى رأسي إلى أخمص قدمي، وحركت ساقي لكي أقف عليهما، ولكنهما خانتاني، وحاولت ثانية، ولكنني لم أستطع أن أحركهما بوصة واحدة، وصرخت بهما: "هيا، لا تخذلاني"، ولكنهما كانتا أشبه بساقين من قش.

استسلفت لضعفي، وانهزت مثل جدي مولود للتو، ولم يعذ يتحرك في شيء لحظتها، حتى عيناى تسمرتاً في محجريهما، ولم أستطع أن أديرهما إلى أية جهة، وغرقت في التساؤلات التي لم أكن أحب أن أسألها لنفسي، وماتت أسئلتي مع الوقت، ولم يبق منها غير سؤال يتيم: "لماذا؟".

(4)

هل سمعتم نهرًا يبكي؟!

صحوث في الليل مَفزوعًا أكثر من أربع مَرَّات، كنت في كل مرة أرشح عرقًا، وأشعر بالعطش ولا ماء. رأيت في تلك الليلة كوابيس بعد الذين ذبحوا، كنت أرى رؤوسًا تتدحرج، وأخرى وهي مجزوة تفرق في الضحك، ورأيتني أحمل رأسًا مقطوعًا في أحد هذه الكوابيس، وأطوف به على الأطفال النائمين في الشاحنة، وأوقظ كل واحد منهم لأسأله: "هل هذا الرأس لك؟". ظفت عليهم واحدًا واحدًا، وكان كل ولد أسأله يُصاب بالذعر حين يستيقظ ويرى ما في يدي، وتجحظ عيناه، فأقول له: "لا تخف، لا بُدَّ أن نعر في النهاية على صاحب هذا الرأس المقطوع". ثم صار عدد من الأولاد إذا رأوا الرأس يصرخون، فتخرج من أفواههم أفاع كثيرة تفخ فحيحًا مُخيفًا، فإذا كفوا عن الصراخ، اختفت الأفاعي مع أصواتها كأنما ابتلعوها.

وتمنيث أن يأتي الصباح سريعًا حتى أتخلص من هذه الكوابيس، ولكنَّ الليل كان بطيئًا إلى الحدِّ الذي تخيلت فيه أنه مرَّ عليه شهر كامل، كلَّه ليالٍ من دون نهارات، وشعرْتُ أنه إذا لم تشرق الشمس فإنني هالك لا محالة. وفي لحظة يائسة قبل أن يجزني الموت والليل إليه، بزغت الشمس، فأجلت موتي إلى حين.

ليت القرية تتذكر ما حلَّ بها، لعلها ستقول ما لم أقله، إنها كارثة، ولكنَّ الكارثة التي ثرى غير التي تُقال. كان في القرية أشجار شاهدة على التاريخ، ولا أظنُّ أنها بعد أسبوعين من الحريق الثام ظلَّ فيها

ما ينطق.

مسجد (علائية) الذي قال لي أبي إنه مَرَّ على بناءه حوالي خمسة قرون، تدحرجت حجارته على الثراب مثل تدحرج الزُّؤوس، وكما لا يُمكن أن يعود الرأس إلى الجسد بعد أن يتدحرج، كذلك لا يُمكن أن تعود الحجارة إلى البناء بعد أن تُهدم، لقد كان لكل حجرٍ مكانٌ معروف، والآن مَنْ يعرف أين يُمكن أن توضع الحجارة من جديد، إنهم مهما حاولوا فلن يقدرُوا على ذلك. ولكنَّ هناك عِزاءٌ من نوعٍ ما، إنه عِزائي أنا، أرى أنني لو خرجتُ من هذه الحربِ حيًّا فسأعودُ إلى حجارته المُهدَّمة، وأسألها حَجْرًا حَجْرًا عن الموضع الذي كان فيه، في أية زاوية، وعند أي قنطرة، وفوق أي عقد، وتحت أي سَقف، وإن لم تُخبرني بلسانها، فإنني أعتقد أنني قادرٌ على أن أقرأ التاريخ على كل حجر، سيكون مكتوبًا، كل حجرٍ نُحِتَ من أجل هذا البناء العظيم نُحِتَ معه قِصته، القصص المنحوتة لا تموت أيها الناس.

بعض القصص لا يُمكن أن تفتأها الأيدي الغادرة مهما بلغت من قُوَّة أو جبروت، (فوتشا) لا تنتمي إلى الناس، الناس ينتمون إليها، ولئن قالوا إنَّ البشر هم روح المدينة، فإنَّ (فوتشا) هي روح البشر، إنَّها المدينة التي مرَّت بها خيول (محمَّد الفاتح)، أنا قرأت ذلك في مكتبة أبي، المدارس لا تُعلِّمنا ذلك، ولا تذكره ألبَّة، لقد تخيلتُ وأنا أمشي في الشوارع أنَّ هذا البطل مرَّ من هنا، ووقفَ عند تلك الزاوية، وجرى بِخَيْله في ذلك المضمار، وصعدَ على تلك الهضبة، وأرسلَ نظرةً حالِمةً إلى الجبلين والنَّهر، وصاح: "إنَّ (فوتشا) جميلة"، فصارت بعدها كما قال، وأناخ تحت تلك السنديانة، وربطَ حصانه الأشهب إليها، ثم نامَ في الظلِّ. وحلَمَ أن مسيحياً جاءه في

المنام، وَهَزَّه من كَتِفِه برفق: "استيقظ يا سيدي، لي عندك حاجة"، فاستيقظ، فإذا به أمامه، فقال له المسيحي: "أرجوك يا سيدي، اترك لنا أحياءنا القمانيّة ودع لنا ربنا الذي نؤمن به نعبّده على طريقتنا"، فقال له الفاتح: "لك ذلك". قال: "وكنائسنا؟". قل: "لن يمّسها أحد بسوء". فانطلق يجري من الفرّح.

ولما استوعب (الفاتح) ما طُلب منه، شَعَرَ أَنَّهُ كان يجب أن يكونَ كريماً مع المسيحي أكثرَ من ذلك، فناداه، ولكنّه كان قد غاب في الأجمة، فقَرَّر من يومها أن يفتح سوقين للطعام الخيري، واحدة للمسلمين وأخرى للمسيحيين يأكلون كلّما جاعوا دون مقابل.

وتحسّنت بطني وأنا أسترجع في ذاكرتي ذلك كلّهُ، فشعرتُ بالجوع، ولم أجذ ما أشدّ به رمقي، لا أنا، ولا العشرات من الأطفال المحبوسين في هذه الشاحنة، وتلك المركونة بجانبنا، وعندما حلّ المساء، قبل أن تُظلمَ بقليل، سمعنا جلبة، فتح حارّش باب الشاحنة التّصفي ودلّاه إلى الأسفل، وركّزَ رجله على الموضع الذي هُيئَ لتضع قدمك عليه في منتصف الباب الدّلى، ثم قفز بسلة كبيرة من القش فيها خبز، فأعطى كلّ واحدٍ منّا رغيّاً.

ورفعت رغيّفي إلى فمي، وقضفت منه مقدار لقمة، فمضغّتها، ولكنّها استعصت في حلقي، ولم أقدر على ابتلاعها، وخطرث أختي (سلمى) ببالي، أين ذهبوا بها يا ثرى؟ أما زالت على قيد الحياة أم أنهم قتلوها؟ كيف تتدبّر أمرها، إنّها لا تعرف من العالم شيئاً، ومنّ منّا يعرف؟ لقد تغيّرت أحوالنا بين عشيّة وضحاها، كنث أجهل ما يجري في الخفاء، كان عالمي محصوراً بين المدرسة والبيت، ونادراً ما كنث

أخرج في نزهة، باستثناء مرّات قليلة، كانت برفقة العائلة، والدرس الأسبوعي الزّاتب في مسجد الشيخ (شريف)، لا أصدقاء ألعب معهم، ولا حياة خارج حوش البيت أو خارج جذران مكتبة أبي، وتذكّراتها، ورأيث الكتّاب تهوي وهي تحترق، وذُخان كلماتها يملأ الغرفة، ورأيث جسد أُمّي وهو يتفحّم شيئًا فشيئًا، ويسودّ كلّ شيء فيه عدا عينيها، وظلّت عيناها تنظران نحوي منذ ذلك اليوم، وها أنا أراها تطلّع لي في كلّ حين.

وناديت: "سلمى... ياااا سلمى". ولم يسمغني أحد، لم يكن لي صوت، كيف أن يكون لمثلي صوت؟! كان صوتي يُحاول التّحليق مثل طائر ذبيح في فضاء جمجمتي، كان صوتًا لا يسمعه سِواي، إنّه الصوت الذي يتشكّل من غير شفاه، ومن غير أن يتحرّك به لسان.

وجاؤوا لنا في الأيام الثّالية، بقطعة صغيرة من الجبن اليابس مع رغيف الخبز، وساعدني الملح الذي في الجبنة على أن أظل بوعيي في المرّات التي كادَ فيها الإغماء يقضي عَلَيّ، وتذكّرت دُرسنا الأخير مع الشيخ (شريف)، كان الأهالي يأتون بأولادهم إليه من كلّ ناحية من نواحي (فوتشا)، حدّثنا ذلك الأسبوع عن الجنّة، وأنّ الله أَعَدّها للمؤمنين الصّابرين، وفيها كلّ ما يشتهيهِ الإنسان ويتمناه، وأنّ الأطفال سوف يدخلونها من دون أن يحاسبهم الله على شيء، ورفع (مفيد) أحد الأولاد الذين بدّث أجسادهم بسبب الجوع ناحلة كأنّها عصا مكنسة مستورة بتياب خفيفة، وأشار إليه الشيخ: "هاه، قل يا مفيد، ماذا تريد أن تسأل؟"، ووقف مفيد وقال وهو يضع يديه خلف ظهره: "يا شيخ شريف هل في الجنّة كلّ شيء؟" ثمّ خفض رأسه خجلًا. فردّ الشيخ مُوَكِّدًا: "كلّ شيء يا مفيد، نعم كلّ شيء". ودون

أن يرفع مُفيدَ رأسه هذه المرة سألَه: "ولكن... هل في الجنة بطاطا؟".
ووجم الشيخ، وطال وجوهه، ورأى عينيّه تدمعان، ولم يستطع أن
يجيب.

وذهبوا بدفعةٍ جديدةٍ إلى النهر، أكبر من الأولى، وأضجعوهم
على ظهورهم وأيديهم مُكبلة خلفهم، وجثا الجنود على بطونهم،
وراحت السكّين تغوص في الأعناق كأنها تغوص في الزبد، وتفرطت
الأقدام، وصوت الحشرات كان مسموعًا من هنا، ثم الفقاقيع، ثم
بطء تغوص الجثث في النهر.

ومرّت ساعةٌ ثم اثنتان، وصاح أحدهم: "سوف تغرب الشمس
قبل أن ننتهي من هذه القاذورات، وأنا تعبث". فردّ الذي في يده
السكّين: "أنت ماذا تفعل حتى تقول إنك تعبث، أنا الذي أقوم بالمهمة
الأصعب لم أتعب. هيا هات الآخرين". وتدخل القائد لصالح المُتعبين
المساكين: "معه حق، لقد تأخرنا، لدينا مهمات أخرى". "وماذا تقترح
إذا؟". "كم تبقى؟". "ثلاثة عشر قاذورة". "أوقفهم على شكل صف في
مواجهة النهر". "حاضر يا سيدي". ومن الخلف تولى القائد إطلاق
الرصاص بنفسه من مُسدسه الخاص. وسقط الأول، ثم الفقاقيع، ثم
الجثة وهي تغوص ببطء، وسقط الثاني، ثم الفقاقيع، ثم الجثة وهي
تغوص ببطء. ثم لم يسقط الخامس، وصرخ أحدهم: "إنه لم يمّث".
فردّ القائد: "هذا اذبحه". ثم لم يسقط الثاني عشر، وصرخ: "إنه لم
يمّث، أطلق عليه رصاصةً أخرى يا سيدي". "إنه لا يُساوي رصاصتين،
خسارة فيه الرصاصة الثانية". "وماذا نفعل؟". "اسحبه إلى النهر
وألقه". "ولكنه لم يمّث". "قلّث لك، ألقه أيها الجبان". وسقطوا، ولم
يبق أحد، عبروا جميعًا قنطرتهم الموعودة. وشعر القائد بأن مهمة

اليوم كانت صعبة، وقال لجنوده: "لقد تعبتم بحق، لا تقلقوا سوف أكافئكم بمزيد من الشمبانيا".

وتلبدت السماء بالغيوم. كانت سوداء، تركض في الفضاء كالمجنونة، وارتسمت على هيئة غيلان، وراحت تأكل نفسها وهي تجري، تبلغ وتقيء، وتتشكل غولاً مرة أخرى وتجري، وأصابني الزعب، ورحت أهذي، هذه ليست (فوتشا)، هذا ليس (درينا)، ورأيث غولاً أسوداً من غيلان الغيوم يهبظ علينا في الشاحنة، ونظر بعينيه اللتين تلتهبان كجمرتين، وتفحص الأطفال، ولف عدداً منهم، وأكلهم، ثم شكّل نفسه ثانية وصعد إلى السماء، ولم يأخذني معهم، وفي الصباح كان سبعة أطفال قد ماتوا، ولما علّم القائد ذلك، صرّخ بالخزاس: "كيف مات هؤلاء؟ ألم أقل لكم يجب أن يبقوا أحياء". ورّد أحد الحرس: "لقد كانوا يأكلون الجبن المالح والخبز، لا ندري لماذا ماتوا!". "غير ممكن، يجب أن نوصلهم إلى (بلغراد) أحياء أيها البلهاء، هذه أوامر غليا، ماذا سأقول للقادة الذين ينتظرونهم هناك على الحدود؟!". "لا تقلق يا سيدي، يمكننا أن نأتي بالمزيد من الأطفال إن شئت". "من أين أيها الأبله؟". "من فوتشا يا سيدي". "لم يبق فيها طفل حي، ولا حتى كلب". "من القرى الأخرى". "إذا هيا، لا ترجعوا إلّي إلا ومعكم الأطفال". ولم يمرّ اليوم بالفعل حتى جاء الضرب بعشرة أطفال بدلاً من الخمسة الذين ماتوا، ولا أحد يعرف حتى الشيطان من أين جاؤوا بهم؟!

كان جلدي مُعلّقاً على كومة من العظام، نحن الذين كنّا نعدّ أنفسنا محظوظين بالإبقاء على حياتنا تحوّلنا إلى هياكل عظمية، الخبز لا يكفي، والماء لم يكن لأحد أن يشرب في اليوم أكثر من نصف كأس،

ونحن هنا في بطن الشاحتين محشورون مثل الأغنام، وليتنا كنا
أغنامًا تجذُّ علفًا تقتات عليه، ولكنا كنا نقتات على الخوف والانتظار.
اثسخت ملابسنا بسبب نومنا على رؤث الحيوانات التي كانت تحقل
في هذه الشاحنة، ولم نكن نملك إلا ما نلبس من يوم أن جاؤوا بنا
إلى هنا، وتقشّر جلدنا، وتقفّعث أصابعنا، ونما الجرب مثلما ينمو عفث
المستنقعات على بطوننا وظهورنا، وتلبّث شغور رؤوسنا واثسخت،
وسرخت فيها ذويبات لا ثرى لكثها تنهش في جلدة الرأس فثسبب
حكة شديدة. وكانوا لا يُنزلوننا من الشاحنة لقضاء الحاجة إلا كل
يومين مرّة، وكان بيننا أطفال لا يصبرون، فيبولون في ثيابهم،
وصارث رائحتنا لا تُطاق.

وفكّرت في إنشاء علاقة مع عددٍ من الذين ألقاسم معهم الشاحنة،
ورُخت أنظر في وجوههم، وأستطلعها لعليّ أجد صديقًا، واخترت
أن أبدأ الحديث مع أحدهم، اقتربت منه، كان يُقعي وهو يحرك
إصبعه على أرض الشاحنة ويرسم به دوائر، قلث: "هيه أنت؟". ولم
يلتفت نحوي، وهزّزته من كتفه، فظلّ خافضًا رأسه مُواصلًا حركة
إصبعه الدائريّة: "ماذا ترسم؟". ولم يُجب. ومدّث كفي نحوه لأسلم
عليه فلم يُعزني أيّ اهتمام، ورفعت صوتي مُحييًّا: "مرحبًا، أنا حارث،
ما اسمك؟". ولم ينبس بحرف. قبضت كفي، وتراجعت، وهمست في
نفسي: "لقد كنت فاشلاً في تكوين الصداقات من قبل، فلن أنجح
الآن".

هل سثفيق أمي من نومها الأبدي؟! هل مرّ رجل طيب من بعد على
بيتنا، فرأى جسد أمي العاري المتفحم، فرّق قلبه لها، فحفر لها قبرًا
ووارى جثمانها فيه؟! أتمنى لو أن ذلك حدث، سأرتاح على الأقل من

نُظراتها التي لا تزال تلاحقني في كل حين. هل يمكن أن تكون قِطَتي
قد عادت إلى البيت؟! ثم لَمَّا لم تَجِدني تَبَعَتْ رائحتي، أمعقُولُ أنني
سأفِيقُ ذاتَ صباحٍ وأجْذها في حضني، إنها لم تمت، القطط بسبعة
أرواح، لقد غابَتْ لأيامٍ فقط، وستعود، لكنْ أُمِّي قالتْ إنها لن تعود،
وأُمِّي لم تكذب عليّ مرّة واحدة.

واستعذتْ صوتَ (سلمى) في ذلك اليوم: "هل يُمكن أن أَلْعَبَ
بالْكَرّة معكِ؟!". "الْكَرّة لي". "أعرف ولكنّ الجنيّة واسعة، ويُمكن
أن نلعبَ فيها معًا". "الْكَرّة للزّجال، البنات لا يلعبن الْكَرّة، اذهبي إلى
غرفتك والعبي فيها كما تشائين". "أنت لا تُحبّني".

مرّ شهرٌ آخر، تَكَرَّرَتِ الأيَّامُ، وتَكَرَّرَتِ الرُّؤوسُ التي تتدحرج،
والزّصاصات التي تُطَلِّقُ على الرأس من الخلف، وصوت الحشرات
الأخيرة، والأقدام المُتخابِطة، وخيوط الدّم التي تسيل حتّى تصب
في النّهر، وفي اللّيل كان النّهر يبكي. هل سمعْتُم من قبلْ نَهْزًا يبكي؟!

(5)

الحربُ تُشوّه كلَّ شيء!

شيءٌ ما يحدث. الحوادثُ غَرَبَةٌ بلا عيون؛ تسير دون أن تُرى وتدهش كلَّ مَنْ في طريقها. كلُّ لحظةٍ آتيةٌ بغتة. كلُّ سلامةٍ غنيمة. كلُّ يومٍ إضافي من حياتنا المسلوبة عذاب أو راحة، نعمة أو نقمة، ولا أحدٌ يستطيع أن يُحدّد أيّهما هو على وجه الدقّة. ربّما أكون أحسنَ حُظًا من أُمِّي التي رحلت بأبشعِ صورةٍ لأنني ما زلتُ حيًّا، ولكن كيف يعيش مَنْ ماتت أمُّه؟! ربّما تكونُ هي أحسنَ حُظًا مِنِّي؛ لأنّها ارتاحت من كلِّ هذه الآلام. الحُظُّ لا سَعْدٌ ولا نَحْسٌ، أو هو كلاهما. كلُّ ما تريده رَهْنُ المشيئة الإلهية. ليس لك من الأمر شيء. أنتَ لستَ أكْثرَ من نُعْارةٍ في مهبِّ الرّيح. ورقةٌ يابسةٌ في عاصفة. قطرةٌ ذائبةٌ في محيط، ثم بعدَ هذا كلّه تزعمُ أنّك تعرفُ شيئًا! أحمق. أحمق. أيُّ أحمقٍ أنتَ؟!

في اليوم الأخير أتوا لنا بِقطعةٍ مَشْوِيَةٍ من اللحم، وكأسٍ كبيرةٍ من الحليب، وخبزٍ ساخنٍ، وماءٍ بارد. أكلنا بشراهةٍ كجائعٍ في كهفٍ انقطع عن العالم. وسالت خيوط بيضاء من زوايا أفواهنا، ولعقنا شفاهنا، ومسخنا أصابعنا. وشعرنا بحرارة الخبزِ في أمعائنا. أيُّ نعمةٍ نحن فيها؟!

صاح الجند. رفعَ أحدهم يده، وحيّا بعضهم السائق، وفتح اثنان البوابة الخارجية الكبيرة. وتحركت الشاحنتان. أين يذهبون بنا بعدَ هذه الوجبة الدسِمة؟ بدا الخراس أقلَّ خشونة، إنهم يضحكون في وجوهنا. لم أرَ وجهًا ضاحكًا منذُ يوم الحريق. ما أجملَ أن تُرى وجهًا

ضاحِكًا أَيُّهَا الْبَائِسُ! وَلَكِنَّ الذَّنَابَ تَضْحَكُ وَالْأَسْوَدَ تَضْحَكُ وَالْقَعَالِبَ تَضْحَكُ، وَحَتَّى الْأَشْجَارَ وَالْأَشْوَاكَ تَضْحَكُ، فَمَا قِيَمَةُ أَنْ يَضْحَكَ هَؤُلَاءِ الْجُفَاءَ فِي وَجْهِكَ؟!

ظَلَّتِ الشَّاحِنَتَانِ تَتَهَادَيَانِ فِي الطَّرِيقِ، مِنْذُ وَجَبَةِ الْغَدَاءِ الْمَشْهُودَةِ إِلَى أَنْ كَادَتِ الشَّمْسُ تَغِيبُ. إِنَّهُ الشُّمَالُ مَرَّةً أُخْرَى. وَصَلْنَا إِلَى مَبْنَى أَقْرَبَ إِلَى الْفُنْدُقِ مِنْهُ إِلَى الْكُنَّةِ الْعَسْكَرِيَّةِ. كَانَ يَبْدُو مِنَ الْخَارِجِ بِطَوَابِقِهِ الثَّلَاثَةِ الْفَرَبَةِ وَالْقَرْمِيدِ الَّذِي يَعْلُوهُ، وَالنَّظَافَةِ الَّتِي تُشِيعُ مِنْهُ وَالْحَدِيقَةَ الْعَنَاءَ الَّتِي تُحِيطُ بِهِ فُنْدُقًا مِنْ نَوْعٍ خَاصٍّ، أَوْ هَكَذَا تَرَأَى لِي وَسَطَ الْبُيُوتِ السُّودَاءِ الَّذِي لَوْثَتْهَا مَدَافِعُ الذَّبَابَاتِ بِالزَّمَادِ وَالسَّخَامِ.

أَنْزَلُونَا بِرَفْقٍ مِنَ الشَّاحِنَتَيْنِ، كُنَّا نَقْرُبُ مِنْ مِئَةِ طِفْلِ فِي تَقْدِيرِي، مَشِينَا عِبْرَ مَمْرٍ مُعْشِبٍ، تَحْفُهُ مِنَ الْجَانِبَيْنِ شَجِيرَاتُ الْوَرْدِ، وَعَلَى الْبَابِ اسْتَقْبَلَنَا جُنُودٌ وَهُمْ يَبْتَسِمُونَ مُرْحَبِينَ، وَدَخَلْنَا بِوَابَةِ الْفُنْدُقِ أَوْ مَا ظَنَنْتُ أَنَّهُ فُنْدُقٌ، فغَاصَتْ أَقْدَامُنَا فِي طَرَاوَةِ السَّجَادِ، وَشَعَزْنَا أَنَّنَا مَلُوكٌ مَعَ أَنَّنَا كُنَّا نَلْبَسُ أَحْذِيَّةً مُهْتَرِئَةً أَوْ نَسِيرُ خُفَاةً، وَزَكَمْتُ أَنْوْفَنَا رَوَائِحَ عَطْرِيَّةٍ كَدَتْ أَدُوخٌ مِنْ شَذَاهَا، ثُمَّ سَلَّمَ عَلَيْنَا قِشٌّ نَاعِمٌ الْكَفَّينِ شَعَرْتُ لَدَفْتُهُمَا أَنَّنِي أَسَلَّمُ عَلَى يَسُوعَ نَفْسِهِ. "أَيْنَ نَحْنُ؟"، وَسَأَلْتُ نَفْسِي سَوَالًا أَذْهَلَنِي عَنْهُ اللَّوْحَاتُ الْعَمَلَاةُ الزَّاهِيَةُ الْأَلْوَانُ الَّتِي تَنْتَشِرُ عَلَى جِدْرَانِ الْبُهِو. ثُمَّ لَمْ نَلْبَثْ أَنْ وَزَعُونَا عَلَى الْغُرْفِ، كَانَ حَظُّ كُلِّ اثْنَيْنِ غُرْفَةً، وَأَنَا أُعْطُونِي غُرْفَةً وَحْدِي. كَانَ رَقْمُهَا (214)، وَلَمْ أَصْذَقْ نَفْسِي وَأَنَا أَدْخُلُهَا. سَرِيرٌ نَظِيفٌ مُرِيحٌ، وَمَلَاءَاتُ تَعْبُقُ بِرَائِحَةِ اللَّذَّةِ، وَسِتَائِرُ مَخْمَلِيَّةٍ تَتَدَلَّى بِأَنَاقَةٍ مِنَ السَّقْفِ، وَنَوَافِذُ تُطْلُ عَلَى السَّمَاءِ، وَتَلْفَازُ يَعْمَلُ عَلَى (الرَّيْمُوتِ كُونْتْرُولِ)، وَمَكْتَبٌ

وأوراق وأقلام، وخزانة من خشب الزان، ومرايا في كل مكان. وحانت مني التفاتة إلي في المرآة فضعت، واقتربت منها أكثر لأعرف إن كان هذا الذي ينعكس على زجاجها أنا أم سواي. إنه بلا شك أنا، ولكنه ليس أنا؟ كيف صرت إلى هذا الذي يُفترض أنه هنا؟ لا غرابة؛ فالحرب تشوه كل شيء، الحرب لُص الموت. وزحمت أتأمل وجهي، وسرخت وأنا أغوض في عيني، وزحمت أتذكر الشهرين الفائتين وما عانيت فيهما، وأيقظني من خيالاتي طرُق على الباب، فانتبهت، ولكنني وجفت، وطرُق الباب مرة أخرى فلم أدر ما أفعل؟ ثم طرُق ثالثة ولم يلبث أن فُتح، وكان بالباب فتاة جميلة نظيفة أنيقة، كانت تبسم كما يتسم الورد. ووقفت أمامها كالأبله، وأردت أن أقول شيئًا، ولكن ماذا سأقول، ومزت لحظات صمت قبل أن تُبادر هي فتسألني: "كيف حالك أيها الجميل؟"، وكنت أريد أن أقول لها: "بخير". ولكن أي خير؟ فبقيت صامتًا. ثم مدت يديها بما تحملان. فبقيت واقفًا مكاني كالتمثال، ونذت منها ضحكة خفيفة، وقالت: "خذ". وأردت أن أقول: "آخذ ماذا؟". ولكنني لم أقل؛ فقد كنت محتاجًا إلى وقتٍ أتدرب فيه على الكلام، وأخذت ما أعطتني، وأردت أن أقول: "ماذا أفعل بها؟". سمعت أنا هذا السؤال وهي لم تسمعه؛ فأنا لم أنطق به، وأنقذتني هي بالإجابة المفترضة: "هذه البدلة لك، وهذا الحذاء الرياضي".

ودخلت إلى الحمام. وبهرني شطوع أضوائه، ورائحة العطور التي تتدفق من زواياه، وأردت أن أصرخ من الدهشة، فابتلغت صرختي، ماء ساخن، وشامبو، ومناشف بيضاء كبيرة وصغيرة، وصابون، وسشوار. وسكنت نصف علب الشامبو على رأسي، ورحت أتبلعظ

تحت الماء الساخن، وأردت أن أبكي من الفرح، وكنت أبكي بالفعل، نعم بكيت، إن هذا التعميم أكبر مني، وبقيت في الحمام ساعة كاملة، وأنا أتقلب في الرغوة، وأفرك رأسي وجسدي وقدمي، ثم خرجت فلبست البدة التي جاءني، وكان قياسها أكبر من جسدي قليلاً، ولكن يكفي أنها نظيفة، وانتعلت الحذاء الرياضي، كان من نوع (أديداس)، أبيض، مطبوعاً عليه شعار الشركة باللون الأزرق، وهو أحسن حذاء لبسته في حياتي على الإطلاق. ورميت نفسي على السرير، وفي غضون دقائق كنت أعط في نوم عميق.

لا أدري متى استيقظت. هل مرَّ ليل أم ليلان عليّ، أسبوع أو أكثر؟! كان الوقت بين النهار والليل، وخيل إليّ أنني سمعت طرقة على الباب، فقمْتُ إليه ففتحته، فإذا الجميلة إياها تبتسم، وتمد لي صحيفة مليئة بأطياب الطعام، فأخذتها دون أن أقول شيئاً، وكان فيها دجاج وأرز، وشورية ساخنة، وخبز وملعقة، وسلطة، وماء، وعصير توت... ولم يمر وقت حتى أتيت على كل ما فيها.

وبقينا في الفندق أسبوعاً، نأكل ما لذ وطاب، ونشرب ما ساغ وانساب، وننام ما حلا لنا أن ننام، حتى عادت لنا أجسادنا التي كانت. ثم دُعينا إلى قاعة فسيحة مدرّجة، ذات كراسي وثيرة، وجمعنا فيها، وأجلت نظري فرأيته تعج بالأطفال، وقدزت أننا أكر من مئتي طفل، وأنه انضم إلينا سوانا نحن الذين كنا في الشاحنتين، أو كانوا هنا قبلنا، ثم اعتلى المنصة ضابط عسكري، ووقف إلى جانبه قسيسان عن يمينه وشماله، وكان يجلس في الصف الأول قساوسة آخرون، وأناس ببدايات أنيقة، وربطات عنق فاخرة، وتولى الضابط الحديث، فقال: "أيها الأطفال الأحاب، أنتم أبناؤنا، أنتم

تَرَوْنَ أَنَّ الْحَرْبَ قَامَتْ وَلَمْ يَكُنْ لَنَا يَدٌ فِيهَا، وَإِنَّا نُحِبُّكُمْ وَنُرِيدُ لَكُمْ
مُسْتَقْبَلًا أَفْضَلَ، وَأَنْتُمْ آمِنُونَ مَعَنَا فَلَا تَخَافُوا، وَنَسْعَمَلْ عَلَى تَوْفِيرِ
كُلِّ مَا تَحْتَاجُونَ، وَلَدَيْكُمْ هَؤُلَاءِ الْقَسَاوِصَةُ الَّذِينَ ارْتَأَوْا أَنْ يَكُونُوا
مُرْشِدِينَ لَكُمْ يَلْبَثُونَ طِلْبَاتَكُمْ وَيُجِيبُونَ عَنْ أَسْئَلَتِكُمْ". ثُمَّ تَنَحَّى، فَقَامَ
مِنَ الصَّفِّ الْأَوَّلِ كَبِيرُ الْقَسَاوِصَةِ عَلَى مَا قَدَّرْتُ، وَكَانَ يَلْبَسُ قُفْطَانًا
أَسْوَدَ، وَيَعْتَمِرُ قَلَنْسَوَةً تُغْطِي قُمْعَ رَأْسِهِ، وَيَتَدَلَّى صَلِيبَ زَهَبِيٍّ كَبِيرٍ
عَلَى صَدْرِهِ، وَلَهُ لَحْيَةٌ طَوِيلَةٌ شَابِثٌ وَلَمْ يَبْقَ مِنْ سَوَادِهَا إِلَّا بِمَقْدَارِ
حَبَّاتِ الْقَرْحَةِ فِي قِطْعَةٍ مِنَ الْجُبْنِ، فَوَعَّظْنَا، وَبَشَّرْنَا، وَطَلَبْنَا أَنْ نَغْفِرَ
لِأَنَّ الْمَسِيحَ غَفَرَ وَسَامَحَ، وَتَلَا قَوْلَهُ: "وَأَمَّا أَنَا فَأَقُولُ لَكُمْ: أَحِبُّوا
أَعْدَاءَكُمْ. بَارِكُوا لِأَعْيُنِكُمْ. أَحْسِنُوا إِلَى مُبْغِضِكُمْ، وَصَلُّوا لِأَجْلِ الَّذِينَ
يُسَيِّئُونَ إِلَيْكُمْ وَيَظْرُدُونَكُمْ".

ثُمَّ تَوَلَّى عَدَدٌ آخَرٌ مِنْ أَصْحَابِ الْقَلَنْسَوَاتِ تَسْجِيلَ أَسْمَائِنَا فِي
كُشُوفَاتٍ، وَحِينَ جَاءَ دُورِي، سَأَلَنِي الْقَسْرُ: "مَا اسْمُكَ؟". فَقُلْتُ:
"حَارِثٌ". فَسَجَّلَهُ: "هَارِيسٌ". "كَمْ عَمْرُكَ؟". وَهَمَفْتُ أَنْ أَكْشِفَ عَنْ
عَمْرِي الْحَقِيقِي وَأَتَنِي سَأُكُونَ فِي الزَّابِعَةِ عَشْرَةَ الْعَامِ الْقَادِمِ، فَخَفْتُ
أَنْ يَحْدُثَ مَا لَا تُحْمَدُ عُقْبَاهُ، فَتَرَايْتُ، وَبَقِيتُ صَامِتًا، فَلَمَّا سَأَلَنِي
مَرَّةً ثَانِيَةً، قُلْتُ: "لَا أَدْرِي". "أَلَا يَحْتَفِلُونَ بِعِيدِ مِيلَادِكَ؟". "بَلَى.
وَلَكِنِّي لَا أَتَذَكَّرُ إِلَّا عِيدَ مِيلَادِي الزَّابِعِ، لِأَنَّ الْحَفْلَةَ كَانَتْ جَمِيلَةً".
فَابْتَسَمَ ابْتِسَامَةً بَاهِتَةً، وَلَا أَدْرِي إِنْ كَانَ كَشَفَ الْأَمْرَ أَمْ لَا.

ثُمَّ دُعِينَا إِلَى مَادِيَّةٍ، فَتَوَزَّعَ الْقَسَاوِصَةُ بَيْنَنَا، فَأَكَلْنَا وَأَكَلُوا مَعَنَا،
ثُمَّ ثَرَكْنَا عَلَى سَجِيَّتِنَا، وَبَقِينَا فِي الْفَنْدَقِ أَسْبُوعًا نَأْكُلُ أَحْسَنَ طَعَامٍ،
وَنَلْبَسُ أَحْسَنَ لِبَاسٍ، وَنَنَامُ عَلَى أَسِرَّةٍ لَمْ يَنْمِ أَكْثَرُنَا عَلَى خَيْرِ مِنْهَا
فِي بِيُوتِهِمْ. ثُمَّ قَالَ لَنَا كَبِيرُ الْقَسَاوِصَةِ فِي اجْتِمَاعٍ: "غَدًا سَوْفَ

نأخذكم إلى بلغراد". ولم يعرفها أكثرنا، ولم يسأل أين هي، ولا لماذا يريدون أن يأخذونا إلى هناك؟ وصفتنا، ونظرَ بعضنا في وجوه بعض، ولم يكن لدينا ما يُقال.

وجاءت أربع حافلات كبيرة، وأضعنا إليها. وودعنا ضباط وجنود، وأهدونا ورودًا حمراء فوّاحة، وكيف يفوخ في الحرب ورد؟! وكان قدري أن أكون في الحافلة الأولى، وأجلسني القس بجانبه، وبدا لي أنه أكبر من الشيخ (شريف) بعشرين عامًا على الأقل، وكان قفطانه من المخمل الأسود، وعلى رأسه قلنسوة كبيرة لم أرَ مثلها، كانت بيضاء ارتفاعها فوق رأسه أكثر من شبر، وفي أعلى بياضها الحليبي نقش بلون ذهبي صليب على هيئة مربعات صغيرة، عدا عن الصليب الكبير الذي يستقر فوق بطنه، وكان ودودًا معي، يقبض بيّسراه على نسخة جلدية من الكتاب المقدس. وسألني إن كنت مرتاحًا، فقلتُ له: "إن أمي ماتت". فردّ: "مَن آمن بي وإن مات فسيحيا". فقلتُ: "إن أبي أطلق عليه الرصاصات وهو مكبل". فردّ: "لروحه السلام". فقلتُ: "وهل قالوا إنه مات؟!". فردّ: "لا أدري، ولكن ألم يُطلقوا عليه الرصاص؟". فقلتُ: "بلى، ولكن قد ينجو". فهزّ رأسه: "وَمَن ينجو؟!". ثم سارت الحافلة.

كانت الشمس لا تزال ترتفع في الأفق، لم تكن قد تمكّنت من قبة السماء، ونحن نسير في حقول قد نشر الزبيع عليها أفنانه، ونثر على وُرودها ألوانه، وبسط فوقها اطمئنائه. وأيقنت أننا نثجه من جديد نحو الشمال، ونظرث خلفي، فرأيت الحافلات تتهاى في الطريق التي تتلوى، وكان النهر يقترب ويبتعد، ويدنو وينأى، وكان صوت الظيور المُحلقة فوقه إذا دنا يُسمع من هنا، وكنت كلما نظرت في

وجه القس ابتسم. وشاع جؤ من السكينة، فتجزأت وسألته: "إلى أين نحن ذاهبون؟". فرد في وقار الّهبان المنقطعين للعبادة: "إلى بلغراد". فقلت: "لماذا؟ وأين تقع بلغراد هذه؟!". فأجاب: "أما لماذا فسوف تعرف فيما بعد، وأما أين تقع ففي صربيا". وتجهّم وجهي لحظة سماعي (صربيا)، وغشيته سحابة من الثوثر، ورأى هو ذلك، فمسح بيده الطرية على وجهي كأنما يُباركني، وهتف: "لا تقلق. الزارغ إثمًا يخضد بليّة".

وانتصف النهار ولا زلنا نسير دون توقّف، وكان عددٌ من خدّمة الرّب المرافقين للقساوسة يؤرّعون علينا الماء والعصير بين ساعة وأخرى، وأشارت الساعة المُعلّقة في أوّل الحافلة إلى الثالثة عصرًا، ودقّت معها ثلاث دقّات، ثم لم تعذ تدقّ من بعد، ومزّ زمنٌ لم يعرف أحدٌ حسابه، وكان ذلك أثناء قيام خدّمة الرّب بتوزيع الطّعام علينا، وأخذت نصيبي، وراح كبير القساوسة يفتح علبة الطّعام لي، ويبتسم، ويقدم لي الخبز والشراب. وأردت أن أسأله: "لماذا تفعل ذلك معي؟!". ولكنه قال قبل أن أفعل: "يا إخوتي الأحبّاء، كوّنوا راسخين، غير متزعّجين، مُكثّرين في عقل الرّب كلّ حين، عالمين أن تعبّكم ليس باطلاً في الرّب". ولم أفهم ما يعني، وبدأت أكل، ولم يكف عن خدمتي، وكانت الشمس تظهر عن يسارنا، والسماء صافية، ونوارش بيضاء تحلق قريبًا من الماء وفجأة قبل أن أرفع لقمة من الخبز التي قسّمها لي القس إلى فمي انطفأت الشمس، أو بدا أنها قد سقطت في النّهر!

(6)

الحرب لا تعترف بالمسيح!

بُم... بُم... بُممم... بُممم... كانَ هذا آخر ما سَمِعْتُ. وَتَلَقَّينا أربعة صواريخ من طائرات (السوخوي)، وانقلبت حافلتنا، وتدهورت الحافلات التي خَلَقْنَا، وقذفها أحد الضاروخ الذي ضرب الأرض تحتها عاليًا أكثر من ثلاثة أمتار، قبل أن تشب فيها النار، وتتناثر الجُثث، وسقطت في غيبوبة، فلما أفقت بعدَ وقتٍ لا أعرف كم هو، رأيت لحية القس ترشح بالدم، وكان مُضَجِّعًا على يسراه، وما زال يمسك الإنجيل الجلدي بيده والدم قد غَطَّاه وقطرات من الدم تسيل فوقه. وأدزت طرفي في المكان فرأيت بعض الأطفال قد شطرت أجسادهم إلى نصفين، وبعضهم قد تعلق في النافذة، وأيادي هنا وهناك، وسمعتُ أنيئًا يصدر من الجرحى، وهتف القس بصوت خفيض: "خُذْ يا هاريس". ومدَّ بوهنٍ إنجيله الجلدي إليّ. ولم أدر ماذا أفعل، وكزرت بصوتٍ أشدَّ حزمًا: "خُذ، هذا كلام الرب، ومَن كان معه كلام الرب فلن يُصابَ بسوء". ونظرتُ حولي فلم أجد معنيَ للشوئِ أعظمَ مِنَّا حدثَ لنا. ومددتُ يدي فأخذته، وأردف: "حافظ عليه يُحافظ عليك". وأردتُ أن أقول له: "إنَّ عمري ثلاثة عشر عامًا، ولستُ طفلًا في السادسة أو السابعة، وأنا تلميذ الشيخ (شريف)، وإنني أحفظ الأجزاء الثلاثة الأخيرة من القرآن، وإنني...". ولكنني لم أشأ أن أرفضَ له طَلَبَه وهو في النَّزْعِ الأخير، ثمَّ إنَّه نَزَعَ بيمناه الصليب الذي تحوّل إلى اللون الأحمر، وقبّله، ومدّه نحوي، وقال: "سيحفظك هذا الصليب أيضًا، لأنَّ هذا الدم نَزَفَ مِن رِفْعِ عليه..."

ها... خُذ". وقبل أن أخذه منه ارتخت يده وسقط منها الصليب، ومات.

وجرّزْتُ ساقّي، ووقفتُ عليهما، ورحتُ أنظر حولي، فإذا الأشلاء والشّظايا في كلّ مكان، ومن خلال الأتّين عرفتُ أنّ بعضنا أحياء، ولم يمْزَ وقتٌ طويلٌ حتّى سمعتُ أصواتَ سيارات الإسعاف، كانت حافلتنا أكثر الحافلات تضرّراً، الطائرات ضربتها لأنّها في المقدّمة، وسمعتُ أصواتاً كثيرةً مُتداخلة، وقال أحدُ المُسعفين يسأل أحدَ النّاجين من القساوسة: "ما الذي حدث؟ لِمَ قُصِفتم؟ أليست هذه حافلاتٍ تابعةً للجيش الصّربي؟". وردّ القس: "نعم، إنّها تابعة للحكومة الصّربيّة، والجيش على عِلْمٍ بتحركاتنا، ومن المُفترَض أن ترافقنا جيّبات عسكريّة، ولا أدري لماذا قصفُونّا؟". وقاطعه أحدُ الجنود الذين جاؤوا مع سيارات الإسعاف: "لقد حدث خطأ غير مقصود، ظنّوكم من الجيش البوسني، لقد أُعطي الطّيّارون إحداثيّات مواقعكم على أنّكم مُسلمون". وعمّ الصّخب واللّغط، وسأل جنديٌّ آخرُ مَنْ يبدو أنّه القائد: "ما العمل؟". "أرسلهم إلى مستشفيات الجيش، لا إلى المستشفيات العامّة". "ولكن قد افْتُضِحَ أمرنا". وفكّر القائد في الجملة الأخيرة، وحكّ ذقنه، وسأل الجنديّ ثانية: "ماذا تقصد؟". فردّ الجنديّ: "هؤلاء بالفعل أطفالُ مُسلمون كان من المُفترَض أن يصلوا إلى بلغراد من أجل أن يسلكوا في خدمة الرّب، ثمّ يُصبحوا..". ونفد صبرُ القائد فقاطع قائلاً: "ثمّ يصبحوا ماذا؟". "مسيحيّين". "فما الخوفُ من أن نأخذهم إلى المستشفى؟". "سيقولون أنقذتم أطفالاً مسلمين ونحْنُ في حربٍ معهم". "ولكنّهم كانوا سيصيرون مسيحيّين أرثوذكس". "ولكنّهم لم

يصيرون مسيحيين بعد، إنهم ما زالوا مُسلمين، وما زالت تجري في عروقهم دماء الأتراك". "فما ترى؟". ونَظَرَ الجندي من حوله كأنما يبحث عَن يُؤَيِّده، فوجدَ رؤوس رفاقه تهتزُ بنعم، فتشجع وقال: "اقتل كل جريح فيهم". وهتَفَ القائد وهو يركُزُ ذراعِيه حول وسطه: "نَقْذ". وأردفَ الجندي: "وَمَنْ لَمْ يُصَبْ أَوْ يُجرح...". "وهؤلاء ماذا؟". "هل نقلهم؟". وهتَفَ القائد: "ابعث بهم إلى الجامع، هناك ينتظرهم عددٌ آخر". واعترضَ أحدُ القساوسة وقد سقطت قلنسوته، وبدا رأسُهُ مُخْفَرًا بالذَمِّ: "لا يا سيدي، أرجوك، لا تقتلهم، كانوا سيصيرون أبناءَ الرَّبِّ الصالحين". وأزاحه القائد يميناه، ومضى وهو يُشَدُّ على جنوده: "اقتلوا كلَّ مَنْ يَبْنِي، وكلَّ مجروح، وهاتوا لي الأصحاء... هَيَّا...". لَحِقَهُ القس ذو الرأس المُتختر بالذَمِّ: "أرجوك يا سيدي اعفُ عنهم، المسيح يُحب العفو". وهذه المَرَّة صَرَبَهُ القائد بِجمع يده على صدره ونَهَرَهُ قائلاً: "الحرب لا تعترفُ بالعفو...". وصمت قليلاً قبل أن يُردف: "ولا بالمسيح". وظلَّ القس واجِهاً، وأخنى جِدْعَهُ إلى الأمام، وركَّزَ باطن كَفِّيه على رُكْبَتَيْهِ، وراحَ جسده يهتزُّ، واستدار القائد نحوه، وصرخَ به: "كَانَ عَلَيَّ أَنْ أَقتلكَ معهم، محظوظٌ إذا وصلتَ إلى بلغراد أنت وبقية القساوسة الملاحين سالمين، وهناك في كنيسة كنيستك بلغَ تحياتي وأشواقي إلى المسيح الذي تُصلي له".

وبدأت الرصاصات تخترق الأجساد الضعيفة، وتثقب الصدور الرقيقة، وتُفجِّرُ الرؤوس الصغيرة، ووصلَ أحدُ الجنود إلَيَّ، ورفعَ فوهة رَشَّاشه وصوبه إلى جبهتي، فرجفت ساقي، وقبل أن يضغظَ على الزناد فبيعت بي إلى العالم الآخر، ضَيِّقَ عَيْنَيْهِ، وسأل: "أنت... هيه... أيها الجَرْد... هل تستطيع المشي؟". ولم أستوعب أن السؤال

قد أجل موتي، فبقيت صامتًا مبهوثًا، فصرخ: "هل تستطيع المشي؟". وتحرك الدَّم في فُهتفت: "وأستطيع الزكض يا سيدي". "أَلَسْتُ مُصَابًا؟!". "كلًا يا سيدي، أنا سليم تمامًا". "وما هذه الدماء التي تُغطي وجهك؟!". "إنها ليست دمائي، بل دماء القس الذي كان بجانبني". وبصق على الأرض: "إنها دماء نجس، وأنت أنجس". وتركني ومضى. وزفزت زفرة حزى كادت تتقطع لها أضلعي، ولم أعد قادرًا على استيعاب أنني نجوت.

وبقي منا نحن الذين كنا نقترُب من مئتي طفلٍ أقل من عشرين ناجيًا، وجاءت جرافة قبل أن تغرب الشمس، فحفرت حفرة كبيرة، وراحت بأسنانها تكوم الأطفال الشهداء داخل فمها المفعور، وتقذف بهم إلى الحفرة، وكنت أرى في فم الجرافة أنصاف أرجل، وبعض السيقان، ورؤوسًا مفجورة، ووجوهًا بلا عيون، وكانت تجمع الخليط من هذه الأشياء وتلقيها بلا مبالاة داخل الحفرة. ومع غروب الشمس كانت قد أتت مهتمتها.

وحملوا من تبقى منا في ناقلة جند، وسارت بنا أقل من ساعة إلى أحد المساجد، ولم أعرف أي مسجد هو ولا أي مدينة هي، وأنزلونا تحت فوهات الرشاشات، ولما أشرفنا على المسجد هألني ما رأيث، كان مُمتلئًا عن بكرة أبيه، فيه ما يقرب من ألف طفل، غرارة أو أشباه غرارة، وكان صوت جلبتهم يُغطي على أي صوت، والمكان مُكتظ إلى أن لا تستطيع أن تجد موطن قدم، والأجساد مُتلاصقة، وأوقفونا على الباب لئيسجلوا عددنا، وسَمِعْتُ أحد الجنود يقول: "متى سيأتون بالأسطوانات؟". "بعد حوالي ساعة". "إذا متى ساعة الضفر؟". "الساعة التاسعة". "هل أحكموا إغلاق الثوافذ؟". "لقد كانوا يعملون

على ذلك منذ يومين". "ولكن من سيفتح أسطوانات الغاز؟". "سيكون هناك جنودٌ مُدربون على ذلك، إنهم ليسوا مُقاتلين على الجبهات مثلنا، هم من وحدة الهندسة، وسيلبسون واقيات الغاز، ويفتحون الأسطوانات، وخلال دقائق سيخرجون ويُغلقون الباب الوحيد الذي يُؤدي إلى الداخل". "وسيموت بالغاز كلٌ من في الجامع؟". "نعم". "كلهم؟!". "قلت لك نعم". افرض أن أحدهم ظلّ حيًا". "لن يبقى أحدٌ حيًا، لا يوجد موضعٌ لكي يتسرب منه الغاز، إنه لو أُغلقت عليهم الثوافظ والباب مع هذا العدد الذي يزيد عن ألف طفلٍ فسيموت من قلة الهواء وحده، فكيف مع الغاز؟ فهمت؟". "نعم". وبدؤوا يُدخلوننا واحدًا واحدًا، كنث في وسطِ الطابور، ولَمَّا وصلَ الدورُ إلَيَّ، نظرَ الضابطُ في وجهي: "ما هذا الذي في يدك؟". ونسيث أنه الإنجيل، فلم أقدر على النطق من هول ما سمِعتُ، فكرر سؤاله: "هل هو الكتاب المقدس؟". وعادَ إلَيَّ شيءٌ من رباطة الجأش، فأجبتُ: "نعم". وصعقت الكلمة الضابط، فنزع الإنجيل من يدي، وتصفّحه، وتأكد أنه هو، ثم أعاده إلَيَّ، وسأل ثانية: "هل أنت مسيحي؟". فأجبتُ: "نعم". "أرثوذكس أم كاثوليك؟". ولأثني سمعتُ من القس كلمة أرثوذكس ولم أسمع كلمة كاثوليك، أجبته مُتصنِّعًا الثقة: "أرثوذكس". "يا حبيبي... ما الذي جاء بك إلى هنا؟". وانحنى بكامل جلاله وعانقني، وقال كمن يعتذر مرة ثانية: "ما الذي جاء بك إلى هنا؟". "الجيش؟". ونظر إلى وجهي فرأى دمًا جامدًا وجروحًا وخدوشًا، فنَادَى على أحد الجنود: "خُذ هذا المسكين"، وصارَ صوته خفيصًا كأنما يُحدث نفسه: "لعنة الله على الحرب التي لم تعذ تميّز بين أحدٍ"، قبل أن يُكمل مُوجِّهاً كلامه إلى أحد الجنود: "خذوه معكم الآن، وعندما تنتهون من

مَهْمَتِكُمْ أَسْعِفُوهُ، وَاَبْحَثُوا عَنْ أَهْلِهِ، لَا بُدَّ أَنَّهُ عَائِي كَثِيرًا".

وَأَصْعَدَنِي أَحَدُ الْجُنُودِ مَعَهُ إِلَى مَوْضِعٍ عَالٍ، وَرَأَيْتُ عِدَدًا آخَرَ مِنَ الْجُنُودِ جَلَسُوا عِبرَ التَّوَافِذِ يُرَاقِبُونَ حِشْدَ الْأَطْفَالِ الْمَحْشُورِ فِي الْجَامِعِ، وَهَتَفَ أَحَدُهُمْ: "مَنْ هَذَا؟". "إِنَّهُ مِنَّا". "كَيْفَ وَصَلَ إِلَى هُنَا؟". "لَا أَدْرِي". "مَا اسْفُهُ؟". "لَا أَدْرِي". "اسْأَلْهُ". وَسَأَلَنِي، وَأَرَدْتُ أَنْ أَقُولَ لَهُ: "حَارَتْ". وَلَكِنِّي أَمْسَكْتُ لِسَانِي، كَانَ الثُّطُقُ الصَّحِيحُ بِاسْمِي سَيَجْعَلُنِي أَضْمًا إِلَى الْأَطْفَالِ هُنَاكَ، وَقَلْتُ كَأَنَّمَا أُحْدِثُ نَفْسِي: "هَارِيس". "ارْفَعْ صَوْتَكَ". "اسْمِي هَارِيس".

وَانْتَشَرَ الْغَازُ فِي الْجَامِعِ، أَفْرَغُوا فِيهِ أَكْثَرَ مِنْ عَشْرِ إِسْطَوَانَاتٍ فِي أَقَلِّ مِنْ ثَلَاثِ دَقَائِقَ، كَانَ الْغَازُ يَسْبَحُ فِي فِضَاءِ الْجَامِعِ الْمَحْصُورِ، وَمَرَّ وَقْتُ بَطِيءٍ، بَطِيءٌ جِدًّا، وَعَيُونَ الْجُنُودِ تَرَاقِبُ وَتَنْتَظِرُ، وَبَدَأَ الْأَطْفَالُ بِالتَّلَوِّيِّ، وَشَدَّ بَعْضُهُمْ عَلَى مَعْدَتِهِ، وَرَاحَ آخَرُونَ يَقِيئُونَ، وَيَصْرَخُونَ وَيَسْتَغِيثُونَ، وَسَقَطَ عِدَدٌ مِنْهُمْ، وَمَدَّ آخَرُونَ أَيْدِيَهُمْ كَأَنَّمَا يَبْحَثُونَ عَنْ يَدِ سَمَاقَةٍ تُنْقِذُهُمْ، أَوْ يَحَاوِلُونَ التَّشَبُّثَ بِخَيْطِ نَجَاةٍ، وَكَانَتِ النُّجَاةُ عَوْدَ قَشٍّ فِي مَوْجِ الْمَوْتِ الْمُتَلَاطِمِ، وَسَعَلَ الْأَطْفَالُ بِصُعُوبَةٍ، وَتَقَلَّبُوا، وَانْهَارُوا، ثُمَّ رَاحَتِ الْجُمُوحُ تَتَكَوَّمُ، وَلَمْ يَعِزْ فِي صَدْرِ أَيِّ مِنْهُمْ نَسَمَةٌ هَوَاءٍ وَاحِدَةٍ. وَمَعَ كُلِّ جُفَّةٍ تَسْقُطُ، كَانَتْ هُنَاكَ قَهَقِهَاتٌ تَعْلُو، مَعَ كُلِّ جَسَدٍ يَتَلَوَّى كَانَتْ هُنَاكَ ضَحَكَاتٌ تُجَلْجِلُ، وَنَظَرَاتٌ تَتَشَفَّى.

وَسَأَلَ جُنْدِي ضَابِطًا: "وَالآنَ مَاذَا؟". "أَلَا تَعْرِفُ؟". "أَنْتَظِرُ أَوْامِرَكَ سَيِّدِي". "أَعْتَقِدُ أَنَّ الْمَدَافِعَ جَاهِزَةٌ. سَنَتَحَرَّكُ مِنْ هُنَا، وَخِلَالِ نِصْفِ سَاعَةٍ، عَلَى الْمَدَافِعِ الْمُتَمَرِّكَةِ عَلَى الْجِبَالِ أَنْ تَقْصِفَ الْمَوْقِعَ، وَتَرْدِمَهُ

فوق هذه الجُثث العَفنة، لا أريدُ أن يبقى فيه حجرٌ واحدٌ قائماً".
وتحوّل الجامع إلى قبرٍ كبيراً!

أخذوني إلى المستشفى، وسلّموني لإحدى الممرّضات: "عليك الاعتناء به جيّداً"، ثم غادروا. وأدخلتُ إلى غرفةٍ خاصّة، وبدؤوا بمعالجتي، كان ثوبي مُلوّثاً بالدم، ووجهي، ويدي، وكنتُ لا أزال أحافظُ على الإنجيل الجلديّ بين يديّ، وكان شعار (أديداس) قد تحوّل من اللون الأزرق إلى الأحمر. وقال لي الطّبيب وهو يرفع قميصي: "علينا أن نفحص صدرك"، ووضع السّقاعة أعلاه واستمعَ إلى نبضات قلبي، ورَمَّ شَفْطِيه، ثم قال بلطف: "أنزل بنطالك"، ولم أفعل. فكّر طلبته: "أنزل بنطالك، علينا أن نفحصك هنا أيضاً" ومرة ثانية لم أحرك ساكناً، ومَدَّ ذراعِيه، وفعل ذلك بهدوءٍ، فلما رأى ما رأى رفع رأسه وتراجعَ إلى الوراء، وهتَفَ غير مُصدّق: "أنت لست مسيحياً". فهتفتُ: "أنا مسيحي". فقال: "كذبت". فأردتُ أن أثبت له ذلك، فقلتُ له: "انظر إلى ذلك الكتاب الذي وضعته على الطاولة هناك عندما دخلت، إنه الإنجيل". وفتّحه وتأكد من ذلك، ثم عادَ إليّ: "صحيح، ولكنك مع ذلك تكذب". "أنا لا أكذب". "أنت مختون، أنت مُسلم، لا يمكن أن تكون مسيحياً". وأسقطَ في يدي، وعرفتُ أنّها النّهاية، فحاولتُ محاولةً أخيرة: "إنّ هذا نذر، أمي نذرتُ للربّ إن جاءها ولدٌ سوف تُختنه كما يفعل المسلمون شكراً للقدير". "الربّ لا يقبلُ المُختونين". "ولكنّ الربّ يقول أحبّوا أعداءكم". وأشاح بوجهه، ثم خرجَ من الغرفة مُسرّعاً وهو يُتمتّم بكلماتٍ غير مفهومة. ولم أدِرِ ما أفعل، وقلتُ لنفسِي بعدَ أن لبستُ ثيابي: "مثلما نجوتُ في السابق، سأنجو الآن"، وقمتُ فنظرتُ من النافذة لأهربَ من خلالها،

فإذا نحن في الطابق الثالث أو الرابع، وعدلث عن الفكرة، وعزمت على أن أخرج من الباب، وأجري بأقصى سرعة مُمكنة، ولكنني ما إن فكّزْتُ بذلك حتّى اقتحمَ الغرفة جُنديان مُتجهّمان، فنزعاني من المكان نزعًا، وشدّاني من ذراعَي بقسوةٍ ومضّيا بي، فصحت: "الإنجيل". ولم يُعيراني أي اهتمام، وبقي الإنجيل في الغرفة وعليه دمّ المسيح.

(7)

ما زال في الأمل فُسحة

"أركبه السيارة العسكرية، وألقه عند أول مجموعة من المحقدين تجدها هناك". وأسرعنا ناقلة الجند تنهت الطريق نهبا، كنت في الصندوق الخلفي أقعي كالكلب الأجرب ومعى عسكري يُصوّب رشاشه نحوي طوال الوقت، ولم يكن معنا أحد آخر باستثناء السائق، وذلك الجندي الذي يُطل برأسه من فتحة في سقف الناقلة، شادا على مقبض البندقية الآلية جالسا على كرسي يدور به في الاتجاهات كلها. إنه مع المنظار الليلي يستطيع أن يقنص حتى النملة السوداء في هذا الليل البهيم.

وكانت السيارة تقفز للأعلى بين الفينة والأخرى، وقذرت أنها تدوس على الزدم أو تفعض الأشلاء تحت عجلاتها العملاقة، وترجرجت في الصندوق مع تقافزات السيارة التي بدا كأنها تهرب من وحش يجري خلفها، وكان الليل الذي حل منذ وقت طويل يهرب هو الآخر، وكنت أنا أهرب من توقع الآتي أو تخيل ما يمكن أن يحدث، كنا أنا وهذا السائق والسيارة والليل جميعا نهرب من شيء ما، ولا عزاء لهارب يريد أن يرى النهاية ويرتاح.

وبقيت السيارة على حالها هذه أكثر من ساعتين، ووقف الجندي المكلف بحراستي، وتوجه إلى الآخر المتمركز خلف البندقية الآلية، وسأله: "هل سيطول الأمر؟". "لا أدري". إلى أين نوجه؟". "لست مخولا بمعرفة ذلك، ولكن من خلال معرفتي بهذه المناطق، يبدو أننا متجهون إلى (غورازدة)". "غورازدة؟! هل أنت متأكد؟!". "ليس

تمامًا، كنت في القوّات التي بدأت تحاصرها منذ أسابيع". ولكن أخشى أن نمرّ على نقاط التفتيش التابعة للأمم المتحدة". "لا تقلق. هذا التفتيش هراء". "لو اكتشفوا هذا الضبي معنا فسنقع في ورطة". "قلت لك لا تقلق، لو وضعت الأمم المتحدة مئة نقطة تفتيش فلن يغير ذلك من الأمر شيئًا". "هل أنت جاذ؟". "انظر"، وسكت جندي البندقية الآلية، ثم تابع كأنما يشير إلى مكان ما: "انظر، أترى ذلك الضوء، إنه يشير إلى نقطة تفتيش تابعة لهم، ستري كيف نمرّ بسهولة؛ هؤلاء الفرنسيون أصدقاؤنا، سنعبّر دون أن يقولوا لنا شيئًا". "حتى لو فتشوا الصندوق ورأوه هنا؟!". وبدا أنه يعنيني. فردّ: "حتى لو فعلوا ذلك". وتوقّف السائق فعلاً بعد بضع دقائق، وسمعت أحدهم من القوّات التابعة للأمم المتحدة يرطن بالفرنسية على ما قدرت، ثم ببعض الكلمات الإنجليزية التي أعرفها: "مرحبًا، هل معك سيجارة؟". "نعم، أهلاً وسهلاً". ومزّت الناقلّة دون أن يُطرَق حتى جدار الناقلّة عند الجهة التي أقعي فيها.

وسمعت ما خيل إليّ أنه صوت ماء، وشمفت رائحة أعرفها من النهر، وقدزث أنه (نهر درينا)، لم يصّر النهر على مرافقتي دائماً! وبعد ثلث ساعة تقريبًا توقفت السيارة، وفُتح باب الصندوق، ونزغت من هناك، وأدخلوني إلى موضع لم أره من قبل، ولم أتوقع أن أرمى فيه، كان الليل ساجيًا لا يظهر الكثير من طبيعة المكان، ولم أكذ أخطو بضع خطوات حتى سقطت، ومن شدة تعبي نفث دون أن أفكر في أي شيء آخر.

صحوث حينّ لسعثني أشعة الشمس، وفركت عيني، وزححت أنظر حولي لأعرف أين أنا؟ جلث بعينيّ مُستطليًا، لم يكن هناك مبنى

في المكان، مجرّد مظلة من (الزّينكو) يقف تحتها عددٌ من الحرّس قدزّتهم بعشرة جنود، وأرض مفتوحة واسعة، تخيلت أنّها أكبر من ملعب المدرسة الثانوية الكبير في (فوتشا) بأربعة أضعاف، مُسيّجة بالأسلاك الشائكة العالية، وعلى نقاط متباعدة كانت هناك سِثة أبراج، يقبع في كلّ برج منها جنديّ خلف رَشاشه المركّوز على عددٍ من جِوالات الرّمل. وكانت الأرض لا تزال فيها بقايا غُشبٍ وقد مال إلى الاضفرار مع قُدوم صيف عام 1992م.

كان المُعتقلون في هذا المُعسكر بالمئات، لا أستطيع أن أعرف عددهم بالضبط، فيهم الرّجال والنساء والأطفال، وبعض العجائز ممّن تجاوزوا السبعين عامًا، ولأنّ عالمي في (فوتشا) كان صغيرًا، رأيت هنا عالمًا كبيرًا مُختلفًا، وكان لا بُدّ من أن أجد رفيقًا، أو أحدًا أعرفه يُسندني في محنتي وأُسنده. كان الناس مُتناثرين على الأرض ليس معهم شيء، بعضهم كان يُقرِفص، وبعضهم كان مُضجطًا، وآخرون يتكثّلون في أعداد صغيرة، وكانت هناك ثياب مُهمّلة، وأغطيّة، ومُخلفات في كلّ بقعة.

وقفتُ أسيرٌ على قَدَمي وقد قَرَصني الجوع، ولم أكن أدري أنّه قد قرص من في المعتقل جميعًا، وأنهم منذُ يومين لم يأكلوا ولم يشربوا، وكانت الوجوه شاحبة، والعيون ساهمة، والأجساد واهنة، والقسمات بائسة، وفكّرتُ أنّي يُمكن أن أجد أبي أو أختي (سلمى) بينهم، وغمرّني موجةٌ من الأمل عندما فكّرتُ في ذلك، فقُففتُ أطوف بينهم وأنا أفتحص الوجوه، وكلّما رأيت رجلًا في عمر أبي يُعطيني ظهره قفزت تلك الموجة من الأمل إلى قلبي وأنا أهمش: "لعله أبي". وحين آتته أجد وجهًا غير الوجه وعيونًا غير العيون،

فتنحسر موجة الأمل، وينكسر الخاطر، وتحل سحابة سوداء من اليأس والقنوط... وهكذا كان الأمر مع الصغيرات، كلما رأيت إحداهن ناذت في أعماقي دون أن يسمعي أحد: "سلمى؟ هل أنت سلمى؟". وقضيت النهار كله أبحث فلم أجذ لا أبي ولا أختي ولا أحدًا أعرفه. وكان الناس مشغولين في مصائبهم عن مصيبتني، وبدت مصيبتني صغيرة بالمقارنة إلى مصائبهم، فقد رأيت هنا مشلولين، ومُعاقين، وجرحى لا يستطيعون أن يتحركوا، وعدداً من الشباب في النزاع الأخير، وأمهات يختصن أطفالهن وهم يصرخون من الجوع ولا يدرين ما يفعلن لهم، قد جفت ضروغهن، ويبست صدروهن، وكن يودذن لو يفتدين صغارهن بأنفسهن، ولكن الموت كان حائقاً بنا كلنا.

وبحثت لي عن بقعة أقرض فيها، وجلست هناك، وكانت قريبة من أحد الأبراج، وعبرتني سنوات الطفولة، وما فيها من الوداعة والرضا والجمال، كيف تنقلب الأحوال هكذا بين عشيّة وضحاها، كنا نعيش مع الضرب والكروات معاً دون أن تلوح في الأفق هذه السحابات السوداء، كيف غفلنا عن الجمر تحت الزماد؟ كيف لم ننظر إلى الأشواك في الورد؟ كيف يتحول النهر الجميل الذي كان نهر العشق، إلى نهر قاتل متوحش، كيف يقبل أن يرضخ لهؤلاء (الششيتنيك) فيستبدل بالأزرق لون الدم، وكيف يبقى بعد ذلك سايراً في مجراه كأن شيئاً لم يحدث؟!

وقفزت إلى خيالاتي غييون أُمي الجاحظة والضربي فوقها، كانت تحاول أن تغطيها، أو تنظر إلى الجهة الأخرى حتى لا تراني أو أراها، ولكنها لم تفعل، لماذا لم تفعل ذلك يا الله! لماذا لم ترخني من تلك النظرات؟! وسمعت صوت الضربي وهو يفرغ قذاراته

فِيهَا فَجَاشَتْ نَفْسِي، وَتَقْيَأْتُ، وَلَمْ أَتَقَيًّا غَيْرَ بَصْقَةٍ مُخْتَلِطَةٍ بِالدَّمِ،
وَنَفَضْتُ رَأْسِي أُرِيدُ أَنْ أَتَخَلَّصَ مِنْ صَوْرَتِهَا، وَلَكِنِّي مَعَ ذَلِكَ رَأَيْتُهَا
تُدِيمُ النَّظَرَ إِلَيَّ بِالْعَيْنَيْنِ الْجَاظِظَتَيْنِ وَسَطَ اللَّهْيَبِ، وَقَدْ خَمَدَتْ
حَرَكَتُهَا، وَتَمَكَّنَ الْمَوْتُ وَالذَّلُّ وَالنَّارُ مِنْ جَسَدِهَا كُلِّهِ.

وَهْتَفْتُ سَلْمَى: "انْظُرِي يَا حَارِثَ". وَنَظَرْتُ بِلا مَبَالَاةٍ، وَتَابَعْتُ: "إِنَّهُ
دَفْتَرُ رَسْمٍ جَدِيدٍ". "وَمَاذَا يَعْنِي؟". "انْظُرِي كَمْ هُوَ جَمِيلٌ، وَهَذِهِ؟".
"مَا هَذِهِ؟". "عَلْبَةُ أَلْوَانٍ اشْتَرَيْتُهَا لِي أُمِّي الْيَوْمَ وَنَحْنُ عَائِدُونَ مِنَ
الْمَدْرَسَةِ. هَذِهِ أَوَّلُ عَلْبَةِ أَلْوَانٍ. سَأَصْبِحُ رَسَامَةً مَشْهُورَةً". "أَنْتِ
مَفْعُوصَةٌ". "أَنَا؟". "هَيَّا اغْرِبِي عَنْ وَجْهِ". "أَنْتِ لَا تُحِبُّنِي". وَبَكَيْتُ
وَأَنَا أَسْتَعِيدُ هَذِهِ الذِّكْرِيَّاتِ، وَوَدِدْتُ لَوْ أَنَّني قُلْتُ لَهَا: "أَحِبُّكِ. أَنْتِ
أَخْتِي الْوَحِيدَةُ وَالْجَمِيلَةُ، إِنَّني أَحِبُّكِ جِدًّا". وَلَكِنْ هِيَهَاتَ. لَمْ أَكُنْ
أَدْرِي أَنَّ هَذَا سَيَحْدُثُ، لَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ مَا سَيَجْرِي لِجَعْلِهَا تَرْسُمَ لِي
(فُوتْشَا) الزَّائِعَةَ، تَرْسُمَ لِي الْجِسْرَ عَلَى النَّهْرِ، تَرْسُمَ لِي الْفَرَاشَاتِ فِي
الزَّبِيعِ، وَلَكِنِّي أَحْمَقُ؛ كُنْتُ أَوْجُلُ كَلِمَةَ "أَحِبُّكِ" فَمَا زَالَ فِي الْعُمْرِ
وَقْتُ، وَهَا أَنَذَا أَكْتَشِفُ أَنَّني كُنْتُ مُخْطِئًا؛ فَلَيْسَ فِي الْعُمْرِ وَقْتُ،
وَبَكَيْتُ بِحَرْقَةٍ، لَيْتَنِي عَبَّرْتُ لَهَا عَنْ حُبِّي، لَيْتَنِي لَمْ أَوْجُلُ تِلْكَ الْكَلِمَةَ
الَّتِي كَانَتْ تَنْتَظَرُهَا مِنِّي!

وَفِي غَمْرَةٍ شُرُودِي سَمِعْتُ جَلْبَةً، فَرَأَيْتُ النَّاسَ بَدَأَتْ تَتَجَمَّعُ فِي
طَوَابِيرٍ، أَرْبَعَةً طَوَابِيرٍ أَوْ خَمْسَةً، وَكَانَتْ تَتَوَجَّهُ إِلَى مَوْقِعِ الْمِظْلَةِ،
وَلَمْ أَدْرِ لِمَاذَا يَفْعَلُونَ ذَلِكَ، وَلَمْ أَشَأْ أَنْ أَسْأَلَ لِأَنَّني لَا أَعْرِفُ أَحَدًا،
وَاكْتَشَفْتُ أَنَّهُمْ يَصْطَفُّونَ فِي هَذِهِ الطَّوَابِيرِ لِلطَّعَامِ، وَبَقِيَتْ فِي
زَاوِيَتِي مُقْعِيًا، وَوَزَعُ الْجُنُودِ عَلَى النَّاسِ الطَّعَامَ، كَانَ كُلُّ خَمْسَةِ
بِيَدِهِمْ صَحْنٌ وَاحِدٌ يَسْكُبُونَ فِيهِ عَصِيدَةً، وَيُعْطُونَهُمْ رَغِيْفًا

فرنسيًا للخمسة، فإذا عادوا إلى زواياهم ورّعوا رغيف الخبز عليهم بالتساوي، وغفّسوا في الصحن، وأكلوا، وكانوا يأكلون بتلذذ، فمنذ يومين لم يذوقوا شيئًا. وتجمع قريبًا مني خمسة، كان فيهم رجل عجوز قدّرتُ لشبيهه أنه في الثمانين، ورجل في الخمسين يبدو أنه ابنه، وإلى جانبه امرأة تبدو أنها زوجته، وطفلان هما ابناهما كما يبدو، وهذه عائلة لها صحن واحد ورغيف واحد. وحانت من العجوز التفاتة إليّ، وتلاقت عينانا، ولم نتكلم، ونظرَ مرّة أخرى، وهتف: "أيها المسكين أين عائلتك؟". ولم أجب. وناداني بصوتٍ حنون: "تعال، لا تبق وحدك، انضم إلينا". وكانت أجمل دعوة تلقّيها في حياتي، ومنذ مذبحة (فوتشا) لم يُنادني أحد بمثل هذا الصوت الحقيقي الحاني، ولم يكتف بذلك، بل قام بكل سنواته الثمانين الثقيلة، فمد ذراعَه المُغضّنة نحوي، وهتف: "هيا، تعال". وأعطيته يدي، وغاصت في يده، وشعرْتُ أنها يدُ أبي يومَ كان يمدها لي بعدَ كلِّ درسٍ تنتهي منه عندَ الشيخ (شريف)، وانضممتُ إلى العائلة، وشعرْتُ أنني في دفيءٍ، وأني لست وحيدًا، وأنَّ الغُصنَ المكسورَ من شجرةٍ يُمكن أن يُعادَ إلحاقه بشجرةٍ أخرى، وأردتُ أن أقول: "شكرًا لك يا سيدي"، ولكنها خرجت على هيئة أربع دمعات قَطْرَن من عينيّ الدابِلَتين. وكان قد أكل نصفَ نصيبه من قطعة الخُبز، فمدَّ لي ما تبقى، وهتف: "لماذا لم تقف في الطابور لتحصل على طعامك؟". وبقيت صامتًا. وأردف: "كان يُمكن أن تقف مع أية امرأة أو رجلٍ مُدعِيًا أنَّك ابنه". ومع غَضّة في حلقي أجبْتُ: "أنا لا عائلة لي". وابتسم العجوز ابتسامةً من بين تجاعيد وجهه، وهتف وهو يُشير إلى البقية: "منذ اليوم، نحنُ عائلتك".

لم يكن في المُعسكر الكبير حَقَامٌ واحد. وليس فيها مكانٌ لكي تغسل يَدَيك أو وجهك، ولا ماء، وكان على كل واحد أن يذهب إلى زاوية ما في أقصى المُعسكر ويقضي حاجته تحت نظرات الجنود المُتَلصِّصة، وقهقهاتهم البذيئة.

وفي صبيحة اليوم التالي، نادى أحد الجنود العجوز، وسأله: "مَنْ هذا الذي أطعَمته من خُبْزِكَ أميس؟". "إنه ابني". "أنت هنا منذ أسابيع ولم تقل إنه ابنك، هل أنجبته منذ يومين مثلاً؟". "لقد جاء إلى المُعسكر أميس". "إذاً هو ليس ابنك. تكذب يا بالة". "إنه وحيد". "لا علاقة لك بالأمر، فليذهب إلى الجحيم". وجَرَّه من ذراعه بقوة، وسَحَبَه إلى حيث المظلة، ونادى أحد الجنود على الناس بمُكَبِّر الصوت من أجل أن يتجمعوا حيث المظلة، واستجاب عددٌ منهم، وتلكأ آخرون، فأطلق الجنود صَليَّات من الرصاص في الهواء، فهُرِعَ الناس مفزوعين إلى حيث أمروا، وهناك ربطوا العجوز من يديه خلف ظَهْرِهِ، ولَمَّا رَأَيْتَ ذلك سَقَطْتَ على رُكْبَتَيَّ، وقفزت أمامي ضور أولئك الذين ذبحهم (الثشيتنيك) على نهر (درينا)، وهمفت أن أقوم، فأركض إليهم، وأهتف: "ليس له ذئب، أنا الذي أقحفت نفسي معه". وقفت بالفعل، ونظرت نحوه، والتفت عيَّاي بعينيَّه ثانيَّة، وسمعتهما تقولان: "لا. لا تفعل. أنا كبزت وهرفت إلى السن التي لم يعذ لي فيها مطمخ ولا رغبة، ورأيت في حياتي كل شيء، وفعلت كل ما أريد، أنت ما تزال صغيرًا. وَظَنَّا بحاجة إليك. كُن قويا وشجاعًا، إذا كان يومنا مُظْلِمًا فَإِنَّ غَدًا مُشْرِق، إذا لم تُشرق الشمس علي فلُتُشرق عليك. ما زال في الأمل فُسحة". وتوقفت، ورأيتُه يهزُّ رأسه، ويبتسم تلك الابتسامة الحنونة، وجثا جنديٌّ ضَخْمٌ على صدره، ورفع سِكينه

فخمدت أصوات الناس، وشد رقبتة إلى الوراء، وذبحه كما تذبح
الخراف!!

وهاج الناس، فأطلقوا الرصاص فوق رؤوسنا، فهمدنا، ثم
وضعوه في كيس أسود، وحملوه كما تحمل القمامة، ونادوا رجلين،
فأمروهما، فحفروا له حفرةً غير بعيدة عن المظلة، وألقوه فيها،
وأهالوا عليه الشراب.

ثم صاح رئيس الحرس، فاصطف الجنود في هيئة عسكرية،
وأعطاهم القائدشارة البدء، فراحوا يغنون مهتاجين:

سَلَكَ الْمُسْلِمُونَ طَرِيقَ الشَّيْطَانِ

وَدَنَسُوا الْأَرْضَ وَمَلَأُوهَا رَجَسًا

فَلْتَعَذَّ لِلْأَرْضِ خُصُوبَتُهَا

وَلْتُطَهِّرْهَا مِنْ تِلْكَ الْأَوْسَاحِ

وَلْتَبْضُقْ عَلَى الْقُرْآنِ

وَلْيَطْرَأْشَ كُلُّ مَنْ يُؤْمِنُ بدينِ الْكِلَابِ وَيَتَّبِعُ مُحَمَّدًا

فَلْيَذْهَبْ غَيْرَ مَأْسُوفٍ عَلَيْهِ!

(8)

بين موثين: حاضرٍ ومُؤجِّل

الوقت في المُعسكر لا وجه له. نحن لا نعرف الساعة، ولا متى مواقيت الصلاة، نهجش هَجَسًا، ونحدث حذَسًا، وكثيرًا ما نُخطئ. الوقت مستطيل، يبدأ من نقطة غير مرئية ولا محسوسة، ويستطيل إلى أجل غير مُسمًى. أو هو مثل شعاعٍ ينطلق من مركزٍ مجهولٍ في بؤرة ما ولا ندري متى يصدم بالجدار أو يتوقف، أو تكون له نهاية، أو يرتد إلينا. أو هو مثل عربة خشبية تحمل جبال البوسنة مجتمعة فوقها، ويجزها حِمَارٌ أعجف هزيلٌ في أرض ذات طين، ولا يكاد يتقدم خطوة، أو هو يتقدم ونحن لا نرى أو نُحس بذلك.

كنا نعرف شروق الشمس من صيحات الجنود الذين يهتفون بالنشيد: " سَلَكَ الْمُسْلِمُونَ طَرِيقَ الشَّيْطَانِ... " كانوا يُنشدونه كل صباح، ويرغموننا بحراب البنادق أن نُنشده معهم، وكان مصير كل مَنْ لا يرفع حنجرته به، الموت.

لا طعام يأتي في وقتٍ تتوقعه، إذا كانوا كريمين معنا، فمعنى أننا سناكل كل يومين وجبة واحدة؛ عصيدة غالبًا، مع قطعة الخبز، نحن لا نأكل الجبن أو الزيتون أو الأرز أو الخضروات، فضلًا عن أن نُفكر بالذجاج أو اللحم، مَجنون مَنْ يفكر بذلك، ولا حتى صوصًا أو عصفورًا صغيرًا. الحياة ليست كريمةً إلى هذا الحد!

اتسخت قُمصان الرجال مع الوقت وتمزقت، واستخدمت للـف الجروح على الأذرع والسيقان، أو على الرؤوس، من الطبيعي أن

تراهم هنا يسرون الهوينى دون غاية وهم عراة من نصفهم الأعلى، أنا كنت محظوظًا بالبدلة الرياضية التي بعث بها الرب إلي وبحذاء (الأديداس)، وإن كانت البدلة الواسعة اتسعت علي أكثر مع الجوع، وصرت كأني خيال مآتة، يُخشخش جسدي داخلها. أما الآخرون فكنت ترى هياكل عظمية حقيقية تتحرك، وكان المنظر يبعث على الحزن، ولو رآه الأصحاء لبعث على الخوف، كانت العظمتان اللتان عند الشرقوة بارزتين، والذراعان اللتان تنسدلان من هناك على الجانبين رفيعتين، وكان يمكنك أن تعد عظام القفص الصدري عظمة عظمة دون أن تخطئ في واحدة منها، فقد كانت ظاهرة تمامًا، ولو استدار الواحد فأعطاك ظهره يمكنك أن تعد فقرات العمود الفقري فقرة فقرة، وكان من السهل أن تلاحظ انحناءه واتصاله بعظام الرقبة ثم بالجمجمة، كل ذلك كان مُشاهدًا بيّس، وكان البطن ضامرًا دون مستوى عظام الصدر مُلتصقًا بالظهر، والبنطال المضموم عليه يكاد يقع لشدة التحول، وكانوا يربطونه بخيوط صنعوها مما تمرق من قمصانهم وثيابهم الأخرى، ولا بنطال خلا من البقع والرقع والثقوب، وكان الواحد إذا مشى لقضاء حاجته يسقط في الطريق غير مرة من شدة الإعياء، ولهذا لم يكن يذهب وحده، كان يذهب معه من هو أعفى منه قليلًا لكي يُسنده، وربما وقع الاثنان وتكّوما فوق بعضهما بعضًا، ولم يقدرا على الوصول إلى نهاية المُعسكر!

وكانت أرواحنا تراوِدنا في الخروج من هذه الأقفاص التي تُسقى أجسادًا. وكنا نأكل إذا اشتد بنا الجوع العُشب، ولم يكن أخضر وإلا لكان وجبة معقولة، ولكننا كنا نأكل العُشب اليابس، ونحفر في الأرض لنبحث عن الجذور الطرية، وكنا نمضها قبل أن نأكلها رجاء أن

نجدَ فيها ما يُرطِبُ شِفَاهَنَا المُتَشَقِّقَةَ، وإذا اشتدَّ بنا الجوع أكثرَ أكلنا
الثرابَ الطَّريَّ بعدَ أنْ نحفرَ عليه، ولم نكنْ نجدُ الثَّرَابَ الطَّريَّ في
أكثرِ الأوقاتِ!

وصَحُوتُ ذاتَ ليلةٍ من اللَّيالي التي تمرُّ بلا عِدادٍ، فما أَهَمِّيَّةُ أنْ
تعْدها وهي طويْلَةٌ لا نَهَارٌ يَأْتِي بعدها، كانتْ لِيالينا كِلِيالي يومِ
القيامَةِ طويْلَةٌ جِدًّا ومُخيفَةٌ... صحونا في تلكَ اللَّيلةِ على صِيحاتِ
الجنودِ مفزوعين، وأفْقْثُ فأقعِثُ، ثُمَّ رَحْتُ أَفْزُكُ عِيونِي وأَتَطَّلَعُ
بِاتِّجَاهِ الصَّوْتِ لأعرفَ ما يجري، وفجأةً أضاءَتْ كَشَافَاتُ المُعَسَّكَرِ،
وأَمَرْنَا عبرَ مُكَبِّرَاتِ الصَّوْتِ أنْ نتوجَّهَ إلى المِظْلَةِ، لقد صارتِ المِظْلَةُ
قَرِينَةَ الموتِ والهلعِ، ولم يكنْ بإمكانِ أَحَدٍ أنْ يعصي الأوامرَ أو يتلَكَّأَ
بتنفيذها، ومضينا إلى هناكَ حتَّى احتشدَ النَّاسُ بِالمِئاتِ، وصرخَ
رئيسُ الحَرَسِ وهو يُمَسِّكُ بِوَاحِدٍ مِنَّا من عُثْقِهِ: "يظُنُّ أَنَّهُ شُجاعٌ.
يَريدُ أنْ يهربَ". كانَ المُسَكِّينَ قد قَطَعَ بِأسنانه ويَدَيْهِ جزءًا من
الشَّيْكِ في غَفْلَةٍ من الحُرَّاسِ على مدارِ شهرٍ، ولَمَّا صارتِ الفَتْحَةُ
الصَّغِيرَةُ التي صَنَعَهَا مُمَكِّنًا أنْ يَمَرَ عِبرَها، حاولَ الهربَ، وعَلِقَ ظَهْرَهُ
بَحديدِ الشَّيْكِ الحادِّ، فسحبَ نَفْسَهُ فانغرزَ الحَديدُ في ظَهْرِهِ أَكْثَرَ
وَجَرَّحَهُ؛ فَنَدَّتْ مِنْهُ آهَةٌ حاولَ كِثْمَانُهَا وَلَكِنَّهُ لَمْ يُفْلِحْ تَمَامًا، وانتبه
إِلَيْهِ الحارسُ، فقبَضَ عليه وجاءَ به إلى هنا. وتابَعَ رئيسُ الحرسِ:
"كُلُّ مَنْ يُحاولُ الهروبَ لن يُقْتَلَ بِرِصاصةٍ، لأنَّ الرِّصاصةَ ستُكونُ
موتًا رَحيقًا، سوفَ يُشَوِّى بِالنَّارِ". وأمرَ جُنُودَهُ فزُبِطَتْ يَدَا المُسَكِّينَ
خَلْفَ ظَهْرِهِ، ورجلاه مَعًا، ثُمَّ كُبِسَ في وعاءٍ معدني حُشِرَ فِيهِ حَشْرًا،
ثُمَّ أوقِدَتْ تَحْتَهُ النَّارُ، فَشَوِيَ أَمَامَنَا، وكانَ يصرخُ في البداية طَالِبًا
الرَّحْمَةَ، وَلَكِنْ صَرَخَاتِهِ ما لبِثَتْ أنْ توقَّفتْ، وتفسَّخَ لَحْفُهُ قِطْعَةً

قطعة، وتساقط داخل الوعاء، وشممنا رائحة شوائه، وغادر الحرس مع قائدهم المكان، ورجعنا إلى أماكننا، وكانت ليلة تُوزخ بها من بعد: "أتذكر ذلك المسكين؟ ليلة الشواء...؟!". منذ ذلك اليوم لم يعد للحياة أية قيمة!

وحل عيد الأضحى في الثاني من تقوز لهذا العام. وقال رئيس الحرس: "لن يمز اليوم دون أن نبتهج في عيدهم، سنشاركهم هذه الفرحة". وسأل الجندي الذي بجانبه: "قلت لي ماذا يفعلون في هذا العيد؟". "إنهم يُقدّمون الذبائح لربهم. يذبحون الخراف والماعز والأبقار والجِمال". والتفت إلى الجندي الآخر: "أنت، هل تعرف هذا أيضًا؟". "نعم". "ماذا تعرف؟". "إنهم يفعلون ذلك صبيحة العيد سيدي". "يذبحون الخراف والماعز؟". "والأبقار والجِمال سيدي". "هؤلاء المسلمون قُساة غلاظ شداد، كيف تطاوعهم أنفسهم في الإجهاز على الحيوانات المسكينة بهذه الطريقة البشعة؟". وأردف أحد الجنود: "ليس ذلك فحسب، بل إنهم يحتفلون بذلك، ويكررونه كل عام". وزم رئيس الحرس شفتيه، وضيق عينيه، ثم هتف: "إذا دعونا نحتفل معهم". "نحتفل؟". "نعم". "كيف؟". "نذبح منهم كما يذبحون". وساد صمت لبرهة قبل أن يردف الرئيس: "ثرى كم واجدا نذبح لكي تعم الفرحة؟!". ولم يجب أحد من الحرس، وتشجع أحدهم، واقترح: "عشرة". وقال الآخر: "بل عشرون". وقال الثالث: "بل خمسون". وأوقفهم القائد مُستمهلاً: "كلا. أولاً علي أن أعرف عدد هؤلاء البهائم في هذا المعسكر". وجاءه صوت من الخلف: "سثمئة يا سيدي. عددهم سثمئة". وبدت علامات الاستغراب واضحة على وجه الرئيس، وسأل: "ألم يكونوا ألف معتقل قبل بضعة أسابيع؟". "بلى يا

سيدي، كانوا. بقي هؤلاء وقَطَسَ الآخرون". "إذا نذبح رُبْعهم". "تعني أن نذبح 150 واحدًا؟". "نعم، إنه عيدُ أيَّها السَّادة، على الاحتفال أن يكون ملائقًا لعيدِ مُهمِّ كهذا". وسكت الجميع بانتظار الأوامر من الرئيس، وهمَّ أحدهم أن يسأل: "مَنْ، وكيف؟". لكنَّ الرئيس عاجلَه قائلاً: "اخترُوا أي مئة وخمسين". "هكذا بشكلٍ عشوائي؟!". "ليس تمامًا. وُرِّعُوهم على الشَّباب والنِّساء والأطفال، ولا بأس ببعض العجائز، والمشلولين والمُعاقين". "متى يا سيدي؟". "ألم تقل إنَّ عيدهم هو اليوم؟". "بلى". "الآن إذا أيَّها الأحمق".

هل يُخطِئني الموت من جديد، هل أحظى بفرصةٍ جديدةٍ للحياة؟ ولكنَّ ما قيمةُ هذه الفرصة؟ هل تأجيل الموت أفضلُ من الموت؟ على أيِّ وجهٍ يُمكن أن تقارن بين موثَّين: حاضرٍ ومُؤجَّل. إنَّ الحاضر يعني أن ينتهي كلُّ شيءٍ، وإنَّ المُؤجَّل يعني أن ترى مزيدًا منه. ولكنَّ العجوز في ذلك اليوم قال لي: "أنتَ أملُ هذا الوطن. ابقَ حيًّا". "لعنة الله على الوطن وعلى الحياة أيَّها العجوز، أيُّ وطنٍ هذا الذي يذبحنا من الوريد إلى الوريد؟! وأية حياةٍ هذه التي تُقدِّمُ لنا الموتَ بالتَّقسيم؟! إنني أريدُ أن أموت. هل تسمح لي سيدي العجوز؟! إنني أريدُ أن أموتَ الآن، وَلِيَذْهَبَ الوطن الذي تراني أملًا له إلى الجحيم".

وكذَّسونا باتجاه المذبح. وساقوا مئة وخمسين واحدًا منا بالفِعل. وبدأ الذَّبْحُ المُمنهج، كانوا قد صاروا سادةً فيه. يُكَبِّلون الضَّحية، يُضجِعونها، ويفقسون الرِّقبة إلى الخلف، وتلتمع السَّكين، ثم تغوص في العنق، تُحشِّرج الضَّحية، ينتظرون حتَّى يُصَفَّى دَمُها، ثم يتابعون مع الضَّحية الثَّالية. وهكذا حتَّى إذا تعب الذَّبَّاح الأول، تولَّى العملية عنه ذَّبَّاح ثانٍ، واستمرَّ الذَّبْحُ طَوال النَّهار، وتكدَّست الجُثثُ،

وتكومت الرؤوس المقطوعة.

وطلب الجنود الراحة، وقال أحدهم: "ارحمننا أيها القائد، لقد تعبنا".
"عليكم أن تكملوا المهمة قبل أن تغرب الشمس". "حاضر يا سيدي،
ولكننا نطلب راحة لبضع دقائق". وضربه على صدره، وصرخ مُحَنِّقًا:
"كلًا. هَيَّا استمروا". واستمر الذبح. وتعبوا من جديد، وهتفوا به:
"بحق الزب ارحمننا". "ستشربون الويسكي بعد أن تُتِمُّوا مهمتكم".
"ولكن في المُعَذِّين للذبح عددًا من المُعَاقِبِينَ والمُشْلُولِينَ". "كم
عددهم؟". "حوالي عشرين". "هؤلاء اقتلوهم برصاصة من الخلف".
"حاضر يا سيدي". "سيتبقى بعد هذا كله عدد كبير". "كم يتبقى؟".
ولم يجد القائد إجابةً، فطافَ بينَ مَنْ تَبَقَّى، يَغْذِّهِمْ، فتعلَّقت برجله
إحدى النساء، وقبَّلتُ بُسْطَارَه، وناحت: "يكفي يا سيدي، لا تقتلنا".
فركلها ببسطاره وبصقَ في وجهها: "هذه اغتصبوها". وتوقَّفَ عن
العدِّ، وتوجَّه بنظره إلى الحَرَسِ، وقال وهو يُقَهِّقه: "مَنْ فيكم فحلَّ
لكي يغتصبها أمامنا؟!"، وتحنَّحَ عددٌ منهم، وقبلَ أن تزيغَ نظراتُ
المرأة، تعلَّقت ببسطاره ثانية، ورَجَّتْه: "اذبِخني أهوُّ يا سيدي".
ونفَّذَ هو الذبح بيده.

وَأَتَمَّ تَفَقُّدَ مَنْ تَبَقَّى، وهتف: "إنهم سِتَّة وأربعون، تقول لي تبقى
الكثير! كلًا. لم يتبقَّ إلَّا هذه البهائم. أريدُ خروفاً صغيرًا". ولم يفهم
أحدٌ ماذا يعني بالخروف الصغير، فقَهقه، قبلَ أن يشرح: "ولذَّ عمره
سِتُّ سنواتٍ أو سبع". وسادَ الفَرْعُ، وبحثَ في المُخْتَارِينَ للذبح عن
طفلٍ بهذا العمر فلم يجد، فهتف: "اثتوني به من المعسكر". وركضَ
أحدهم وجاءه بما طلب، وسأله القائد: "أنتَ أين أبوك؟". ودارَ الطفلُ
بجذعه إلى الوراء، وارانَدَ أن يقول: "إنَّه هناك". ولكنَّه لم يقل. فصرخَ

به: "أين أبوك أيها الخروف الصغير؟". فبال الطفل على نفسه، وعَضَّ بأسنانه على أصابع يده، وأمسك سرواله المبلول بيده الأخرى. وصرخ القائد ثانية: "اثنوني بأبيه. هَيَّا". وحيَّ بالأب، وهو يجزّ رجليه، وابتسم القائد، وسأله: "هل هذا ابثك؟". وخرجت "نعم" من بين شفتيه مجروحة، فضحك القائد حتى أرجع ظهره إلى الوراء، وأردف: "إذا هو ابثك. هَيَّا اذبحه". واحتاج الأب إلى دهرٍ كاملٍ ليستوعب الأمر الذي طُلب منه، وسيق الأب والابن إلى المذبح، وأعطى الأب سكينًا، وأمر: "هَيَّا. ولْثِرْ ذبيحتك". وظل الأب جامدًا مكانه ينوِّض بعينه كما ينوِّض الفأر المدعور، وركله القائد هذه المرة على بطنه: "هَيَّا نَقِّذْ أيها القذر". وسقط الأب على الأرض، وتكور على نفسه، وهتف القائد: "أنت ترفض الأوامر إذا". وأشار إلى مَنْ كان السكين بيده من الجنود: "هَيَّا اذبحه"، ولكنني أريد دمه، وذبح الأب، وضفي دمه في كأس، وأعطى للقائد كما أمر، ورفع القائد أمام عينيه: "دم نجس. إنه يُشبه البول. أنتم كلكم خراء". وأعطى الكأس للطفل: "اشرب دم أبيك". ولم تحرك الطفل ساكنًا، وفَتَّح القائد يدَ الطفل، وأجبره على أن يُمسك بالكأس، ومسح بكفه على ذقنه الصغيرة، وقال كَمَنْ يُشجّعه: "هَيَّا، إنه أبوك، قليلًا من الوفاء أيها الصغير. إن دمه سيمنحك القوة. أعدك بذلك". وارتعشت يد الطفل بالكأس، وسقطت، فاغتاظ القائد، وتلّه إلى المذبح وذبحه بسرعة.

وعلا بكاء طفلٍ قبل أن تنتهي المجزرة، ورفع القائد يده: "صوت مَنْ هذا؟". ونظر في الحشد فرأى طفلًا لا يتجاوز عمره عامًا في حضن أمه، وطلب منها: "أسكّتيه، ألا ترين أن لدينا عملاً هنا". كان الطفل يبكي من الجوع، وارتاعت الأم، وحاولت تهدئة ابنها، لكنه

لم يكف عن البكاء. "أسكتيه هَيَا، وإلا ذبحكما معًا". وراحت الأم تستنجد بالسما لى يكف رضىغها عن البكاء، ولكن السما لم تستجب، فتلهما القائد إلى المذبح، وهناك سكتا معًا سكوًا أبدىًا.

أيها الملاعين: إن للموت وقارًا يجب أن تحترموه. كيف تهدمون ما تعلمونه من الشيخ (شريف): "عليك أن تغمض عينيك وتتلو الصلوات وأنت ترى الموت". لماذا أجبرتموني أن أرى كل هذا، وأنسف ما أراد أن يقوله الشيخ لى: "إن للموت وقارًا...". لعنكم الله أجمعين!!

أزغفونا على سحب الجثث ورمىها خارج الأسوار. وثركت فى العراء حتى عصر اليوم الثانى. وغض الفضاء بالعقبان وبالطيور الجارحة التى كانت تهوى على الجثث فتنقر بمناقيرها الحادة، وتلتقط ما تقتطعه بمخالبها، وتطير للأعلى، ثم تمضى إلى الأشجار فى الأجمات التى ترى من هنا لثطعم صفارها فى الأعشاش، وجالت عشرات الكلاب حول الجثث، ونهشت منها ما أشبع بطونها، وظلت تأكل طوال اليوم حتى بدأت رائحة الجثث تنتشر فى المكان، ثم ليتخلصوا من الرائحة أجبرونا على إحراقها، وكان الدخان يصعد إلى السما السابعة، ويؤرى من أقاصى الأرض، وحسد من ظل حيا من مات.

وراح سيل من الأسئلة يطرق جمجمتى بأسياخ من الحديد المسمى: لماذا كل هذا؟ لماذا يقتلوننا بهذه البشاعة؟ ما الذى فعلناه فى حياتنا لينتقموا منا بهذه الطريقة؟ ولماذا قامت هذه الحرب اللعينة؟ ألم نكن نعيش معهم عيشًا رخيًا، فما الذى حدث حتى شبت نار هذه الحرب التى لا ترحم؟

لقد أصيب كل مَنْ في المُعسكر بالجنون بعدَ ذلك اليوم. أمّا نحن
فالجنون النابع من الخوف وقلة الحيلة وهواننا على الناس، وأمّا هم
فالجنون النابع من شهوة السطوة وجبروت القوة، وكان الدّم يبعث
على الدّم.

(9)

لماذا لا تتحرك الأشجار؟!

حاصرتني الكوابيس، ثارت الأرض وصارت تتفجر دماً، كان الدّم يخرج في انفجارات من كل بقعة في المعسكر، ثم ينداح ويُغرق الناس، كان يسحبهم في طوفان صغير خارج الشيك الحديدي، كانوا يُلوحون بأيادهم وعيونهم تمتلئ بالرعب، مع أن شفاههم كانت تنفرج عن ابتسامات غامضة، هل تخلصوا من العذاب بالغرق؟ كم كنا نتمنى موتاً مريحاً!!

لم تعد هذه الكوابيس ثوقطني فحسب، بل كانت تجعلني أصرخ وأنا نائم، ولأتني أعرف مسبقاً عاقبة الصراخ؛ فإني كنت أحرص ألا أنام كي لا أجز إلى المذبح. لكن قلة النوم قاتلة لا تقل عن الجز إلى المذبح. صرّحت أرى ما لا يُرى. أفاعي تطير، لا أدري كيف أراها كذلك، إن الأفاعي ترافقني كثيراً. أرى عدداً من الأسود والذئاب المفترسة تتجول بيننا في المعسكر، وكانت تتشمم كل واحد فينا، لم نكن وجبة دسمة، لو أكلنا فلن يُطقطق تحت أشداقها سوى العظام.

أديم الشهر مُحذقاً في الفضاء عبر الأسلاك الشائكة إلى الأشجار البعيدة، بلاذنا تكتظ بالأشجار، فلماذا هي بعيدة إلى هذا الحد؟! لماذا ننام في العراء؟! ألا يمكن أن يسحبوا تلك الغابة التي أراها من هنا إلى هذا المعسكر لننام في الظل بدلاً من الشمس الحارقة؟! لماذا لا تتحرك الأشجار؟! لماذا لم يهبها الله القدرة على ذلك؟! إذا كان البشر ذوي قلوب قاسية، فلم صارت الأشجار مثلهم؟! ألم تُخلق لإعطي دون مقابل؟ فلم تمد ظلالها للنهر الذي لا يحتاج إليها، ولا

تمّده لِقَن هو بأمس الحاجة إليها؟! عهدي بالأشجار كريمة سَفحة،
فما الذي حدث لكي تُصيح شحيحة بخيلة؟!

الوحدة قاتِل آخر. إذا لم أجدُ أحدًا سأموت، إذا لم أجدَ مَنْ أبثُ
إليه همومي سأنتهي. لست مثل (يعقوب) لأشكو بَثّي وحزني إلى
الله. لا يمكن أن يستمر الأمر على هذا النحو. يجب أن أتحدث إلى
بشري. لو كنت جدارًا أو ترابًا لكان يُمكنني الاستغناء عن ذلك تمامًا،
ولكنني - وهذه الظامة - بشري، والبشري مُحْتَاج إلى ثلاث كلمات
يتفوّه بها على الأقل كل يوم حتى لا ينسى الكلام، ومُحتَاج أن ينظر
في وجه بشري آخر حتى لا يعمى، ومُحتَاج أن يسمع صوتًا يُشبه
صوته حتى لا يُصاب بالضمَم. لم نكن نجرؤ على النظر في وجوه
(الثشيتنيك)، وكان صوئهم أشبه بصوت الذئاب؛ يَغوون بشكل دائم!
شَخ الطعام أكثر من قبل. في الشهر الأخير لم نكن نحصل على
وجبة كل يومين، قالوا إن هناك طائرات تابعة للأمم المتحدة تقوم
بإسقاط صناديق ضخمة تحتوي على غُلب الشردين والفاصوليا
ولحم الخنزير المُعلَب. لماذا لحم الخنزير، ومعلَب؟!

دعوت اليوم غصفورًا رأيته على السياج أن يحظ على يدي؛ لُصيح
أصدقاء. نادَيْته: "هيه... أنت أيها العصفور الجميل، اقترُب. أنا لا
أؤذي أحدًا. ما رأيك أن نتكلّم قليلًا". "عم نتكلّم؟! أنت لا تُحسِنُ
الحديث مع الآخرين؟". "حتى أنت أيها العصفور تقول ذلك؟! سأتغير.
أعدك أن أتغير. سأحاول أن أعثر على الكلام المُناسب، أنا أتعلم يا
صديقي". "لم أصبح بعد صديقك!". "ها أنذا أعرّض صداقتي. ماذا
تريد مقابل أن تهبط من عليائك وتحظ بين يدي أو على كتفي،

وتقول أي شيء. أي شيء، فأنا أكاذ أفقد القدرة على تحريك لساني". "أنت في سجن. وأنا لم أخلق لكي أنحبس معك". "ألا ترى هذا الفضاء الممتد. المعسكر مفتوح أيها الجميل". "ولكنه مُسيج. أنا خُلِقْتُ حُرًّا". "ومن يُماري في ذلك؟ ولكن هل خُلِقْتُ أنا عبدًا؟ أنا حُرٌّ مثلك". "لا لست حُرًّا. أنت عبدٌ مسكين. أنت تحمل تاريخ العبوديات كلها وأنا أحمل تاريخ الحُرِّيَّات. شتان بيننا". "لا تقش عَلَيَّ أكثرَ من ذلك. ماذا تريدني أن أفعل؟!". "أن تتمرد". "أتمرد؟! ليتني أستطيع". "ألم أقل لك أنت عبد، وأخشى أن تستسيغ عُبوديَّتكَ إذا طالَتْ هذه الأيام". "أيها العصفور أنا لست...". ولم يُمهلني حتَّى أكمل عبارتي، وطار بعيدًا!!

مَرَّ سَرَبُ النَّمْلِ مُسرِعًا إلى مساكنه. قالت سَيِّدَتُهُنَّ: "هَيَّا اعملن بِجِدٍّ أَيَّتِهِنَّ النَّمَلَاتُ العَزِيزَاتُ، شهور الصَّيفِ آخِذَةٌ بالانْتِهَاءِ، وقريبًا سيَحِلُّ الشِّتَاءُ، مَنْ عَمَلَ اليومَ وَجَدَ غَدًا". رَدَّتْ نَمْلَةٌ لا تحمل معها شيئًا: "هؤلاء القاطنون هنا بُخلاء، نحنُ لم نجد حَبَّةَ قَمْحٍ واحدة، ولا حتَّى دودة صغيرة. لقد أَتَوْا على كُلِّ شيء". نهرثها السَيِّدَةُ: "ليس في قاموسنا الضُّجر ولا الشُّكوى، إِمَّا أنْ تَعْمَلِي، أو تَنْتَهِي. لو حملتِ على ظَهْرِكَ حَجْرًا، أو جعلتِه في فَمِكَ لكان خَيْرًا من هذا الكلام". خَفَضَتْ رَأْسَهَا مُعْتَذِرَةً عن سوء تقديرها، وتابعت عَمَلَهَا.

وضغت إصبعي في طريق سَيِّدَةِ النَّمْلِ الَّتِي تَعْمَلُ مثلهنَّ. نظرتُ إِلَيَّ بشيءٍ من اللامبالاة: "ماذا تريدُ أَيُّهَا المَسْكِينُ؟!". "أنتِ قُلَّتِهَا، أنا مسكين". "إذا كنتَ كذلك فلماذا تضعُ العِراقِيلَ في طريق الذين يعملون. أفسِّح لي الطَّرِيقَ". "لن أفعل". "أَتظنُّ أَنَّكَ بهذا السَّدِّ الَّذِي رَفَعْتَهُ في وجهي تستطيع أن تمنعني من الحركة؟! أنا لستُ مثلك!".

"لست مثلي؟! ماذا تعنين؟!". "إذا رُفِعَ السِّدُّ في وجهي أعتليه وأتابع سيرتي، أو أنقض عليه؛ المهم ألا أتوقف". "أريد أن تكوني صديقتي". "أنا لا أصادق العاجزين". "ولكن ما ذنبي أنا؟ لقد حبسوننا كما تزين، وصوبوا في وجوهنا البنادق، لقد جعلونا عاجزين تمامًا". "كلًا. ابحث لك عن طريقة". "أوه، إنكم جميعًا تقولون ذلك ولكنكم لا تشعرُونَ بنا، ولا تُدركون ما نحن فيه". "بل أنتم تظنون أنكم وحدكم الذين تُعانون، وأنَّ على الجميع أن يشعر بكم. لن يشعر بك سواك. ابحث لك عن طريقة ما. والآن هيا، ابتعد عن طريقي، أنا أحذرك". "ههه... تحذرينني أيتها النملة المفعو...". ولم تدعني أكمل جملتي، قرصتني قرصة صرخت معها من الألم، كأنها قرصة زنبور، وتابعت طريقها مع زميلاتهما... أما صرختي، فكادت أن تجزني إلى المذبح لو أن الحارس الذي كان في البرج القريب منا سمعنا!

دودة خبز من نملة. صرصور خبز من عصفور. لكنهم رفضوا العرض المغري لصداقتي. كنت سأقاسم معهم قطعة الخبز كلما جاءتني، تخيلوا عرضًا سخيا مثل هذا، إنه أكرم العروض سخاء في العالم، كنت أطرح مقابل صداقتي التي لا تُكلفهم شيئًا ما لا يُقابل له! مَنْ يُغامر بقطعته من الخبز التي لا تأتي إلا كل يومين أو ثلاثة مرّة؟! إنهم لا يُدركون حجم تضحيتي، ولا حجم حاجتي إلى صداقتهم التي تصل إلى مستوى مقايضتهم بما يُبقي على حياتي؛ إنه الخبز. هل كانوا جهلة إلى الحد الذي لا يفهمون معه ما تعني لنا هذه القطعة الصغيرة التي لا تتجاوز نصف حجم كف اليد الواحدة؟!

إن قطعة الخبز هي المُعادِلُ الموضوعي للموت؛ كلما ابتعدت اقترب. كل قطعة تقع في أيدينا منه تُبعده عنا أيامًا. إنها وجه الفرح

الأجمل، الفرح بأن الموت لا يمكن أن ينقُصَ على أرواحنا فجأة. إنها تميمة العيش، وسرّ إدامة الأنفاس البطيئة التي تتردد في الصدور حتى في أحلك الظروف، في الحالات التي يراودنا فيها الموت عن أنفسنا، يمكننا بقطعة خبز صغيرة أن نراوِغه، أن نفاوضه على أيام آخر في حياتنا المرهونة للفناء، إن الانفصال بين الزوج والجسد يمكن أن يُعيده الخبز إلى الاتصال، الهوة في غيابه بينهما تتسع، تأخذ في الاتساع كلما غاب، ولكنها تضيق كلما ظهر. ما أسهل أن تردم تلك الفجوة بلقمة منه، كيف يمكن للقمة واحدة أن تُبطل الموت، وثقل عدد الشياطين التي تلهب الظهور؛ إن الخبز نجاة، وإنه في الوقت نفسه هلاك. لأن غيابَه يعني وجودَ الثوقِ إليه، وحينَ نتظره طويلاً، يبدأ ماء الحياة بالعُور، ولا يستطيعُ شيء في الكون أن يُنقِذنا من ماء الحياة الغائر إلا رؤيتنا له من جديد!

أنا لا أريد أن أصلب فتأكل الطيرُ الخبزَ من رأسي، بل أريد أن أكله أنا. ما فائدة الخبز فوق الرأس إذا كان طعاماً لسواي؟! إن حربنا اليوم مع الضرب هي حربُ خبز، لقد تحوّل إلى حلِيم، حلِيم صعب التحقيق، أضغاث أحلام، وهل يُغنيك أن ترى نفسك في المنام تقضم الخبز ثم تستيقظ فتجد أنك لا تقضم إلا لسانك؟!

قال الشيخ (شريف): "اقرأ يا حارث". "اقرأ ماذا؟!". "أكمل من حيث حفظت". "هو الذي جعل لكم الأرض ذلولاً فامشوا في مناكبها...". "يا حارث". "سيدي الشيخ". "فامشوا في مناكبها". "إننا لا نقدر على المشي". "عاجز". "حتى أنت يا سيدي؟! ألا ترى أننا مُحاصرون هنا من الجهات كلها؟!". "لا بد أن تمشي". "أنا لست مشاءً يا سيدي". "المشاؤون يفوزون". "ليتني أستطيع أيتها الجليل". "تستطيع".

"ليتنّي...". وصحوت.

اهترأت بدلتي الرياضيّة، انخرقت أجزاء منها. وحذائي اللّامع
اثسخ، ولا زال يحمل آثار الدّماء الجافّة. وشعار (الأديداس) تحوّل
من الأزرق إلى الأحمر إلى القرمزي، ثمّ بهتّ فصار كبقايا الوشم،
ثنازغ بين الظهور والخفاء. أمّا جسدي فصار يتخلّى عني رويدًا
رويدًا، صارت عظامي بارزة كالآخرين، صرنا نعرفُ المُعتقلين
القُدامي من الجدد بعدد العظام البارزة، أقدمنا يُمكن أن تعدّ من
عظام قفصه الصدري ومن فقرات ظهره عددًا أكثر من سواه، لا أدري
إن كُنْتُ سابقًا حيًّا بعد أن تُصبح عظامي معدودةً جميعًا؟!

في اللّيل حين لم يعد بيني وبين النّوم العزيز سوى لَحظَات قليلة،
سمعتُ خشخشةً عند رأسي. ثمّ شيئًا رقيقًا ينسحب بلطفٍ على
رقبتي، أزحّته من هناك برفق، وتقلّبتُ إلى الجهة الأخرى مُحاولًا
استِجلابَ النّوم، دار ذلك الشّيء إلى الجهة الّتي أدزْتُ إليها وجهي،
وراح يعبثُ معي مرّة أخرى، ثمّ دخلَ شيءٌ ما في أنفي، ممّا جعلني
أفزّ وأعطس. أطبقتُ بيدي على فمي حتّى لا يسمع الحارِشُ القريب
صوتي فتحدّث الكارثة، ثمّ بعدمَا تمالكْتُ نفسي، سمعتُ صوتًا رقيقًا
يتحدّث بحنو: "أنا أقبلُ صداقتك". فركّضتُ عينيّ لأرى هذا المُتحدّث
الذي قَبِلَ بي في النّهاية صديقًا، فإذا هو فأزٌ صغير. اثسّعتُ حدّقَتَا
عيني: "أنت؟!". "نعم، أنا. ماذا، ألم تُحدّث العصفور والثّملة والدّودة
والضّرصور ورفضوا صداقتك؟! ها أنذا أقبل". ورفع جذعه، وأسندَ
ذراعيه على بطنه الأزغب، وأدار رأسه بذقنه المُستدقّة وفتحني أنفه
الصّغيرتين إلى الجهة الأخرى. هتفتُ: "صحيح... صحيح". فلماذا
تركض وراء مَنْ رفضك، وتستعلي على مَنْ أقبلَ عليك؟!

"حاشا لله". "فهل قبلت عرضي؟!". "بالطبع أقبل". "مع الشرط الذي وضعتَه؟". "ماذا تعني؟". "ثقاسمني قطعة الخبز التي تحصل عليها". "قبلت". "ولكن...". "ماذا هناك؟". "سأضيف تفصيلاً صغيراً عليه". "ما هو؟". "لا آكل نصيبي من الخبز معك". وضحكت: "لماذا؟". "لأنك أجرب، وأنا لا آكل مع الجربى!". وغضبت، فقلت وأنا أشير إليه بإصبعي ساخراً: "أنت أيها الفأر؟!". "غذنا إلى الاستهزاء. نعم أنا الفأر، ولا أقبل أن آكل مع الجربى". "وماذا ستفعل؟". "سأخذ نصيبي وأكله فيما بعد على راحتى". "وإلى أين ستذهب به، وأين ستأكله؟!". "هذا ليس من شأنك". "ليس من شأني، وتريد أن تصبح صديقي؛ فكيف يتفقان؟". "سأخذ قطعتي من الخبز كما قلت لك، ثم أعود ونتحدث لمدة نصف ساعة، وبعدها لا أعود إليك إلا في الغد". "قبلت. ولكن لتكن ساعتين بدلاً من نصف ساعة". "لنتفق على ساعة. هي ساعة واحدة فقط. لن تتخيل مدى الصبر الذي يجب أن أتجمل به لأتحفل الحديث إلى بشري ساعة كاملة. هل تتخيل الحديث مع بشري أجرب ساعة كاملة؟!". ومع أنني شعرت أنه اتفاق مُحجف بحقي إلا أنني قبلت. وهتفت: "متى سيبدأ عهد صداقتنا أيها الفأر العزيز؟". "مع أول قطعة خبز أيها الإنسان الأجرب". وغادر بسرعة، وقبل أن يعبر الشيك، ناديته: "أيها الفأر؟". وتوقف تحت الشيك تماقاً، دون أن يلتفت نحوي: "ماذا تريد؟". "أريد أن أعرف اسمك". "وماذا يهمك من معرفة اسمي؟". "لأناديك به". "لا بأس. نادني (دِزص)".

الإنسانُ غَدَّارٌ بطبيعِهِ!

صار الفأر يعرف مواقيت الخُبز قبلي. هل يتلصص على شاحنات الغذاء؟ أم يسمع حركة عجلاتها، ويُمَيِّز بين الحركات؟ أم أنه يشم رائحة الخُبز التي لو كان طازجًا لَشَمَفناها نحن؛ أية رفاهية يُمكن أن تحل بنا لو أنه جاءنا طازجًا، غير أنه لم يأت في أيامنا كلها إلا يابسًا أو غويصًا أو مضغوظًا، وما أكثر ما يجيء غَفْنًا!

كنت أسمع خشخشة حركة الفأر كلما أرادنا أن نلتقي، أو أسمع نَمِيمَه وهو يعبر من تحت الأسلاك المُسَيَّجة، يتخلل أجساد الناس الجائمة هنا وهناك، تاركًا إياهم خلفه حتى يقف بين يدي. أقسم قطعتي مُناصفة بيني وبينه، أي أنني أقسم حياتي بيننا، يأخذ نصيبه ويغيب وقتًا ما قبل أن يعود ثانية لتحدث، لقد كان هذا الحديث يساوي بالنسبة لي شَطَرَ حياتي!

"أيتها الملكة المُوقرة؟". "ما وراءك أيها الفأر؟!". "لقد جئتُك من مجتمع البشر بنياً يقين". وأشارت ملكة الفئران إليه، علامة على الموافقة للبدء في الحديث: "قل، وأوجز". "إن بعضهم يأكل بعضًا. ويشرب بعضهم دماء بعض. ويُقَيِّد مَنْ يملك السلاح الغُزْلَ منهم في سجون كبيرة وكثيرة". "ولماذا يفعلون ذلك؟!". "لا أدري. حاولت أن أفهم ذلك لكنني عجزت". "إنه أمرٌ مُمَيِّزٌ للاهتمام، هل تستطيع أن تأتيني بتفسير مفهوم لهذا السلوك الغريب؟". "بالطبع يا سيديتي". "كيف؟!". "لقد بنيت صداقةً مع واحدٍ من هؤلاء البشر". "ثَصادِقُ بشريًا وهذه صفاتهم. لا بُدَّ أن يكون لذلك مُقابل!". "لا شك في ذلك

يا سيدتي، فأنا فأز حكيم، ولا أقبل بصدقة عدو سفاك إلا إذا كان هناك مقابل". "وما المقابل أيها الفأر الحكيم؟!". "الخبز والمعلومة أيتها الموقرة". وحكّت ملكة الفئران ذقنها، وعدلت الثاج فوق مفرقيها، وتنهدت طويلاً قبل أن تردف: "إن قبولك بهذه التضحية محظ تقديرنا. ولكن حذار؛ فالإنسان غدار بطبعه". "لا تقلقي يا سيدتي، فمعدل ذكاء الفأر الواحد منا يفوق معدل ذكاء البشري، وأنا أدرك جيداً مخاطر أن يُصادق واحد منا واحداً منهم". ابتسمت الملكة ابتسامة الرضا قبل أن تهتف: "قلت لي الخبز والمعلومة. أما الخبز فمقابل جيد. ألا ترى أن فسادهم قد قلص نصيبنا من الطعام الذي جعله الله شركة بين خلقه؟!". "بلى يا سيدتي". "ولكن ما هي حمولة الخبز التي تحصل عليها جزاء هذه الصداقة الخطيرة؟!". "نصف قطعة كل يومين أو ثلاثة". "إنها قليلة، ولا تسد العجز الذي أصابنا بسببهم". ثم ساد صمت قبل أن تكمل: "فما ترون يا مجتمع الفئران الكريم؟". وحكّ (دِرض) ذقنه، وبرم، ولم يجذ إجابة، قبل أن يُنقذه فأز أوسع منه تجربة وأكبر عمراً، وتقدّم إلى عرش الملكة، وركع بين يديها، فأمرته أن يرفع رأسه، وسمح له بالحديث: "ما رأيك أيها العزيز؟!". "أرى أن نبعث بمجموعة أخرى من الفئران ثقيف علاقات مع آخرين في هذا المعسكر البغيض، لتأتينا بمزيد من الخبز". وقطبت الملكة جبينها، وهتفت بصوت غاضب: "لن ألقى بشعبي إلى التهلكة من أجل لقيمات من الخبز. يمكننا أن نعوض النقص في الخبز بمزيد من قرض الأخشاب، ولغق ما فوقها، أو حتى مضغ الأوراق". "سيدتي، معاذ الله أن أطرح رأياً يمكن أن يموت بسببه عدد منا". "وكيف هذا؟". "إن الأوراق والأخشاب لم تعذ موجودة، وإنه

لا سبيل إلا إلى هذه الحيلة الذكيّة". وظلّت الملكة صامتةً كأنّها لا تريد أن توافق على ذلك، فأردف الفأر: "سيدتي، نبعث بأهل الخبرة في التّعامل مع البشر، نحن نجيد الخروج من المتاهات، فلن نعجز عن أن نجد حيلة". "أترى هذا الرأي وجيهاً يا (دزص)؟!". وابتسم (دزص)، وأعجبته ثقة الملكة به، وقال وهو يحني جذعه احتراماً: "أرى أنّه رأي صائب أيتها الجليّة، بشرط أن نختار من يُصادق البشر من حكمائنا، ومن لهم باع طويل في التّعامل مع هذا المجتمع المريض". ورفعت الملكة ذقنها، وأخذت نفساً عميقاً، قبل أن تخفض رأسها وتوجه كلمتها إلى المجلس المُنعقد: "وأنتم أيّها الحكماء هل ترون هذه فكرةً سديدة؟!". وتقدّم المُستشار، وركع ثم نهض، وهتف: "بالمقارنة بين المصالح والمفاسد، وبالموازنة بين الواقع والوسيلة، أرى أنّه رأي صائب". "إذا فليخمنّا الله".

وتسلّل الفأر في ليلة من ليالي الخريف. وجلس بين يديّ: "ها قد جيئك أيّها البشري". "مرحباً بك يا صديقي. ولكن ما الذي جاء بك، إنّ الخبز لم يأت بعد؟!". "إنّه في طريقه إلينا يا حارث. لا تقلق". "كيف تعرف ذلك؟!". "نحن نعرف أكثر منكم". "من تقصد؟!". "نحن الفئران، وأنتم البشر". وضحك، وطالّ ضحكته: "إنك مُسلّ يا دزص. قُص علينا حكايةً من حكايات الفئران". "سيأتي الخبز قبل أن أشرع بها ولن يكون بمقدوري أن أتمّها، فعليك أن تتحلّى بالصبر قليلاً". وجاء الخبز كما قال. وصارَ هو علامةً عليه، وبات صوت (نميمة) يقترنُ بقدومه، ولم يكن يطرق سمعي في المعسكر كلّه أجمل من ذلك الصوت!

ومزّليل، وتبعه ليل، ثم جاء من بعده ليل. وتوطّدت بيننا الصداقة،

وَصِرْتُ أَرَى فِتْرَانًا أُخْرَى كَثِيرَةً تَجُوسُ خِلَالَ الْمُعْسَكِرِ: "مَنْ هَؤُلَاءِ يَا دَرِص؟". "إِخْوَتِي". "إِنَّهُمْ كَأَسْرَابِ الثَّمَلِ". "إِنَّهُمْ الْحُكَمَاءُ". "وَلِمَاذَا جَاؤُوا؟". "لِيَنْقُذُوا شَعْبَهُمْ مِنَ الْهَلَاكِ. إِنَّ الْخُبْرَ قَدْ شَخَّ فَوْقَ هَذِهِ الْأَرْضِ بِسَبَبِكُمْ، وَإِنَّهُ لَا بُدَّ مِنْ بَعْضِ الْإِتْفَاقِيَّاتِ مَعَ الْعَدُوِّ مِنْ أَجْلِ أَنْ نَعِيشَ مَا تَبْقَى لَنَا مِنْ عَمْرِ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ".

صَاحَ قَائِدُ الْجُنُودِ عِبرَ مُكْبَّرِ الصَّوْتِ: "التَّفِيرِ". وَبَقِيَتِ الْأَجْسَادُ الْمُتَهَكَّةُ جَائِمَةً. وَطَافَ بَيْنَنَا عِدَّةٌ مِنَ الْجُنُودِ يُصَوِّبُونَ فُوهَاتِ بِنَادِقِهِمْ إِلَى رُؤُوسِنَا: "هَيَّا... هَيَّا... إِلَى الْمَذْبَحِ". وَرَجَفَتِ الثَّرَقُوتُ، وَارْتَعَشَتِ السَّيْقَانُ، وَوَجَفَتِ الْقُلُوبُ. "لَنْ يَنْجُو أَحَدٌ". وَجَمَعُوا مِنَّا حَوَالِي مِئَةٍ هُنَاكَ، وَأَيَّقَنَتْ أَنَّهَا النَّهَايَةُ، وَأَنْنِي سَأُودِعُ هَذَا الْعَالَمَ الظَّالِمَ، وَشَعَزْتُ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ إِلَى شَيْءٍ مِنَ الْارْتِيَاحِ: "أَخِيرًا سَأَتَخَلِّصُ مِنْ هَذِهِ الْحَيَاةِ الَّتِي لَا يُمَكِّنُ أَنْ تُعَاشَ". وَنَظَرْتُ إِلَى أَيْدِي الْجُنُودِ فَلَمْ أَرَ السَّكَائِينَ الْمَشْحُودَةَ فِيهَا، فَقُلْتُ: "لَنْ يَذْبَحُونَا، وَلَكِنْ رُبَّمَا سَيُخَنِّقُونَنَا، أَوْ يَدْفِنُونَنَا أَحْيَاءً، أَوْ يُعْدِمُونَنَا بِالرَّصَاصِ". وَلَمْ يَحْدُثْ هَذَا وَلَا ذَاكَ وَلَا ذِيَاكَ.

وَحَشَرُوا الْمِئَةَ فِي شَاحِنَةٍ وَاحِدَةٍ، وَكَانَ فِيهَا إِلَى الرِّجَالِ نِسَاءٌ وَأَطْفَالٌ، وَسَارَتِ الشَّاحِنَةُ، وَلَمْ تَكُذِّ تَبْتَعِذُ كَثِيرًا عَنِ الْمُعْسَكِرِ، حَتَّى بَدَتْ أَطْلَالَ الْبُيُوتِ الْمُهْذَمَةِ وَالْمُحْتَرَقَةِ، وَظَلَّتْ تَسِيرُ حَتَّى دَخَلْنَا إِلَى (غُورَاذِدَةَ)، فَصَارَتِ الشَّاحِنَةُ تَسِيرُ عَلَى الْجُمُثِ الْمُتَنَازِلَةِ فِي الشُّوَارِعِ، وَعَلَا بُكَاءُ الْأَطْفَالِ وَنَشِيجُ النِّسَاءِ، وَلَمْ نَكُنْ قَادِرِينَ عَلَى التَّفَوُّهِ بِكَلِمَةٍ، وَكُنْتُ أَنْظُرُ فِي الْعَيُونِ فَارَى الْهَلَعَ، وَنَحْنُ مُقْعُونُونَ فِي قَعْرِ الشَّاحِنَةِ لَا نَدْرِي لِمَ أَخْرَجُونَا مِنَ الْمُعْسَكِرِ عَلَى هَذِهِ الْهَيْئَةِ؟!

ولقا صرنا في وسط المدينة، رأيت (التشيتنيك) يخرجون الناس من البيوت إلى الأرصفة، ويقومون بإعدامهم برصاصة في الرأس، وتهاوت الأجساد على وجوها مقيّدة الأيدي بحبال خلف ظهورها، وكان بعضهم مقلّث بقيت فيه حياة يئنّ مُستغيثًا ولا مُجيب، ومَن بقي فيه نزع من حياة، فُرم تحت عجلات الشاحنة.

ثم مررنا بمدرسة، وأشار أحد الجنود الواقفين على بوابتها لشاحنتنا بالوقوف، وتوقفت، ونزل منها السائق، وسأله الجندي: "إلى أين؟". "إلى مخفر الشرطة". ووقعت قذيفة ليست بعيدة مِنّا فارتجت الشاحنة، وخفضنا رؤوسنا، وخفضوا رؤوسهم يثقون الشّظايا، وأصيبوا وأصَبنا. قبل أن يهدأ الغبار بعد ذلك، ويتابع الجندي: "من أين جيئتم؟". "من المُعسكر". "هل جميع مَن معك من البوشناق؟". "بإمكانك أن تتأكد بنفسك". وقبل أن يهتم بالصعود إلى شاحنتنا، صاح به ضابط من خلفه: "لا شأن لك بذلك، دَعهم يُتابعون سيرهم إلى المخفر، لديهم مهمة". وقبل أن يصعد سائقنا إلى الشاحنة وتتابع سيرنا، هتف الضابط: "توقفوا ليس قبل أن تُشاهدوا حفلتنا".

كانوا قد جمَعوا في ساحة المدرسة عددًا لا يُمكن أن أعرفه، ولكنه كان أكثر من مئة. الرجال جمعوهم عند الممر الذي في يمين المدرسة، وهم مُقيّدو الأيدي، يمين الأول إلى يسار الثاني كما لو كانوا دواب أو عبيدًا شيباعون في الشوق. أما النساء فقد ضُففن في الممر الواقع عن يسار المدرسة، وكان يُمكن أن ترى فيهنّ الصغيرات والكبيرات، والمتزوّجات والفتيات والطفلات. أما الرجال فطاف عليهم اثنان، بدأ الأول بآخر الصف، والثاني بأوله، وراحوا يُطلقون

عليهم الرصاص، كانَ مَنْ يهوي يجرّ المُقَيّد إليه، وكان الجندي لا يُمهله حتّى يسقط لتستقرّ رصاصةٌ ثانيةً في رأسه، وكان يُمكن في هذه الحركة أن تُخطى الرصاصة الرأس وتُصيب الظهر، فيبقى الجاني ينزف إلى أن يفارق الحياة.

أما النساء فعلى إيقاع الرصاص، والأجساد المُتهاوية، كان جنودٌ يغتصبونهنّ، بمن في ذلك الطفلات اللواتي لم تتجاوز أعمارهنّ ست سنوات!

ماذا يعني أن ترى هذا كلّهُ؟ لا شيء. العالم لا يكثر، لماذا علينا أن نكثر؟! لم أعرف مَنْ يستحقّ هذا ومَنْ لا يستحقّ، ولم يعذ يقفز إلى جمجمتي السؤال القديم: "لماذا يفعلون هذا بنا؟"، ما دام السؤال مُتواطئًا مع القِتلة فلا قيمة لنهوضه من بئر عقلي الذي فقدته أو كدت. هل أصابتنى لوثة الاعتياد! يا ربّ كلّ شيء، أنا أحقر من أن أعترض، ولكن حقًا: "لماذا؟".

تابعت الشاحنة طريقها إلى المخفر. نزل سائقها حالما وصلنا إلى هناك، ونزل الضابط الذي يركب إلى جانبه، وخرج ضابط آخر من المخفر. قال ضابطنا: "لقد نفدنا الأوامر. جئناكم بهذه الشاحنة المليئة بالبوشناق". أشار الضابط إلى جهة من المخفر: "إنّ القذائف تأتي من تلك الجهة". "ماذا تريدني أن أفعل؟!". "إنّ الجيش البوسني يقوم بقصف تلك الزاوية بسبب موقعه. سنستخدم هؤلاء الحثالة دروعًا بشرية. صُغ أكرهم هناك، ووزّع البقية على بقية الأنحاء".

وخلال دقائق، كانوا يأمرونا: "هيا... هيا أيها المُجرمون". وسقطت قذيفة فأحدثت حفرةً كبيرةً في الجهة الشماليّة من المخفر. كانت

المباني تتمركز في الجهة الجنوبية، وباستثناء أن الشاحنة كادت أن تنقلب وتدهس تحتها من تبقى منا ونحن نازل فإن أحدًا لم يمض. وضحك في سري: "لم يمض. كيف يكون هذا شكلاً من أشكال النجاة من الموت؟". ألقوا توزيعنا. كان حظي مع الكتلة الكبرى جهة الشمال. الموضع الذي يتجمع فيه الجيش الضربي كذلك. وهدأت القذائف قليلاً، وإن كانت أصواتها تسمع واضحة بين فترة وأخرى.

وبقينا هناك أيامًا دون طعام. وأرسل القائد الضربي عبر اللاسلكي رسالة إلى الجيش البوسني: "إننا نستخدم شعبكم دروغًا بشرية فكفوا عن القصف". وسكت. قبل أن يضغط مرة أخرى على الجهاز ويتابع: "تعتقدون أنكم تستطيعون السيطرة على المكان. غورازدة لنا، لن تحلموا بها". وكنا نشرب من جرادل ملوثة. وشرب بعضنا بولاً. وفي يوم لا أدري أهو الخامس أو السادس، فما فائدة أن تعد الأيام، سقطت قذيفة فوق رؤوسنا، وبعثت تلك القذيفة العمياء نصفنا إلى العالم الآخر، وسقطت أنا في العالم الآخر، ولا أدري لماذا تشبثت بروحي بطرفه، وتعلقت هناك دون أن أتم سقوظها. لقد صرخت أوقن أن الموت لا يتفاداني فحسب، بل يهرب مني!

حين استيقظت وجئت أن الضرب قد جنى جنونهم، كانت القذيفة قد قتلت عددًا منهم مثلنا، وهذمت مبنى المخفر على رؤوس بعض ضباطهم، فراحوا يطلقون النار حتى على من فارق الحياة منا. ووجه صربي مسدسه نحوي، وقبل أن يضغط على الزناد، في اللحظة التي تقف متأرجحة بين الموت والحياة، في أقل من ثانية، ثانية ذهب نصفها باتجاه الموت، وظل نصفها في يد القدر، في تلك اللحظة بالضبط صاح ضابط دون أن أراه: "يكفي. لا تقتل المزيد. نريد أن

نستخدمهم دروغًا بشرية مرة أخرى". وتراخت قبضة الموت التي كانت مُصوّبة نحوي، واستدار الجندي وأعطاني ظهره، وخرج الهواء المحبوس في صدري حارًا. إنها لعبة الموت والحياة، لا أحد يعرف سِرّها ولا القوانين التي تحكمها، ولا كيف تجري!!

(11)

ما أكذب الأمل!!

وهكذا أعادونا - أو مَنْ تبقى منا - إلى المعسكر. لم أكن أدرك من قبل أن هذا المعسكر مثل ينبوع الفتدفق، لا الزمن يوقف استمراره، ولا الماء المدلوق منه يُصيبه بالجفاف. وكذلك نحن؛ يأخذ الموت بيده عددًا منا كل يوم ويرافقهم خارج هذه الأسلاك الشائكة، ومع ذلك يضج المعسكر بالمعتقلين كأنهم لم ينقصوا. إن سر استمرار الوجود أمرٌ مُحيرٌ حقًا!

"أين كنت؟! لقد جاء الخبز مرتين في غيابك!". قال لي (دِزص). "لقد أخذونا إلى مركز الشرطة؟". "لماذا؟". صمت، لكنه تابع: "أنا أعرف لماذا؟ لكي يقتل بعضكم بعضًا، هذا ليس جديدًا عليكم، لن تتخلصوا من غريزة القتل المركوزة فيكم، إن شهوتكم لرؤية الدّم وهو يسيل تتعاطم كلما ظننتم أنكم تتقدمون في هذه الحضارة الزائفة، أنتم لسثم أكثر من هَمَج". "أيها المفعوص. لم أهبك نصف حياتي المتمثل في نصف قطعتي من الخبز من أن أجل أن تُسمعني هذا الهراء". "هراء؟! أنتم لا تتعلمون، ولا تريدون أن تسمعوا الحقيقة، تُزعجكم الحقيقة دائمًا". "صادقك على أن تقص علي قصة أتسلى بها وأتسرى". وعدل (دِزص) جلسته، ثم سمعته يهمس: "لا فائدة" قبل أن يسألني: "هل تعرف كورت ريختر؟". "من؟!". "بالطبع لن تعرفه". "أريد قصة من قصصكم، ولا أريد قصة خيالية". "إنها حقيقية أيها الجاهل". "إذا قُصها علي". وتنحنح (دِزص) مُمسكًا خنجرته بطرفي إصبعيه الإبهام والوسطى: "أحضر (كورت)

مجموعة من الفئران، ووضع كل فأرٍ في إناءٍ زجاجي كبيرٍ مُمتلئٍ لمنتصفه بالماء، وبالطبع لا يستطيع الواحدُ منا أن يتسلق جدارًا أملس من الزجاج. هل تعرفُ ذلك؟". "يا دِزص لا تبدأ بالأسئلة. أكمل الحكاية وفِ بعهدك. لقد أعطيتك للتو نصفَ قطعتي من الخبز". زفر الفأر، قبل أن يُتابع: "لقد قام (كورت) بعد ذلك بحساب الوقت الذي سيستمر فيه كلُّ فأرٍ منا في السباحة ومحاولة الخروج قبل أن يستسلم للغرق. بعضنا قاومَ لفترةٍ طويلة، وبعضنا لفترةٍ أقل، وبين الفترتين استسلم مُعظّمنا، وكان متوسط مقاومتنا للغرق والسباحة قبل الاستسلام خمس عشرة دقيقة. أعاد (كورت) التجربة لكن مع إدخال بعض التعديلات؛ كان عندما يرى الفأر في لحظاته الأخيرة، وأنه على وشك الاستسلام، يقوم بإخراجه من الإناء ويُجففه ويتركه يستريح لبعض الوقت ويلتقط أنفاسه، ثم يضعه مرة أخرى في الإناء! فعل ذلك مع كلِّ فأر، ثم أخذ يحسب متوسط وقتِ المُقاومة للغرق والاستسلام في المرة الثانية فوجد أنها أكثر من سَتين ساعة!!". "سَتين ساعة؟!". "نعم، وليس سَتين دقيقة، بل إنَّ فأرًا منا استمرَّ لمدة واحدةٍ وثمانين ساعة تقريبًا!!". وصمت الفأر، وصمت، وزفر وزفر. وهتفت: "أتريدُ أن تقول إنه الأمل أم الثُحل أم قَتْلُ اليأس أم ماذا؟". "عَلَيَّ أن أقضَ عليك أن تستنتج، كُن حكيماً يا صديقي". "أريدُ قِصةً أخرى". "القِصة بقِطعة". "كم أنت بخيل". "شعبي ينتظرنِي". "اغرب عن وجهي". وسقطت في بئر النوم.

وسمعتُ جلبةً عاليةً ذاتَ صباح، ورأيتُ عند أول المُعسكر جهة المذبح عددًا كبيرًا من الجنود ومعهم عددٌ أكبر من عُقالٍ يضعون خوذاتٍ صفراء على رؤوسهم، وثلاث شاحناتٍ يصطفُ بعضها خلف

بعض، ورأيثهم قد بدؤوا يُنزلون من هذه الشاحنات ألواحاً كبيرة بيضاء، ثم يتقدمون بها إلى الجهة المُجاورة للمذبح من الشمال، وفي مساحة فارغة رأيث عددًا من الغُقال ذوي الشُترات البرتقالية يُشيرون بأيديهم إلى الآخرين ويُلْقون عليهم عددًا من الأوامر فيما يبدو، ومن الشاحنة الثالثة رأيث عددًا من الأعمدة الحديدية بأطوال يزيّد بعضها عن خمسة أمتار تُحْمَل على رافعات موضعية خاصة ركزوها عند أول المذبح، ثم يُسار بها إلى الموقع. ثم حُفرت لتلك الأعمدة، ورُفِعَتْ على قواعد مصبوبة، ثم ثُبِتَتْ في تلك القواعد، وبعدَ يومين كانَ الهيكل الحديديّ لما يبدو أنّه بناء ضخم قد تمّ، وفي اليوم الثاني كان العدد الضخم من الغُقال ذوي القُبُعات الصفراء قد بدؤوا بكسوة القُضبان الحديدية العارية بالألواح البيضاء، وتَمّ لهم الأمر مع غروب شمس اليوم الرابع.

وبدأت الأسئلة تطرق دماغي: "لماذا بنوه؟ وهناك قرب المذبح؟ ربّما سيُدخلوننا إليه من أجلِ حمايتنا من البرد الذي لا يرحم فالشّاء قائم. هل يُمكن أن يكونوا قد بنّوه من أجل الجنود، ليعيشوا فيه؟ ولكنه كبيرٌ عليهم... لكنه أيضًا لا يثّسع للمُعْتقلين جميعًا". ومزّت أيام، وخمدتِ الأسئلة. وكلّ ما تارَ منها في لحظة الذهشة الأولى صار باردًا سَمِجًا، ولم أعد أشغل نفسي بها كثيرًا.

لكن حَدَّثَتْ حوادث أعادتِ الأسئلة إلى البروز على سطح قشرة الدِّماغ الفهترئة. كان كلّ يوم يدخل إليه عددٌ من المعتقلين ولا يخرجون منه. لقد رأيث ذلك بأمّ عيني. ثم صرّت أرى عددًا من سيّارات الإسعاف تأتي إليه، وعددًا من ذوي القُمصان البيضاء يدخلون إليه حاملين في أيديهم ملقّات ما، إنهم أطباء أو مُمرضون،

لا شك في ذلك. إذا هذا مستشفى ميداني، أيمكن أن يكون الله رَقَّق قلبَ الضرب علينا، فصاروا يأخذون المرضى والجرحى مِنَّا للعلاج داخل هذا المبنى؟ ولكن لماذا يدخلون إليه ولا يخرجون منه؟! ولكي أطرِدَ إجابةً سيئةً لسؤال كهذا، فكَّرْتُ: "إنَّهم لا يخرجون منه لأنَّهم يأخذونهم من هنا بسيارات الإسعاف إلى المستشفيات الحقيقية". واستمرَّ الأمر على هذا النحو قرابة أسبوعين. حتَّى جاء اليوم الَّذي دخلتُ بنفسِي إليه.

مرَّ بنا في الصُّباح أربعة جنود ومعهم طبيبان. كان الأطباء يتفخَّصون وجوهنا، وضدورنا، وسيقاتنا، وكانوا يُجرون تجربةً بسيطةً، ينظرون بمصباحٍ صغيرٍ في عيوننا بعدَ أن يقوم الجندي بفتحها على اثَّساعها، وكانوا يُشيرون إلى مَنْ اختاروه مِنَّا قائلين: "هذا، وهذا، وهذا...". جمعونا حوالي عشرة، وساقونا إلى هناك، وفغزْتُ فاهي أول ما دخلت. هالني عُمق المبنى وارتفاعه، وخيوط الشمس التي تدخل إليه من نوافذ علوية فتطبع قُبلاتها الواهنة الدافئة على كلِّ ما تصلُ إليه. ولوهلة ظننتُ أنني في أسعدِ لَحظاتِ حياتي، وأُتني سَاحَظِي بعلاجٍ شاملٍ لجسدي المُفخَّرَق، وأُحصل على طعامٍ دَسِمٍ وشرابٍ ساخن، وهمستُ في نفسي حينَ عبَرْتُني هذه الموجه من الثَّفاؤل وخاصة بعدَ قِصة الفأر: "إنَّني في الجنَّة". وتخيَّلتُ أنني سأُخرجُ من هنا اليوم، وسيذهبون بي إلى إكمال العلاج في الخارج.

على الجانب الشرقي تحت النوافذ العلوية امتدَّ عددٌ من الأسرَّة الطَّبيَّة يزيْدُ عن عشرين سريراً، وكانت هناك مسافةٌ قريبة من مترين أو أكثر بين سريرٍ وآخر، يستقرُّ فيها عددٌ من الأجهزة الطَّبيَّة التي

لا أدري ما هي أو كيف تعمل ولماذا جاؤوا بها إلى هنا. هل يُمكن أن يصحو ضمير الإنسان هكذا فجأة، فيقرّ بذنبه، ويعمل على التكفير عن خطاياہ بهذه السرعة؟!

أيقظني من تساؤلاتي وخيالاتي أصواتٌ قادمةٌ من الباب، يبدو أن السيّارات التي تحمل الأطباء قد وصلت للثوّ، وبالفعل سمعتُ جلبة دخولهم من هناك، كانوا أكثر من عشرين ملاكًا بقمصانهم البيضاء وشعورهم الشّرقاء وأعينهم الزّرقاء وهيئتهم النظيفة وخُطواتهم التي تدلّ على امتلاء أجسادهم بالصّحة، وهمستُ في أعماقي: "ما أجمل ملائكة الرّحمة هؤلاء! يا لسعدِكَ يا حارث! إنّه يومٌ حظّك. ستحظى بعلاجٍ مبدئي على أيدي هؤلاء الرّائعين، ثم ستخرج لِتتابعه في أحسن مُستشفيات (سراييفو)، وستكون الحرب قد انتهت، وكفّت الأطراف كلّها عن الحماقات التي يرتكبونها".

كنا لا نزال واقفين نعتذ أيدينا خلف ظهورنا في الجهة الغربيّة المُقابلة للأسرة، حينَ اتخذ الأطباء والممرّضون استعدادهم، وكان في يد كلّ واحدٍ منهم ملفٌ يُطالعه بنظراتٍ فاحصة. ثم تقدّم إلينا الجنود فتّلونا من أيدينا، وساقونا سوّق الخراف، ويا ليئهم ساقونا إلى المذبح، فإنّ المذبح نعيمٌ إلى ما سيكون.

أخذوا الأوّل منّا، كنث أنا السّادس في التّرتيب، وأضجعه الجنود على السرير، وقاموا بتقييده إلى قوائمه، فيما تولّى الطّبيب إحكام لفّ سيرٍ على كامل جسده حتّى لا يتحرّك، ورفع الطّبيب إبرةً تخدير، وحقن المسكين بها، فتراخى جسده، وقبل أن ينام جزاء ذلك، كان الطّبيب قد بدأ بفتح صَدْرِهِ، فتّحه بآلة كالمنشار، كان صوت أزيزها

وهو يقض القفص الصدري مُرعبًا، كانت تئز فيتناثر الدّم في كل اتجاه ويرشق وجه الطّبيب الذي غطّى نصفه بقناع بدا من خلفه جُزأًا مُرعبًا وليس طبيبًا. وفتح الطّبيب بالمنشار مقدار ثلاثين سنتيمترًا من أعلى الصدر، ثمّ فُتق بيديه الجُزأين المُفتوحين، وسانده في هذه اللّحظة طبيب آخَر أصغر سنًا، فأمسك له القلب فرفعه أعلى من الصدر المشقوق، وتولّى الطّبيب الماهر فضله عن الجسد المذبوح، ووضعه في إناء ومحلولٍ خاض، وأشار إلى الجنود: "انتهينا". فجاء ثلاثة منهم، ففتح أحدهم كيسًا أسودَ كبيرًا، وشحب المذبوح من قدميه فألقى فيه وأغلق فوقه، وتولّى اثنان حمل الجُثة ورَكَّأها في موضع سيكون محطة تجميع الجُثث ريثما تُحقل إلى الخارج ويُحفر لها ثمّ تُدفن في مقابر جماعيّة.

ثمّ جاء دور الثاني والثالث والرّابع والخامس، وتوقّفوا عندي حيث أنا السادس، من أجل أن يعودوا إلَيّ في المرّة القادمة. أمّا الثاني فوَضَعَ على السّرير، وراحوا يسحبون منه الدّم، سحبوا منه الوحدة الأولى. ثمّ ربطوها، وبدؤوا بسحب الوحدة الثّانية، أخذَ الجسدُ يذوي. لم يتوقّفوا؛ شَرَعوا يسحبون الوحدة الثّالثة. همسَ طبيب: "قد لا يحتمل". "لا نريدُه أن يحتمل، نريدُ دمه كلّهُ". "قد يموت". "وَلِيَكُنْ". "كم وحدة نريدُ أن تسحب منه؟". "الحَدَ الَّذِي لا يبقى فيه قطرة دم واحدة". "طبيبًا كم وحدة يحتمل هذا الجسد؟". "في رأيي أربعًا، وممكنُ خمسًا. كلّ ما عليك أن تراقب وظائفه الحيويّة؛ حين يتوقّف كلّ شيءٍ سنتوقّف نحن". وألقوه في الكيس الأسود كما فعلوا بسابقه، وشحبَ إلى محطة الجُثث.

وأصابنا الدُّعر. وتمايلت أجسادنا لضعف سيقاننا عن حملنا لهول

ما رأينا. وفكر بعضنا بالفرار، أو بالاستسلام والخُرور على الأرض. وتذكّرت قصة (دِزص) فأعطيته نفسي ذفقةً من الأمل، وما أكذب الأمل ولكن المرء يهرب منه إليه! وركض الثالث والرابع يريدان أن ينجّوا فلو حقا قليلاً قبل أن يُعيدهما الجنود إلى موضعنا، ثم يقومون بتقييدهما إلى ساريتين تهبطان من مُنتصف السقف إلى الأرض.

ثم أخذوا الثالث إلى سرير ثالث، لقد تلوث السريران الأولان بشكل تام. وسمعت طبيباً يهمش في أذن آخر وهم يُقيدونه ليدؤوا معه فظاعتهم: "إن هذه التجربة يُمكن أن تُطبّقها على حيوان، لماذا فعلوا ذلك؟". "وهذا الذي تراه، أليس حيواناً؟". "صحيح. ولكن..". "الحيوانات البشريّة التي ثقاتلنا كثيرة، هناك عددٌ وافٍ منها، فلماذا نستخدم الشبيه ما دام لدينا الأصل؟!". ومَدّ أحدهم قابِلاً إلى الجهاز الواقع خلف السرير، وأمسك الآخر بُقطين ووضعهما على الصدر العاري فقفز الجسد قفزةً عالية. ثم صعقه ثانية، وثالثة، ولا أدري كم استمرّ في صعقه لأنّه كان قد أغْمِيَ عَلَيَّ.

أيقظوني عندما وصل الدور عندي: "هَيّا أيّها الجُرْد. لدينا عمل. لماذا تنامون كثيراً أيّها البُشناق الكسولون؟!". وجرّني من ذراعي وألقاني إلى السرير السادس، ولمعت عينا الطبيب اللتان تحدّقان في عيني من وراء نُظّارتيه السميكتين. وضَيّقهما مُتسائلاً: "كم عمرك؟". "سبع سنوات". وكذبت للمرة الثانية أو الثالثة لا أدري. وتوقّف عن رفع المنشار الذي شغله ليبدأ مهمته، وركّز ذراعه الأخرى على وسطه، وعبر عن تأفّفه: "هؤلاء الجنود حمقى. قلّث لهم إنني أحتاج إنساناً بالغاً. هؤلاء لا يفهمون". وصرخ بالجندي: "هيه... أنت تعال". وهرع إليه الجندي، وفك وثاقي، وهتف: "أرسله إلى السرير العاشر". وهكذا

صار رقمي عشرة، وتبدلت الأرقام والمواضع لحكمة سماوية، وما تجلّت لي حكمة فأعرفها.

وحين حان دوري الجديد، رأيت طبيبًا شابًا في أول العشرينات، قال لي: "أنا طبيب مُدرّب". وأردت أن أسأله فخفت أن يخفي هذا الوجه الوداع وراءه شيطانًا خبيثًا. فبقيت صامتًا، وأردف: "لم تسألني عما نقوم به؟". وبقيت صامتًا. "إننا نقوم بالتدرّب على التشريح". وصمت برهة قبل أن يتمّ بلهجة كأنما يُعاتبني: "لم تسألني ماذا تُشرح؟". وكنت أريد أن أقول له: "لماذا أسألك وأنا أرى ذلك بعيني". ولكنني آثرت الصمت، وتابع هو في ضجرٍ بادٍ: "قالوا لنا تشريح الكائنات البشريّة أرقى من تشريح الفئران، الأجساد الحيّة الطازجة أفضل بكثير من الجثث المُتفسّخة". وانفرجت شفّته عن صفّ أصفر من الأسنان.

وانتصف النهار. وثمّ لهم ما أرادوا، ورحل الأطباء ومعهم إضباراتهم تحت أباطهم، وصناديق خاصّة يحملون بها أجزاءً متنا، وكنت أنا لا أزال مُقيّدًا إلى السرير العاشر، وخلا المسلخ الميداني من الجميع باستثناء جنديّين أو ثلاثة، وفكّرت أن هؤلاء لو خرجوا وتركوني هنا فسأحظى بليلة هائلة على هذه الأسيرة الوثيرة بالرغم من الفظاعات التي عاينتُها، وحانت من أحد الجنود التّفاتة فرآني، فهتف لزميليه: "وهذا؟". فاقترب: "لقد تركوه ورحلوا!". وسأله: "ماذا نفعل به؟". "إنّ عند رأسه منشارًا". "ثمّ". "لا بدّ أنهم كانوا يريدون أخذ جزء من أعضائه". "ربّما". "ما رأيك أن نقومّ بهذا عوضًا عنهم؟!". ولمعت عينا الآخر، وأعجبته الفكرة، ورفع المنشار: "إنه كافر". "اقطع إصبعين وأبق على ثلاثة". ودون أن يفكر، شغلّ المنشار وأنا لا أكاد أصدق

أُتني لن أنجو هذه المرة، وجرى صوت المنشار وأزيزه في لحمي وعظمي، وهتف صاحب المنشار بعد أن أتم مهمته: "الآن صرت مؤمنًا".

في ذلك الليل الممّعن في اللامبالاة خرج تسعة من الباب الخلفي، إنهم أولئك الذين كانوا يدخلون ولا يخرجون، وأنا الوحيد الذي خرجت من الباب الأمامي.

(12)

ما أضعف الإنسان!

شَقَقْتُ قَمِيصَ بَدَلَتِي الرِّياضِيَّةَ، وَلَفَقْتُ بِهِ يَدَيِ الْيُسْرَى فِي الْمَوْضِعِ الَّذِي قَطَعُوا بِهِ إصْبَعِي الْإِبْهَامِ وَالسَّبَّابَةَ. ظَلَّ الدَّمُ يَنْزِفُ، وَصَارَ لَوْنُ الْجُزْءِ الْمَشْقُوقِ مِنَ الْبَدَلَةِ بَرْتَقَالِيًّا. لَمْ يَكُنْ لَدَيَّ مَاءٌ أَنْظِفَ بِهِ الْجَرْحَ، وَلَا دَوَاءَ أُسَكِّنُ بِهِ الْأَلَمَ الَّذِي رَافَقَنِي أُسْبُوعَيْنِ حَتَّى بَدَأَ يَتَرَاوَعُ. وَلَمْ يَكُنْ أَحَدٌ يَأْسَى لِمَا حَدَثَ مَعِي، وَكَيْفَ يَأْسُونَ، وَنِصْفُ قَاطِنِي هَذَا الْمُعَسْكَرِ ذُبِحَ أَبْنَاؤُهُمْ أَمَامَ أَعْيُنِهِمْ، وَاغْتِصَبَتْ نِسَاؤُهُمْ وَهُمْ يَنْظُرُونَ؟! كُنْتُ أَحْسَنَ الْقَابِعِينَ هُنَا حَظًّا!!

مَدَّ (دِرْص) كَفَّهُ: "نِصْفُ قِطْعَتِي مِنَ الْخُبْزِ". وَكَفَفْتُ يَدَيَّ وَأَنَا أَحْتَضِرُ الْقِطْعَةَ بِيَمْنَايَ: "أَعْتَذِرُ أَيُّهَا الْعَزِيزُ". "مَاذَا؟". "أَنَا مُضْطَرٌّ إِلَى إلْغَاءِ الْإِتِّفَاقِ الَّذِي بَيْنَنَا". غَضِبَ، وَهْتَفَ: "تَقْصِدُ تَرِيدُ خِيَانَةَ الْعَهْدِ؛ سَمَّ الْأَشْيَاءَ بِفُسْفِيَّاتِهَا". "أَلَا تَرَى إِلَى جَسَدِي؟! أَلَا تَرَى إِلَى كَفِّي الَّتِي قُطِعَ نِصْفُهَا؟! أَلَا تَرَى إِلَى دِمَائِي الَّتِي نَزَفَتْ. أَنَا مُحْتَاجٌ إِلَى كُلِّ لُقْمَةٍ مِنْ أَجْلِ أَنْ أَتَعَافَى. لَا خُبْرَ لَكَ بَعْدَ الْيَوْمِ". "لَمْ تَأْتِ بِجَدِيدٍ؛ الْبَشَرُ غَدَّارُونَ دَائِمًا، إِنَّهُمْ لَمْ يُخَيِّبُوا ظَنِّي مَرَّةً وَاحِدَةً!". "قَلْتُ لَكَ أَنَا أَمُوتُ، هَلْ تَرِيدُ أَنْ تَرَانِي أَمُوتُ مِنْ أَجْلِ أَنْ أَفِي بِعَهْدِي مَعَ فَارٍ مِثْلِكَ". لَانَتْ لَهْجَتُهُ وَهُوَ يَقُولُ: "انْظُرْ إِلَى قِطْعَةِ الْخُبْزِ الَّتِي أَعْطَوَهَا لَكَ". وَقَلْبَتْهَا بَعِيدًا عَنْ مُتَنَاوَلِ سِنِّيهِ الْأُمَامِيَّتَيْنِ: "مَا بِهَا؟". "إِنَّهَا عَفْنَةٌ. انْظُرْ إِلَى النَّقَاطِ الْخَضِرَاءِ الَّتِي تَنْتَشِرُ عَلَى سَطْحِهَا". "مَاذَا تَرِيدُ أَنْ تَقُولَ؟". "أَعْطِنِي النِّصْفَ الْعَفْنَ وَأَبْقِ لِنَفْسِكَ النِّصْفَ الصَّالِحَ. فَحَالَةُ جَسَدِكَ سَتَزْدَادُ سُوءًا فِيمَا لَوْ أَكَلْتُ النِّصْفَ الْعَفْنَ". "كَلَّا. لَنْ أُعْطِيكَ حَتَّى

هذا الجزء." "أنت تتحداني." "أنا لا أتحدى أحداً، أنا أريد أن أعيش." "ونحن نريد أن نعيش أيضاً. يُمكن لهذا الخبز أن يثّسع لنا معاً، أَلَسْتُ من خَلْقِ الله؟!" "كلاً. هَيّا لا أريد أن أستمِر في الجِدال معك." "ستندم." "اغرب عن وجهي. لم يبقَ إلّا أن يتهدّدي فأرا هَيّا أريد أن أَكَلْ فأنا جائعٌ جدّاً." وخرج الفأر وهو يتوغّد.

كانوا يأتون بأعدادٍ جديدةٍ كبيرة كل يومٍ تقريباً. هل فرّغوا شرقَ البوسنة من البشر وألقوا بهم هنا؟ ما الذي يجري؟! إنَّ الموتَ الذي أخذَ المئات من هنا لم يُنقِص عددَ المُعتقلين. المُعسكر يزداد اكتظاظاً، وعبرثني موجةٌ من الأمل في أن أجِدَ في أحدِ هؤلاء القادمين صديقاً، أو أحداً يُمكنني أن أحادِثه بدلاً من الفأر، فلا أحدَ يعرف متى تكون الزياح مُواتية، والأقدار كريمة!

بدأ الجرح يلتئم. والوجع يختفي. والأيام تسير. والعجلةُ تدور. وغيّرتِ السّماء عادَتَها قليلاً. صرنا نرى الغيوم تُغطّي الفضاء، وبدأ أن الخريف هبّط فجأة، أو استعجلَ في القدوم، وكانت أجسادنا العارية ترتعش لمجرّد أن تُفكّر في أنّها ستقضي الشّتاء هنا ونحن على هذه الهيئة!

وفي ليلٍ كُنّا قد اعتدنا مروره أسوةً ببقية الليالي. أيقظتنا صيحات الجنود، وبالزّغم من أنّنا اعتدنا على أشياء كثيرة مؤلمة ومُرعبة في هذا المُعسكر، إلّا أنّني لم أعتد بعدُ على صوتِ الجنود إذا صاحوا، فقد كانت ثلّقي بصخرة كبيرة من الهلع في أعماقي فتسحب بطني وأمعائي وكل ما في أحشائي إلى الأسفل فأكاد أخور وأسقط.

صَفُّونا قريباً من المذبح. لم يَغِدِ الاصطفافُ هناك يُثير فزعاً كثيراً.

ما هو أسوأ شيء يُمكن أن يحدث؟! رصاصات في الرؤوس من الخلف، لقد شاهدت هذا المنظر مرّات كثيرة. سيفتصبون النساء في الجهة الأخرى، إنهم صاروا يفعلونه في وضح النهار.

ماذا هنالك إذا؟ لقد نجح ثلاثة بالهرب من المُعسكر. لم يتمكنوا من الإمساك بواحد منهم. وقبل أن تُروى تفاصيل العملية الجريئة، كنّا نبتسم في داخلنا، لقد شكّل هؤلاء الثلاثة عزاءً لنا من جهتين؛ إنهم أغاظوا هؤلاء السجّانين الوحوش من جهة. ودفعوا بشيء من الأمل إلى أرواحنا بأنّ ذلك مُمكن، وقد يحدث معنا ذات مرّة فثُكّبت لنا النّجاة، من جهة أخرى.

لكنّ ذلك كان له ما بعده. لم يَشؤوا أحدًا في قِدرِ عند المذبح، ولا اغتصبوا امرأةً أو أطلقوا رصاصةً على الرأس من الخلف، بل حاصرونا بالخيط الوحيد الذي يربطنا بالحياة، حاصرونا بقطعة الخُبز. منعوها أن تدخل إلى هنا طوال عشرة أيّام، وبدأت الناس تسقط، لم يعد أحدٌ قادرًا على الحركة. ثمّ... مات عدّدٌ منّا من الجوع، أمّا أنا فأبقيت على حياتي من خلال البحث عن الجذور، وأكل الثّراب الرّطب، كنتُ مع طول إقامتي قد تشكّلت لدي معرفة بالأمّاكن الرّطبة، كان النّهْز دليلي.

وسمعتُ أو خيّل إليّ أنّي سمعتُ صوت (دِزص) في إحدى تلك الليالي التي يختفي فيها القمر ويشتدّ فيها البرد: "هذه عاقبة الخيانة. لو أنّك قاسمتني قطعة الخُبز في ذلك اليوم لَمّا حدّث ما حدث، أتظنّ أنّ الله لا يسمع ولا يرى؟!".

وخيّل إليّ في ليلةٍ أخرى أنّي أسمع نيمه، وخشخشة قدميه،

وهتفت في الظلام: "دِزْص؛ هل هذا أنت؟". ولم يُجب. "مرحبًا يا صديقي. هل غدت؟". ولم أسمع منه ردًا. "لا تغضب. كان لسلوكي في المرة السابقة سبب، أنا أعرف أنك تُقدّر ذلك". وظهرَ بعدَ عبارتي الأخيرة، فإذا هو قد تضاعفَ حجمه، وأردث أن أقول: "آه منك يا دِزْص، كنتَ تُخدعني إذا، من أين جئتَ بهذا الحجم الضخم؟! لا بُدَّ أنك تأكل الخبزَ أكثرَ مِنِّي". وقبلَ أن أعرفَ أنه ليس (دِزْص)، وإنما هو جُرْدُ يفوق حجمه حجم (دِزْص) بعشرة أضعاف، حتّى بدا كأنه قِطعة صغيرة. كان هذا الجُرْدُ يقضمُ لَحْمَ أحدنا، وكان هذا المسكين ينظر إلى الجُرْدُ يأكل منه دون أن يُدافع عن نفسه لشدة وهن جسده من الجوع، وسالَ خيْظَ من الدّم، وفاحت رائحة كريهة، واستمرَّ الجُرْدُ ينهش جسده، حتّى أسلَمَ الرُّوح، وفجأةً ظهرت جُرْدان كثيرة، وبدأت تتدفّق نحو المُعسكر، من تحتِ هذا الجزء من الشّيك القريب مِنِّي عَبَرَت العشرات، ثمَّ صارت بالِمئات، ثمَّ ظهرت أنواعٌ أكبرُ حجمًا وأشدَّ فُتْكا، وراحت تنهش أجسادَ المُرتَمين هنا وهناك، وكانت جيوش الفُتران والجُرْدان واليرابيع التي هجمت، قد غزت المُعسكر من أوله إلى آخره، ودَبَّ الفرع في الثّفوس، ورُخنا ندفع هذه الحشود الغازية بأقصى ما نملك، وندوش عليها بأقدامنا، ونهربُ هنا وهناك، ونقفزُ حتّى لا نُقْصَم، وكانت حُشودهم المتدفّقة في كلِّ اتجاه قد أحدثت مجزرةً كبيرة، وصارت أعداؤها تفوقُ أعدادنا، ولم تكف عن التّهيز والضرير حتّى رحل اللّيل وكادت الشّمس تُشرق، وفي الصّباح تبين أنّها قد قضت على حوالي ثلاثين ضحية، أكثرها ماتَ مَبقورًا من بطنه، أو مَفقوءًا من عينيّه!

وسرى رُعبٌ لم يعهد المُعسكر مثله من قبل، ووصلَ الخبرُ إلى

الجنود الذين صاروا يبيتون مع قائدهم في المبنى الحديث. وشكروا السماء التي أرسلت لهم هذه الهدية، فقتلت من البوشناق الكفرة دون أن تلجئهم إلى بذل أدنى مجهود.

وأضافت الفئران إلى الموت جوعًا موثًا جديدًا، إنه الموت بالطاعون. وحيث كان الطاعون قد أصبح مرضًا تاريخيًا وانتهى من العالم، كان يعود إلى الواجهة وإلى الحقيقة في هذا المعسكر بسبب هذه الجرذان اللعينة. وصرت أهذي: "أمعقول أن ملكة الفئران هي التي بعثت بجيشها السفاح هذا؟ أيكون (دِزص) قد نُقِّدَ تهديده؟ أيُمكن للفئران أن تتغلب على البشر؟ أتكُون لها قدرةٌ تفوق حيلة البشر في البقاء، ما أضعف الإنسان إذا!!".

واستنجدت بالشيخ (شريف): "ألا ترى إلى حالنا يا شيخ؟ ألا تدعو الله لنا؟ ألم تكن تعلمنا في مسجد (ألادو) أن الله يبتلي المؤمنين ليختبرهم، ثم يكافئهم حتى ينسوا ما ابتلوا به؟! ولكن الابتلاءات لم تكن واحدة، ولا توقفت، ولا أعطتنا فرصةً لالتقاط أنفاسنا، ولا كوفئنا على شيء! إننا نموت في اليوم ألف مرة يا شيخ؛ ألا ترفع كَفِّكَ إلى السماء لعل الله ينظر إلينا بعين الرحمة؟! إن قلوب البشر قد خلت من هذه الرحمة، لكن ما بال قلوب السماء؟! أيها الشيخ، ألم يكفينا الجوع والبرد والذبح والاغتصاب والضرب بالهراوات الحديدية حتى تتواطأ الفئران مع هؤلاء السفاحين الفجرة، يا شيخ ألم..."، وفجأة أفقت من تساؤلاتي وهذياناتي، وضربت رأسي بباطن كفي، وتذكرت أنهم قتلوا الشيخ وعلقوه على باب الجامع، وبكى بحرقة، وراح جسدي يرتج، وسقطت لا أدري إلى أين؛ كان السقوط نعمة!

وأفقت على نشيد الجنود في الصباح:

سَلَكَ الْمُسْلِمُونَ طَرِيقَ الشَّيْطَانِ

وَدَنَسُوا الْأَرْضَ وَمَلَأُوهَا رِجْسًا

فَلْتَعُدْ لِلْأَرْضِ خُصُوبَتِهَا...

وقد حشدوا مجموعة من المعتقلين ليردّدوها معهم. وفي المساء كانت سِخْن الجنود قد تبدّلت، وعرفت أنهم غيروا الدفعة السابقة، ومع الدفعة الجديدة تراخّت قبضة الحِصار قليلاً، فعادَ إلينا الأمل بأن قطعة الخبز سنعودُ نراها مرّة كل يومين. وصِرنا نأكلها بالفعل كل نهارين، وقاوّمنا الموت، غيرَ أنني وأنا أفكر بالأمل الذي عادَ إلينا مع قطعة الخبز، رأيت رجلاً قد شَنَقَ نفسه على الشّياح حينَ لَفَ الشّيك على عنقه، ولا أدري كيف فعل ذلك؟! ولم يُنزلهُ الجنود من هناك ولا أمروا بدفنه، وأنزلهُ بعضُ الرّجال الذين لا تزال في أجسادهم بعضُ القوّة، وحفروا له في ذلك الموضع قبرًا بأظافرهم وأياديهم العارية ودفنوه.

وبدأ البردُ يُصَبِّحُ سيّد الموقف، إنّها نهايات تشرين الثاني. ونحنُ بلا مأوى، ولا حتّى شجرة، ولا حتّى قطعة قماشٍ نستريح بها غزينا، وصِرنا ننظر إلى المبنى القريب من المذبح نحسّدُ مَنْ فيه، ولم يكن فيه واحدٌ ممّا، وصار الدّخول إليه أمنيّة حتّى ولو خرجنا من بابه الخلفي!

وعزّت الفئران من جديد مُعسكرنا، كانت تأتي في جماعات كبيرة، وكان صوئها كافياً ليعث الرّعب في قلوبنا فتضطرب حتّى تبلغ

حناجرنا، ولم يكن يمنعها من أن تنهش أجسادنا شيء، وصارت تختار الأطفال لتهجم عليهم، وناذراً ما كانت الأم تستطيع إنقاذ ابنها من أنيابهم، وصارت تنظر إليه وهو يؤكل أمامها!!

وتكرر غزو هذا الجيش الفرعب كثيراً في الليل، ولما لم تكن تدخل إلى المبنى في البدايات، ويرتاح لذلك الجنود، صارت من جديد تتسلل إليه، وتبدأ ممارسة هوايتها في قضم بواطن أقدام الجنود، ودب القزع هذه المرة فيهم، وفكروا في المصدر الذي تأتي منه، ولم يهتدوا إلى مكان واحد، واجتمعوا للتشاور في أمر الفئران، وأعطوها فرصة أخيرة لتكف مع حلول الشتاء.

ولكن الفئران لم تكن تعترف بفرض البشر ولا بالبرد، كانت تنتظر الليل من أجل أن تهجم، صارت هجماتها منظمة، وازدادت أعدادها مع الوقت، وكان قليلو الحظ في النجاة كثيرين، وتناثر قطع من اللحم والدماء على أرض المعسكر، وانتشرت روائح غريبة، ولئن كانت محتملة في البداية فإنها سرعان ما تحولت إلى رعب آخر، ولم نعرف مصدر الرائحة، وكان الأرجح أنها رائحة الفئران، أو رائحة برازها، أو رائحة الجثث التي كانت تنتفخ إذا لم تدفن، ولم نكن نملك القدرة على دفنها، وفكرت قيادة الجيش في الأمر الذي جد، وتوصلوا إلى أنه لا بُد من القضاء على الفئران.

نصبوا لها مصائد حول شيك المعسكر بأكمله، لكن الفئران كانت ذكية، لم توقفها المصائد، ولا الفخاخ التي وزعوا معها الشبكات، فكانت تقع فيها أول الأمر، ثم سرعان ما تقضم الحبال وتخرج، فإذا ما خرجت كانت أشد شهوة إلى اللحم وأعظم فتكاً، ثم فكر الجيش

بنشرِ شَمَ الفِئرانِ على طولِ السَّياجِ، ونَقِّذوا ذلكَ على الفورِ، وضعوا
كَمَيَّاتَ كبيرةَ منه، وَظَنُّهُ الأَطْفالُ وبعضُ الرِّجالِ طَعامًا، خَيَّلَ لَهُمُ
الجُوعَ ذلكَ، فراحوا يَأْكُلُونُ منه، وهكذا مُتْنَا نَحْنُ والفِئرانُ!

(13)

لا تنظر يا بُنَيَّ. أرجوك!

في كل مُصيبة تحلّ بنا، نحن في الحقيقة نُصاب بسهمين؛ الأول سهم الألم الذي ينفذ إلى أعماق مشاعرنا، وهو سهم قاتل بلا شك ومن الصعب تفاديه، بل يبدو ذلك مستحيلاً! والسهم الثاني هو السهم الذي يخرج من ذلك الألم؛ إنه سهم النسيان، وتعوّذنا أن نفعل سهم النسيان كلما أصابنا سهم الألم!

لم أرَ (دِزص) منذ شهرٍ يبدو أنه قُتل في عملية التطهير الأخيرة. لم أظفر بصديقٍ واحدٍ في المُعسكر أركنُ إليه. كنت وحيداً على الحقيقة. لم يحمني من الانتحار مثل ذلك الذي علّق رقبته على الشيك، وعرّز لحم عنقه هناك، سوى أُملي بأن أرى أبي أو أختي يوماً ما. كنت أشعر أنهما ما يزالان حيّين، وأن الموت الذي أجلني هذا الفترة الطويلة هو الموت نفسه الذي سيتجاوزهما، أليس ملك الموت واحداً؟! لا يمكن أن يتركني ويأخذهما، إنه يعرف أنه بعد رحيل أُمي لم يبق لي سواهما، بل لم يبق لي في الكون أي نوع من الأمل سوى أن ألتقيهما ولو كانا قد نَقَصا شيئاً من أجسادهما، المهم أن أجتمع بهما في نهاية المطاف، بل إنني أَرْضَى لو أخذ الموت أحدهما وترك الآخر لي، سيكون ذلك خيراً من أن أبقى إلى آخر حياتي وحيداً، وأموت وحيداً مثل كلبٍ أجرب!

سَقَطَتْ قذيفةٌ بعيدةٌ بضع مئات الأمتار من المُعسكر. لم يدر أحدٌ منا من أطلقها. الحرب لا تزال مُستعرة، إنها تزداد ضراوةً مع مرور الوقت. إن قُوّات (التشيتنيك) تُحَكِّم مع الزمن حصار (غورازدة)،

والقذائف المجنونة التي تقع عليها حوّلثها إلى مدينة أشباح، لا تكاذ ترى فيها أحدًا يسير في الشارع، البيوت خاوية على عروشها، مُعْتِمَة، مُقْفِرَة، تنتشر فيها روائح الجُثث، بعض القوّات هربت منها بسبب تلك الرّوائح، إنّها لا تُحتمل، ولا يُوجد مَنْ يجرؤ على دفنها أو سَخِبها بعيدًا، وكان نورٌ واحدٌ يُضاء في مكانٍ ما كفيلاً بأن يُقَصِّف على الفور، وكان يُمكن أن يُقَصِّف من الجهتين، النيران الصديقة والنيران العدوّة، وكان الموت يتجول في الطرقات، ويتسلّل إلى البيوت المُهذّمة، ويختبئ خلف الأشجار المُحترقة، وتحت الأسوار، ولا يجد روحًا يقبضها، كان كلّ شيءٍ ينتهي على نحوٍ مُفزع.

كان سقوط القذيفة التي تبادلت الأطراف الاتهامات بسببها أمرًا كفيلاً بأن يُفكّر الجيش الضربي بنقلنا من المُعسكر إلى مكانٍ يُسيطر عليه بشكلٍ أكبر، ويُتخذ منه موقعًا إستراتيجيًا لمهاجمة الجيش البوسني، وتكرّر سقوط القذائف في الليالي الثلاث الأخيرة، ولم يكن أحدٌ يُفكّر بنا، كُنّا مُنسيّين تمامًا، ولا يتذكرون أنّ هنا بشرًا إلّا إذا أرادوا أن يُفزعوا عُقدهم النفسية فينا، أو يحتاجون إلى دماننا.

أنا وحيد، وحزين، ومقطوعٌ من شجرة، ومُنفصلٌ عن العالم، ومُهمل كجزّة مكسورة، ومسحوقٌ كصرصور، وأجرب ككلب، أهذي كمحموم، وأغرق في الوهم... أنا مُشتاقٌ إلى كلّ شيءٍ، مُشتاقٌ إلى عناقٍ من أبي، وحنانٍ من أمي، ونظرةٍ عاتبةٍ من أختي، وجِدالٍ عقيم بيني وبينها، ومُحبَظٌ تمامًا، ومكنوش كقصاصاتٍ مرميةٍ في الزاوية، ولا قرارٍ لي كئثارةٍ من دقيقٍ عصفت بها الزيح، وخاوٍ كبئرٍ مهجورة، وعاجِزٌ كمحبوسٍ في قفصٍ زُمي به إلى صحراءٍ واسعةٍ خالية، وخائفٌ كَمَنْ قُطعت يداه ومُلِثت جيوبه بالحجارة الثقيلة وزُمي إلى

وسط بحر هائج، وفارغ من المعنى، كل شيء هنا بلا معنى، حتى وجودي صار محط سؤال يُصدغ رأسي: "لماذا لم أزل حيًّا؟!"

صار الليل أطول. لقد كان طويلًا بما يكفي لأن يفكر كل من في المعسكر عن جدوى أن تبقى هذه الزوح حبيسةً لذلك الجسد. ولكنه في الشتاء يُمعن في الطول، وأنا أفكر بصديقي الوحيد الذي كان يقض علي الحكايات فيقصر معه الليل قليلًا. أنا الآن مستعد رغم جوعي أن أتقاسم مع (دِزص) ثلاثة أرباع قطعتي من الخبز إذا عاد، لكنه لن يعود، أنا أعرف أنه لن يعود، لقد قُتل هو الآخر، إذا كان البشر يُقتلون كأنهم ذباب أو أحظ من ذلك، فلماذا سيكون هو مُختليًا؟! لقد كان مجرّد فأرًا!

انتشرت أمراض لا حصر لها حتى بعد أن قَضُوا على الجرذان، لم تكن المشكلة في الجرذان نفسها، لقد كانت فيما تركته خلفها، لقد تركت موتًا صامئًا. بدأت تظهر على أجسادنا بُثور، ويترنّح الواحد منا تحت وطأة الصداع الشديد، وتشكل تقرّحات، وتسيل تقيّحات، قد تكون الفئران أحد الأسباب، ولكن ألف سبب آخر كان يُمكن أن يكون وراء ذلك؛ قلة الماء، وكثرة الأوساخ، كان عدد من العجائز يتغوّطون في ثيابهم، والأطفال يبولون في كل مكان، لم نكن جميعًا قادرين على أن نسير إلى آخر المعسكر لنقضي فيه حاجتنا!

ذات ضحى، أخذوا امرأة كانت تجلس على بُعد بضعة أمتار مني إلى المبنى، ظلت عندهم أيّامًا، قالوا بعدها لرجل رأيته معها من قبل: "عليك أن تأتي لتدفنّها". لم يَبْذُ على وجه الرجل أي ردّة فعل، كان يبدو أنه لم يسمع. ضربه الجندي بكعب بندقيته على صدره

فأوقعه على الأرض في الحال: "ألم تسمغني؟! عليك أن تأتي لتأخذ هذه العاهرة وتدفننها". ظل ينظر إليه بعينين زائغتين ولم يقل كلمة، فيما كان إلى جواره في تلك اللحظة ولد لا يتجاوز عمره خمس سنوات فيما قذرت، عادَ إليه الجندي مُهذِّبًا: "إذا لم تأت لتدفننها، فإننا سنحرقها". حينها رجف جسد الرجل، وغمغم بكلمات غير مفهومة، وتابع الجندي: "يُسْتَحْسَنُ إذا جِئْتَ أن تأتي بواحد أو اثنين يُساعدانك في الحفر". ونظَرَ إلَيَّ الرجل في تلك اللحظة، وشعرْتُ أنه يستنجد بي، حاولت أن أتجاهل نظراته التي تحمل معاني البؤس كُلِّها، ولكنَّ عينيَّ ظلَّتَا تجذبانني نحوه بشكلٍ لم أستطع الهرب منه، فأومأت برأسي، وهتفت كأني أجذب القدرة على الحديث وأنا أرفع يدي اليسرى ذات الأصابع الثلاث: "أنا؟! نعم، سأذهب معك". ومضينا أنا وهو وتعلَّق الولد الصغير برجله، تَبِعْنَا الجندي حتَّى دخلنا إلى المبنى. كانت المرأة مُمدَّدةً على الأرض دون حراك، ويبدو أنها اغتصبت اغتصابًا مُتكرِّرًا، وأنها نزفت كثيرًا قبل أن تلفظ أنفاسها الأخيرة، وعانت معاناة لا يُمكن تخيلها، أوَّل ما رآها الولد، ركض باثجاها وهو يصيح: "ماما... ماما". وهوى عليها يحتضنها، ويُقبلها، وهو يبكي بكاءً مُرًّا، جذبَه أبوه من يديه، وهو يمسح دموعه ويكرّ على أسنانه من الوجع. وأشار له الجنود، فأتي بعربة من تلك العربات التي كان يستخدمها الغُقال للبناء، وحملت الأم فكوّمت فيها مثلما يُكوّم كيش من الثفايات، ثم دفعَها الأب خارجًا من الباب الخلفي، فيما لم يكف الطفل عن البكاء، وهو يتشبث بأمه، ويقبض بكفه الصغيرة على ذراعها، وينحني ليطلع على وجهها الجامد قُبلة حزى بين حين وآخر.

وخرجت معهما، ونحن تحت حراسة اثنين قد جَهِزا رشاشيهما لأي طارئ. أعطينا رَفْشًا، وجما الولد عند قَدَمي أمه، وراح الأب يحفر، وحين يتعب، آخُذُ الرَفْش عنه وأُساعدُه، كان العرق يرشح من وجه الأب مختلِطًا بدموع لا صوت لها، وكان يمسحه بين فينة وأخرى وينظر إلى الأفق، ويثكئ على عصا الرَفْش وهو يُحاول أن يستوعب ما يجري. مَنْ كان ذا عقلٍ ليستوعب ما يجري؟! إنَّ ما يجري خارج كل شيء يُمكن أن تضع له أظْرا أو ثقيدَه بقوانين سماوية أو أرضية أو حتى إبليسية.

أثَقَفنا شَقَّ الحفرة، أزاح الأب ابنه برفق من عند قَدَمي زوجته، وهتَف بي: "ساعدني. هل أنت قادر على ذلك؟". لم أقل شيئًا. تقدَّمت تحت نُظرات الولد الوالِهة والحائرة، وحملنا الأم. "أليس هناك قِماش نستز بها جَسَدَها؟!". "إنها شهيدة". "لكن...". "الشهداء لا يُكفنون". "لكن أليس...". واحتد هذه المرة: "وافرض أنهم يُكفنون، هل ترى أنهم يوزعون علينا الأكفان، أو يبيعونها هنا... مَنْ يستطيع أن يحصل على كفن هنا... ألا ترى... أليس لك...؟!". وأراد أن ينفَس عن غضبه ولكَّته أَمسك، وتابع: "هَيَّا ساعدني...". حملتها أنا من عند قَدَميها، وحملها هو من عند رأسها وأكتافها، كانت طرية، مُستسلِمة تمامًا كأنها نائمة، وتدلَّى ذراعها بشكلٍ يُوحى بأنها تلعن هذا العالم الظالم وتشكر السماء التي جعلتها تنجو. وللنَّجاة تعريفٌ مختلفٌ في المصائب. أنزلناها في الحفرة رويدًا. وقبل أن نقوم بإهالة التراب الذي أخرجناه من حُفرتها عليها، أدار الأب وجه ابنه إلى الجهة الأخرى: "لا تنظريا بُني. أرجوك!". ولكن الابن ما إن بدأنا نُهيل التراب على جسد أمه حتى أدار رأسه، وراح يبكي: "ماما... ماما...". "أسرغ"

قال لي الأب. وأردف: "قبل أن يعلو بكاء ابني". وشوّي القبر بالأرض، كأنه لم يكن، وما وجدنا لها شاهدة ولا نصيبة نضعها عند رأسها، وهكذا ابتلعها الأرض كأنها لم تخرجها من قبل.

وَعُذْنَا نَجَرَ أَقْدَامَنَا، وما إن أردنا أن نمشي صوب الباب الخلفي للمعسكر لدخله، حتى أفلت الولد من يد أبيه، وركض باتجاه القبر وهتف: "ماما.. ماما.."، وارتقى فوق القبر وانخرط في البكاء، ولم يملك الأب نفسه: "لماذا تُعَذِّبني...؟! أنا أيضًا لا أصدق أنها رحلت... هيا يا بُني... يكفي... أرجوك". وراح ينشج هو الآخر، وحملت أنا الابن بين ذراعي، وعُذْنَا إلى المعسكر.

وجاء طبيب. بدا أنه رئيس مُستشفى. شخص له منصب كبير في الطب، ومنصب أكبر منه في الشيطانية. كانت بيده قائمة، قال لرئيس الحرس: "أريد هذه القائمة". تفحصها القائد، وقرأ: "أربعة قلوب، ثلاث أكباد، عشرة كلي، خمس رئات، قرنيتان، ثلاث معى". وضحك القائد: "كُل هذا؟". ونهزه الطبيب، ووبّخه: "لديك أوامر، فنقذ دون أن ثناقش". وتجهّم وجه الضابط، وقال بعد أن بلغ ريقه: "ولكن...". وقاطعة الطبيب: "ولكن ماذا؟". "ألا ترى إلى هؤلاء الناس، إنهم مرضى لا يقدرّون على الحركة". "وهل تحسبني أعمى؟!". "إذا؟". "أنا أطلب هذه القائمة من الذين اعثقلوا حديثًا وما زالت أجسادهم بصحة جيّدة". "إنهم قليلون". إذا زيدوا عددهم، هذه مسؤوليتكم". وتحسّر الضابط: "لو جئت قبل شهرين، لربّما عثرت لك على ما يلبي حاجتكم، أمّا وقد كثر الموت والبرد فيهم فلا أ...". وقاطعة من جديد: "معك يومان. لا تتأخر عن ذلك. أنت تعرف ماذا يمكن أن يحدث؟!". وألقى تهديده وخرج.

جُنَّ جُنُونُ الْجُنُودِ وَهُمْ يَبْحَثُونَ عَنِ الْأَعْفَى مَثًا، كَانَتْ صَحْتِي أَفْضَلَ بِالْفَقَارَةِ مَعَ غَيْرِي مِنَ الْأَشْبَاحِ الْمَوْجُودَةِ فِي هَذَا الْفَعْسَكِ، وَكَانَ يُمَكِّنُ أَنْ يَخْتَارُونِي لِمَجْزَرَتِهِمُ الْقَادِمَةِ. وَفِي اللَّيْلِ سَمِعْنَا جَلْبَةً عَالِيَةً، لَقَدْ كَانَتْ شَاحِنَةً جَدِيدَةً تَحْمِلُ عَدَدًا مِنَ الْأَسْرِ الْجُدِّ، لَقَدْ طَافُوا فِي مَحِيطٍ لَا يَقِلُّ عَنْ عَشْرَةِ كِيلُومِتْرَاتٍ مِنْ أَجْلِ أَنْ يَأْتُوا بِهَؤُلَاءِ الضُّحَايَا كَمَا لَوْ كَانُوا خِرَافًا مُعَدَّةً لِلذَّبْحِ، وَأَضَافُوا إِلَيْهِمْ عَدَدًا مَثًا، وَجَمَعُوا حَوَالِي أَرْبَعِينَ شَخْصًا تَوَقَّعُوا أَنْ يَكُونُوا مُنَاسِبِينَ لِتَجْهِيْزِ قَائِمَةِ اللَّحُومِ الَّتِي طَلَبُوهَا!

وَسِيقُوا إِلَى الْمَبْنَى أَوْ إِلَى الْمَسْلَخِ بَعْدَ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ مِنْ زِيَارَةِ كَبِيرِ الْأَطْبَاءِ ذَاكَ. وَوَفَدَ عَدَدٌ مِنَ الْأَطْبَاءِ - أَعْنِي الْجَزَّارِينَ - كَانُوا مُدْرِبِينَ بِشَكْلِ جَيِّدٍ، وَجَاءَتْ مَعَهُمْ أَجْهَزةٌ جَدِيدَةٌ لِحَفْظِ الْأَعْضَاءِ الَّتِي سَيَسْرِقُونَهَا. وَاسْتَمَرَّتِ الْعَمَلِيَّاتُ يَوْمَيْنِ، اضْطُرَّ فِيهَا الْأَطْبَاءُ الْجَزَّارُونَ إِلَى الْقَبِيْتِ فِي الْمَبْنَى، وَكَانَتْ تِلْكَ تَضْحِيَّةٌ كَبِيرَةٌ مِنْهُمْ!

وَفِي نَهَايَةِ الْيَوْمِ الثَّانِي، كَانَ كَبِيرُ الْأَطْبَاءِ يَشْعُرُ بِشَيْءٍ مِنَ الرِّضَا: "إِنَّهُ عَمَلٌ لَا بَأْسَ بِهِ". وَهَتَفَ: "هَذِهِ الْأَيْدِي وَالسِّيْقَانِ لَا يُمَكِّنُ أَنْ نَسْتَفِيدَ مِنْهَا؟". سَأَلَ أَحَدَ مُعَاوَنِيهِ. وَجَاءَهُ الرَّدُّ: "بِالطَّبَعِ"، وَاقْتَرَبَ مِنْهُ وَهَمَسَ: "وَلَكِنْ خَارِجَ الْحِسْبَةِ". "هَلْ تَعْنِي...؟". "نَعَمْ، نَبِيعُهَا لِحَسَابِنَا الْخَاصِّ". "وَلَكِنْ هَؤُلَاءِ الْأَطْبَاءُ الَّذِينَ سَيَفْصَلُونَهَا عَنْ هَذِهِ الْأَجْسَادِ سَيَعْرِفُونَ بِالْأَمْرِ، وَقَدْ...". ثُمَّ صَمَتَ قَبْلَ أَنْ يُتَابِعَ: "وَقَدْ تُسْأَلُ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ أَنْ يُبَلِّغُوا عَنَّا". "سَتُهْدِيهِمْ". "عِنْدِي طَرِيقَةٌ أَحْسَنَ". "مَا هِيَ؟". "سَنُرْشِيهِمْ".

حَفَّار الْقُبُور

"عندما تصل إلى مثل سِنِّي ستري كُلَّ شيءٍ قُمتَ به في حياتك تافِهاً. تافِهاً إلى الحدِّ الذي تتساءل معه: لماذا كنتُ أقومُ به إذا؟ لقد كنتُ أحتالُ على الزَّمن لكي يمرَّ". قالَ لي ذلك رجلٌ عجوزٌ يئسُ من أنَّه لا يزالُ حيًّا إلى مثل هذه السَّن في مثل هذا المكان، أرذثُ أن أقولَ له إنني وصلتُ إلى هذه القناعة وأنا لم أغادر الثالثة عشرة من عمري بعد، لكنَّه أردف: "سوفَ تمرُّ أمامك أشرطةُ حياتك كأنها سطورٌ في كتابٍ بلا عنوان، وتتمنى لو أنَّه كان مكتوبًا بقلم رصاص، وأنَّ معك ممحاةٌ فتقوم بحذف كلِّ ما لم يكن ضروريًا. المصيبة أنَّك ستقوم بمسح أكثر من ثلاثة أرباع السَّطور، وحينها تودُّ أنَّ حياتك لم تكن موجودةً من الأساس، إنَّ رُبَّها كان كافياً لكي تعيشه؛ ما أغبى الإنسان!". وأغلقَ عينيَّه، ومدَّدَ جسمه على الثَّراب، وفارقَ الحياة!

هل كان ذلك يستحقُّ؟! هل كانت هذه المعاناة التي أختبرها على وجهها الضَّاعق هنا تستحقُّ؟! لم يكن شيءٌ في هذه الفانية يستحقُّ، لا أيامَ اختلاس النَّظر إلى فتاةٍ جميلةٍ في الصَّف وهي تغمز بعينيها لنصفِ أولادِ الصَّف، وأنا أظنُّ أنَّني كنتُ الأثير لديها. ولا الوردة التي كنتُ أعشِّقُ ملمسها الفُخمي في حديقة بيتنا. ولا شجرة الثَّوت التي كتبتُ بإصبعي فوقها أكثر من عشر حكاياتٍ خيالية. ولا وجه أبي وهو يُقبلنا ذاهبًا إلى عمله، ولا شيء... لا شيء يستحقُّ... ربَّما كنتُ سأستثنى من ذلك كله ابتسامة أمي وهي توقظني في الصُّباح، لكنَّ هنا في جهنمنا هذه، كيفُ يُمكن أن أرى ابتسامة أمي، بل كيفُ يُمكن

أَنْ أَرَى وَجْهَ أُمِّي؟!

كَانَ عَلَيَّ أَنْ أُوَاسِينِي، وَأَنْ أُعْزِّينِي، وَأَنْ أَرْفَمَ جُرُوحِي الدَّاخِلِيَّةَ، وَأَنْ أُطْرِدَ الْخَوْفَ الَّذِي يَنْشَبُ فِي أَضْلَاعِي خَمْسِينَ مَرَّةً فِي الْيَوْمِ كَضَبِ احْتَالٍ عَلَيَّ فِي شِدْفَةِ اللَّيْلِ لِيَنْهَشَنِي كُلَّمَا سَنَحْتُ لَهُ الْفُرْصَةَ. وَكَانَ عَلَيَّ أَنْ أَرْضَى بِأَيِّ شَيْءٍ، وَأَقْبَلَ كُلَّ شَيْءٍ، وَأَنْ أُحْتَضِنَنِي، وَأَنْ أَقُولَ لِنَفْسِي: "لَا بَأْسَ. حَتَّى هَذِهِ سَتَمَرٌ". لَيْتَنِي كُنْتُ أَجِدُ مَنْ يَقُولُهَا لِي نِيَابَةً عَنِّي! وَكَانَ عَلَيَّ أَنْ أَبْكِي وَحْدِي، وَأُعَانِي بَعِيدًا عَنِ الْأَعْيُنِ، وَأَلْعَقَ جِرَاحِي مِثْلَ ذَنْبٍ كُسِرَتْ قَائِمَتُهُ، وَخُلِعَتْ أَنْيَابُهُ. وَأَنْ أَتَكْوَّرَ عَلَى نَفْسِي كَجَنِينٍ فِي بَطْنِ أُمِّهِ، وَأُدْفِنَنِي، وَأَطْرِدَ الْبَرْدَ عَنْ أَضْلَاعِي بِمِعْطِفٍ مِنْ صُنْعِ خِيَالِي، وَأَنْ أَحْكِيَ لِنَفْسِي الْحِكَايَاتِ الْفُسْلِيَّةَ، وَأَنْ أَتَذَكَّرَ مَا يُمَكِّنُ أَنْ يُسَاعِدَنِي عَلَى أَنْ أَسْتَمِرَّ، وَكُنْتُ وَحِيدًا كَوَتَرٍ مَقْطُوعٍ مِنْ آلَةٍ عَشَّشَتْ فِيهَا غُرْبَانٌ مَيِّتَةٌ... كَمْ كَانَ ذَلِكَ مُسْتَحِيلًا، وَلَكِنْ يَا رَبَّ الْكَوْنِ: مَاذَا كَانَ يُمَكِّنُنِي أَنْ أَفْعَلَ سِوَى أَنْ أُجْتَرَحَ الْمُسْتَحِيلُ؟!!

الشَّمْسُ تَنْطَفِئُ. تَسْقُطُ فِي الْفَرَاغِ. الْكَوْكَبُ كُلُّهُ يَنْهَارُ. الْمَجْرَزَاتُ الْبَعِيدَةُ تَضْحَكُ سَاخِرَةً. الْيَوْمُ يُصْبِحُ سَيِّدَ الْمَوْقِفِ. تَتَوَالَدُ فِي الثَّانِيَةِ أَلْفُ بَوْمَةٍ، تَتَرَبَّعُ عَلَى عَرْشِ الْكَوْكَبِ، الْكَوْكَبُ يَدُورُ ببطءٍ، إِنَّهُ يُحَاوِلُ أَنْ يُنْعِشَ نَفْسَهُ، لَكِنَّهُ يَفْشَلُ، حَرَكَتُهُ لَا تُصْدِرُ سِوَى النَّعِيقِ. كُلُّ مَوْجَةٍ مِنَ النَّعِيقِ تُنْبِثُ أَلْفَ شَوْكَةٍ عَمَلَاقَةٍ، كُلُّ شَوْكَةٍ تَسْتَحِيلُ إِلَى أَلْفِ شَيْطَانٍ، كُلُّ شَيْطَانٍ يَتَحَوَّلُ شَفَرُ رَأْسِهِ إِلَى أَلْفِ أَفْعَى، يَبْدَأُ السَّبَاقُ بَيْنَ الْفَحِيحِ وَالنَّعِيقِ، تَدْخُلُ أَصْوَاتُ أُخْرَى إِلَى الْحَلْبَةِ، تَخْتَلِطُ أَلْفُ الْأَصْوَاتِ الْفُنْدِرَةِ بِقَرَبِ الْانْطِفَاءِ الْكُلِّيِّ، ثُمَّ... يَفُوزُ الْفَحِيحُ فِي النَّهَايَةِ!!

إنني أستمز في محاولة التخطي. تخطي أخايد الموت والقفز فوقها. الاستمرار هو الاختبار الأعظم في هذه المعسكرات التي تتنفس الموت، ويعبق هواؤها بالعدم، وتكتظ ثربثها بالقناء. الاستمرار في المحاولة هو اختبارنا جميعًا نحن المنفيين والمطاردين، والمعلقين بكلايب حديدية مُحقة من عراقينا ورؤوسنا إلى الأسفل، علينا أن نستمر في المحاولة، ومتى توقفنا سنسقط مثل الشمس في الفراغ، وننطفئ بسرعة أشد من سرعة انطفاء شهاب لامع غريب عبر الفضاء في لحظة خاطفة في ليلة دامسة!

بكت السماء اليوم كما لم أرها تبكي من قبل. ليلة أمس ظلت تزمجر وتزعج، وتضيء المعسكر بالبرق الذي كان ينداخ على الأرض كل ثانية أو اثنتين. كلما أضاء البرق رأيت عيوننا تنخطف لشدة، كان إنذار خطر جدًّا. ولكن الهروب منه كان أمرًا مضحكًا؛ أين تهرب؟ تهرب إلى الشيك الحديدي حيث القناصة فوق الأبراج مستعدون لينهوا حياتك بطلقة واحدة؟ أم تهرب إلى المذبح، أم إلى المبنى المحرم؟ لم يكن أحد يجرؤ بالاقتراب منه ما لم يُجر إلى هناك جزًا. أين تهرب أيها الأبله؟ تهرب إليك، إلى كهف نفسك، إلى أعماقك الفارغة، حتى هذه لم تعذ ملاذًا آمنًا، إنها سكرى بالخوف واليأس، لا أحد يتقبل هروبك، حتى نفسك التي بين جنبيك!

ظلت الغيوم تلقي أثقالها على أرض المعسكر. لم يكن أحد محظوظًا باستثناء الأطفال الذين احتضنتهم أمهاتهم فشكّث أجسادهن كهفًا آمنًا. أين الأمان أيها الأحمق؟ لا أمان، لا مهرب،

لا ملجأ، لا منجى... صارت الأرض طينية، ثم تحولت إلى بُقِعٍ من الأوحال، وكثا ملطخين بالوحل، غارقين فيه، ولم تتوقف السماء عن البكاء، إنها بلا شك تنتقم منا، نحن الذين لا حجاب بيننا وبين عذابها المصوب فوق رؤوسنا، أما جنود (الشيئينيك) فقد كانوا يثقون ذلك العذاب إما بمظلات الأبراج المزروعة على الأطراف، أو تحت المذبح، أو داخل المبنى الذي كانوا يوقدون فيه النار، يلقمونها حطب سراييفو الذي كان أحسن حطب في العالم من أجل الاستدفاء، كان يستمر زمناً طويلاً دون أن ينطفئ؛ أيها المنعمون داخل المبنى: "جذعة حطب واحدة نطرد بها شبح البرد لئلا نرسل قليلاً من الدفء إلى أعماقنا، أو شعلة نسيك بنارها رجفة الصلوع التي لم تعد قادرة على الاستمرار، أليس الناس شركاء في ثلاث؟!".

مرت الليلة الأولى. إنها متواطئة مع الضرب، مات منا في الصباح سبعة؛ ثلاثة أطفال وأربع عجائز. كيف يمكن أن نجد طريقة نثقي فيها الموت برداً؟! لا توجد أية طريقة. أنت ستساعد الضرب في القضاء علينا أيها البرد من دون اجتراح أية وسيلة أخرى للموت.

التصق الأطفال بالأمهات، انكفأ اليتامى على أرواحهم اليتيمة. تكور الموجهون على ذواتهم، احتضن الغرباء أنفسهم، أنا مدذث ذراعي لأحتضني؛ إحدى يدي خائني، كانت أصابعي لا تستطيع الالتفاف على جذعي، كانت بلا أصابع. حتى أنت أيتها السبابة والإبهام؟!

تجمدت أطرافنا، صرنا نجس أنها لا تنتمي إلينا، نحن لا نكاذ نشعر بها، هل تجمد الدم في العروق من هذا الضيق فتجمد معه

الإحساس؟! جوارحنا أعضاء زائدة، ما قيمتها إذا لم تكن لها فائدة؟! أنفي صار قطعة من الزجاج بحيث لو حركته لتساقط كسفا مكسرة. أذناي كانتا ثولمانتي، حاولت أن أفركهما فزادهما الفرك ألما، وتوقفت حتى لا أجرحهما، أحسست أنهما تنزفان، يسيل خيط رفيع قصير من الدم ثم يتحوّر هناك. نصفنا أصيب بنزلات من البرد فصار يسعل شعالاً شديداً، كان شعالاً جافاً يشعر الواحد فيه أنه سيتقيأ أعماقه معه، تحوّل الشعال إلى نشيد جماعي، غطى على كل صوت آخر.

تفاقم الألم لدى بعضنا، فأصابه تنميل في الأطراف، كيف يتخلص من التّنميل؟! بالحركة. أين يتحرك؟ إنه ينزلق مع كل خطوة في هذه المستنقعات الطينية، ويسقط في الوحل. بعضنا أغمي عليه، وذهب إلى عالم آخر، غاب عن الوعي فغاب عنه الألم.

أمشي بخطوات واسعة في المعسكر. أصطدم بالأجساد المتجمدة، أنزلق، أتداعى، أنهار، أسقط، أقوم، أتوقف عن السير، أتحرك في مكاني محاولاً القيام ببعض الحركات والقفزات الموضعية التي كنت أظن أنها ستجلب قليلاً من الدفء. ذهبت كل محاولاتي شديداً!

الكبار في السن توقفت قلوبهم من البرد على الحقيقة. كان نبضها يتباطأ بشكل مستمر مع الوقت، حتى توقفت تماماً. بعد نهاية هذا اليوم يمكن بسهولة أن تعرف أن عدداً غير قليل منهم قد مات، كانت صدورهم عارية بشعرات شيباء، وقد تحوّلت إلى اللون الأزرق.

توقف المطر، ولكنّ الريح ظلت تعوي. توقف الماء الذي كان يخفف من سرعة الرياح، وانتهت مهمته مؤقتاً، وأخذت الرياح تلعب بنا، مرضى الزبو تشجّت شعبهم الهوائية، فتوقفت عن إدخال أكسجين

الحياة، فسقطوا.

وقفت في وسط المعسكر، رفعت صدري عاليًا كأنما أتحدى الريح والبرد والقطر، وهتفت بغضب لا أدري كيف واثاني: "لن تهزميني أيها البرد. أنت خرافة، أنت كذبة كبرى، لا يوجد برد حقيقي إلا في العقول المريضة. عقلي ما زال معي، لن تهزميني، هل تسمعي جيدًا؟! قلت لك لن تهزميني، مارس معي طقوسك الشيطانية، أرسل أشباحك. اشحذ سكاكينك، وهات أشدها واتبعني، إذا كنت تريد أن تحز بها أطرافي فافعل، أنا لا آبه لك. أنت لست موجودًا. نحن اخترعناك بسبب البؤس واليأس، أنا لست بائسًا ولا يائسًا. هيا أرني ماذا يمكن أن تفعل؟ لن تقدر عليّ، أعدك أنني سأهزمك، مهما استهزأت بحجمي الضئيل، ومهما ظننت أنك أقوى مني". ثم سقطت مع العبارة الأخيرة!

لم يُبالِ بما يحدث معنا أحد. كنا نموت من الضيق وكانوا ينعمون بالدفء. كانت قطعة الخبز، وصحن شوربة العدس الذي يطبخ في المبنى هما اللذان أبقيا على حياتي وحياة آخرين هنا. مات ما يقرب من ربعنا بحلول شهر كانون الأول في نهاية هذا العام.

لكن السواتر الزملية التي يكسونها في الأبراج وفي المذبح ويختبئون تحتها أو خلفها لم تدفع عن الجنود البرد إلا قليلاً. وحتى المبنى المغطى من جوانبه جميعًا، كان عاليًا وفسيحًا، وشبه فارغ إلا من أسرة التشريح الفعّدة لسرقة الأعضاء، هو الآخر لم يقي من البرد. كانوا يرمون أطنانًا من الخشب في براميل مقصوصة من نصفها لكي يستدفئوا، ولكن الخشب شخ، ولم تعد البراميل تحوي إلا طبقات من

الزّمام، حينها بعث قائد الحرس: "نحن لا نستطيع أن ندفع البرد عن جنودنا". "إنكم تعيشون في رفاهية". "لقد تجفدت فوهات البنادق، وفسد الرصاص، وصزنا لا نقدر على تفعيل البنادق". "دفعوا الفوهات الحديدية، واخزنوا الرصاص في مكان جيد". "نحن لا نجد ما نستدفي به حتى ندفي الرصاص". "إنكم تشتكون كثيرًا". "لقد نقلنا أمس جنديًا من جنود الأبراج إلى المستشفى. تخيل أنه لم يحتمل البرد". "ألم تؤزع عليكم ثياب الجيش الشتوية؟!". "بلى، ومع ذلك فإن البرد لا يرحم". "ماذا تريدون إذا؟!". "نريد أن ننقلونا إلى معسكر مغطى، أو تتوافر فيه وسائل الدفاع أحسن من هذا المعسكر. أذكرك أن هذه المعسكر طارئ، وأنه أقيم بصورة مفاجئة وسريعة، ولم يكن مهيا لكي يكون معسكرًا مثل بقية المعسكرات".

طلب منا رئيس الحرس: "أنتم تموتون كثيرًا. هيا، هناك بعض الجثث التي يجب دفنها". اختاروا عجوزًا في السبعين من عمره: "أنت... يا حفار القبور، تعال"، التفت حوله، ظن أنهم يخاطبون آخر صرخ به الجندي: "هل هناك حفار قبور غيرك هنا؟". وسحبه من يده. تبعه اثنان من الزجال الأفتى، قلت: "أنا... أنا حفار قبور جيد". توقف الجندي، وفحصني بنظره من الأعلى إلى الأسفل، وضحك بصوت عالٍ: "أنت حفار قبور؟". أجبت: "نعم، لقد حفزت قبورًا كثيرة من قبل وأصبحت ماهرًا في ذلك". "هيا".

وخرجنا نحن الأربعة. حملنا ثمانى جثث، كانت متصلبة، جلد أزرق رقيق يغطيها، وكان من الصعب حملها فوق الاكتاف، فاضطر كل اثنين منا أن يحمل جثة واحدة في كل مرة، أخرجناها من الباب الخلفي، أعطونا مجموعة من المعاول والزفوش، كانت الأرض

طينية، وكان الحفر فيها صعبًا، رَحِمَ الله أيام الضيف، حينَ كانت الأرض ناشفة، وكان يُمكن أن تحفر القبور بشكلٍ أسهل وأسرع. استغرق الأمر منا نهارًا كاملاً. دفنّا الجثث من دون أكفان!

(15)

الصفحة حكمة

جاء عدد من الشاحنات. نقلونا إلى معسكرات مختلفة. أنا وخمسة من الشباب نقلونا إلى مصنع (فاردا) على بُعد بضعة كيلومترات إلى الشرق من (فيشيغراد). لا أدري لماذا نحن الخمسة. في حين أن المئات نُقلوا إلى أماكن مجهولة. أكاذ وأنا أصد الشاحنة أرى عدد الذين تركوهم خلفنا في المعسكر لعجزهم عن الحركة، يواجهون الموت البطيء وحدهم. لماذا نحن بالذات؟ هذا سؤال عقيم. لقد كان قَدَرًا، مَنْ يسأل الأقدار عن النحو الذي تجري عليه؟!

كان المصنع واسعًا، تنتشر فيه الآلات الخاصة بصناعة الخشب. أصبحت بسرعة عاملًا في مصنع للخشب إذا. كان المصنع مكوّنًا من باحة مسقوفة عالية، وأمامه باحة أوسع منها بثلاثة أضعاف مخصصة لتجميع الخشب الخام مقطوعًا من جذوع أشجار الزان والبلوط والصنوبر والتنوب، كان التنوب أكثر أنواع هذه الأشجار وفرة. وكنا ننقل هذه الأخشاب بعد قطعها من غابات تنتشر على ضفتي نهر (درينا)، غير أن الوجهة التي كانت تنقلنا إليها الشاحنات أكثر من غيرها، هي الجهة الغربية للنهر.

كان في المصنع حوالي عشرين عاملًا من الضرب والكروات، ونحن البوشناق كنا أكثر من هذا العدد بقليل، وقد سبقوني إلى العمل قبل أن أفد إلى هنا مع الخمسة الذين سنعذ أنفسنا بمثابة ناجين من معسكر الاعتقال الزهيب الذي قضيت فيه أكثر من ستة أشهر جعلتني أكبر عشر سنوات، كأنما شَرِقت من عمري على مرأى مني!

كُنَّا ننام نحنُ البوشناق في غرفةٍ خارجِ المصنع مُلحقةً به، وكانت جيدةً، فيها سريرٌ لكل واحدٍ مِنَّا وإن كان مُتهالِكًا، ولم أكن أحلمُ بهذا من قبل، وكُنَّا نحصلُ على وجبتين اثنتين في اليوم!! وهذا أيضًا نعمةٌ لم أكن أتخيلُ أنَّني سأحظى بها، وكان طعامًا لا بأسَ به، كانت هناك الشوربات بأنواعٍ مختلفة، والأرز، والخضروات المطبوخة، وتوفّر الخُبز، بحيثُ كُنَّا نحصلُ على رغيفٍ كاملٍ طويلٍ لكل واحدٍ يوميًا، وكُنَّا نعملُ في الغابة حوالي عشر ساعاتٍ نأكل خلالها وجبةً بعدَ الساعات الخمس الأولى، وإذا غُذنا تناوَلنا وجبتنا الثانية. وكُنَّا نحصلُ على قسِطٍ وافٍ من التَّوم يصلُ إلى سبع ساعاتٍ أو ثمانٍ، وهو ما لم يدرُ في خلدي يومًا. وكُنَّا إلى ذلك ننعُمُ بالذَّفء؛ لأنَّ مُخلَّفات قِطْع الخشب الذي نقطعه كانت مُتوافرة، ولا تخلو منها أنصاف البراميل، ولهذا فإنَّ البردَ أصبحَ ذكرى.

في النَّهار الأوَّل بعدَ وصولنا إلى هنا، شرَّحَ رئيسُ العُقال لنا - نحنُ العُقالُ الجُدُد - كيفيةَ العمل، ووزَّعوا علينا الملابس الخاصَّة بذلك، ولأوَّل مرَّة أحظى بِقُفَّازين خاصَّين سميكَيْن، كانا جميلَيْن بقدر ما هما مُحزَنَيْن، اثنان من أصابع القُفَّاز الأيسر ظَلَّا فارغَيْن!

أوكلَ لي رئيسُ العُقال مهمَّةَ الخروج مع الشاحنات إلى الغابة من أجلِ القيام مع الفريق بقطع الأشجار ثلاثة أيَّامٍ في الأسبوع، وفي الأيَّام المُتبقية منه كنْتُ أعملُ على بعض الآلات داخل المصنع، وكانَ عملاً مُمتعًا بالنسبة لي. ومع وفرة الطَّعام تحسَّنت صحتي كثيرًا، واستعدتُ مع مرور الأيَّام عافيتي.

نخرجُ في الشاحنات الساعة السابعة صباحًا، الأرضُ صقيع، الجوّ

ينضخ بالبرودة، ولكننا نرتدي ملابس ثقيلة، نمزّ شرقى جسر درينا، جسر محمّد باشا سوكولوفيتش، نصل إلى أرض مُعدّة للعمل في مرتفعات (أندريتشغراد)، تنزل المناشير الآليّة من لُب الشاحنة العملاقة، لها مسارٌ خاصٌ تسيّرُ عبره؛ سياراتٌ صغيرة، تتقدّمها المناشير الحادّة، تقطع أشجار الثّوب التي يزيّد طولها في بعض الأحيان عن ثلاثين مترًا، تأتي بلدوزرات ذات كماشات عملاقة، تقبض على جذع الشجرة المَجذوزة، ثم ترفعها عاليًا وتنزلها في قلب الشاحنة، وعندما تحين استراحةُ الغداء في منتصف النهار نكون قد ملأنا شاحنةً من اثنتين، ثم نتابع العمل بعد تناول الغداء ونملأ الشاحنة الثانية، ثم نعودُ بغنيمتنا إلى المصنع، في رحلة العودة نمزّ قربَ الجسر، ربّما لو لم تكن هناك حربٌ لتوقّفنا عنده واستفتّغنا بمنظره الساحر، أسمعُ أصواتًا تأتي من جهته، أصواتٌ نشيج، تقفز إلى ذاكرتي أيّام شاحنة الأطفال، أهزّ رأسي لأطرد الذكرى، وأنفضّ تلك الأصوات، غيرَ أنّها تبقى هناك، تتابعُ الشاحنة سيرَها؛ من يكثرث؟!

في اليوم التالي يذهبُ إلى الغابة غيّرنا، أمّا نحنُ فنعمل على جذوع الأشجار العملاقة داخل المصنع، تُرفعُ بكماشات كبيرة، وتُحمل على آليّات ذات حوافّ واسعة، وتدخل من بوابة المصنع، تُجمّع في الزاوية الخاصة، ثم يبدأ تقطيعها بشكلٍ فنيٍّ أنيق، وتدخل في ثلاث مراحل، المرحلة الأولى نعملُ فيها على آلات الثّقشير، تعمل الآلة على إزالة القشرة الخارجيّة ذات الثّتوءات الكثيرة، فتُصبح ملساءً بعد أن يظهر لونُ اللّحاء. في المرحلة الثانية نستخدمُ آلات النّشر الشريطيّة، تدخل فيها الجذوع المقشورة فتزيلُ أوّل جزء فيها

انحناءة، غالبًا ما تُقَطَّع هذه الجزء ونستخدمه في براميل الدَّفء في غرفتنا، بعدَ ذلك، يُقَطَّع الجذع إلى طبقةٍ مستطيلة ارتفاعها عشرة سنتيمترات، غالبًا ما نحصلُ من كلِّ جذع على ما بين خمسة إلى خمسة عشرَ لوحًا، بحسب قُطر جذع الشجرة الذي قد يصل أحيانًا إلى مترين، ثمَّ نصل إلى المرحلة الثالثة الأخيرة، وهي مرحلة التجفيف، كانَ يُمكن أنْ تُعادَ هذه الألواح إلى الخارج لتقومَ الشمس بتجفيفها، ولأننا في فصل الشتاء، فإننا كنَّا نأخذها إلى أفرانٍ خاصة تقوم بتجفيفها، كان الذهاب إلى تلك الأفران متعةً أخرى، إنها تبعث الدَّفء بشكلٍ يجعل جسدًا مثل جسدي يُغني ويرقص!

لم يكن المصنع مُخصَّصًا لإنتاج الأثاث بأنواعه، لا الكراسي ولا الطاولات ولا الأرائك ولا الخزائن ولا الأسيرة الخشبية، كل ذلك لم يكن من مهمة المصنع، وإن كنتُ أتمنى أنْ أتعلَّم ذلك، كانت هذه الألواح بعدَ تجفيفها تُباع للمصانع المُتخصصة في أنواع الأثاث تلك، حيث تقوم بمعالجات أخرى من الطلاء والضقل أو إعادة التصنيع، أو ثنقل من هنا للمصانع التي تبيعها لمقاولي البناء، حيث تُستخدم في السقالات أو في العوارض التي يُصب فيها الباطون أو الإسمنت. وقد تُصدَّر من خلال شركات مُعيَّنة إلى الخارج. وكان مطلوبًا منَّا أن نُصنِّفها إلى ثلاث درجات: أولى ومتوسطة وعالية، من حيث الجودة، وبحسب نوع الخشب أحيانًا، أو بحسب صلابته أو نسبة الرطوبة فيه، وقد تعلَّمتُ ذلك بشكلٍ سريع.

واستمرَّ الأمر رائيًا على هذا النحو، ومع أنَّ العمل لم يكن سهلًا ولا مُريحًا، ولكنَّ أيام جهنم التي عشتها في المعسكر السابق جعلتني أشعر بأنني في الجنة، إضافةً إلى الطعام الجيِّد والدَّفء. ثمَّ هذا

الهدوء الظاهري الذي لم يكن - إلى ذلك - خلوا من أصوات القذائف والمدافع التي لم تصمت في سماء البوسنة والهرسك البتة.

لم نكن نحن البوشناق نفكر بالهروب من المصنع، كنا جميعًا قادمين من معسكرات التعذيب، ولذا كان الخروج بالنسبة لنا عودةً إلى تلك المعسكرات، ولم نكن نتحدث كثيرًا حين نأوي إلى غرفتنا، كنا نصل إليها مرهقين تمامًا، وتنطفئ الأضواء بحلول التاسعة أو العاشرة مساءً، وكنا نصمت خوفًا أو حذرًا، ولا ندخل في أي نقاش، وكان بعضنا يهمس: "انظروا إلى كاميرات المراقبة"، ولذلك اجتهدت طوال الشهر الأول من قدومي هنا إلى أن أغلق فمي تمامًا، والصفث حكمة.

"أنا إبراهيم". همس في أذني وهو يُميل جذعه ناحيتي ونحن نقطع الجذوع إلى عوارض، وأردف وهو يتلفث حوله: "وأنت؟". لم أقل شيئًا، تابعت القَص على الآلة. أخذَ نفسًا وتظاهر بالانشغال بالقَص معي: "لا تقلق أنا قادم من المعسكرات مثلك، لقد رأيت الجحيم، ولكن...". وصمت مُنتظرًا مني أن أطلب منه أن يُكلم، ولكنني لم أفعل، أخذَ نفسًا عميقًا، وانحنى حتى صار رأسه تحت مستوى آلة القَص، وتابع: "نحن في جحيم آخر، لا يغرك هذا المظهر". ولم أنبس ببنت شفة، ورفعَ رأسه قليلًا، وهتف: "أتفهم صمتك، تظنني جاسوسًا؟ أنا مثلك، قل لي ما اسفك، لا أريد أكرر من ذلك الآن". ودرّبت نفسي في خيالي على أن أقول كلمتين: "أنا حارث" فنطقتُهما أخيرًا. وأراحته هاتان الكلمتان، وتابع: "يمكنني أن أخبرك بالمزيد حين نتناول وجبة الغداء"، ولم أعقب بكلمة.

في الصباح سمعتُ هياجًا، وصوت خبط أقدام على الأرض، إنها

أقدامٌ عسكريّة، أخرجونا من غرفتنا لنستقلّ الشاحنات حسب البرنامج المُعدّ سلفًا، فهالني عددُ الجنود (الثّشيتينك) الكبير في باحة المصنع، وهم يهتفون بالنّشيد: (سَلَكِ المُسْلِمُونَ طَرِيقَ الشَّيْطَانِ...) واجتاحني الرُّعبُ فجأةً، وقفزت كلمات إبراهيم التي قالها لي أمس: "نحنُ في جحيمٍ آخر، لا يغزك هذا المظهر"، ومسح الرُّعبُ كلَّ الأيام التي عشتها هنا أوّل وصولي. واستمرّ الجنود في تدريبهم حوالي ساعة، ثمّ انصرفوا، وأزاحوا بذلك جبلاً من الهمّ كان قد جثم على صدري، وصاحَ بنا رئيسُ العُقال لنُخذ مواقعنا، ولوهلةٍ تخيلتُ أننا سنُساق إلى المذبح، وحانت التّفاتةُ مني إلى إبراهيم، والتقت عيوننا، وقرأتُ فيها أشياء كثيرة.

سارت الشاحنات بهدوء في طريقها إلى الجسر، حين صار عن يسارنا تماقًا، سمعتُ الأصوات التي سمعتها في المرّة الأخيرة. دبّ الرُّعب في أوصالي من جديد، همس إبراهيم: "هل تريدُ أن تقفَ على قدميك وتري؟". رددتُ: "وأنت؟". "أنا لا أريدُ، لقد رأيتُ المنظر من قبل كثيرًا، أمّا أنت...". وصمت، فحثثته: "ماذا؟". "أنت عليك أن تری". وقاومتُ قدَمي اللّتين تحوّلتا إلى ساقين مصبوبتين في قعر الشاحنة، وأخيرًا وقفتُ ورأيث!

سيُولي العامُ وجهه بعدَ بضعة أيّام. الثلج تساقط بكميات كبيرة في السّابع والعشرين من الشهر الأخير، كان على العُقال أن يُزيلوا القلوج المتراكمة من ليلة أمس عن الطّريق لكي تمرّ الشاحنات، كنّا نلبس قُبّعات تُغطّي رؤوسنا وتحمي آذاننا، ولفحات حول أعناقنا، ولكنّ ندفات الثلج كانت تتراكم على ثيابنا، وتُغطّي ما ظهَرَ من صَفحات وجوهنا. الثلج ينهمر بهدوء في صمتٍ مريب، نحنُ بلاذ

كانت (فيشيفراد) تتدثر بالقلج، بدا كأنه معطف كبير يسحب أذياله البيضاء على كل مكان. وخلف الجسر في البعيد، كنت أسمع أصوات الأطفال وهم يركضون على القلج مبهجين، يتقاذفون الكرات، ويضحكون، كانوا يصنعون رجل القلج، الرجل الذي كان يعتمر قبعة، ويلتف وشاح قرمزي على عنقه، ويبدو أنفه أطول من الطبيعي، كان يسخر منا ونحن نعبّر الجسر مبهتين، خيّل إليّ أنه يرفع قبضته في الهواء متوعدًا مع أنه كان من دون ذراعين، وكان يضحك بفجور. هبطت إلى قعر الشاحنة لأتفادى خياله الذي رافقني حتى دخلنا إلى الغابة.

بدأت الأشجار في الغابة تبكي، مقلدة أرواحها بكتل من البياض المتراكم، وبين لحظة وأخرى كانت تسقط تلك الكتل فتتهزّ الجذوع كأنها تخلصت من الثقل وطارت في الفضاء، ثم تعود إلى الساق وتستقر في أماكنها، وكانت الأشباح تطير بعد أن تسقط الأشجار ككل القلج، وكانت أقدامنا تطبع قبلات لا تنمحى على وجه الأرض، ومع كل شجرة تسقط، كانت كلمات إبراهيم ترن في أذني.

بعد أن غدنا في ذلك المساء، وفد إلى المصنع ضابط كبير، قال للمدير: "أريد ثلاثة غمال متميزين". دخل علينا أحد الجنود، وسقى ثلاثة، أنا وإبراهيم وبوسني ثالث، أركبونا في سيارة عسكرية مصفحة، وسارت بنا وسط ظلام كثيف إلى المجهول. هجمت عليّ هواجش جعلتني أرتعش وأنا في مقعدي لمجرد تخيل ما سيأتي: إلى أين يذهبون بنا؟ لماذا نحن دون سوانا، كنا في الصندوق الخلفي

للسَّيَّارة نجلش متجاورين، ظلَّ إبراهيم حائِياً جذعه على المقعد
ودافِئاً رأسه بين ساقَيْه، أَرذْتُ أَنْ أَفْتَحَ فَمِي وَأَسْأَلَهُ، وَلَكِنَّهُ وَضَعَ
باطن كَفِّهِ هُنَاكَ، وَأَشَارَ بِإصْبَعِ السَّبَّابَةِ عَلَى شَفَتَيْهِ، كَأَنَّهُ يَقُولُ: "لَا
تَقُلْ شَيْئاً".

(16)

الْقَمْحُ وَالْقَشُّ وَالْخِنْزِيرَانِ

أدخلونا إلى (فيلا) جميلة، كانت لا تنتمي إلى زمن الحرب الذي نفرق فيه. ولا إلى (فيشيغراد) المُلَطَّخة بسواد القذائف، وبدخان الحرائق، وبقتامة المُخلفات المردومة. كانت هدوءًا وسط صخب المدافع، كأنما اقتطعت من لوحة الجحيم أو المطهر لشحافِظ على بيت المسيح نفسه، أو مشهد جلوسه عن يمين الرب. كان الرب يستقبلنا على المدخل، فاتحًا ذراعيه على اثساعهما، بثوبه الأبيض المنحوت الواسع الذي يكاد يغطي قدميه، كان أبيض كله باستثناء لحيته الضهباء، سمعته يهمش في آذاننا: "بيت الرب بيت الأمان". وأي أمان؟! ودخلنا.

طُلب منا أن ننتظر في أول غرفة تقع على يسار المدخل. قال لنا أحدهم بلهجة آمرة يبدو أنه حارِش الفيلا: "انتظروا هنا حتى تأتي سيديتكم". دخلت بعدها امرأة في الخمسين من عمرها على وجه التقريب، كانت أنيقة، وتلبس ثيابًا راقية، قطبت جبينها، وزوث فمها، وقالت: "ستعملون على تزيين الفيلا، وإعداد المكان للاحتفال". وأشارت إلى الشخص الذي كان يقف خلفها مثل كلب أمين: "والحارس سوف يُخبركم بالتفاصيل".

خرجنا على الفور مع الحارس وانضم إلينا جنديان صربيان، تولى أحدهما قيادة السيارة العسكرية التي قبضنا في مؤخرتها. نزلنا في وسط غابة صغيرة، ناولنا الحارِش منشأً آلياً يحمل باليد: "عليكم أن تعثروا على شجرة بلوط، نريد منكم أن تقضوها، وتوفروا لنا من

جذعها خمسة من (البادنياك) على الأقل، هَيَا، هذه مهمتكم الأولى".

تلقى (إبراهيم) المنشار، سأله: "ماذا يعني بالبادنياك؟". رد: "جزء من شجرة البلوط. إذا عثرنا على الشجرة، فالأمر سهل". لم نبحث كثيرًا عن بُغيتنا، اخترنا شجرة بلوط لا يتجاوز قُطرها مترًا. بقينا ساعة حتى هَوّث من غُليائها. أخذنا الساق، وخلال نصف ساعة كان لدينا خمسة من (البادنياك) الذي طلبوه، كل قطعة حوالي سبعين سنتميترا في ارتفاعها، حقلناها فَرَحِين بإنجاز المهمة، وركبنا السيارة التي سارث في الطرق المحفورة، توقّف السائق بعد ثلث ساعة عند بناء من الحديد مهجور. هتف الحارس: "نريد كيسًا من القش".

سارع إبراهيم بتنفيذ المهمة، جذبني من يدي، وتبعنا البوسني القالت مُطيقًا، كانت تفوح من البناء روائح الزوث التي تغلبت على روائح البارود، يبدو أن المبنى كان زريبة أغنام أو أبقار. دخلنا وسط الأرض الزلقة التي تعج بمخلفات الذواب، ويحفنا في المكان الواسع داخل الحظائر عن القش المطلوب، كان قليلاً متناثرًا. لحق بنا الحارس، وقال كمن يستذكر أو يستدرك: "ونريد أن تعثروا على دلو من القمح". كانت المهمة الثانية أصعب من الأولى، قال إبراهيم: "ابحث أنت في الجهة الشماليّة، وأنت...". ووجه كلامه إلى ثالثنا: "ابحث هنا، وأنا سأبحث في الجهة الجنوبيّة". وتوزّعنا نبحث عن القمح والقش. دخل الحارس بعد ثلث ساعة إلى الحظيرة فيما ظلّ الجنديان في الخارج مُتَحَفِّزِينَ، سمعنا صوته يصرخ: "هَيَا، أيّها الأتراك الكسالى. الوقت لا ينتظر". وغدنا إلى حيث المدخل، ونجحنا بصعوبة في جمع دلو صغير من القمح، كُنّا قد فَرَزْنَاهُ من تناثره على الأرضيات بأصابعنا حبة حبة، وخلصناه ممّا اختلط به من الأوساخ

والقاذرات، وجمعنا إلى ذلك دلوين كبيرين من القش، رفعناها قليلاً أمام عيني الحارس، فقال وهو يركّز ذراعيه على وسطه وينحني إلى الأمام قليلاً ويحدّق في الدلاء المعروضة عليه: "لا بأس. هيا". وخرجنا من هناك.

ركبنا السيارة، وذهبنا إلى مزرعة تبعّد حوالي ساعة من الزريبة، هبط الحارس وحده، ونادى عليّ وعلى إبراهيم: "اتبعاني". فتّح لنا البوّابة رجلٌ سبعيني، احتضنه الحارس: "كيف حالك؟". "بخير ما دُمّتم تُبلون جيّداً في القضاء على الكفّرة". "السيدة تُبلغك تحياتها". "قبّلها من أجلي". "عيد الميلاد على الأبواب، وتعرفُ ذوق السيدة". "أعرفُ أعرف". والتفت إليّ وإلى إبراهيم: "جئتُ بهذين الكافّرين معك ليحملاهما؟". "نعم، البوشناق أقوياء، يشكون من الحرب والجوع وهم بصحّة أفضل ممّا، انظر إلى هذين الكلّبين". "لستُ أعمى". وتبغناه، فساقّ لنا خنزيرين، كانت عنق كلّ خنزيرٍ أغلظ من جسده، وهو يتشَمّم الأرض المليئة بالأوساخ. هتَف السبعيني: "لقد ربّيتهما من أجل السيدة". وغدنا بالخنزيرين اللّذين صعدا معنا في الصندوق الخلفي للسيارة!

وصلنا إلى الفيلا مع العصر، كانّ الجوّ ضبابيّاً ولولا بياض الثلج الذي كسّر العتمة لظننّا أنّ العشاء قد حلّ. وكان بارداً بحيث جعل بخار الهواء الذي كان يتصاعدُ من أنوفنا وأفواهنا كأنه يخرج من مداخل أسطوريّة. أنزلنا قِطْع (البادنياك) ودلاء القمح والقش والخنزيرين. هتَف الحارس: "سنبدأ بالقش من اليوم. هيا رُشوا القش من أوّل المدخل الخارجي إلى الباب، ثمّ تابِعوا ذلك إلى أوّل الغرفة الواسعة، رُشوه على الأطراف، ثمّ تابِعوا الأمر إلى غرفة الطّعام، هناك

يجب أن ترشوه على الأرضية كلها، وانتبهوا إلى كمية القش التي ترشونها في الأمكنة المطلوبة، فليس لدينا سوى هذين الدلوين". نظرت إلى إبراهيم مُستفهِمًا: "ماذا نفعل؟". همس: "سأخبرك في الليل". فعلنا ما أمزنا به، ثم تركنا أخشاب (البادنياك) في الغرفة التي انتظرنا فيها أمس، وجيء لنا بصحفة من النحاس الالامع فسكبنا القمح فيها بعناية حتى لا تقع حبة منه على الأرض، ووُضعت على طاولة جانبية في غرفة الطعام، أما الخنزيران فسقناهما إلى الحديقة الخلفية وربطناهما إلى شجرة عالية قريبة من السور.

بحلول الساعة مساءً كنا قد أنجزنا مهماتنا لهذا اليوم، قال لنا الحارس: "اتبعوني". تبغناه دون أن ندري ماذا يريد منا، أوصلنا إلى غرفة على هيئة كوخ صغير، لا يزال قرميده الأحمر يظهر في بقع دائرية من خلال دَوبان بعض الثلج الذي يُغطيه، وكان خشبه الخارجي قد نمث عليه الأعشاب الطحلبية. فُتِح الباب الموصد بسلسلة من الحديد، ثم أمرنا بالدخول، وأغلق علينا كما يُغلق على الخنازير في مزرعة السبعيني.

كانت الغرفة التي حبسنا فيها مظلمة، حاولنا أن نعر على مصدر الكهرباء فلم ننجح، مع أنه كانت تتدلّى من السقف الخشبي لمبة تدلّت من حولها خيوط العناكب. قال إبراهيم: "لا حاجة إلى الضوء، قد نكون من دونه في أمان أكثر". طُفنا في الغرفة نتفحصها، لم يكن فيها أسرة، كانت أرضيتها الخشبية شبه عارية، باستثناء مجموعة من الفرشات القديمة مصفوفة بعضها فوق بعض في إحدى الزوايا، وكان للغرفة نافذة زجاجية تُطلّ من هنا على البيت، فتحناها فزعقت من صدا حديدتها، وتسَلّت موجة من الهواء البارد فخففت

قليلاً من عَظَن الغرفة ورائحة العفن المنتشرة فيها، من خلال هذه الثافذة رأينا ما عرفنا على الفور أنها غرفة الطّعام التي وضعنا فيها صحفة القمح النّحاسيّة، كانت مُضاءة، ذات واجهة عريضة كلّها من الزّجاج، تُطلّ على الحديقة، وكانت واسعةً جدّاً تبدو بسعة أربع غرف أو خميس من غرف النّوم أو الغُرف العاديّة، وكانت خاليةً من البشر، يقطعُ خلوّها سيّدة البيت التي تدخل إليها من فترةٍ لأخرى.

بعد ساعةٍ من دخولنا إلى هنا سمعنا ثباح كلب، لم ننتبه إلى وجوده من قبل، يبدو أنّه يأتي مع سيّده، الضّابط الكبير صاحب البيت، ورأينا كيف استقبلته السيّدة واستقبلها في غرفة الطّعام، إذ احتضنها كأنّهما عشيقان، وراح يلعقّ وجهها بلسانه وهي تضحك. وتساءلْتُ في نفسي: "أهما وحيدان، أعني السيّد والسيّدة، أين أولادُهما أو حفدَتُهما إن كان لهما أولادٌ وحفدة؟!".

أرذنا أن ننام، فَرَدنا الفرشات، لم يكن هناك غطاء، اتّخذنا من بعض الفرشات الرّقيقة غطاءً نضعه فوقنا حتّى نثقي الضّقيع الذي ينتشر كالضّباب في كلّ مكان. حينَ فعلنا ذلك، همفْتُ أن أسأل إبراهيم عن عبارته الفرعبة وعن القشّ، فهذا وقتٌ جيّد لسؤال كهذا ما دمنا وحدنا. حينَ همفْتُ بذلك سمعنا صوتَ زردِ الباب، ثمّ صرير الباب، ثمّ صوتُ الحارس: "إبراهيم... هيه... أنتَ تعال". وقفز إبراهيم إلى حيث الصّوت، ومدّ له الحارس كيسًا، وسمعنا الحارس يقول: "هذا طعامُكم". واستوقفه إبراهيم: "نحنُ هنا بلا أغطية". "أعرف". "ولكنّ البرد سيّء...". وقاطعه الحارس: "ما باله البرد؟ تريدُ أن تقول إنّ البردَ سيقثُلُكم؟ أنتم لا تموتون أيّها الأتراك؟ تريدُ أغطية؟ أينَ تحسبون أنفسكم؟ هل نحنُ في فندق؟ نحنُ في حرب أيّها الملاعين، ولولا

حاجة السيدة إليكم لذبحكم بنفسي". وراح يغلق الباب بسلسلة
الزرد، قبل أن يهتف إبراهيم من جديد: "ولكن السيدة تريذنا بصحة
جيدة من أجل أن نخدمها". وشتم، ثم هتف: "اخرش. أنا أعرف ما
تريذ السيدة". ومضى.

وتلقسنا على بصيص الضوء الشحيح القادم من النافذة ما في
الكيس، فإذا فيه ست قطع من الخبز، وثلاث حبات بندورة، وعلبة
تونة وعلبة حمص. فرشنا الغنيمة التي حصلنا عليها للثو، وأتينا عليها
بشهية كبيرة. ثم أويينا إلى فرشنا.

"يا إبراهيم". لم يسمغني. "يا إبراهيم..." أرذث أن أكمل: "قد
صدقت الرؤيا". ولكن أية رؤيا يمكن أن يصدقها المرء في الحرب؛
إنها رؤيا الذبح، الرؤيا التي رأى فيها إبراهيم النبي أنه يذبح ابنه
بيده، هل يكون هذا عصر ذبحنا نحن البوشناق، هل تكون يد الذين
هي التي تضع السكين الحاد على عنقنا وتفعل بنا ما فعلت من
الفظائع؟!

يا إبراهيم، أنا (حارث لاتيتش)، واحد من الملايين الذين
استيقظوا فجأة فرأوا النار تأكل كل شيء. هل كنا نحلم؟ هل كنا في
الحلم وصرنا بعد أن نشبت الحرب في الحقيقة؟ الحقيقة التي لا
ثرى إلا في الحرب؟ لماذا علينا أن نموت في كل يوم في كل ساعة
وفي كل لحظة، لماذا علينا أن نعتاد منظر الدم الذي يتراشق من
الثراقي، وصيحات المحترقين بالنار، واستغاثات المغتصبات تحت
أوراق الضرب الشبقة، وبكاء المحرومين والمفقودين والمُعذَّبين؟!
أكان هذا قَدَرًا؟! ما الذين الذي يأمر بالقتل؟! ما العقيدة التي تحت

على الذبح؟! ما الفتوى التي تنص على الإبادة، نحن نباد يا إبراهيم،
لعلنا كُنّا محظوظين لأننا ما زلنا على قيد الحياة، ولكن مجرد تفكيرنا
بصورة هذه الحياة التي نعيشها يجعلنا نعيش موتًا مضاعفًا. يا
إبراهيم إن صدقت الرؤيا أو كذبتّها سواء، فنحن مذبحون على أية
حال. يا إبراهيم قد أنزل الله كبشًا من السماء فداءً للولد الذبيح، فهل
لمثل هذا الكبش أن يفتدي الشعب الذبيح. يا إبراهيم: لقد تغير سؤال
الموت، كان من عاش قبلنا يقول: ما أصعب الموت! ونحن اليوم
نقول: ما أسهله! ما أكثره! ما أشد ما تراه في كل شيء! يا إبراهيم لا
تتم، فإن الرؤيا التي سترها في الثوم لن يكون لها تأويل مهما كانت
رهيبه أكثر مما نعيشه اليوم. يا إبراهيم أنا أناديك ألا تسمعني؟ أنا
أسألك وأنت لا تقول شيئًا. يا إبراهيم إن أسئلتني تسقط في النهر كما
سقط إخوئنا فيه، فلماذا ثمعن في الصمت وتتركني قتيل أسئلتني؟
يا إبراهيم ألا تعرف أنني أكرهك الآن، وأكره أسئلتني أكثر منك!

الحديث طعام الليل

سرى الليل. همست: "إبراهيم". تقلب على الجهة الأخرى. "أما تزال مُستيقظًا؟". تقلب للمرة الثانية. زحف نحو، هزأته من كتفه: "يا إبراهيم...". استيقظ مزعوجًا: "ماذا تريد؟". "أريد أن أفهم عبارتك التي قلت فيها ألا أن أنخدع بالمظهر". "ثم أيها الولد". "هل تحسبني صغيرًا؟!". "أوووه... قلت لك ثم". "ولكن لماذا يرشون القش في كل مكان؟". "أوووه أيها الصغير المسكين؟!". "أنا لست صغيرًا، أيام وأصبح في الزابعة عشرة، أنا أفهم كل شيء. في الحرب يكبر الأطفال بسرعة حتى لا يعودوا أطفالًا، ثم إنني قرأت ما لم تقرأ!". ونهض مُستويًا على قفاه، وفرك عينيه، وأشار برأسه إلى القالث: "هو...". وصمت. فسألت: "ما شأنه؟". واقترب مني قليلًا وهمس بصوت لا يسمعه سوانا: "قد يكون جاسوسًا". "هو؟!". "نعم". "إذا كان من المُحتمل أن يكون جاسوسًا، فلماذا لا يُحتمل أن أكون أنا أو أنت كذلك؟!". "لا شيء، كلنا جواسيس مُحتملون. للحرب أحكامها". "إنه نائم". "أوووه... أنت لَحُوح". "أنا لا أجد للنوم طريقًا. أريد أن أسمعك". وأشار برأسه إليه: "تأكد أنه نائم". زحف نحو، حتى صرث إلى جانبه، كتفت نفسي لأسمع أنفاسه، كانت أنفاسه مُنظمة هادئة، وغدث زحفًا مرة أخرى إلى إبراهيم: "إنه يغظ في نوم عميق".

هتف بصوت أقرب إلى الوشوشة: "أما عبارتي التي أُرعبثك، فما أحد أعمى، لقد رأيت في المُعسكر الذي جث منه ما يجعلها عبارة عادية". "ولكننا في المصنع لم نر شيئًا". "لأنه لم يحدث مثل هذا

حتى الآن، ولكن ذلك لا يعني أنه لن يحدث". "هل سيعيدوننا إلى هناك؟". "لا أدري. نحن نفعل ما تأمرنا به بنادقهم". "والقش؟". "القش مظهر من مظاهر احتفالهم بعيد الميلاد المجيد، إنهم يرشونه في أكر أنحاء البيت كما فعلنا، ويتركزون أكبر كمية منه في غرفة الطعام تذكيرًا للمؤمنين منهم بمغارة بيت لحم حيث وُلِدَ المسيح، إنه تقليد قديم لكنهم لا يعرفون المسيح إلا بالاسم، مثلما لا يعرف المسلمون الله إلا بالاسم، لولا أننا مُسلمون بالهوية لما حدث لنا ما حدث، هل رأيت مجتمعنا يعرف من حقيقة الإسلام شيئًا؟!". "هل أنت جاد؟!". "بشأن ماذا؟". "بشأن القش؟!". "أنت سألتني وأنا أجبتك، هل تعتقد أنني أخلق ذلك؟!". "كلًا". "فلا تسألني إذا كانت إجاباتي لا تُعجبك". "أنا لم أقل ذلك، أنا أحاول أن أفهم السبب فيما يحدث". "لن تفهم، حينَ تقومُ الحرب ينتهي كل تفسير. الحرب شيطانٌ غامض". "تتفلسف علي يا إبراهيم؟!". "أوه.. علينا أن ننام، غدا سيؤكلون لنا مهمات قد تكون أصعب من مهمات اليوم، وعلينا أن ننال قسطًا جيدًا من النوم لنكون قادرين على أدائها". "أنا لا أستطيع النوم". "يا ولد. أنا لستُ حكاةً، ونحن لسنا هنا لتسلي". "بل لتسلي يا إبراهيم، إذا لم نفعل ذلك مُثنا من القهر. الحكايات تُسلي". "مَنْ قال لك ذلك أيها الأحمق؟! لو قصصت عليك الحكايات التي عايشتها لزادك ذلك قهراً وألقا". "أنا أريد أن أسمعها بالرغم من ذلك".

أنا جندي في الجيش البوسني يا حارث، أعني كنت كذلك، كان أبي قبلي في الجيش، ولكنه قُتِلَ في أواخر عام 1991م، قبل أن تنشب هذه الحرب اللعينة على هذا الوجه الفظيع". "ثريد أن تقول إنك انتسبت إلى الجيش لتنتقم لأبيك". "الانتقام لا يحل المشكلة، ولا

يجلبُ النصر، أنا أدافع عن الهوية". "الهوية؟". "هويتنا نحن بوضفنا
مُسلمين، وهويتنا وجودنا، إذا نجحوا في القضاء علينا كما يبدو أنهم
يفعلون الآن، فإنَّ البوسنة كلها ستنتهي، ستختفي من الخريطة، لن
يكون هناك لنا دولة". "هذا كلامٌ كبير". "لم تعد صغيرًا كما قلت؟".
"صحيح. لكنني لا أريدُ الحرب، ولا أريدُ أن يحدث كل هذا". "يا
مسكين، هل أنت الذي تُقرّر؟!". "ومن الذي يُقرّر إذن إذا لم يكن أنا
وأنت ومجموع الناس؟". "الدول الكبرى". "ماذا تعني؟". "أولئك
الذين لا يريدون لنا أن نكون". "مَنْ تقصد بِ (لنا)؟". "المُسلمون! هل
هذه تحتاجُ إلى تفسيرٍ أيضًا". "بالطبع، تحتاجُ إلى تفسيرٍ كبير".
"المجتمع الدولي يا صديقي. هل هذه الكلمة مفهومة أكثر؟!". وصمت
لا أعرفُ ما أقول، وتابع: "المجتمع الدولي الذي يعني مجموعةً من
الدول تمتلك سلاحًا أكثر من أية دولة أخرى". "تعني أن السلاح هو
الذي يُقرّر؟". "وهل في هذا شك. مَنْ يملك السلاح يملك الإرادة،
وَمَنْ يملك الإرادة يستطيع تغيير خريطة العالم. العالم اليوم يتغير
بسرعة، أنت رأيت كيف انهار الاتحاد السوفييتي، وكيف انهار بعده
الاتحاد اليوغسلافي، كل شيء يتغير وينهار". وأطلقت زفرةً كنايةً
عن ضجري وبزمي، وقلت: "أنا لم أسهز هذه الليلة لأسمع تحليلًا
سياسيًا، أنا أريدُ أن أسمع قصّتك أنت". "سيطلع الفجر بعد قليل،
أليس من الأفضل أن ننام؟!". "كلّا. حدّثني بقصة أو اثنتين ممّا حدّث
مَعك، وأعدك أنني سأنام بعدها". "لقد كنتُ في معسكر (سوزيكا)".
"هاه. أين يقع هذا المعسكر؟!". "في منطقة فلاسينيتشا". "وهي؟".
"قريبة من سربرنيتسا". "لا أعرفُ هذه الأماكن، ولكن القصة أهم من
المكان". "نعم، قصصنا أكبر بكثير من أي مكان". "الآن أنا كلي آذانُ

صاغية. ما الذي حدث هناك؟!".

"كان المُعسكر يتكوّن من مبنيّين، ومن غرفة خارجيّة واسعة،
وخصّصت منامًا للحرس من جنود (التشيتنيك). أمّا المبنيان
فكان كل واحدٍ بعرض ثلاثين مترًا وطول خمسين مترًا تقريبًا،
وكان في كلّ مبنى أكثر من خمسمئة شخص". "خمسمئة؟!". "نعم".
"كيف كان يتّسع لكم جميعًا". "لم يكن يتّسع، من قال ذلك؟ لقد كنّا
محشورين كالسرددين". "لقد كنت في معسكرٍ قريبٍ من فيشيغراد
وكان مفتوحًا". "لقد كنتم في نعمة، لو رأيتم ما كنّا فيه لما قبلتم
أن نتبادل الأمكنة". "ولكن المكان المفتوح له سيّئاته أيضًا". "ومن
قال لك إنّ للحرب حسنات؟!". "ثم ماذا؟". "لقد كانت تأتي أعداد
كبيرة أخرى من الأسرى من الجيش البوسني، ومن أهل القرى
المجاورة، وكان خليطًا من الرجال والنساء والأطفال، ولم يكن لنا أن
ننام، وحدهم الذين كانوا يحظون بمساحة أجسادهم الرقيقة على
الأطراف ينامون ساعة ثم يُوقظهم من له الدور بعدهم، وهكذا حتّى
يستطيع كلّ واحدٍ في المبنى أن ينام ساعة في اليوم". "وكيف كان
الأطفال يتدبّرون أمورهم؟". "لم يكن أحدٌ يتدبّر أمره في المعسكر،
ولكن الأطفال كانوا ينامون في أحضان أمهاتهم وهنّ واقفات".
"والطعام؟". "لم يكن هناك طعام لأيّام". "والماء؟". "لم يكن هناك ماء
لأيّام". "ومرّ عليكم الضيف؟". "مرّث علينا أقسى شهور الضيف، ولم
تكن هناك نوافذ تُدخل الهواء إلّا من بعضها في الأعلى، ولم يكن
تتحرك في الداخل أيّة نسمة، وكان الجوع والحز يفتكان بنا، وكان
يموت في كلّ يوم عشرة إلى عشرين، وكان موثهم يُشكّل فرحًا لدينا،
لأنّهم سيُخلّون أماكنهم لمن ظلّ حيًا. غير أنّ (التشيتنيك)

كانوا يعوّضون مقابل كل عشرة يموتون عشرين جُذًا. واستمرّ الأمر على هذا النحو، يموت الناس من الجوع والاختناق، حتّى جاء يومٌ قرّر فيه قائد الحرس في المُعسكر أن ينقل الأطفال دون الثماني سنوات إلى أماكن أخرى، ولم نكن نعلم إلى أين؟ سمعنا أنّهم كانوا ينوون نقلهم إلى بغداد، وإنّه...". قاطعته: "لقد رأيت بعضهم كانوا يأتون بشاحناتهم إلى المبنى الذي احتجزت فيه أوّل الأمر من أجل نقلنا إلى كنائس الضرب". تابع كائن لم يسمعي: "وقيل أنّهم جمعوا بعضهم في المساجد وخنقوهم بالغاز". أردت أن أقاطعه، وأصدّق على كلامه، وأقول إنني رأيت هؤلاء بعيني، ولكنني تركته يتابع: "قال لنا قائد الحرس: إنّنا نفعل ذلك رافةً بكم، إنّنا بنقلنا هؤلاء الأطفال سوف تُفسيح لكم مكانًا لتعيشوا". "يا للرحمة!" هتفت في داخلي، وتابع إبراهيم: "لربّما دار شيء من الأمل بالفرج في نفوس بعضنا، سيتوزّع الهواء الحار على عددٍ أقل، وبالتالي سنجد متنفّسًا، ولن نموت بهذه الأعداد، لكن المشكلة كانت في أمّهات هؤلاء الأطفال، أتعرّف أنّهم كانوا يحتجزون معنا عائلاتٍ بأكملها. الأمّهات دخلنّ الجزع والخوف: قالت واحدةٌ منهنّ: "أنا أتدبر أمر طفلي هنا، لا تنقلوه، أو انقلوني معه. صرّخ بها القائد: "لك ذلك. وأشار إلى أحد جنوده، فسحبها، فاغشيت أمام ابنها المُقيّد على مقربةٍ منها، ثم أطلقوا سراحه بعد ذلك، وفي اللحظة التي احتضنته وهي تبكي بكاءً مُرًا، أطلقا عليها النار وقتلاهّما. وهكذا لم تقل بعدها أيّة أمّ شيئًا. ولك أن تتخيّل كيف كانوا ينزعون الأطفال من بين أحضان أمّهاتهم ويذهبون بهم بعيدًا، والأمّهات اللواتي كانت تُنزعُ أفئدتهم منهنّ كنّ يراقبن غياب الأبناء خلف بوابة المبنى، موقنات بأنّ هذه النظرات

هي الأخيرة، بعضهنّ طلبنّ أن يحتضنّ أبناءهن ويقبلنهم قبله الوداع، لأنّهنّ موقنات بأنّ الموت ينتظرهنّ أو ينتظر هؤلاء الأطفال". وصمت إبراهيم، وراح يمسح دموعه، ولم أشأ أن أطلب منه المتابعة، وجاشت نفسي، وهتف هو من بين دموعه التي تكاد تنفر من عينيه كلما أوقف شيئاً منها: "ماذا تريد أن أحدثك. ألا تنام أيها المسكين. لماذا عليك أن توقظ مواجعنا في حين أنّه من الممكن أن ننساها أو نتناساها؟!". "يا إبراهيم كيف ننسى؟".

وتبّح كلب السيدة. واهتزّ غضنّ بعد أن سقطت عنه كتلة ثلج. وطار غراب. وسمغنا صريفاً لا ندري أفئران هي أم صراصير الليل أم أنّه صوت أعماقنا المذبوحة. وأردت أن أقول لإبراهيم: "حسبك. كان هذا كافياً لهذه الليلة"، ولكن الفضول يقتلني كما قتل القطة، والحكاية إذا نفث بها الصدر أراحت أكثر ممّا عذبت، ومن لا يريد أن يتبع الفاضل على المفضول؟! فيا إبراهيم لم أرتو، ولم أشبع، وإنّ الحديث طعام الليل، وإني أريد أن أسمع أكثر.

في شهر تقوز على كلّ شيء، الهواء، والجدران، والأجساد، وسقط الناس بعضهم فوق بعض، وفي اللحظة التي كان فيها عشرات الجثث تتراكم داخل المبنيين، أدخلوا علينا حوالي ثلاثمئة من الأسرى الذين جمعوهم من القرى. وأراد قائد الحرس أن يثّصل بقيادته من أجل أن يُخبرهم بالمشكلة الحقيقية التي وقعوا فيها، غير أنّ أحد جنوده اعترض قائلاً: "لا تفعل. كلّ المعسكرات ممتلئة بالبوشناق عن بكرة أبيها". "لكنّ هناك أكثر من مئة مُعسكر على امتداد الدولة، ألا يُمكن أن يجدوا لهم مكاناً". "لن يجدوا لهم بوصة". "فما العمل؟". "اقتل كلّ من له أكثر من ثلاثة أشهر في المُعسكر،

وتخلص من الحمولة الزائدة". وهكذا سحبوا مئتين وثمانين بوسنيًا
منا بشكل عشوائي، وقاموا بقتلهم خارج المعسكر على بعد بضعة
عشرات من الأمتار، وحفروا لهم حفرة كبيرة، ودفنوه فيها. وإذا
انتهت الحرب وبقى حيا، فسأدل من تبقى معي حيا على مكان
المقبرة، فلا أحد يعرفها أكثر مني. إن هذه أرواح يا حارث، لم
يكونوا أرقاما، ولا نكرات، ولا عبيدا، كان فيهم الأحرار من أساتذة
الجامعات، والحقوقيين، والشجار، وأهل الشرف والمروءة، وكان
يمكن للأطفال أن يكبروا، ويسيروا في الحياة على خطا أحلامهم
التي رسموها لأنفسهم، ولكنهم خنقوها في المهد، وقضوا على كل
أمل. لن يمز هذا مرور الكرام، أعدك أنني سألاحق المجرمين أنا
وكل المنكوبين الشرفاء من أجل أن نحق العدالة". "أين هي العدالة
يا إبراهيم؟ أنت متفائل كثيرًا". "أنا ناقد يا حارث، وما يثور في
أعماقي لن يوقفه سوى الموت". "ستموت يا إبراهيم". "لن أموت يا
حارث". "كلنا نموت". "إن متنا، فلن تموت قضيتنا". وصمت، وزفر
زفرة حزى خلث أنها سخنت هواء الغرفة البارد، واضطجع، ونام
على جنبه: "ثم يا حارث. في معسكر سوزيكا كان الغثور على غرض
عشرين ستميتزا ثريخ فيه أجسادنا المُنهكة حلقا، نحن الآن في
رفاهية باذخة لا ندري متى نفقدها". وهتفت بعد برهة من الضمت
والألَم: "متى خرجت من المعسكر يا إبراهيم؟". "بعد المذبحة
الأخيرة". "وهل حدثت مذبحة أخرى؟". "مذابح، واغتصابات يشيب
لها الرأس". "حدثني عنها". "ألا تتعب يا حارث. ألا تنام أيها المسكين.
أليس لدينا عملٌ غدا؟!". "خبر المذبحة وأكتفي". "وعد؟". "وعد". "في
الليلة الأخيرة من شهر أيلول من ذلك العام، كان قد

بلغ عدد الوافدين إلى المعسكر حوالي ثمانية آلاف معتقل، كانوا يأتون بكل من يروونه من البوشناق في الجوار، أي أحد، كانوا يأتون بهم من القرى والمُدن، فلاحين ومزارعين وأناسًا لم تصل إلى أسماعهم أنباء الحرب، كان تطهيزًا عرقيًا واضحًا، في تلك الليلة لم يكن للمبنيين أن يحتمل الأعداد المحشورة فيهما، حتى ولو تراكم بعضهم فوق بعض في طبقات، إن سقف المبنى العالي لن يتسع لهم حتى لو فعلوا ذلك حقًا، وكان القرار في تلك الليلة القضاء على من لم يستطيعوا إدخالهم من البوابة، أتوا بشاحنات الأغنام، وملؤوا ثلاثًا منها بأكثر من أربعمئة بوسني، وأبقوهم في الشمس، طوال النهار، وكانوا يصيحون: "ماء... ماء...". وهتف بعضهم: "اقتلونا ولكن اسقونا قطرة ماء". ولم يكن أحد يكثر بجوارهم. نقلوا الشاحنات إلى مكان مجهول، هذا المكان سنبحث عنه أنا وأنت إذا خرجنا من هذه الجهنمات سالمين، مكان بعيد، وأعدموهم برصاصة واحدة في الرأس من الخلف، ودفنوهم، ثم عاثوا". نقل بعض الصحفيين قصتنا، ولا أدري كيف رأى ما حدث أو سمع به. غير أن قائد الحرس وصلت إليه برقية تؤنبه على انكشاف ما قام به: "لا نريد مزيدًا من الفضائح". وهكذا نقلوا من تبقى في المبنى إلى معسكرات أخرى، وكان حظي أنني نُقلْتُ إلى مصنع فاردا، وها أنذا معك في هذا الجحيم الجديد كما ترى". وصفت، وقال بعد برهة: "إذا طلبت مني شيئًا آخر، سأقوم وأضربك". وبقىث صامئًا، وتقلب في مضجعه مرة أو اثنتين، ثم غطس في النوم.

(18)

قلب الحرب أسود!

أيقظنا صوت الحارس في السادسة، وهو يفتح سلسلة الزرد: "هيا أيها الكسالى، تريدون أن تناموا حتى الظهر؟! لعنة الرب عليكم. حلت بكم نِقْمَتُهُ". نهضنا. ركض بنا إلى حوض ماء خلف الكوخ أو الغرفة فوقها صنبور ماء، فتحه لنا، نزل خيط من الضديد أخضر أول الأمر، وبصعوبة نزلت قطرات الماء بعدها، كان البرد قد جفد الماء إلا قليلاً. صرخ: "يا ويلي. ليس لدي الوقت الكافي". هرع إلى مكان لا ندره على وجه الدقة، لأنه غاب فجأة عن ناظرينا ونحن تحت الصنبور، ثم عاد فجأة كذلك بسطلي من الماء، "أنت"، وناداني. "قرب وجهك القذر، هيا". ورشق الماء البارد في وجهي فشعث شهقة كبيرة كاذبة يغمرني عليّ معها. وفركت وجهي، وأخذت نفساً وأنا أبتعد إلى الوراء، ليرشق ما تبقى من الدلو في وجه إبراهيم، ووجه ثالينا الضامت.

تبغناه وهو يقطع الحديقة وثبات، حتى أقفل علينا صندوق السيارة العسكرية الخلفي، وخبط بيده على الباب كأنه يعلن عن أن حيواناته قد أحكم الإغلاق عليها، واستدار إلى الجندي الجالس عن يمين السائق، وسلمه ورقة، وهتف: "يجب أن تحضر هذه الأشياء كلها. إياك أن تعود بنصفها أو حتى ثفلت واحداً منها". "حاضر يا سيدي". "تعرف غضب السيدة". "أعرف". "إنها كلبة أنيابها مسمومة، إذا عضت قتلت". "أعرف يا سيدي". وهز رأسه بخضوع. وانطلقت السيارة.

توقفنا عند غابة صغيرة تشبه غابة أمس. كان بانتظارنا ثلاثة

آخرون، يبدو أنهم ليسوا من البوشناق، ولا من الجنود التشيتنيك، فقد كانوا يلبسون كالفلاحين، وَحَقَنْتُ أنهم عُقَالُ صرب. تسَلَّمَ إبراهيم منهم المِنْشَارَ الآلي. وهتَفَ الجندي الَّذِي أَتِينَا معه: "السَّيِّدَةُ تريذُ مزيدًا من (البادنياك)، هَيَّا". لدينا أنا وإبراهيم وثالثنا الضامت خبرةٌ في هذا المجال، اكتسبناها من عملنا في مصنع الخشب، جاسَ إبراهيم حول الأشجار الباسقة، كانتِ الشَّمْسُ تنهَضُ رويدًا، وتَعِدُّ بشيءٍ من الذَّفءِ وإنْ كان كاذِبًا، منذُ يومَين توقَّفَ الفلجُ، وحلَّ مكانه هُدوءٌ غريب، ومع أنَّ شَمْسَ أَمَسَ لم تَزْزنا، غيرَ أنَّها يبدو ستكونُ كريمةً في الضَّوءِ لا في الذَّفءِ، فإنَّ الضَّقِيعَ يَلْفُ كُلَّ شيءٍ، والوعدُ الكاذِبُ خيْزٌ من الحرمانِ الكامل.

قال إبراهيم: "أليست هذه من خشبِ الثَّنوب. من المُفْتَرَضِ أنَّ تَميِزُ بين هذه الطَّائفةِ من مجموعةِ الأشجارِ الضنوبرية. المعرفةُ سثْفيدك ولو كان الزَّمَنُ زَمَنَ مَوْتٍ وحرب". "إنَّها كذلك. أليس هذا النُّوعُ المُفْضَّلُ لدى السَّيِّدَةِ؟!". "ربَّما، ولكنَّ البادنياك يجب أن يكونَ من خشبِ البَلُوط. معرفة ما يَريذُ السَّادَةُ الكلابِ مَنجاة. نحنُ نُوْجَلُ الموتِ أحيانًا بتلبية رغباتهم، للكلبِ حَاشَةُ شَمِّ قوِيَّة، وعلينا جَفَلَهُ يَشَمُّ ما يشتهي، قَبْلَ أنْ يلعقه. هَيَّا، لا مزيدَ من الفلسفات. الوقتُ سيفُ؛ ونحنُ نمشي حُفَاءً على حَذِّهِ، انظرِ إلى نَزيفِ أقدامنا!".

جاءتْ سَيَّارةٌ عسكريَّةٌ أخرى بعدَ وقتٍ قصير، ركبَ فيها العُقَالُ الضربِ الثلاثةَ ومعهم أدوائهم، وغابوا عن الأنظار، ولا ندري أين ذهبوا بهم، أَرَجَحُ أنهم يقومون بتوزيع الآليَّاتِ على عُقَالِ آخَرين في أَمَاكِنَ أخرى، ثُمَّ يعودون في آخرِ اليومِ من أَجْلِ جَفْعِها. أمراءُ الحربِ لهم حياتهم الخاصَّةُ وقوانينهم التي اخترعوها لتخدم مصالحهم.

خلال أقل من ثلاث ساعات كُنّا قد قَطَعْنَا ما يُرضي رغبات السَيِّدة،
لقد قالت من قبل للحارس: "عشرون قطعةً من (البادنياك) على
الأقل، أريدُ أن أوزّعها على عائلات الأصدقاء قبل ليلة الاحتفال".
ركبنا السَّيَّارة، وبدل أن نعودَ إلى فيلا الضَّابط الكبير، ذهبنا إلى
المدينة، هل المدينة ما زالت حَيَّة، كانَ صوتُ بقايا الفلج وهو
يُطَقِّق تحت عجلاتِ السَّيَّارة مسموعًا ونحنُ نقبُغُ في الصندوق
الخلفي. هل في المدينة بيوت؟ سؤال مشروع في زمن الحرب. لأنَّ
من عادة الحرب أن تخلع البيوت من جذورها، وتقبضُ عليها بكفها
العملاقة، وترميها في الفضاء. هل ما زال فيها أحياء، فإنَّ الحرب لا
تُبقي على حيٍّ. ربّما تأنف أن تأكل الكِبَار في السَّن، ولذا قد تُشاهد
سَيِّدة قد خرجت إلى الشَّرْفة في هذا اليوم المُشمس البارد من أجل
أن تنظر إلى الشَّارع أو أن تشعر أن هذه المدينة التي خَنَقَتْها الحرب
ما زال فيها شيء ما يُذكر بالحياة، أو ينبض ولو خفقة قلبٍ واحدة.
لم يبقَ في المدينة إلاَّ العجائز، قليلٌ من العجائز الذين تجاوزت
أعمارهم الثمانين، لا أدري لماذا هؤلاء بالذَّات يُخطِئهم الموت،
في حين أنه يقضم أعمار الشَّباب والضَّبايا والزَّجال في عنفوان
فُتُوَيْهِم؟!

سألت إبراهيم: "إنَّه اليوم الثاني من شهر كانون الثاني من عام
1993م، لماذا لم يحتفل الضرب قبل يومين بليلة رأس السنة؟".
ردَّ وهو يميلُ جذعه نحوي، ويهمش مُحدِّثًا: "إمّا أن تُوجَل السُّؤال
إلى الليل، أو أتسأل بصوت مُنخَفِض، هل تريّدنا أن نقتل؟". "إنَّهم
سيقتلوننا بعد أن تنتهي مَهْمَاتنا لديهم". "لا تكن مُتَشائِمًا. حياتنا لا
تجري على توقّعاتك". "تركَّث التَّفَاوُل لك"، ثم ملث نحوه بطريقة

استعراضية تهكمية، وسأله بصوت مُنخفض: "والآن، لماذا؟". وهَزَ رأسه وهو يُشير إلى ثالثنا الضامت: "اسأله، لعله يعرف"، ونظرث إلى البوسني الذي لم يقل كلمة واحدة منذ أن رافقنا: "هيه، لماذا؟". وظل صامتا كالصخرة. وأدرث وجهي إلى إبراهيم: "أنت ترى، الجواسيس لا يتكلمون". "اخفض صوتك يا مجنون". وقلث بصوت خفيض كأني أستجيب لتحذير إبراهيم: "الجواسيس لا يتكلمون". وشعرث بأن جسد الثالث الضامت قد ارتج، ونظرث نحوه فإذا هو يكرّ على أسنانه، وتتغير ملامح وجهه، وقلث: "أزعجك الكلمة، إذا هيا تكلم". وسمعت صريف أسنانه وهو يشد عليها، ولم يقل حرفا. وجذبي إبراهيم نحوه، كأنا نريد أن ينهي الأمر: "سأقول لك لماذا يا مجنون؛ أولاً المسيحيون لا يحتفلون أساساً بيلة رأس السنة، هذا أمر مُستحدث، إنهم يحتفلون في موعدين، إما وفقاً للتقويم الغريغوري في الخامس وعشرين من ديسمبر كل عام، أو وفقاً للتقويم اليولياني في السابع من يناير من كل عام، والصرب يتبعون التقويم اليولياني، ولهذا لم يأت موعد احتفالهم بعد، ألا ترانا نقوم بتجهيز طلباتهم استعداداً لهذا الاحتفال؟".

ظلت السيارة تمضي بنا في شوارع أنكرناها وأنكرثنا حين مسح سواذ الموت بياضها، وأحرق دخان القناء أشجارها. ثم توقفت في شارع بقي نصفه سليماً من الدمار، ونزل السائق، وطرق الباب، ففتح له رجل أشيب، ونزل من بعده الجندي المرافق، وتكلما معه لبعض الوقت، ثم رجع الجندي وأمرنا بالتزول، ودخلنا البيت، لم يكن فيه غير الزجل الأشيب، وامرأة مُسنّة تبدو زوجته، ثم حملنا من هناك شجرة عيد ميلاد كبيرة. فككنا أجزائها بتأن، ووضعناها في السيارة

معنا، ملأث أكثر المكان، ودخلت أطرافها في عيوننا وأذاننا، وهتف الجندي وهو يُغلق خلف باب السيارة: "حافظوا عليها جيدًا أيها الملاحين، حين نصل بها إلى بيت السيدة، يجب أن تكون سليمة، وحين نركبونها هناك يجب أن تبدو كأنها جديدة لم تُستخدم من قبل. مفهوم؟". ولم نقل شيئًا، ومضت السيارة.

لماذا قلب الحرب أسود؟ لماذا تحمل هذا الحقد على كل شيء، إنها لم تترك شجرة في مكانها، ولا بيتًا واقفًا على قدميه، ولا طفلًا ضاحكًا، ولا عصفورًا مُغرّدًا، ولا شمسًا مُشرقة، إنها لا تترك غير العيون الدامعة، والحدود المُشققة، والسيقان العارية النحيلة، والصدور الغائرة، والأيتام، والفقالي، والآهات المُعذبة، والشهقات الحارة، والصدمات والصمت الطويل، والسواد، والسخام، والزوائح الكريهة... ألهذا الحد تكرة الحرب البشر؟!

توقفت السيارة من جديد. الملاحين يعرفون أين يتوقفون. كان الجندي ينظر في القائمة. كل شيء يبدو مُعدًا سلفًا. إنهم يعرفون ما يفعلون. فتحت الباب هذه المرة صبية في العاشرة أو الحادية عشرة، كانت تبدو سليمة تمامًا، غريب أن ترى بشريًا على هذا النحو؛ ليس فيه شيء ناقص، ويتمتع بالصحة الوفيرة، والحدود المُمتلئة. هبط الجندي، وحياتها برقّة مُبالغة، وقبلَ ظاهر يدها: "أين أبوك أيتها الأميرة". وغنجت وهي تقول: "اتبعني". ونادانا الجندي، فهبطنا من السيارة، وقال لنا توقفوا هنا، ونادى السائق وسلّمه الكلاشينكوف: "راقبهم جيدًا حتى أعود". ورفع السائق فوهة الرشاش ووجهها نحونا: "لا تكونوا حمقى". وأردت أن أضحك، ولكنني كتفت ضحكتي. مرّت دقائق ثقيلة، عادَ بعدها الجندي، وأشار لنا أن نتبعه.

دخلنا إلى مخزن كبير في الداخل، يبدو أن صاحب البيت كان تاجرًا، رأينا مجموعة كبيرة من الألعاب والشموع وأدوات الزينة والأشرطة الحمراء، وجمعنا كيسين كبيرين، وخرجنا. قلت لإبراهيم همسًا: "السيارة لا تتسع لكل هذا." "إنها تتسع، إذ لم تكن تتسع فعليك أن تجعلها كذلك"، والتفت خلفه وتابع: "ألا ترى تلك البندقية المصوبة نحو ظهورنا؟".

وصلنا إلى فيلا السيدة أخيرًا. كانت جولة رائعة. على الأقل استمتعت بصوت العجلات التي تدوش على القلج المفتحور كالزجاج، ورأيت وجه صبية ممتلئة الخدين، ونشطت جسدي بقطع الأخشاب في الغابة. أنزلنا الأغراض. أمرت السيدة بوضع أخشاب (البادنيك) في الغرفة الأولى التي عن يسار الداخل من الباب الرئيس، كما فعلنا في اليوم السابق، وهتفت بالحارس الذي وقف بجسده العملاق إلى جانبها: "سيأتي حوالي عشرين شخصًا غدًا وبعد غد، سلّم كل شخص يأتي قطعة من البادنيك". وهز الحارس رأسه بالموافقة دون أن يتكلم. وتابعت السيدة: "ادعُ العاملات من أجل القيام بمهامهن". وغاب الحارس، لتظهر بعد عدة دقائق خمس عاملات صربيات، وزع عليهن الحارس الشموع والألعاب والأشرطة وأدوات الزينة، وانهكن في تزيين الفيلا، أما نحن فزحنا نعيد تركيب شجرة عيد الميلاد، دخلنا بأجزائها إلى غرفة الطعام الواسعة، وفي الزاوية البعيدة من يمين المدخل قفنا بإعادة تركيبها هناك، وتولت بعض العاملات تزيينها بالأشرطة وبالأضواء والشبر، وخلال ساعة كانت تضيء المكان وتبعث البهجة في الزوايا.

كانت السيدة تُشرف على أعمالنا، وتهتم بالتفاصيل، وتوجّهنا بين

حين وآخر، وسرى شيء من الألفة بيننا وبينها، وشعر إبراهيم بأثني
جذلان من حركتي ومن نظرتي إلى السيدة وإلى العاملات، ومن
لساني الدافئ في الحديث، فشدني من يدي خلف الشجرة قبل أن
نتم عملنا، وهتف: "أراك مسرورًا، أظننت أن هؤلاء سيرحمونك؟".
وصمت قبل أن أهز رأسي لأقول: "أنا أعيش لحظتي، ولا أفكر بما
يمكن أن يحدث". "مسكين. انظر إلى تلك السيدة التي تبدو أنيقة
وراقية وجميلة وتتحدث بلباقة، إنها لو أرادت أن تشرب من دمك
فلن يمنعها من ذلك شيء. تشرب من دمك على الحقيقة يا حارث.
هل تفهم ما أقول؟! إنها أفعى رقطاء".

أمرنا الحارس مع مساء ذلك اليوم أن ندخل إلى كوخنا أو زريبتنا.
امتدنا، صر الباب، سمعنا صوت زرد السلسلة، ثم القفل، ثم أقدام
الحارس. مضيت إلى النافذة، فتخثها، نظرت إلى الواجهة الزجاجية
العريضة لغرفة الطعام، كانت تبدو غاية في الجمال والوداعة،
كانت أضواء شجرة العيد تلمع خافتة في الزاوية، وكانت الشموع
المعلقة تزين الجدران كلها، وترتكز على الموائد، وعلى الطاولات هنا
وهناك في تناسق عجيب، وجمال أخاذ. وهتفت في أعماقي: "نحن
محظوظون يا إبراهيم. تعال انظر".

(19)

هل أنت صرّبي مُتنكّر؟!

لم نخرج من غرفتنا ليومين. كان الحارس يأتينا بالطعام بانتظام، ولم ندر لماذا يفعلون ذلك. وكنت أتسلى بالمشهد المفتوح أمامي من خلال النافذة. كان ذلك يوم الأحد، ثالث أيام هذا العام الجديد، وفد إلى غرفة الطعام عددٌ من العائلات، جلست الأُمّهات بهدوء على المقاعد التي توزعت على أطراف الغرفة، فيما كانت هناك أمام طاولة الطعام حوالي سبعة كراسي، قام الأطفال بِرَبْطِ آبائهم إليها بِرباطٍ من شرائط الحرير، ساعدتهم سيدة الفيلا في ذلك، ثم راح الآباء يتظاهرون بالبكاء ويتوسلون، وفيما بدا أنه استعطافٌ تميلي من الآباء لأبنائهم، قام هؤلاء الأطفال بفك وِثاق آبائهم على شرط أن يأتوهم بالهدايا، وبالفعل قفز الآباء فَرَحِينَ بعد أن تحزّروا من الأس، وانطلقوا إلى الغُلب التي كانت معهم أوّل ما دخلوا إلى هنا، وقاموا بتوزيع الهدايا على الأطفال الذين راحوا يتراقصون من الفرحة.

في اليوم الخامس أخرجنا من الزّريبة التي عشنا فيها يومين دون أن تُسأل عن شيء. ساقنا الحارس إلى الغرفة التي عن يسار الداخل من المدخل الرّئيس، حيث تركنا هناك ما يقرب من ثلاثين قطعة من خشب (البادينياك). كان الوقت يُشير إلى التاسعة صباحاً، ولا شيء غير البرد، سمعنا جلبةً في الخارج، أمرنا الحارس أن نقف بشكلٍ طولي في الجهة المقابلة لباب الغرفة، وأن نصف قطع الخشب بشكلٍ مُنظّم، وأن نعطي كل رب عائلة أو أسرةٍ يقدم إلى هنا قطعة من هذه القطع، وقبل أن نفعل ذلك، أخذ أحسن ثلاث قطع منها، وقال: "هذه

للسيدة".

تحركت الجلبة من البوابة الخارجية إلى الحديقة المغطاة بالفلج والتي يظهر بعض ردايها الأخضر من بين البياض الذائب هنا وهناك على هيئة بقع دائرية. كنت أنحني لألتقط قطعة الخشب من الأرض، ثم أناولها لإبراهيم الذي يعطيها بدوره إلى رب الأسرة، يأخذها الزجل، ويؤلي وجهه دون أن يقول شيئًا، وأحيانًا يقبلها، أو يحتضنها، أو يمسح عليها كأنها طفله القدل. ثالينا ظل صامتًا مثلنا، ولكن كذلك ظل جامدًا في مكانه، كأنه قطعة من هذه القطع التي لا تتحرك.

مرت ساعة أو أقل حتى كان خشب (البادنيك) قد وُزِعَ بأكمله، فرح الحارس، وفرحت السيدة، وشكرًا الرب على كرمه، فيما قال لنا الحارس بلهجة أمرة: "هيا. ستذبحون الخنزيرين". ساقنا الحارس إلى حيث رُبط الخنزيران. أحضر معه أدوات الذبح والأوعية المعدنية الكبيرة، وأمرنا أن ننفذ ما يقول بحذافيره. مَدَّ إلى إبراهيم آلة الضعق الكهربائية: "هيا اصعقهما". تردد إبراهيم قليلًا، ليس خوفًا، ولكنه لم يجزب ذلك من قبل فيما يبدو. ضحك الحارس: "غز. لم تفعل من ذلك من قبل؟!". وأردف: "الضعق أحسن من التخدير، وأرحم بالخنزير". أردنا أن نقول كيف يكون الضعق رحيماً، ولكنه كان قد جذب آلة الضعق من يد إبراهيم، وصعق الخنزيرين في رأسيهما، ترنحا كأنما ضربا بصخرة من حديد وسقطا على الأرض. صرخ الحارس: "هيا. يجب ألا ننتظر كثيرًا". أعطى إبراهيم سكينًا، وأمره: "هيا، اذبحه". كانت كلمة الذبح تُسبب لنا رعبًا كبيرًا، رجف السكين في يد إبراهيم، وانتظر الحارس لحظات، قبل أن ينفجر

غَضَبًا: "أنتَ عديم الفائدة، لا أدري كيف بعثوا بك إلينا؟"، وجذب الشكّين من يديه، أسرَّعَتْ من أجل أن أحمي نفسي بأخذ الشكّين من يد الحارس، وهتفتُ: "أنا أذبحه". لَمَعَتْ عينا الحارس: "تستطيع؟". "أنا خبيرٌ بذلك". ولمعت عيناها من جديد تعجبًا. كانت ضور الذبح التي تمثت كثيرًا أمامي تقفزُ بسرعة وبدل أن تجعلني أدوخ، اتكأت عليها من أجل أن أهرب منها إلى الأمام، وأقتل الخوف بالإقدام على الذبح، وقطعت شعرة الثردد حتى لا ينالنا جميعًا مكروه أو أذى بسبب ذلك. صرختُ بإبراهيم: "ساعدني على إضجاعه". كانت ضور إضجاع الناس على جسر نهر درينا تمرّ هي الأخرى مُسرَّعة كأنها لَمَعَاتُ برق، سارعَ إبراهيم في تلبية ندائي وهو في غمرة اندهاشه، وضعت الشكّين على الوريد الرئيسي في رقبة الخنزير لقد شاهدت هذا الموضع في أعناق البشر هناك على الجسر وعلى سواه، فأنا أحفظ الموضع تمامًا، وبسرعة غاصت الشكين الحادة في عنق الخنزير السميكة، وراح الدم يتدفق من هناك مثل نافورة مقلوبة. انتظرتُ خمس دقائق حتى ضُفي دمه تمامًا، وشعرتُ أنني يجب أن أحمله وأرميه في النهر، وقبل أن أهم بذلك سمعتُ إبراهيم يقول: "ألا تريد أن تذبح الثاني؟". وأيقظني السؤال من سَطوة الذكرى، وأضجفنا الثاني، وغاصت الشكين، ونفر الدم، وانتظرنا حتى لم يعد من دم يسيل. وجاء الآن وقت العملية الأصعب.

كانت هناك قدر كبيرة تتسع للخنزيرين معًا، أوقدنا تحتها النار، بأخشاب التدفئة، ليس بينها خشبة واحدة من (البادينياك)، فهذا خشب مقدّس لا يُستخدم هنا. انتظرنا ربع ساعة أو أكثر قليلًا حتى سخن الماء في القدر إلى ما قبل الغليان، كان علينا أن نراقبه حتى

لا يغلي، وبمساعدة إبراهيم والبوسني الصامت، ألقينا الخنزيرين في القدر العملاقة، وانتظرنا خمس دقائق، قبل أن نخفف النار حتى لا ينضج الخنزيران، فهذه ليست مرحلة الإنضاج؛ إنها مرحلة التنظيف، بقينا نخفف الحطب المشتعل تحت القدر حتى انطفأت النار تمامًا. لم نتظر كثيرًا حتى يبرد الماء، ساعدنا في ذلك الجو الصقيعي. أخرجنا الخنزيرين، ووضعناهما على مفرشين كبيرين، وبأدوات خاصة، رحننا نزيل الشعر عن جلد كل خنزير، ونكشط الجلد بعناية حتى لا نخسر جزءا من اللحم. ولما أتممنا سلخه، لمعت السكين في يدي من جديد، لقد صرث خبيرًا حقًا. بقرث البطنين، وأخرجت أحشاءهما، ووضعنا ما لا يُستفاد منه في أكياس القمامة، وأما الأمعاء والكلى والكبد فوضعناها في دلاء خاصة، إن السيدة ستتعشى عليها اليوم، سوف يقوم طبّاخ متمرس يأتي من العاصمة سراييفو من أجل أن يقوم بإعداد الوجبات التي تشتهيها السيدة، سثوكل أحشاء أحد الخنزيرين، فيما سثجفف أحشاء الخنزير الآخر، ويُعالجها الطباخ لكي يُحضّر منها الثقائق التي ستعيش عليها السيدة وزوجها طوال فترة الشتاء.

قَطَعْنَا الخنزير الأول بالسّاطور على مقعدة خشبية كانت مُعدة سلفًا. الرأس سيُشوى على ذات النار، ويُتخلّص من الشعر الزائد، ومن بعض القاذورات العالقة في فمه وفي منخريه، وسيُقدّم ليلة الميلاد على طبقٍ خاصٍ لكبير العائلة. أما الفخذ والكتف والبطن فسُثْقِطع إلى أجزاء صالحة كُلِّ واحدةٍ منها لوجبةٍ في أيام انقطاع اللحم في هذه الحربِ اللعينة. وأما الخنزير الآخر فبعدَ التأكد من أنه نظيفٌ تمامًا من الأحشاء والقاذورات العالقة به، فسنحمله نحنُ

الثلاثة في دلو كبيرة إلى البيت، وسنضعه في ثلاجة خاصة تحافظ على رائحته الكريهة إلا تفوح مدة يوم أو يومين، وفي وقت العشاء الموعود سيتم ظهوه، والاحتفال بأكله.

أتممنا المهمة وقد ذهب أكثر النهار. وجاؤونا بقطعة مطبوخة من لحم الخنزير، ورماها الحارس أمامنا ونحن ما زلنا في الموضع الذي ذبحنا فيه الخنازير، ونطق عن غير رضا: "إنه عطف السيدة، أشفقت عليكم بعد أن بذلتم جهدًا في الذبح، وأنا لا أدري ما قيمة هذا الجهد، لقد كنتم تتسلون، ولكنه قلب السيدة، إنها بعظمتها أرادت لكم أن تحظوا بهذه الوجبة الاستثنائية قبل أن يحظى بها الضابط الأعلى نفسه." "ولكننا لا نأكل لحم الخنازير." وصدمت العبارة الحارس، وصمت صمتًا يشعر بأنه طعن في شرفه: "ماذا قلت؟!". "نحن مسلمون، والخنزير محرم في ديننا؟". وأراد إبراهيم أن يضع يده على فمي، ويلعن اللحظة التي نطقت بها بهذا الكلام، ويصرخ في وجهي: "تريد أن تبدو شجاعًا؟ تريد أن تكون بطلاً؟ تريد أن تعلم هؤلاء السفاحين أمور دينك؟ ألا لعنة الله عليك!!". وتصنع الحارس الهدوء، وقال وهو يركز يديه على جذعه متحفظًا: "قلت لي إنه حرام في دينك أيها الكافر، إذا كان كذلك فلماذا قُمت بذبحه؟". وأردت أن أقول له: "إنني مضطر إلى ذلك، من أجل ألا أقتل". ولكن إجابة كهذه ستكون غير منطقية وقد قلت ما هو أفزع منها حين جلبت علي وعلى إبراهيم والبوسني الثالث الويلات. ولم يقل الحارس شيئًا، تناول عصا غليظة من خشب الزان كان يتمنطق بها، وانهاه علي ضربًا: "لا تريد أن تأكل لحم الخنزير أيها الكافر... ترفض كرم السيدة أيها التركي... لو كان الأمر بيدي لأطعمتك للكلاب أيها الضعوك...".

وكانت الهراوات قد انهالت على رأسي وجسدي وساقتي، وحاولت الهرب، وركضت بالفعل، غير أن الحارس سحب أقسام المُسدّس، ورفعته: "توقّف" وتوقّفت. وتابع: "إذا تحرّكت فسأقتلك". وراح يقترب مني رويدًا رويدًا، وحين صار على مقربة مني، أمّن المُسدّس، وأعادّه إلى جرابه الذي يلف وسطه، وتناول العصا من الحزام، وأراد أن يستمرّ في ضربي، وصرخ: "سأضربك حتّى يُغفى عليك أيّها الضعلوك". وسقطت على الأرض بفعل الضربة الأولى الصّاعقة، وقبل أن تنهشني الهراوة الثّانية، قفز إبراهيم وحنا جذعه فوقى وحماني، وهتف: "اغفر لنا يا سيّدي، إنّه صعلوك كما قلت ولا يفهم شيئًا. إنّه أخي. ابن أُمّي وأبي. وأنا لا أريده أن يموت. يُمكنك أن تُعاقبني بدلًا منه. إنّه صغير ولا يُحسن التّصرّف. أرجوك من أجل السيّدة أو الرّب سامخنا هذه المرّة". وأصابت هراوتان أو ثلاث جسد إبراهيم قبل أن يتوقّف الحارس، ويهتف: "من أجل السيّدة هذه المرّة، لا من أجلكما". وراحت أنفاسه تتردّد، وصوت لُهاثه يعلو، وهو يتابع: "إنّها تريذكما غدًا، لولا ذلك لكنّكما ميّتين". وهكذا نجوت بعد أن رَسَمَت هراواته خُطوطًا زرقاء في نواحٍ كثيرة من جسدي.

اتّكأت على كتف إبراهيم ونحن نمشي من آخر الحديقة إلى زريبتنا، ورحلت أعرج ونحن نقطع المسافة بين الموضعين، فيما تَبَعْنَا البوسني الثّالث بصمت دون أن يفعل شيئًا. وفتح الحارس الباب لنا وهو يشتم شتائم بذيئة ويتوعّد، ويقول بين شتيمة وأخرى: "لولا عطف السيّدة... لولا أن السيّدة تحتاجكم...". ثمّ صرّ الباب المغلّق، ثمّ صوت الزّرد والسّلسلة، ثمّ صوت القفل، ثمّ أقدام الحارس، ثمّ الضمت والظلام الثّامان.

مرّت فترةً من الهدوء. كنّا نُقعي على الأرض كالكلاب الجرباء دون حراك، أردتُ أن أقول شيئاً، أن أفسر، أن أعتذر، أن أوضح سبب قولتي تلك. نظرتُ إلى إبراهيم، حاولتُ أن أراه على ضوء الثور القادم من النافذة، لكنّه كان ساهماً فيما يبدو، يلعنُ في سرّه تصرّفي. ومرّ وقتٌ من الضمت شعزتُ أنّه دهرٌ بأكمله، وكنتُ غاضباً وآسفاً ومُتألّماً، وهتفتُ في النهاية: "أنا أعتذر يا إبراهيم". وظلّ إبراهيم صامئاً كأنّه تمثال. وأردفتُ: "لم أفكر بعاقبة ما قلت. ولكن....". وسكتُ قليلاً قبل أن أكمل: "ولكن لماذا يُغضبهم أنّنا لا نأكل لحم الخنزير، لو قال لي صربي إنّهُ لا يأكل لحم الخروف فهل سيدعوني ذلك إلى الغضب؟!". وسكتُ مُتوقّفاً إجابةً أو تعليقاً من إبراهيم، ولكنّه ظلّ صامئاً، فأغاطني صمته، ونظرتُ إلى البوسني الجالس على مبعدةٍ منّا صامئاً هو الآخر: "أنّ، لماذا وقفتُ تتفرّج عليّ وأنا أكاذ أموت؟ ألسنُ أخاك؟ أم أنّك صربي مُتنكّر؟". وهزّته الكلمة الأخيرة فتملّمل في مكانه، وأردفتُ أنا محاولاً استنطاقه: "قد تكونُ صربياً مُتنكّراً، ولكنني أرجح أنّك جاسوس. جاسوس على إخوتك. تريدُ أن تصل المعلومات إلى أعدائنا لينهشوا لحمَ إخوتك أيّها الوضيع". وهنا ثارتُ ثائرتهُ، واستشاطَ غَضباً، وصرخَ بصوتٍ خرجَ مشدوداً عليه من بين أسنانه: "أخرس أيّها الحقيّر". وهتفتُ: "ها أنت تتكلّم إذا، أنت لستَ أخرس ولا أبكم ولا أهبّل كما طنّنت". وأعادَ الجملة: "أخرس أيّها الحقيّر". وتابعَ وهو يهزُّ برأسه أسفاً: "كدتُ تتسبّب في القضاء علينا جميعاً بأفعالك الحمقاء، بتظاهرك بمعرفة أحكام ديننا أيّها الأحمق المُغفل، وأمام مَنْ؟! تظنّ أنّه لم يُعانِ سواك، ولم يحدثَ لأحدٍ إلّا غيرك، أيّها المُتعجرف لو حدّثك بما مرّ بي

لَفَقَذْتُ عَقْلَكَ، وَلَكِنْ لَا عُتَبَى عَلَيْكَ فَأَنْتَ لَا تَعْرِفُ شَيْئًا".

أخطاء بسيطة!!

"اسمي عثمان، لقد كنت في معسكر (أوزامنيكا) في فيشيغراد"، قال البوسني الثالث الصامت الذي انفجر بالحكايا دفعة واحدة. لقد قاتلت في الجيش، ربما إبراهيم لا يتذكرني، ولكنني لا أنساه، إنه أخذ مقاتلينا الشجعان، ولكن سلاحنا كان قليلاً، وكانت لديهم خطط لم ننتبه إليها لنزع سلاحنا. وكنا - وهذه هي الطاقة الكبرى - نؤمن بالسلام، وبأن ما حدث طارئ، وأنه لا بُد من العودة إلى ما كنا عليه من تعائش، ولكن الضرب أظهرنا حقاً دفيناً غمزه نصف قرن، وبعض هذا الحقد لا يزال مُختِماً منذ أن نشرت قُوات محقّد الفاتح راياتها على هذه البلاد.

"كل من نجا من مذابح فيشيغراد نُقل إلى معسكر (أوزامنيكا) على بُعد خمسة كيلومترات من المدينة، استسلمت قُواتنا من الإنهاك والجوع، كان المعسكر كتلة من الجحيم، بعضنا توّسل إلى الجنود الضرب أن يقتلوه لأنه لم يعد يحتمل العذاب، ولكنهم لم يفعلوا، كان العذاب مُضاعفاً، كانت تُقتلُ غيونا بالكفاشات وبالسكاكين، وكانوا يقطعون آذاننا، ويشوونها"، واقترب مني في عتمة الغرفة التي صمت كل ما فيها وهو يحكي، وهتف: "تحسس، إنك لا ترى لأنك أعمى، هيا تحسس هذه المنطقة. إنني بلا أذن". وتابع: "كانوا يذبحوننا على دكة خشبية كبيرة تُشبه تلك التي في المسارح، وبينما كانت دماؤنا تملأ المكان كان الجنود الضرب يأكلون ويرقصون ويضحكون. وكانت لديهم قوائم بأسماء الجنود البوسنيين الذين

يجب تصفيتهم، وكانوا يُوزعونها على مراكز الاعتقال سراً، وكانوا يأمرونا أن نحفر حفراً عميقة خارج المعسكر، ويقومون بإلقائنا فيها مُكبّلين ويرشوننا بالجازولين ويقومون بحرقنا أحياء، وصمت، ثم أطلق زفرة طويلة، ومسح دموعه الفئهمة، وتابع: "لقد رأيت ما يجعلنا نزهّد بالحياة، هل تعرفان لماذا بقيت صامِتًا طوال هذه الفترة؟ ما فائدة الكلام، ما فائدة أن تقول أو تفعل شيئًا، أنت مُعدّ للذبح، لكنك تنتظر دورك، إن تحسّست عُثْثُك ورأيت أنها ما تزال هناك لم تُفارق كتفيك، فلا يعني هذا أنك نجوت، ولكنه يعني أن دورك في الذبح لم يحنّ بعد، ولكنه سيحين يومًا ما، في لحظة لا تتوقعها، هل تدرك كيف يكون شعور الميت الذي يمشي على رِجلين؟! يتوقع في كل لحظة أن يُصبح غير قادرٍ أن يُحرّكهما، إنه شعور بالفرع لا يمكن أن يفارقك، إنه يمشي معك، ويأكل معك، وينام معك، وينظر بعينيك، وفي النهاية هاتان العينان سوف تنطفئان وتغرقان في الظلام مثل الذين رحلوا ومثلنا نحن الذين سيرحلون، أعرفتم الآن لماذا صمت هذا الضمت المطبق؟ إنني أتعجب من أنكما تتحدثان كأنكما نسيثما عهدنا وما نحن فيه، هل يتحدث الميت، أجيباني أيها الميتان المسكينان". وسمعناه يتأوه آهةً شعزنا بحرّها في وجوهنا: "آه... آه... لقد اغْثِصبت أختي أمامي، وقُتِلت بدم بارد، وتركوني معها وحدي لكي أدفنها، وحين لم أستطع، جزّوني من يدي وألقوني في الشاحنة وذهبوا بي إلى المعسكر. أنا الآن نادمٌ أشدّ الندم أنني لم أدفنها، ومُتأكد أن الكلاب وجدت جثتها غنيمَةً باردةً لكي تنهشها ليومين أو ثلاثة حتى لا يبقى لها منها شيء... آه أيها الجهلة الذين تظنّونني جاسوسًا، وماذا سأستفيد لو كنت

كذلك؟ هل أنا الذي عُيِّنْتُ مسؤولاً عنكم؟ هل أنا الذي أتحكم بكفّية الخبز التي تأكلونها؟ ثبّا لنفوسكم المريضة... في ذلك المصنع الذي تظنون أنكم في أمان بين أبهائه، لقد كنت فيه قبلكم، دخل علينا في صيف العام الفائت (ميلان لوكيتش)، وجمّع سبعة منا، لن أقول إنني كنت محظوظا لأنني لم أكن واحداً من السبعة، بل سأقول إنني محظوظ لو كنت من بينهم، لربما انتهى عذابي، لقد جزوهم إلى نهر درينا، وهناك ذبحوهم امام أبنائهم وزوجاتهم، لقد رأوا دماءهم تتشكل بركة صغيرة على الجسر، قبل أن يلقوهم فيه. ثم بعد أسبوع أخذوا ستة عشر واحداً، ربطوهم من أيديهم إلى أربع سيارات عسكرية، ثم سحلوهم في الشوارع حتى تمزقت أجسادهم، وتقطعت لحومهم، ولم يتركوهم حتى تأكدوا من أنهم فارقوا الحياة، ثم تركوا في الشوارع تدوسهم العجلات، وتنهش الجوارح والهوام ما تبقى منهم. أيها الجاحدان المريضان أستمعتان بأخبار ذبحنا؟ لدي منها الكثير الكثير، لو حدثتكم مئة ليلة ما رويث كل ما رأيت. لقد كانوا يلعبون لعبة الموت مع الأطفال: يقذفونهم في النهر، وقبل أن يغطسوا فيه يطلقون عليهم النار، كانوا يتسابقون في إصابتهم بالنار قبل أن يرتطموا بمياه النهر الذي ظل جائعا إلى لحومهم، لقد قتلوا بهذه الطريقة أكثر من ثلاثين طفلاً. جمّعوا ذات مرة سبعين رجلاً وامرأة أكثرهم من القرى في منزل في شارع (بيونيرسكا) في (فيشيغراد)، وأحكموا إغلاق الأبواب والنوافذ، وأحرقوهم أحياء، ومن حاول النجاة ووجد طريقة للخروج من المنزل وهو يشتعل ككتلة من اللهب كان القناصة يردونه بالرصاص، وهم يضحكون كأنهم يتسلّون، لم تكن أرواحنا أكثر من تسلية لهم. كانوا يجمعون

النساء والأطفال، يغتصبون الجميع، حتى من كان عمره أربع سنوات، ثم يخرجون بعد أن يُنْهَوْا مهمتهم، ويلقون على المنزل عددًا من القنابل، وتنفجر هناك، ويغادرون، ولم يكن ينجو إلا القليل، أحد هؤلاء الأطفال كان رضيعًا لا يتجاوز عمره عامًا واحدًا، من يدري ما حل به أو بالبقية؟! لم يكن الناجون أقل عذابًا من الهالكين، كانوا ينجون وقد فقدوا أطرافهم، سيقانهم، أذرعهم، حروقًا في البطن والوجه، وكانوا يعيشون مُشوَّهين لبقية حياتهم. هل هذا يكفي؟! كلاً. لدي الكثير الكثير أيها الجاحدان، وأنا جائع في هذه الليلة إلى الكلام مثلكم، لا لأنّ الكلام يُريح، فهو يُعَذِّبني أكثر مما يُريحني، ولكن لأتشفّى بآلامكم الثافهة، ولأتسلى بنظرات عيونكم المُشفقة. هل أراكم في هذا الظلام الكثيف، أنا لا أراكم جيدًا. حسنًا هذا ليس سيئًا إلى درجة كبيرة؛ لأنّه لا أحد يراكم، ولا أحد يرانا، ولا قلب يُشفق علينا، ولا رحمة يُمكن أن تحل بنا، نحن في الجحيم سواء، ولأننا كذلك، فأسأليكم هذه الليلة اللعينة بما رأيتم. هل رأيتم مثل هذا؟! كانت زبيدة ولطيفة أختين، أغلقت عليهما مع العشرات أبواب منزل كبير، وثمّ إحراقه بالقنابل وبالنار، حين شَبَّتِ النار في ثوب زبيدة ركضت نحو الباب، كان من الحديد، وقد أوصد بشكل تامّ، لكنّها تمكّنت من الهرب من نافذته، لا تسألاني كيف فعلت ذلك، جسفها التحيل، فتحة نافذة الباب الزجاجية التي كسرتها مكّنتها من ذلك، استطاعت في النهاية الهرب، وتركت أختها خلفها، رجعت إلى حيث النافذة، أمسكت بيد أختها لطيفة: هيا افعلي مثلما فعلت، ستنجحين، لكنّها كانت أكبر حجمًا من أختها، وكانت النار قد تمكّنت منها فسقطت مغشيًا عليها، كيف يُمكن أن تنجو زبيدة وهي ترى

أختها تحترق بالكامل أمامها؟! ركضت زُبيدة هاربةً بأقصى ما تقدّر عليه أرجلها، وفي الساحة العُشبية خارج المنزل رأت الجنود الضرب هناك يشربون الثيبذ ويضحكون. كانوا ينتظرون موتنا بينما كانوا يسكرون. كيف يُمكن أن تقول إنَّ هؤلاء بشر؟! هاه..؟! وزفر زفرةً شعزنا أنّه اختنق لحزّها، وتثخّثت أريدُ أن أواسيه ببعض الكلمات، فتابع وهو يُشير بإصبعه كمن يُحذّرني: "اخرش. لا تقل شيئًا. ليس هناك كلامٌ قد يُعزّي أيّ واحدٍ منّا، ولذا وفّر كلماتك لنفسك، ربّما تنجح في تعزيتها، أمّا أنا فلا أريدُ تعزيةً من أحد. اخرش. لم أقل كلّ ما لديّ، ما زلتُ جائيًا إلى الحكي. في (باكلينيك) كانت هناك قافلةٌ من المُهجرين تغادر المكان باحثةً عن النجاة، كانوا بالمئات، يحملون ما خَفّ من متاع، تحدوهم الأمانى في أنّهم سيعودون لبيوتهم، هَجَم عليهم الضرب، فصلوا الرّجال، أخذوا حوالي مئة رجل، جعلوهم يقفون بحيث لا يرون وجوههم، وهناك أعدموهم أمام الجميع، كيف سيكون شعور امرأةٍ ترى زوجها يسقط أمامها؟ أو شعور طفلٍ يهوي أبوه أمامه. ركضوا في كلّ اتجاه، لاحقتهم الرّشاشات والقنابل، اختلطت لحومهم بالشراب وبإسفلت الشوارع. قبل أن يحلّ الصّيف من ذلك العام، رُحِلت عائلاتٌ داخل شاحنات المواشي، اعترضتها مجموعةٌ من الضرب في (بوسانسكا)، أطلقوا النار على العجالات لكي تتوقّف الشاحنات، ثمّ أمروا الرّجال بالنّزول، كلّ مَنْ نزل أُطلق عليه الرصاص، وهتفوا بعدَ أن لم يعد أحدٌ من الرّجال ينزل: هَيّا. نحن مُتأكّدون أنّ بعضكم ما زال يقبع مع النّساء في الشاحنات. ألهذا الحد أنتم جُبناء؟! انزلوا، لا تحتموا بالنّساء، لا تخافوا، إنّها طليقةٌ واحدة، لا يستحقّ أحدكم أكثر من ذلك ولا يحتاج إليه. ولما

لم ينزل أحد، صعدوا بأنفسهم إلى تلك الشاحنات، وأجهزوا على من تبقى من الرجال، وقُتِلَ معهم بالخطأ، أريدكم أن تركزوا على هذه الكلمة، بالخطأ، قُتِلَ بعض الأطفال المساكين، واعتذر الضرب: لم تكونوا مقصودين أيها الأطفال، كان الرجال هم هدفنا، في الحرب لا بُدَّ أن تحدث بعض الأخطاء البسيطة. وفي نهاية الضيف من العام الماضي هاجم الجيش الضربي قرية (باريمو) وأحرقوا القرية بيوتها ومزارعها جميعًا. وقتلوا امرأة كانت من مواليد عام 1899، وُلِدَتْ في نهاية القرن التاسع عشر وقُتِلَتْ في نهاية القرن العشرين، أتريدون أن يرحمونا نحن؟! أترون هذه السيدة الأنيقة، كان زوجها قائدًا في تلك المجموعة، نحن في قبضة من قتلوا من اقتربَ عمره من مئة سنة، وقتلوا من لم يتجاوز عمره سنة، نحن في المحرقة سواءً أيها الأعميان... واحسرتاه...". وصمت يلهث من تتابع حكاياته، وزحف نحو أريد أن أحتضنه وأرجوه أن يسكت، ولكنه دفعني بعيدًا عنه، وهتف: "قل لك لا أريد من أحد أن يخفف عني، وفر ذلك لنفسك. أنا أحسن حالًا منك. لكنني لم أنتهِ. أريد أن ألقى هذه الحصى التي تخنقني في صدري، أريد أن أقول كل شيء". وقام على ساقيه، وإبراهيم يراقبه، وراح يذرع الغرفة جيئةً وذهابًا بعصبية، يتعثر ويسقط، ثم يقوم، وهو يلوح بقبضتيه، ويفتح النافذة ويأخذ نفسًا عميقًا ويغلقها، ثم جلس وأكمل: "هذا ما رأيته خارج معسكر (أوزامنيكا)، أريد أن أقص ما رأيته فيه. كان قائد المعسكر رجلًا منظمًا؛ لديه قائمة بالتعذيب المُنَهَج، كان يأتي بالجنود الذين انتسبوا حديثًا إلى الجيش الضربي، ويعقد لهم دورات في التدريب على الضرب. يُعطِيهم هراوات من الحديد أو من خشب البلوط

الثَّقِيل، ويقول لهم: عليكم أن ترفعوا أذرعكم إلى الأعلى بأقصى ما تستطيعون وتضربون على قُفَعِ الزَّاس، في وسط الجمجمة، إنها المقتل الصَّحيح، هكذا، ويهوي بالهراوة الحديدية على رأس ذلك الذي اختير من أجل التدريب عليه، فيسقط المسكين من فورهِ مَيِّتًا، بعض المتدربين ذوي الجُثث الضخمة كانت تأخذه الحماسة فيضرب البوسني فيفجر دماغه، كانَ الدِّماغ يسيل خارجَ الجمجمة طرِيًّا يتصاعدُ منه البخار. لقد دزبهم على الضرب في المقاتل، وكان يلوم كلَّ مَنْ يُضطرَّ إلى أكثر من ضربة على الرأس من أجل أن يفارق البوسني الحياة. كانَ الطَّعام الوحيد الذي يُقدِّمونه لنا لأسابيع هو لَحْم الخنزير، كانوا يتعمدون ذلك، يعرفون أَنَّهُ مُحَرَّمٌ في ديننا، كلَّ مَنْ لا يأكل منه كان يُقَتَّل. كانوا يوزِّعونه ويقومون بمراقبتنا، كلَّ مَنْ يتردَّد كان يُذَبِّح، بعضنا كان يأكل بشراهة. إِنَّهُ حلالٌ للمُضطرِّ قال لنا أحدُ الأئمة، وأكلَ أمامنا، قتلوه هو الآخر، لأنَّه تكلم، كان علينا أن نأكل بصمت، ونجوع بصمت، ونموت بصمت...". وخفت صوت عثمان، خفت تدريجيًّا إلى أن توقَّف تمامًا، وهمس إبراهيم: "لماذا صمت؟". فرددت: "لقد تعب". "كلَّا. يبدو أَنَّهُ لم يحتمل وهو يستعيد ما رأى فمات"، وزحفنا نحوه، وجسَّ إبراهيم عرقه، ونظَرَ نحوي، وشعرث بلون ابتسامته المُشفقة: "لا يزال حيًّا".

لا ينبغي أن تكون هنا!

أيقظونا قبل السادسة فجراً. جاؤوا بالطحين في جوالات، وركنوها قريباً من الموضع الذي ذبح فيه الخنزيران، كنا قد هيأنا المكان ونظفناه من قبل، وأتي لنا بفرن متحرك، يعمل على الغاز. وطلب منا أن نحمل الطحين إلى غرفة الطعام، ونقوم بالعجن، ولأننا لم نكن نعرف عن العجن شيئاً، ولأنه لا يمكن أن نعترض، بدأنا بملء وعاء دائري كبير من الألمنيوم بالطحين، ثم قمنا بسكب الماء فوقه، ولم تكن لدينا أو لدى سيّدة الفيلا معجنة، فرحنا نعجن بأيدينا، وما إن رأينا نفعل ذلك حتى صاح، ونادى على رئيس الحرس: "ما هذا؟". وارتجفت ساقا الحارس، وأراد أن يعتذر: "لم أقل لهم أن يعجنوا بأيديهم، أعرف أنها قذرة، ولكنني تأكدت أنهم نظفوها في الصباح عندما أيقظتهم". ويبدو أنها غفرت له على مضض، وأشاحت برأسها، وهتفت وهي ثولي بظهرها: "لا تنس القطع المعدنية". ولما غابت عن أنظارنا، رفع الحارش عصاه يريد أن ينهال علينا بالضرب، وتذكر قبل أن يبدأ بممارسة هوايته الففضلة أننا يجب أن ننهي العجن وانتظار تخميره والخبز بالطريقة التي طلبت منه قبل حلول الظهر، فالتاس ستبدأ بالتوافد إلى البيت من الثانية عشرة، ولهذا تراجع، وصرخ: "هيا أيها القذرون" واستغل عدم وجودها، فهتف: "أرجوكم لا يهمني أن تكون الأمور نظيفة، المهم أن تنجزوا المهمة".

لم نكن عجانين، ولا خبازين، ولا صانعي حلويات، ولا مفن يتقن صناعة الكعك، كنا عبيداً نعمل بالشخرة لدى ضابط كبير في جيش

الضرب، ولو كُنّا في زمن غير زمن الحرب لكُنّا مدعاةً للسخرية والاستهزاء. أتقنّا العجن، وخلصنا الطحين والخميرة بالماء، وزحنا نضغظ بأيدينا في القدر، وكان أنشطنا عثمان الذي يبدو أنّه انفلت من عقّاله مزة واحدة. وتركنا الوعاء الكبير في طرف المطبخ بقرب المدفأة، ولقّفناه بقطعة من القماش حتّى تكون درجة حرارته مقبولة، انتظرنا حوالي ساعة أو أكثر قليلاً، ثم تقدّم عثمان، فكشّف الغطاء، وفحص العجين، ضغط عليه بإصبعه فعاد ما انضغظ ببطء، فهتف: "إنّه جاهز". وأردث أن أقول لعثمان: "أين تعلّفت ذلك؟ ربّما كان في الجيش يخبز لفرقة أو لكتيبته مع خبازين آخرين".

وحملنا الوعاء الكبير، احتاج إلى اثنين لحمله، ومضينا إلى الفرن المُتحرّك، ولم يكتف الحارس بإشعال الغاز فيه، بل طلب منا أن نجمع بعض الحطب تحته ونقوم بذلك. ففعلنا دون أن نناقش. ثم قبل أن يمدّ أمامنا قطعة من الخشب عريضة مُسطّحة، لنرقّق العجين فوقها، فردّ أمامنا قِطْعًا معدنيّة كثيرة، وقبل أن نسأله عنها وعن الغرض من وضعها أمامنا، هتف: "ضعوا في كلّ رغيف مرقوق واحدة من هذه القطع المعدنية، وأردث أن أسأل إبراهيم عن معنى هذا، ولكنني كففت؛ فالسؤال سيكلّفني خطوًًا جديدةً زرقاء على ظهري. وهكذا وضعنا أربعين قطعة معدنيّة داخل أربعين رغيفًا، قطر الرغيف حوالي ثلاثين سنتيمترًا، وأنضجناها، وقال لنا: "كلّ رغيف يكفي عائلة"، ثم حملنا الأربعة المخبوزة في سلالٍ من القش، وأدخلناها إلى غرفة الطعام.

وأعادنا الحارس إلى غرفتنا، وهتف: "سأحتاجكم أو أحتاج واحدًا منكم على الأقلّ في المساء، فكونوا مُستعدين، ولا تناموا". قلتُ قبل

أن يُغلق الباب ونسمع صوت زرد السلسلة: "لقد أنضجنا خُبزًا كثيرًا اليوم، ألا نستحق رغيًا واحدًا على الأقل". فرد: "أنتم لا تستحقون، ولكن قلب السيِّدة رحيم، أعتقد أنها لا تمانع برغيٍّ واحد"، فأردفت: "أرجو أن يكون من دون قطعة معدنية". "شَحاذ وتشترط أيها الضعلوك". ومضى.

هبط الليل سريعًا، إنه اليوم السادس من العام الجديد، طرَّق الباب، وأتى الرِّغي، وأخرجني الحارس، قضفت قضةً سريعةً، وتبعثه. هتَف: "سيتعين عليك أن تحرق خشب البادنيك في الموقدة. أنت تعرف مكانها؟". هزَّرت رأسي: "أعرف". "قَطع الخشب جاهزة على الطاولة". "وماذا عَلَيَّ أن أفعل؟". "تأخذها واحدةً واحدةً وتلقمها للمدفأة، عليك أن تنتظر بين قطعةٍ وأخرى خمس دقائق أو عشرًا حتى تسري فيها النار". "سأفعل". "وستكونُ محظوظًا إذا..."، وتوقف عن الكلام، فنظرتُ إليه مباشرةً أحفَّه على الكلام، فلم يُعجبه أنني أنظرُ إليه على هذا النحو، ولكنَّ نفْضَ رأسه، وأردف: "ستكونُ محظوظًا إذا تطاير الشرُّ من الخشب". وتشجَّفت: "وعلى أيِّ نحو سأكون محظوظًا؟". "ستحصل على رغيٍّ كاملٍ لك وحدك، وعلى غطاءٍ سميك من الفرو تتدفأ به في الليل". وهزَّرت رأسي، ودخلت.

كانت غرفة الطعام الواسعة تعج بالضيوف، ومن هناك أرسلتُ نظرةً عبر الحديقة الخلفية إلى غرفتنا، فرأيتهَا تغرقُ في الظلام، وتمنيثُ لو أنَّ صديقي يُطلان برأسيهما من النافذة ويُشاهداني هنا. أخذتُ أول قطعةٍ من الخشب فألقفتها المدفأة بهدوء، فناست النار أول الأمر، ثم تغلَّبت مع الوقتِ على حجم القطعة فبدأت تتغول عليها، انتظرتُ عشر دقائق فيما كانت تعلو الصيحات والأهازيج

من النساء الضريبات، وتقدّم بعضهنّ إلى وسط الغرفة فرقّضن مع أخريات، كانت القطعة تذوي والأجساد تتمايل، وأنا جائع، جائع إلى كل شيء، وكان جذع الخشب تأكله شهوة النار، وجذع الفتيات البضات تأكله شهوة الجسد، وكنت أنا عاليًا بي الشهوتين. ثم.. ألقفت النار قطعة جديدة من الخشب، فتطاير قليل من الشرر، وهاج عدد من الضيوف وصفقوا، فيما اقترب الحارث مني وهتف: "إنه كلما تطاير شرر أكثر حصلت على رغيّف آخر". ولم يكن الأمر صعبًا، ألقفت النار بعد بضع دقائق قطعة ثالثة، واعتمادًا على الجمر الذي تشكّل من القطعتين السابقتين المأكولتين سوف أصنع شررًا كثيرًا، انحنيت أخذت بعض القش الذي فرذناه سابقًا من الأرض دون أن ينتبه أحد، وألقيته في النار دون أن تلحظني عين الزبية، فتطاير شرر كثير، ثم أخذت المحماس الحديدي المكون إلى جانب المدفأة، فحرّكت به الجمر فتزايد الشرر الفتطاير، وتزايدت بهجة النساء والزجال على السواء، ووضعت الفتيات أكفهن على أفواههن من المفاجأة، واعتقدن بأنهن أحسن فتيات الضرب خطأ، وأنهن سيتزوجن عن قريب، إن هذا الشرر الكثير الفتطاير ليعد بالأمنيات الخضراء التي ستتحقق عما قريب.

ثم جذبني الحارس من يدي، وخرج بي إلى الغرفة التي عن يسار الداخل، وقال وهو ممتلئ غبطة: "كيف استطعت أن تصنع هذا الشرر كله؟". وأردت أن أقول له كيف، ولكن أردف: "ستحصل على رغيّفين بدلًا من رغيّف واحد". ووضع ذراعيه الضخمتين على كتفي، ونظر إليّ بعينين تلمعان بهجة ولولا أنه تذكر من أكون لهم أن يحتضنني، ثم هتف: "والآن دور الخبز والعشاء". ولم أدر بم أعلق، وانتظر هو

مَنِّي أَن أُسْأَلَهُ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُمَا، وَلَكِنِّي لَمْ أَفْعَلْ، فَأَكْمَلُ: "عَلَيْكَ أَنْ تَقْطَعَ كُلَّ رَغِيفٍ خُبْزٍ قِطْعًا بِحِجْمِ الْكَفِّ الْوَاحِدَةِ، يَعْنِي كُلَّ رَغِيفٍ بَيْنَ أَرْبَعٍ إِلَى سِتِّ قِطَعٍ، وَتَوَزَّعَهُ عَلَى الضُّيُوفِ، مَن وَجَدَ فِي خُبْزَتِهِ الْقِطْعَةَ الْمَعْدَنِيَّةَ فَهُوَ صَاحِبُ الْحِظِّ، هَلْ فَهَمْتُ مَا أَقُولُ؟". وَأَجَبَتْهُ: "نَعَمْ".

وَعُذْنَا إِلَى غُرْفَةِ الطَّعَامِ، فَإِذَا الضُّيُوفُ قَدْ تَحَلَّقُوا حَوْلَ سَلَةِ الْقَشْرِ وَفِيهَا الْخُبْزُ، وَكَانُوا حَوَالِي ثَلَاثِينَ رَجُلًا وَامْرَأَةً وَصَبَايَا وَأَطْفَالًا، وَدَخَلْتُ إِلَى وَسْطِ الْحَلْقَةِ، وَرَفَعْتُ أَوَّلَ رَغِيفٍ خُبْزٍ فَتَعَلَّقْتُ بِهِ الْغُيُونَ، وَبَدَأْتُ أَقْطَعُهُ قِطْعَةً قِطْعَةً، وَمَنْ يَأْخُذُ الْقِطْعَةَ يُقْبِلُهَا، وَيَهْتَفُ: "إِنَّهَا جَسَدُ الْمَسِيحِ"، ثُمَّ يَقْضِمُ مِنْهَا قَضْمَةً، ثُمَّ أُخْرَى فَإِذَا صَكَّتْ تَحْتَ أَسْنَانِهِ عَرَفَ أَنَّهَا الْقِطْعَةُ الْمَعْدَنِيَّةَ وَأَنَّهُ صَاحِبُ الْحِظِّ فَيَطِيرُ مِنَ الْبَهْجَةِ، وَيُحَافِظُ عَلَى الْقِطْعَةِ الْمَعْدَنِيَّةِ تَحْتَ أَسْنَانِهِ وَيُزِيلُهَا لِلْمَوْجُودِينَ عَلَامَةً عَلَى حُبِّ الرَّبِّ لَهُ، وَأَنْ طَرِيقَهُ كُلُّهَا أَمَانٌ مِنْ أَمَانِهِ. وَلَئِنِّي كُنْتُ أَرَاقِبُ الْعَيُونَ الَّتِي تَتَطَلَّعُ إِلَى الرَّغِيفِ الَّذِي بَيْنَ يَدَيَّ، وَأَعْرِفُ مِنْ خِلَالِ لَمْعَةِ الْعَيُونَ مَن تَرُغِبُ بِالْقِطْعَةِ الْمَعْدَنِيَّةِ أَكْثَرَ مِنْ سِوَاهَا، وَلَئِنِّي أَنَا الَّذِي خَبَزْتُ وَالرَّغِيفُ بَيْنَ يَدَيَّ فَأَعْرِفُ مَوْضِعَ الْقِطْعَةِ الْمَعْدَنِيَّةِ، فَإِنِّي كُنْتُ أَسْتَبْقِيهِ لِمَنْ أُرِيدُ، وَبِالْثَّالِي كُنْتُ أَصْنَعُ صَاحِبَةَ الْحِظِّ عَلَى هَوَايَ، فَأَنَا الَّذِي أُمْسِكُ بِخِيُوطِ اللَّعْبَةِ، وَهَكَذَا قَرَزْتُ أَنْ أَهْبَهُ لِمَنْ أَشَاءُ، وَلَكِي نَنْجُو وَلَا تَحُلْ عَلَيْنَا نَقْمَةُ السَّيِّدَةِ، جَعَلْتُهَا إِحْدَى تِلْكَ الْمَحْظُوظَاتِ!

ثُمَّ انْتَهَى احْتِفَالُ الْخُبْزِ، وَجَاءَ وَقْتُ الْعِشَاءِ، كَانَتْ الْمَائِدَةُ مُزَيَّنَةً بِالشَّمْعِ، أَطْفِئْتُ الْأَضْوَاءَ، وَأَبْقَيْتُ عَلَى الشَّمْعِ الَّتِي أُعْطِيتُ نَوْعًا مِنَ السَّكِينَةِ بَعْدَ أَنْ هَدَأَتْ أَصْوَاتُ الْمُحْتَفِلِينَ، كَانَ عَلَى الْمَائِدَةِ

أطباق شتى من السمك، والفاصولياء المطبوخة بمعجون الطماطم، وسلطة البطاطس تفوح منها رائحة الخل، وتوزعت عليها كذلك أطباق الأرز المطبوخ مع الخضار، وصحون صغيرة من الفواكه المجففة، والفكسرات. وكؤوس من الماء المعدني، وأخرى من التبيذ الأحمر. وانهمك الجميع في الأكل والشرب، كانوا يأكلون بنهم، وتسيل خطوط التبيذ الحمراء من أشداقهم. ولم يدعني أحد إلى المائدة، ولا حتى تناول لقمة فبعت بها إلي، ولو كانت حبة لوز أو جون، وبقيت كالأبله أنظر إليهم حتى شذني الحارس من ذراعي: "لا ينبغي أن تكون هنا". وخرج بي إلى تلك الغرفة العارية الباردة عن يسار الداخل إلى الفيلا، وهناك أعطاني رغيفًا من الخبز، وهتف: "الرغيف الثاني الذي وعدتك به سأعطيه لك حين تعود إلى غرفتك. أنا لا أكذب". وفتحت الرغيف، وأخرجت القطعة المعدنية منه، ولم تكن هناك سوق قائمة في فيشيغراد ولا فوتشا ولا أية مدينة من أجل أن أستفيد منها، فرميثها. ورحت ألتهم رغيفي، وأنا أشعر أنني استحققتُه عن جدارة.

وبعد ساعتين تقريبًا بدأ الضيوف يخرجون من الفيلا. وناداني الحارس لكي أنظف ما تركوه خلفهم من قاذورات. وأردت أن أقول له: "نادِ أصدقائي من أجل أن يعينوني على هذه التفايات". وكأنه سمع خاطري، فقال: "إنها مائدة واحدة بسيطة، وتستطيع أنت بمساعدة واحدة من العاملات أن تقوما بالمهمة"، وتغيرت لهجته فجأة: "هيا أيها الضعوك". وجهزت أن أنظف المائدة بأسرع وقت حتى أعود إلى الغرفة فارتاح، فإن التعب الشديد قد بلغ مني أي مبلغ. وقريبًا من منتصف الليل أنهيت عملي. وأردت أن أخرج

فبحث عن الحارس فلم أجده، ومضيت إلى غرفة الخشب في أول الفيلا، فرأيت هناك على إحدى الأرائك القديمة يغط في النوم، فأيقظته، فقام مفزوعًا، ونظر حوله، واحتاج إلى وقت ليدرك ما هو فيه، ثم قام وهتف مُتصنِّعًا الجديَّة: "عَلَيَّ أَنْ أُعيدَكَ إلى الغرفة". وهتفت به: "الرَّغيف". "فردَّ كَأَنَّهُ لا يدري: "أَيَّ رَغيف؟". "الرَّغيف القاني الذي وَعَدْتَنِي به". "أنا لم أُعِدْكَ بشيء". "لا بُدَّ أَنْ اللَّيلة الطويلة قد أُنْسَتْكَ. أَنْتَ قلتَ إِنَّكَ لا تكذب". وشَدَنِي من ذراعي بغلظة، ومشيت أمامه، انفتحت السلسلة، صوت الزَّرد، صرير الباب، صوت الزَّرد مرَّة أخرى، ثم القفل، ثم خطوات الحارس، ثم... من دون أَنْ أُلقي التَّحيَّة أو أقول كلمة واحدة، هويث في بئر النوم.

كما الشَّرر، فَلتَكُنِ الثَّروة

إنَّه اليوم السَّابع. أيقظنا في الصُّباح - على العادة - صوت الزَّرد من الخارج، وتوقعنا أن يُنادي علينا الحارس، ولكنَّه دخل إلينا في الغرفة، وتفحص وجوهنا التي لم تبرا من النُّوم، وتوقف عندي، وهتف: "أنت يجب أن تأتي معي. لقد صدقت السيِّدة؛ أنت أوسمهم، لم أنتبه إلى ذلك من قبل". ونظرث في وجوه إخوتي، وبادلوني النظرات كذلك، وأردث أن أكسر حاجز التَّوجس: "لكنَّ يدي اليُسرى بثلاث أصابع، وبعض الخطوط الزُّرقاء لا زالت ترسم على ظهري". أراد أن يتصنع التَّجهم، لكنَّه ابتسم بدلاً من ذلك وهتف: "أنت مؤمنٌ إذا. أمَّا الخطوط الزُّرقاء فلن يراها أحد. هيا". وخرجت معه، وأغلق على رفيقي الباب، ومضينا إلى الداخل، كانت السيِّدة تنتظرني، وهتفت: "ألم أقل لك؟! أرجو أن تكونَ على مقاسه". وناولت الحارس ثياب السَّالكين في خدمة الرِّب، وأشارت له، فناولني الثَّياب، وهتف: "اتبعني". فتبعته، وأوقفني أمام أحد الأبواب، وأردف: "ادخل إلى الحفام، ستجد كلَّ ما يُعينك أن تُبرِّزَ وسامتكَ"، ودخلت إليه، فاستغدت على الفور تلك الذِّكري في حفام الفندق قبل ما يقرب من ثمانية أشهر. ثمَّ ماذا يُمكن أن يفعل المرء في حالة كهذه؟! غرقث في الرِّغوة، والزَّائحة الطَّريَّة، والموسيقى النَّاعمة التي تنبعث من الزُّوايا، ولبست الثَّياب، وخرجت خلقًا آخر. ولما رأني الحارس ضحك طويلاً، وهتف: "أنت الآن خادمٌ حقيقي للرب، كم تُشبهنا! وهذه الثَّياب كم تُناسِبُك! اليومَ يومُك!". كنتُ ألبس ثوبًا طويلاً أسودَ

يُغْطِي أَكْتَافِي إِلَى أَسْفَلِ قَدَمِي، وَكَانَ وَاسِعًا عِنْدَ الذَّرَاعَيْنِ، بِأَكْمَامٍ وَاسِعَةٍ، وَكَثَّ أَلْفٌ عَلَى وَسْطِي حِزَامًا جَلْدِيًّا، وَأَعْتَمَرَ فَوْقَ رَأْسِي قُبْعَةً مِنَ الصُّوفِ سَوْدَاءَ كَذَلِكَ، مُطَرَّزٌ فِي وَسْطِهَا صَلِيبٌ زَهَبِيٌّ صَغِيرٌ، كَانَ بَيَاضُ جِلْدِي يَفْغُوضُ وَسْطَ هَذَا السَّوَادِ الْقَهِيْبِ!

وَتَبِعْتُ الْحَارِسَ ثَانِيَةً إِلَى الْغُرْفَةِ الَّتِي عَنْ يَسَارِ الدَّخْلِ، وَبَقِيتُ فِيهَا جَالِسًا دُونَ أَنْ أَعْرِفَ مَا يَجْرِي، وَلَا مَا يُرَادُ مِنِّي إِلَى أَنْ حَلَّ وَقْتُ الظُّهْرِ. ثُمَّ جَاءَنِي الْحَارِسُ، وَقَالَ: "مَنْ الْآنَ سَتُخَدِّمُ ضِيُوفَ السَّيِّدَةِ إِلَى أَنْ يَبْدَأَ الْإِحْتِفَالُ الْمَسَائِي". وَصَمْتُ وَهُوَ يَنْظُرُ إِلَيَّ مِنْ جَدِيدٍ: "عَلَيْكَ أَنْ تُعِيدَ تَسْرِيحَ شَعْرِكَ". وَوَقَفْتُ أَمَامَ الْمَرَاةِ، لِأَرَى خَادِمَ الرَّبِّ الَّذِي صَزَّثَهُ فِي هَذِهِ الرَّحْلَةِ الْعَجِيبَةِ مِنْ هَذَا الْعَمْرِ الْأَعْجَبِ، وَرَحَّبْتُ بِي: "أَهْلًا بِكَ يَا خَادِمَ الرَّبِّ الْأَمِينِ".

وَقَفْتُ السَّيِّدَةَ أَوَّلًا، ثُمَّ زَوْجَهَا الضَّابِطَ الْكَبِيرَ ثَانِيًا، وَحَلَلْتُ أَنَا ثَالِثًا فِي هَذَا التَّسْلُسِلِ. وَبَدَأَ النَّاسُ يَتَوَافَدُونَ. كَانَ أَوَّلُ الدَّاخِلِينَ رَجُلًا يَلْبَسُ الثِّيَابَ الْعَسْكَرِيَّةَ، وَيَعْتَمِرُ قُبْعَةً الْجَيْشِ الصَّرْبِيِّ عَلَى مَا يَبْدُو، وَكَانَ يَضَعُ مُسَدَّسَهُ عَلَى جَنْبِهِ، وَلَا أُدْرِي إِنْ كَانَ (رَاتِكُو مِيلَادِيْتَش) الَّذِي تَكَرَّرَ اسْمُهُ فِي الْآوَنَةِ الْأَخِيرَةِ، كَأَهَمِّ الْقَادَةِ الَّذِينَ حَقَّوْا وَحْدَةَ صَرْبِيَا، وَأَرَادَ أَنْ يَضُمَّ إِلَيْهَا دَوْلَتَنَا الْمُسْتَقْلَّةَ حَدِيثًا عَنْ جُمْهُورِيَّةِ يُوغْسْلَافِيَا. أَتَى لَهُ زَوْجُ السَّيِّدَةِ الثَّحِيَّةِ الْعَسْكَرِيَّةِ، وَعَانَقَهُ، وَقَالَ لَهُ الْأَوَّلُ: "خَرِيستوس سي رودي / المسيح وُلِدَ". فَرَدَّ عَلَيْهِ الثَّانِي: "فَايستينو سي رودي / حَقًّا وُلِدَ". وَتَقَدَّمَ إِلَى السَّيِّدَةِ فَانْحَنَى لَهَا وَقَبَّلَ ظَاهِرَ يَدِهَا، وَهَتَفَتْ مِنْ خِلَالِ ابْتِسَامَتِهَا الْفُشِغَّةِ: "ادْخُلْ بِالْيَمْنِ يَا سَيِّدِي، أَنْتَ أَوَّلُ الْقَادِمِينَ، إِنَّ هَذَا يَعْنِي أَنَّ النَّصْرَ حَلِيقُكَ، وَأَنْتَ سَوْفَ تَقْضِي عَلَى هَؤُلَاءِ الشَّرْذِمَةِ، وَسَتُعِيدُ إِلَى صَرْبِيَا مَكَانَتَهَا

التي تستحقها". وابتسم بدوره، وتابع تقدمه نحوي، وأراد أن يُسلم عليّ، ولكنني كنتُ أحملُ صحفةً من الزّجاج فيها قطع من الخبز المفتوت، وكؤوسًا صغيرة من التّبيذ. أخذُ قطعةً من الخُبز، وغَمَسَها في الكأس، أكل القطعة، وشرب ما في الكأس بشرية واحدة، وتابع سيره، وتقدّمه الحارس مُشيرًا بيده ليدلّه على غرفة الطّعام. ثمّ تتابع الضّيوف على هذا النّحو، يقولون للضّابط زوج السيّدة: "خريستوس سي رودي / المسيح وُلد". فيردّ عليه: "فايستينو سي رودي / حقًا وُلد". وحينَ يصيرُ إليّ، يغمس القطعة، ويلوكّها، ثمّ يشربُ الكأس. كانتِ القطعةُ جسدَ المسيح، والكأسُ الحمراء دَمه، وحلّ الزّبّ في ذلك المساء المُعطر في أجسادهم جميعًا.

ثمّ انتهى دوري هنا إلى آخر ضيف، فمضيتُ إلى غرفة الطّعام حسبَ ما طُلِبَ مِنّي، وكان الحارّش قد أشعل الموقدة، وألقمها آخر قطعَين من خشب (البادينياك)، وهمسَ في أذني: "جائزتك حسبَ كفيّة الشرر المُتطاير. هَيّا أرنا مهارتْكَ". فأومأْتُ برأسي كأنّما أقول: "لا تقلق؛ دع ذلك لي". وحزّك القائد العسكريّ الضّيّف أوّل الأمر قطعة الخشب في النّار، فتطاير بعضُ الشرر، فهاجَ مَنْ حوله، ثمّ تولّيتُ الأمر، فجعلتُ الشررَ كأنّما هو شهبٌ مُتساقطةٌ من السّماء، أو يَرَقاتُ مُثَقَّدةٌ تسبخُ في الفضاء، فملاً الهياجَ الغرفة، وصحتُ بعبارةٍ حفظتها عن الحارس: "كما الشرر، فَلَتَكُنِ الثّروة... كما الشرر فليكن النّصر... كما الشرر فليأتِ المجد، وليقتل البوشناق الخونة، ولتحيا صربيا العظيمة".

ثمّ إنّ المائدة مُدّت، والبُشطُ بُسِطت، والمخبوزات فُرِدَتْ، والأطعمة، والشرمة، والتشيسنيتسا، والشّمك المشوي، والجبن،

والخبز... ثم دارت الحلويات: البقلاوة، والثولومبا، والبلاندي، ومعها دارت الساقية بكؤوس راكيجا الثفاح أو براندي الخوخ، والتبيز المَعْتَق، والعصائر، والمياه الباردة... ثم رقصوا قليلاً، وفي الثالثة ألقى القائد الأعلى خطبة قصيرة، وحث الأتباع على الصبر وعلى طول النفس في قتال البوشناق الملاحين: "لقد أتيت من جبهة القتال، في هذا اليوم المجيد أنا حزينٌ جداً؛ لقد هاجمت وحدة العمليات الثامنة وهي وحدة تابعة لجيش جمهورية البوسنة والهرسك بقيادة المارق ناصر أوريتش قرية (كرافيك) بالقرب من (براتوناك)، وقتل هو ومُرتزقته في هجومهم الباغي ستة وأربعين صربياً، منهم أحد عشر مدنياً. ولكن ذلك لن يثنيانا عن عزمنا في تطهير هذه البلاد من هؤلاء الأنجاس، وتذكروا أنه مَنْ صَبَرَ غَنِمَ. والرب في عليائه معنا. ونحن منصورون لا محالة". وتبادل الأُنخاب مع السيدة وآخرين، ثم استأذن وخرج، وخرج خلفه الضيوف تباغاً.

لم يبقَ في غرفة الطعام من الغرباء سواي، وهنا قال الحارس: "يجب أن أجلب واحداً من المحبوسين في الغرفة ليُساعدك في رفع الخنزير الذي ظلّ كاملاً على المشواة"، وهم أن يمضي إلى غرفتنا، ولكن توقف، واستدار نحوي ليسألني: "مَنْ تعتقد أنه يكون مناسباً؟". فأجبته على الفور: "عثمان". فردّ: "الصامت؟". أجبته: "نعم". وخلال دقائق كان عثمان في غرفة الطعام، ودهش للقياب التي أبشها، ولكنه كتم مشاعره، وطلب منا الحارس أن نرفع الخنزير الذي كان يبدو أنه قد غطس في الثوابل والبهارات والتكّهات الخاصة بالشّي على السّيح فوق فرن المطبخ المُجهز لهذا الأمر، ونشعل تحته ناراً هادئة، وهتف: "إنّ شي الخنزير يحتاج من خمس ساعات إلى ست"،

ونظر في ساعته، وهتف مسرورًا: "بحلول التاسعة مساءً سيكون جاهزًا للأكل، وسينعم ضيوف المساء بوجبة لم يذوقوا مثلها من قبل". وهتف بنا: "هيا إلى الغرفة"، وتبغناه، وفتح سلسلة الزرد، وأزالها، وصَرَ الباب، ودخلنا، وسمعنا الدّورة العكسيّة للأصوات إيّاها، وقبغنا في غرفتنا. وسألني إبراهيم وعثمان: "ما هذا الذي تلبسه؟"، فأجبت وأنا أضحك وأدور يمنة ويسرة مُستعرضًا: "هل يُعجبكما؟ لقد صرث خادمًا للزّب". وأرادا أن يضحكا، ولكنهما بكيا؛ نشقّ الأول، ووضع الثاني طرف إصبعه على أنفه.

من هنا، من هذه النّافذة التي تُطلّ على عالم السيّدة الأنيقة رأينا ما لا يرى. كان دُهن الخنزير يتقاطر على النّار تحته فتزداد اشتعالاً في جذوات صغيرة، ثمّ تعود إلى طبيعتها، ومزّت السّاعات والخنزير يُشوى، وفي التاسعة بالفعل امتلأت الغرفة، وكان كلّ من فيها على ما بدا من أهل الضّابط والسيّدة أو من أقاربهما، في حين أنّ حفلة الغداء كانت للضيوف الرّسميين، وبدأ الأقارب يرقصون، ويتميلون، ويُقبل بعضهم بعضًا قُبلاّت على الخدود أو الشّفاة، وكانت الثّنانير القصيرة تطير إلى الأعلى مع الرّقصات المجنونة فتكشف كل شيء، وكانت الصّدور ترتج أراجيف زّمانٍ يَساقُظ عن الشّجر ناضجًا، ولما أنهكهم الغناء والرّقص، جاء دور الطّعام، فقطّع الخنزير إلى قِطع في صحونٍ، وأخذ كلّ واحدٍ صحنه، وجلس على الأرائك والكراسي المُتوزّعة في أرجاء الغرفة، وراح يأكل بشهية، ثمّ دارت كؤوس الخمر، فأسكرت النّاس، فقاموا يرقصون من جديد، وهم يدورون حول بعضهم كأنّما يدورن حول نارٍ مُقدّسة، وراح بعضهم يسقط من الإعياء أو الشّراب، وارتمى بعضهم على الأرض أو الكراسي بالفعل

دونَ حراك. وسرى الليل، ونمنا لا ندري ما حلّ بهم.

في الصّباح، في الثّاسعة، على غير العادة، ساقنّا الحارش إلى غرفة الطّعام، وكان لا يزال يترنّح وهو يمشي أمامنا، ويبدو حاسِرَ الرأس، منكوش الشّعر، ولَمّا وصلنا إلى الغرفة رأينا الفوضى تعم المكان، هتَفَ وهو لا يزال تحت تأثير الخمر أو الثّعب أو كليهما: "نظفوا كل شيء"، واختفى.

كان الضّابط ملقى على الأرض كثور ذبيح، وإلى جانبه السيّدة وقد بانث ساقاها، وكعبها العالي الذي تنتعله في قدميها، وهي مُسجأة كأنّها جُفّة هامدة، وكان مُسدّس الضّابط في جِرابه موضوعًا على الطاولة، وكانت أرضيّة الغرفة يختلط فيها ما تبقى من القش، وبعض حبوب القمح مع دهن الخنزير، وبقايا الطّعام والشّراب، وكانت لَزجة ورائحة الخمر والدهن تفوخ بشدّة. نَظَرَ إبراهيم إلى المُسدّس، ثمّ حوَّالِيه، ثمّ إلى الممرّ المُفضي إلى خارجِ الغرفة، وهتَفَ بحذر وهو يقتربُ منّا: "إنّها فرصتنا". ولمعت عينا عثمان، وسأله بصوت خفيض: "ماذا تقصد؟". وقبل أن يُجيبه، هتَفَ بعد أن عرفت ما ينويان فعله: "أنا لا أعرف كيف يُستَخدم!"، ورفعَت كَفّي كمن أتَصلَ بما ينويان فعله، وأردفت: "أنّهما عسكريّان أمّا أنا فلا"، وزعق إبراهيم: "أنا لم أسألك، أنا سألتَ عثمان"، والتفت إليه: "هاه، ما رأيك؟". وردَّ عثمان: "ألا يُعدّ هذا غدرًا؟". "غدرًا؟! عجيب! ألسنا في حرب". "ولكنّهما نائمان، ولا يجوز أن نقتلَ مَنْ لم يُشهر السّلاح في وجهنا"، وقال إبراهيم بحنق: "يا رافّة الله التي حلّت بك فجأة، على أساس أنّهم كانوا يقتلون المُحاربين منّا؟ لقد كانوا يغدرون بالآمنين، ويجزون إلى الذّبح المُسالِمين. أنسيّت؟!". "نحن لا نُعاملهم بالمثل"،

وشد إبراهيم على أسنانه، وهتف كمن خارت قواه: "إنها فرصة لا تتكرر، نقتلها ونهرب". وتردد عثمان، قبل أن يعاجله إبراهيم بالقول: "ألم يغتصبوا أختك في (فيلين فلاس) أمام عينيك؟ ألم يقتلوها وأنت شاهد؟ ما الذي حدث لعقلك؟ أليست المعاملة بالمثل؟!". وتدخلت قائلاً: "إذا أمسكوا بنا فإن...". وقبل أن أتم عبارتي، هتف إبراهيم: "أنت احرص. قلت لك احرص، أنا أتكلم مع الكبار". وزفر عثمان قبل أن يقول: "لكن يجب أن نعاملهم بأخلاق الحرب في ديننا، أنا لا أستطيع، لكنني لا أمنعك إذا أردت أن تفعل، ومستعد أن أتحمّل العواقب"، "جبان. لا أدري كيف يكون بوسني جباناً مثلك؟"، وبصق إبراهيم على الأرض، وردد كمن وجد نفسه وحيداً: "إذا هيا أيها الزحيمان الشفيقان، قوماً بتنظيف هذه الفوضى. لعنة الله على كل شيء".

أيقظت الضابط وزوجته برفق، ونظرا إلي من خلال عيونهم المخمرة المنتفخة، وهتفت السيدة: "ما أجملك!", وهتف الضابط: "أنت بالفعل خادم الرب الأمين". وشعرث أن إبراهيم يريد أن يقول: "لعنة الله عليكم أنتم الثلاثة!".

(23)

لا تَكْذِبْ عَيْنَكَ

في اليوم العاشر، بعد أن انتهت احتفالاتهم بعيد الميلاد المجيد، أهدوا كل واحد منا مجسمًا صغيرًا لخنزير يمد لسانه الأحمر، بمنخر مشطوف تتسع فتحته، وطلب مني الحارس أن أسلمه ثوب السالكين في خدمة الزب، قائلاً: "لم يعذ من حقك. غذ إلى طبيعتك النجسة"، ثم أركبونا سيارة عسكرية وأعادونا نحن الثلاثة إلى مصنع الخشب. قبل أن ندخل إلى غرفتنا التي تضم حوالي عشرين بوسنيًا، قال لنا عثمان: "الصفحة حكمة. لو سألوكم عن شيء، فأنتم لم تسمعوا ولم تروا".

عاد العمل في الغابة إلى وتيرته، أقطع الأخشاب مع الآخرين ثلاثة أيام في الأسبوع، ثم تُصنع العوارض الخشبية داخل المصنع ثلاثة أيام أو أربعة أخرى. إلى أن بدأت رؤى إبراهيم تتحقق. صار يأتي إلى المصنع قادة عسكريون كل أسبوعين مرة، ويأتي معهم عدد كبير من الأسرى، يعقدون لهم المحاكمات الضورية في فسحة من المصنع الواسع قرب أفران التجفيف، ويقومون بإعدامهم على رافعة من روافع سيقان الخشب. كانت هناك طاولة ترتفع عن الأرض بمقدار مترين، يُصعد إليها بخمس درجات، وفوقها كرسي مُربع من دون مسند خلفي يرتفع عن الأرض بمقدار متر أو أقل، ثم يصعد مع المحكوم عليه بالإعدام عسكريان صربيان، كان البوسنيون الذين يُجهزون للإعدام في كل مرة مَقن قاتلوا في الجيش البوسني كما يقولون، وكانت التهمة التي توجه إليهم: "قتل المدنيين الصربيين،

إحراق القرى الآمنة، ذبح النساء بعد اغتصابهن، والتّمثيل بالجثث، والخيانة العظمى". ولم يكن هناك مجال لأن تقول للمحكمة الميدانية ولا للقضاة الضباط: "إنّ هذا ما تفعلونه أنتم بنا، وليس نحن". كانوا يجمعوننا من أجل أن نشاهد المحاكمات والإعدامات، حين يصعد بالبوسني الأسير إلى خشبة الإعدام، كانت يداه تُكبَلان خلف ظهره، ويُغطى رأسه بقماش أسود، وأحيانًا لم يكن يُغطى بشيء، ويُلفّ حول عنقه حبلٌ غليظ، يُحكم لَفُّه بشدّة، ثم يُطلب منه أن يصعد الكرسي، وأحيانًا يُحمّل من العسكريين الضريّين إذا خارت قواه. وكان يُتلى عليه سبب الإعدام من سطرّين، ثم بعد أن ينتهي رئيس المحكمة من تلاوة الحكم، يقوم أحد العسكريين بدفع الكرسيّ بسطاره من تحت البوسني، فيتأرجح جسده في الفراغ، وتبدأ رِجلاه في الزّفس، ويدور الجسد مع السّقطة من تحت الحبل كما يدور الصّوفي حول مركز الثّور، وحتى يتأكّدوا من أن روحه فارقت جسده، يقوم أحد العاملين بسحب ذراع الزّافعة إلى الأعلى، فتتأبّع الجسد المتأرجح بعيوننا، ونشعر أنّه في هذه اللحظة يريد أن يخرج من سقف المصنع العالي ويصعد إلى السّماء، وكانت تنذ مِنّا صرخات التّأوّه، وبعضنا يُغطّي عينيه بكفّيه، أو يدفن رأسه في صدره. وكنا كثيرًا ما نسمع الشّهيد المرفوع إلى حبل المشنقة ينطق بالشّهادتَيْن أثناء نطق الحكم عليه. ثم نعود إلى أعمالنا بعد كلّ وجبة إعدام كأنّ شيئًا لم يكن!

في شهور الرّبيع، بدأت الأرض تزيّن بالخضرة الطّافحة. صرنا نتعلّم صناعة قِطع الأثاث. تعلّفت ذلك على يد أحد الحزفيّين الذين بعث بهم قيادة الجيش الضربي إلينا، كان الجيش محتاجًا إلى

مزيد من المال من أجل الدعم العسكري، كانت كل طاولة أو طريزة
نصنعها يشترون مقابلها بندقية ويحشونها بالرصاص ويقتلون
إخوتنا. كنت أشعر أنني أساهم في قتل إخوتي، كان شعورًا فظيعةً،
ولكن ماذا يمكن أن نفعل سوى أن نخضع. لم أكن مُستعدًا للموت،
ولم أكن أريد أن أموت!

ذات مرة دخل القضاة العسكريون في موعدهم الدوري من أجل
وجبة إعدام جديدة، وهذه المرة لم يكن معهم إلا ثلاثة أسرى، لكن
أحد معاونيهم العسكريين كان يحمل في يده قائمة من الأسماء،
ورفع العسكري القائمة أمام وجهه، وراح يتلو أسماء لبوسنيين
موجودين معنا في المصنع، ورأيت إبراهيم الذي كان يُقرض
على الأرض إلى جانبي قد تغير وجهه. ولقفت ذراعي اليمنى على
جذعه وشدّته عليه: "ستنجو بإذن الله". وهمس: "إن هذه الأسماء
التي يتلوها هم ممن كانوا معي في الجيش"، وفي هذه الأثناء
نطق العسكري الصربي اسمه أو خيل إلينا ذلك، ولما لم ير القضاة
أحدًا يقوم ليقول إنه المعني، فقد أعادوا نطق الاسم: "إبراهيم
مصطفيتش". وناست عينا إبراهيم، وهمس: "إنه أنا"، واحتج
احتجاجًا مكتومًا: "لم أكن أعرف أنني سأفارق الحياة اليوم. كنت
أظن أنه مجرد حلم". ولم تكن الحال تسمح لي أن أسأله عن الحلم
الذي رآه، ولكنه بالتأكيد قد رأى نفسه فوق تلك المنصة، فإن رأى
الذبح لم يفارقه. ووقف إبراهيم، وتظاهر بالشجاعة، ولا أدري إن
كان شجاعًا حقًا. ووقف معي، واعتنقته، ودفنت رأسي في صدره:
"سامحني يا أخي". وردّ هو: "إن البوسنة لن تهزم إذا قاتلت لأجلها".
"هذا ليس وقت هذا الكلام". "عليك أن تستمر مع البقية حتى تتحرر."

نحن نذبح ولكنا لن ننتهي". "سامخني يا أخي". "أنا الذي أطلب منك ومن الآخرين أن تُسامحوني. إذا حانت منيتي هذه الساعة وافترقنا، فإننا سنلتقي. سنلتقي مع المجاهدين ومع المُصطفى في جنّات النعيم". وصرخ العسكري باسمه من جديد: "هيه أنت أليس اسمك إبراهيم؟"، وسار بخطى وثيدة إلى المنصة، وكبّلت يداه خلف ظهره ولم يُغْظ رأسه، وصعد الدرجات، وصعد قلبي معه، وأحكموا لف الحبل الغليظ حول عنقه، ثم وقف على الكرسي، ونظر نحوي، والتفت عيوننا فابتسم، وسمعت عيناه تقولان كلامًا كثيرًا، وظل ينظر نحوي ويبتسم حتى دفع العسكري الكرسي الذي تحته، فتأرجح جسده، وغامت عيناه، ولم تعودا تنظران نحوي، وسافر هو إلى الضفة الأخرى، وتخيلته يتنقل بين الرياض الغناء والحدائق الخضراء في جنّات النعيم. وأنزل جسده من على الحبل، ووضع العسكريان في الموضع الذي تجمع فيه أجساد الشهداء.

واستمز العسكري صاحب اللائحة يتلو الأسماء، تلا خمسة ومقر كانوا بيننا، وفي كل اسم يُنادى عليه، كنت أرى (عثمان) يتحسس رقبتَه، كان هو الآخر من المُقاتلين في الجيش، وانتهت القائمة ولم تُطر رقبة عُثمان، وتنفس بعدها الضعفاء. ثم حملنا الجثث الثماني، وحفزنا لهم قبرًا واحدًا، ودفنناهم فيه، وكانت ابتسامة إبراهيم لا تزال ترتسم على وجهه إلى أن أهلكنا عليه وعلى الآخرين الشراب.

وصنعنا طاولات مُزخرفة، وكراسي وثيرة، وكنت أعتقد أن القردة ستجلس عليها، وثمّقنا خزائن تحتفظ بالأسرار، ولم يكن لأحد نصيب من هذه الأسرار كما كان لنا، وعلاقات تُوضع عليها الملابس، وكنت أتخيل أن الضرب حين يُعلّقون عليها ملابسهم ستنز من أطرافها

السفلية قطرات الدّم، وحينَ تستيقظ ربة المنزل تستغربُ من بقعة الدّم التي تتشكّل تحتها، وكنتُ أتمنى أن تظلّ تلك القطرات تنزّ من تلك الأطراف حتّى تملأ أرضية غرفة الثوم، ثم تكبر حتّى تُصبح بركة فيغرق فيها الآثمون، فلا يستيقظوا من نومهم أبدًا.

ولم يكن مصنعنا هو الوحيد، بالتأكيد كانت هناك عشرات المصانع التي تقوم بمثل ما نقوم به وأكثر، وكانت المصنوعات الخشبية التي صارت علامة تجارية مُميّزة، تُصدّر إلى الخارج، وزادت الصادرات من الخشب لتزيد معها الواردات من الرصاص، إننا نصنّع موتنا، هل جزيئكم في حياتكم شعورًا كهذا؟!

وتوالى المُحاكّمات الميدانية والإعدامات، ونقص عدد العاملين في المصنع بسبب ذلك، ولم يجدوا سبيلًا إلى تعويض النقص المُستمر، وكان كلّ وافد جديد يجد صعوبةً في الانخراط بالعمل، فزاد العبء علينا نحنُ الغُفّال القُدّامى، وأنهِكّت أجسادنا، وصار الواحد يعمل مكان اثنين أو ثلاثة.

ومع ذلك لم تتوقف الإعدامات، وكنتُ أخرج إليها كما أخرج لأيّ عملٍ يُطلّب مئى، وفي بعض الأحيان لم نكن ندفن الشهداء، بل كانوا يطلبون مِنّا أن نلقمها لأفران التّجفيف، ثم يُدفع نحوها اللهب فتحترق حتّى تصير رمادًا!!

ومات لديّ - مع وجبات الإعدام التي لا تتوقف - الإحساس برهبة الموت وأنا أرى العسكريّ المُكلّف يُطيح بالكرسي من تحت المُعدّم فوق تلك المنصة، وهانَ منظر الأجساد المُتأرجح في الفراغ أمام عينيّ، ولا أدري كيف يعتاد المرء منظرًا كهذا؟! ولا منظر احتراق

أجساد الشهداء في الأفران بنارٍ لا تحتملها الضخور، وقسا قلبي
إلى الحد الذي خِفْتُ أن أتحوّل معه إلى مجرّد تمثالٍ من الرّخام له
القدرة على الثّقُل فحسب، خالٍ من أي نوعٍ من المشاعر، وهل يتبلّد
الإحساس إلى هذا الحد؟!

أيّها القلب الذي لم يعد ينبض ولا يخفق، أيّها القلب الذي تحوّل
إلى كتلةٍ من الصخر تضغط على الصدر: إنّ ما تراه ليس جزءًا من
فيلم سينمائي، لا تكذب عينك؛ لقد تركت تلك المشاهد أثرًا قاتلًا
في مكانٍ ما من إحساسك، ولكنك دفنت تلك الأماكن، أو جعلتها
تختبئ في زاويةٍ ما من هذا الجسد المذبوح، لا تدغ هذه المشاهد
ثفقدك إنسانيّتك. إنني أعلم أنّ قلبك الذي تقول إنّه لم يعد يحتمل
لا يزال قادرًا على الشعور، ولا زال قادرًا على أن يرجف كعصفورٍ
صغيرٍ داهمه المطر. أعلم أنّ هذه المشاهد المتكرّرة التي تبدو كما لو
كانت صفحاتٍ متشابهة، ترى فيها الرأس المشنوق نفسه قد تقتل
حساسيّتك، ولكنني متأكّد في الوقت نفسه بأنّه لا تزال في داخلك
شرارةٌ إنسانيّة تنتظر أن تُضيء من جديد، أن تقول بملء فيها إنّ
هذا ليس خلقًا، ولا جزءًا من كابوس، إنّهُ حقيقي تمامًا!!

أيّها القلب الذي مات أو كاد، إنّ ما تمر به ليس ضعفًا، ولا نتيجةً
مُستحقّةً بالمقابل، إنّهُ نتيجةٌ غيّر طبيعيتَها صنعناها مشاهد لم تكن
طبيعيّة يومًا ما، ألا تريد أن تبحث عن ذلك الجزء المغلق من قلبك
حيث يُمكن أن تجلّو الصّدأ عن مشاعرك الإنسانيّة وُثعيّد إلى دمايك
المجرى الذي كاد أن يجف؟! إنّك مريضٌ بموتِ الشعور، لكنّه مرضٌ
مؤقت، ككلّ الأمراض الأخرى، ألا تريد أن تمنح نفسك مساحةً
للشفاء؟! إنّ الشفاء مُمكن تمامًا، إنّ قلبك ليس قاسيًّا إلى هذا

الحذ، ولم يكن يوماً كذلك، لقد كان يرتجف لغياب قِطَّتِكَ الأثيرة، ويبكي لسقوط حبة توتٍ من الشجرة في ساحة البيت، البيت الذي صار جزءاً من الماضي، ولكنه جزء من وجودك، إنَّ تذكّر تلك الأيام الخوالي وعائلتك الدافئة يُمكن أن يمنحك الفرصة لتسترجع قُدرتك على الشعور بالرحمة والأمل من جديد، أواه أيها القلب الصغير أواه!!

بحلول خريف عام 1993م تبدّلت أشياء كثيرة وتغيّرت، وجرى الماء تحت ساقية الأنهار، وسرث ظلمات وشجفات، شخّ العاملون في المصنع، ولم يعد من أسرى جُدد يبعثونهم إلينا، يبدو أنهم قتلوا كل من كان قادراً على أن يجلبوه إلى هنا، لقد تقلّص عدد البوسنيين إلى النصف، أكثر من مليون شخص هربوا خارج البلاد، وأكثر من مئة ألف قُتلوا، وعشرات الآلاف من المفقودين الذين لا يُدرى لهم موضع، وأعداد لا يُمكن الشكُّن بهم تحوّلوا إلى رمادٍ فوق رمادٍ بين رمادٍ في الأفران، ومئات المقابر الجماعية أو الفردية من الذين ذُفِنوا في مجاهل الغابات، وخلف غيابات الأسوار في المُعسكرات، وتحت الضخور والأتربة، وعلى الشوارع والطرق، وفي الأحياء، وتحت غُشب الحدائق العامة، وفي المصانع والمناجم والمراكز والمدارس، ولا يعرف مكانهم إلا الله، ولن يظهروا من جديد مهما حاولوا البحث عنهم، إلى أن يأذن الوعد من خلال مُلتقم الضور أن يبعث البشر جميعاً من قبورهم يوم القيامة، فينفضوا ما علق بهم ويسيروا، والمُلتقى الله!

لم يعد عددٌ كبيرٌ يذهب معنا من أجل قطع الأشجار، وتغيّرت وجوه الحرس، وعائوا مثلنا، وشخّ الإنتاج والطعام وكل شيء؛ ولذلك قرروا إغلاق المصنع بعد أن أخذوا إذن القيادة العليا، وتوزيع من

تَبَقَّى فِيهِ عَلَى مُعْسَكَرَاتِ أُخْرَى!

في معسكر باتكوفيتش

لا أدري إلى أي معسكر نُقل عثمان. أما أنا فذهبوا بي إلى معسكر (باتكوفيتش). صارَ عثمان حدثًا عابرًا، مثل الأحداث الكثيرة التي مرّت بي. ليس في ذاكرتي مُتسع من أجل أن أُخزّن فيها كل لحظة مررت بها، إن ذلك يعني أنني سوف أتكلّم إلى يوم البعث والنشور، وسأسرّد ما لا تقدر الضّحف ولا الكُتب - من لدن آدم إلى اليوم - أن تسرده ولا أن تحظّه، أنا أمرّ بالأحداث مرور القطاة بالماء، نُغبة واحدة تكفي من أجل أن أضيء الفكرة، ورشفة واحدة ولو كانت مالحة من أجل أن أسكت الجرح، وكيف يسكت؟!

فيما بعدُ علّفت أن (عثمان) الذي أردت أن أطرده من ذاكرتي؛ لا لأتني أريد أن أنساه، بل لأتني أريد أن يحلّ فيها أكبر عددٍ من المَنفيتين والمَنسيّين، علّمت أنهم نقلوه إلى أحد معسكرات الاعتقال، ولكنه استطاع الهرب من المعسكر بعد أسبوعين، ولجأ إلى قريته (ستوبني) شمال (سراييفو)، القرية التي وُلد فيها، وظلّ مشدودًا بخيط الحبّ القاتل إليها، فلم يُطق عنها صبرًا، وكان يظنّ أنّه لو عادَ إليها فسيستطيع أن يُدافع عن مسقط رأسه، وحبّة فؤاده. ولكن من قال إنّ الحبّ يكفي من أجل أن تحمي حبيبك؟! الحبّ ظفم، والموت فحّ، وقلبك الضّحية.

لم يقف في يد الضرب هذه المرّة، بل في يد الكروات، هاجموا وحدات (الرّسل) الثّابتة لمجلس الدفاع الكرواتي قريته، حاصروها ثلاثة أيّام، ومنعوا أن يدخل إليها أحدٌ أو يخرج منها، ثم بدؤوا

بقصفها بالمدافع لثلاثة أيام أخرى، ثم طافوا شوارعها وطلبوا من كل من يحمل سلاحه أن يسلمه، ثم بدؤوا بمن سلم سلاحه فذبحوه، ثم قتلوا كل رجالها بعد أن جعلوهم يشاهدون اغتصاب نساءهم أمام أعينهم، ثم دخلوا المساجد، ومن وجدوه فيها قتلوه وبألوا على جثته، ثم نهبوا كل ما في منازل القرية، وأشعلوا فيها النيران، كان جسد عثمان يحترق وهو يتذكر كيف رُفِعَ من قبل صديقنا المُشترَك (إبراهيم) على غود المشنقة، ويتحسر على أعمارٍ تضيع جزاء أمجاد دينية، أو أوهام شخصية.

كان معسكر (باتكوفيتش) تابعًا لمدينة (بيلينا) شمال شرق البوسنة، لقد أقيم في منطقة زراعية في القرية، وكان مُكوَّنًا من حظيرتين كبيرتين استُخدمتا في السابق لتخزين المحاصيل الزراعية أو مُستودعات للحبوب. وكانت الحظيرة الكبرى بطول خمسين مترًا وعرض ثلاثين مترًا، والصغرى بطول أربعين مترًا وعرض عشرين مترًا تقريبًا، حلَّت أنا نزيلًا في الثانية. وكان عدد المعتقلين في الحظيرتين أوانً وصولي أكثر من ألف مُعتقل، ومن يستطيع أن يحشر هذا العدد الهائل في هاتين الحظيرتين إلا إذا عُدونا كلابًا؟! وكانت هناك غرفتان مُتجاورتان إلى الشرق من الحظيرة الكبرى، واحدة يبيت فيها الحرس من الجنود الضرب أكثر من عشرة، والثانية يبيت فيها القادة، وكانوا ثلاثة ضباط على الأقل يتبدلون بين فترة وأخرى.

كان المُعتقل يضم الرجال والنساء والأطفال، وفيه عدد قليل من الكروات، وعدد أقل من الضرب الذين اعترضوا على سياسات دولتهم، ولم يكونوا أحسن حظًا منا، كانوا يذوقون أصناف الويلات

التي نذوقها، ولم يشفع لهم دينهم ولا جنسهم!

فور وصولي إلى المعسكر، توجهت إلى أحد الضباط، كان اسمه (غليغور) قائلاً: "سيدي". ونظر إلي كإنه لم يَرني، ثم أدار رأسه ناحية الحرس وهو يرمي شفتيه، وأعاد النظر إلي مُشمِئاً كأنما يتأفف من هياتي، أو يقول لنفسه: "ماذا يُريد هذا الجرذ؟". غير أنني أردفت: "أنا في خدمتكم، وأستطيع أن أقوم بأعمال لا يقوم بها أحد غيري. أنا ماهر في حفر القبور، فقد ورثت هذه المهنة أباً عن جد، وأنا أستطيع أن أطبخ أحسن طعام، ولدي خبرة طويلة في صنع المكاتب والخزائن والكراسي وال..."، وقاطعتني ببصقة، ثم أمر حارساً إلى جانبه: "اجلده بالحزام، ولا تجلده بالماسورة المعدنية، يبدو ظريفاً وأنا لا أريده أن يموت". وهكذا استقبلت في قُدومي الأول إلى هنا بعددٍ من الجلدات يفوق المئة، لم يتوقف الجلاد عنها إلا بعدما تعب، ورشَّح العرق من تحت إبطيه!

كانت الضربة التي دفعتها من جسدي - حيث ظهرت عليه الخطوط الحمراء سريعاً - جيدة في مقابل ما يمكن أن يكون أو يحدث لاحقاً، ستعيش تلك الحادثة في ذاكرة الضابط والحارس الذي جلدني، ويمكن أن تقفز إلى ذهنه فشكّل لي طوقاً من النجاة في المستقبل، أو هذا ما ظننته!

قضيت سحابة ذلك اليوم أنظر في الوجوه، وأبحث عن صديق، كان الأيتام أو المنزوعون من شجرة مثلي - وهم كثر - يبحثون عن ذلك الصديق، مع طول الفترة اكتشفوا أن تكوين صداقات اضطرارية قد يكون واحداً من أهم أسباب النجاة، وكما يقولون: إنَّ الهم إذا

توزع حمل!

حينَ يحلُ اللَّيلُ، كانَ بعضُ المُعتقلين يتجمعون في مجموعاتٍ صغيرةٍ بما يسمحُ به المكانُ، فيتحدّثون، ويتبادلون الحكايا، وأحيانًا يُغنون بصوتٍ خافتٍ، ولقد كانتِ الأغاني التراثية ساحرةً من جهتين: في طمأنة القلوب المرعوبة، وفي التّشافي من الآثار النفسية التي تُعشّش عميقًا في ذاكرة كلِّ واحدٍ منّا.

ومنذُ اليوم الثاني لِقُدومي إلى جحيمي الجديد عرفتُ أنّ أيامَ مصنع الخشب وفيلا السيّدة قد وُلّتْ، وأنني سأعوذُ من حيثُ بدأتُ في الخوفِ وانتظار الموت والجوع والأسى والمشاهد التي تجرحُ قشرة الدّماغ، وتنزع فروة الرأسِ عَوْضَ أن تجرح القلب وتنتزعه من بين الصّلوع!

كان قائد المُعسكر (غليغور) فنانًا في مدرسة التّعذيب، لم يكن يُعذّب بشكلٍ عشوائي، ولا يقتل من دون حُظّة، ولا يُجوع اعتباطًا، ولا يحرم من الماء وقضاء الحاجة كيفما اتفق، كانَ يعني كلَّ خطوة، وكانَ لديه منهجٌ مدروسٌ في كلِّ ما يفعله، وكنتُ على استعداد أن أتماهى مع خطّته، وأدرسها من أجل أن أحوز بثقته، وبالتالي أنجو في بحرٍ مُتلاطِمٍ من الموت الذي يلبس كلَّ مُعتقلٍ كسربالٍ أسودٍ ثقيلٍ يُغطّي حتّى الوجه والعيّنين وفتحتي الأنف.

في حظيرتي كان هناك جزءٌ إسمنتيّ من أرضيتها، هذه الأرضية الإسمنتية شكّلت منضّةً للتّعذيب المُمنهج، وفوقها حدثت فظائع لا يُمكن أن تخطر ببال إبليس، ولو كانت لها القدرة على الكلام لحدّثت بما لا يُمكن تصديقُه أبدًا، وخَرَسَها الدائم كانَ سببًا آخر في

مستويات عذاباتها التي لا تنتهي.

كان (غليغور) يربط عشرة من الرجال في سلسلة من الزرد، ويطلب من أحدها أن يقود تلك السلسلة المربوطة كما ثقاذ الكلاب، ويخرج بها إلى الغراء أمام الحظيرتين، ويُجبرهم على الدوران في حلقة مُفرَّغة طوال الوقت تحت وهج الشمس، والخزاس يُراقبون، ومن كان يسقط من الإعياء يُضرب بماسورة معدنية على رأسه، فإن حالفه الحظ ولم يمت، كان عليه أن يقوم ويعتذر عن تسببه في إيقاف دوران الكلاب، ويدخل في الحومة مرة ثانية. وإن لم يُحالفه الحظ، فإن قائد المجموعة كان عليه أن يفك قيده من السلسلة ويسحبه بعيدًا جثة هامدة، ولم يكن مطلوبًا أن تظل تدور حتى تدوخ وتعود إلى إحدى الحظيرتين، أو حتى تغيب الشمس، بل كان الهدف أن تظل دائرًا حتى تموت، ولم يكن يسمح بدخول من تبقى من العشرة إلا إذا مات نصفهم على الأقل. وغالبًا ما كان يطلب من النصف الذي ظل حيًا أن يحفر قبرًا جماعيًا للنصف الذي رحل. وكان يأتي في لحظة الحفر ليستمتع بمنظر القبر الفاجر فاه على اتساعه، وكيف تُرمى فيه الجثث ويهاال عليها الشراب. وذات مرة؛ لَمَّا لم يتمكن الحفَّارون من إتمام مهمتهم، أطلق عليهم الرصاص، ثم قفزت في ذهنه وهو يُطلق الرصاص الأخيرة كلماتي من أنني حفَّار قبور، فصرخ بِمُساعدته: "البوسني الكلب الذي قال إنه ماهر في حفر القبور". ودخل المُساعد، وصار يصرخ في الحظيرة: "أين حفَّار القبور؟ أين حفَّار القبور؟". وعندما لم يستجب لندائه أحد، جَرَّب أن يرفع عقيرته بهذا الصوت في الحظيرة الثانية، فقفزت من بين الجموع، وصرخت: "أنا... أنا...". وسرَّ القائد لَمَّا رآني: "أنت أنت؟".

فأجبتُه: "هو أنا". "هَيَا". وحفرتُ القبرَ بسرعةٍ مثلَ آلةٍ. وأعطاني وساقًا بعدَ تلكَ الحادثة، إذ رَبَطَ على ساعدي الأيمنَ شريطةَ حمراءَ، وصرْتُ أعْرِفُ بها، فإذا أرادَنِي في مهمةٍ هتَفَ: "هاتوا لي صاحبَ الشَّريطَةِ الحمراء".

وعلى الجزءِ الإسمنتي من أرضية حظيرتنا كُنَّا ننام من دون غطاء. ولم يكن ينقض أجسادنا النحيلة المُنهكة أن يؤثر فيها حصي الإسمنت وقساوته. ولا حِجًّا تخلَّت عن لونِها الإسمنتي واصطبغت بلون الدَّم ورائحته، ذلك أنَّها كانت موضعَ القائد المُفضَّل لِشَقِّ حلوقِ عشرةٍ من المُعتقلين كلَّ يومين أو ثلاثة، كان يُؤتَى بالعشرة المُختارين بطريقة مدروسة كذلك، مرَّة عشرة رجال، ومرَّة عشرة أطفال، ومرَّة عشر نساء، أمَّا النساءُ فكانَ يُغتَصَبْنَ قبلَ الذَّبْح، ولم تكن القاعدة الإسمنتية مكان القائد المُفضَّل للاغتصاب، ولكنه كان يُضطرُّ إلى ذلك إذا اختارهنَّ للذَّبْح، أمَّا إذا أرادَ اغتصابهنَّ من أجل أن يبقين أحياءً ويحبَلن، فإنَّ غرفته الخاصة كانت المكان المُفضَّل لديه. أمَّا الذَّبْح فكان يتمُّ بطريقة مدروسة، كان يُؤتَى بالعشرة، فتُكبَّل أيديهم من الخلف بكوابل حديدية كالأصفاد التي تستخدمها الشرطة، ثُمَّ يُضجعون على جنوبهم، وتُشدُّ رؤوسهم على الخلف، وقبل أن يُشقَّ الحلق، كانوا يطلبون من آخرين أن يؤذوا رَقَصَات المُشعوذين ويتقافزوا حول الضَّحية كالقردة، وأحيانًا يطلبُ منهم أن يبولوا عليهم قبل أن يتمَّ ذبحهم أو بعدَ ذلك، فيختلط الدَّم بالبول، وكان علينا أن ننامَ على تلك الأرضية بعدَ أن تتمَّ تلك العملية!!

وفي أيام السَّبت أو أيام الأحد كان يَعِزُّ على ذهن القائد الضَّرْبِي من أجل أن يستمتع بإجازته، أن يُعطي عشرةً من الرِّجال، نعم كانوا

من الرجال غالبًا، وأحيانًا من النساء أو الأطفال، وأحيانًا كان يخلط
المشهد فيجعله من الرجال والنساء والأطفال، يُعطي كل واحد من
العشرة هراوة معدنية، ويطلب أن يضرب كل واحد منهم الآخر، وكان
يُمهلهم للبدء بتنفيذ الأمر دقيقة واحدة، وتبدأ الدقيقة بعد صافرة
يطلقها بنفسه، ويطلب من الحرس أن يضبطوا التوقيت، وكل من
يتأخر في البدء بضرب الآخر، يُطلق عليه الرصاص في لحظتها،
وغالبًا ما كانت تمر الدقيقة الأولى قبل أن يبدأ المشهد العَبَثِي، فإذا
مرّت وسمع صوت الطلقة الأولى، يفزع المُتقاتِلون ويهيجون، ويبدأ
بعضهم بضرب الآخر بدافع البقاء، وكان الاحتمال إما أن تضرب
لتعيش، وإما أن تمتنع فتموت، ولا مكان للعاطفة، وكان الواحد
يضرب أخاه أو زميله أو أباه أو أحد أقربائه بحسب خطئه في الذين
اختيروا من أجل هذا السباق الدُموي، ومن ترتخي قبضته أو يُلقي
بالهراوة المعدنية من يده - لأنه لا يقدر على أن يكون سببًا في
موت أعز الناس عليه - تأتيه الرصاصة فورًا، ولا يُمكن لأي بشري
أن يتكهّن بشعور الأب الذي ينهال على ابنه بتلك المأسورة القاتلة،
أو بشعور الابن وهو يتقصد رأس أبيه من أجل ضربة قاضية، وكان
شرط القائد النصف دائمًا أو أكثر، ولا يُوقف القتال إلا بعد أن يسبح
المُتقاتِلون في الدّم والدموع والبكاء والهيّاج والصّرخات... لقد
حوّلونا إلى حيوانات، بل إن الحيوانات لا يُمكن أن تتقاتل على هذا
النحو، لقد كان الهدف أن ينزعوا من النفوس أية بقيّة من إنسانية،
لم يعد الإنسان إنسانًا، صار وحشًا مفترسًا. وفي أثناء ذلك لا يُمكن
أن تُميز ما إذا كنت تسمع أصوات الهيّاج واستغاثات الآباء بالأبناء أن
يرحموهم، أو تسمع قهقهات القائد وجنوده الذين كانوا يعدّون هذا

المشهد احتفاليًا يليق بِعُطلة نهاية الأسبوع!

وأدار القائد فَرْنَ الجوع، كان يُسَمِّح بوجبة واحدة في اليوم من الطعام، لا أن تعيش، ولا أن تموت. ستموت حينَ أريدُ ذلك، وستعيش من أجل أن تُبهِجني في الحفلات المُعَدَّة لي كذلك؛ هكذا يقول القائد. كانت الوجبة تتضمَّن قطعة خُبزٍ واحدة صغيرة مدهونة بملعقة من الفُرْبِي. وقد أخوَّن مشهد الموت والأسى إن قلث إنَّها كانت وجبة لذيذة تُعادل نصف الحياة أو كُلِّها!

أما مشاهد المتعة الفرديَّة التي كان يتسلَّى بها القائد، فكانت تتمثَّل في أن يختار أحدنا فُكَّبل يداه خلف ظهره، ثم يطلب من أحد الحرس أن يجرح حلقه دون أن يقطعه؛ بحيث ينز منه الدَّم على دفعات، ويأمره أن يبقى واقفًا، ويستمر التزييف الذي يملأ رقبته وصدره ويبدأ بالثَّقاَطِر على الأرض، ثم يأمر جنوده أن يُشغِّلوا الموسيقى الهادئة، ويجلس الجميع يراقبون الضَّحية يموت، ولربَّما ذرفوا الدَّموع أثناء مشاهدتهم له يَخُور، ثم تضطرب ساقيه فيجثو على رُكبتَيْه، ثم يسقُط رأسه على صدره، ويهمش القائد: "لقد كانت عذابات المسيح أشدَّ من هذا. وا رحمة الرَّبِّ كم عانى وضخى من أجلنا!!". ثم يأمر جنوده بأن يحفروا للضَّحية قبرًا خاصًا، ويدفنوه بشكلٍ لائق!!

أحزان لا لسان لها

وخطب فينا القائد ذات مرة: "هل ثعانون من الاكتظاظ؟!". ولا أدري كيف يمكن أن يُسأل عن شيء مائل أمام العيَّين لا يمكن إنكاره؟! ولم يكن لدينا مع ذلك إجابة، كيف تُجيب عن سؤال لا يحتاج إلى إجابة، وواقع الحال أبلغ من كل مقال. وكنا نعرف من لهجته التي اعتدنا عليها أنه لا يريد السؤال؛ لأنه سؤال بدهي، ولكنه يريد ما بعده، ولذا اشترأبث أعناقنا إلى ما سيقول من بعد، وهكذا أردف: "إذا كان المكان مكتظًا فعلى نصفكم أن يموت! هاه ألا تريدون أن تتراحموا. أنا لا أستطيع أن أذهب بكم إلى أي مكان، إنَّ المُعسكرات كلها مُمتلئة ومحشورة أكثر من هذا المُعسكر. ولا أستطيع أن أرفض من يبعثون بهم منكم إلينا؛ كيف أرفض هدية الرب. نحن نستحق الجنة بسبب صبرنا عليكم وتحملنا مشقة توفير منامكم وطعامكم وشرابكم وتلبية حاجاتكم التي لا تنتهي. ولكنني على ما تعلمون أتعامل مع الوضع القائم بذكاء، سنلعب مع أعدادكم التي تنبغ من كل مكان كالنمل لعبة الموتِ المُقَتَّن، القاعدة تقول: على الموتى القدامي أن يخلوا أماكنهم للموتى الجدد، وعلى النقص الحادث ألا يجعل المساحة مُريحة، وعلى الزيادة ألا تجعل الاكتظاظ خارج السيطرة؛ ولذا إن كان معدل الوافدين في الأسبوع مئة، فعلي في الأسبوع نفسه أن أتخلص من مئة زائدة واحدًا. وعلى المئة الذين اختارهم ليموتوا أن يكونوا مُمتئين من ثلاث جهات: أولاً أنني اخترتهم، وهذا شرف لو تعلمون عظيم. وثانيًا أنهم قدّموا خدمة

لإخوانهم الجُدد بإفساح المجال لهم. وثالثًا أنني خلّصتهم من الحياة التي يبدو أنها لا تُعجبهم". ثم يمضي.

وعادَ مرّة أخرى فخطب: "إننا نُقدّم خدماتٍ جليّةً للأمة وللإنسانية، نحنُ نُؤدّي واجبنا الإنساني باحتراف. وإنّ دماءكم يجب أن تُساهم في هذا الدور، وأنا مُحتاجٌ إلى مئتين أو ثلاثمئة يُعينونني على أداء هذه المهمة المُقدّسة". ثم سكّث، وأشار إلى جُثوده، ولم ندرِ ما هي المهمة المُقدّسة، ولكننا ذُعرنا؛ لأننا لا نعرفُ أشكالاً كثيرةً لمهام القائد المُقدّسة، ومع ذلك فكّلها تبدأ بالموت أو تنتهي به.

كانت غرفة الحرس قد جُهّزت من أجل هذه المهمة التي قال عنها إنّها مُقدّسة. أدخلوا كلّ عشرة مَعا، سَحَبوا دماءهم، ولم يُعطوا لا ماءً ولا محلولاً ولا عصيرًا ولا أي شيء، كانت دماؤهم تُصفى حتّى يموتوا. وهكذا أدخلوا إلى تلك الغرفة عشرة عشرة، حتّى بلغ عدد الداخلين ثلاثمئة بوسني، ولم يخرج منهم إلا عددٌ قليلٌ يُعدّ على أصابع اليد الواحدة. وكان الدّم الذي سَحِبَ منهم يُباع بالفعل لشركاتٍ تُتاجَرُ بالدماء خارج البلد، وبعضه - بعد فحصه - يُقدّ به الجرحى الصّرب الذين يُصابون في المعارك.

وبعدَ مجزرة الدّم هذه، نقصَ عددنا بشكلٍ كبيرٍ بالفعل، وناداني القائد: "ذا الشريطة الحمراء". وعرفْتُ ما يريدُ مني؛ فقلت: "يجب أن يساعدني على الأقلّ عشرة من إخوتي من أجل أن نحفر القبر الذي تريد"، وسألني مَغيظًا: "ألا تستطيع أن تحفره وحدك؟". وأجبته: "ليتنى أقدر، فانتَ تعرفُ أنني لن أتوانى". وهتف: "اختزهم أنت".

كانَ علينا أن نحفر من غروب ذلك اليوم طوال الليل إلى الفجر، في

موضع زراعي يقع خلف الحظيرتين، وما تزال آثار الحصاد والقش تملأ مساحات منه. وكانوا قد سَلَطُوا على المكان كشافًا ضوئيًا من أجل إتمام عملنا. وقال لي أحدهم ونحن نهوي بالمعاول في الأرض: "أُعْجِبُكَ دوزك؟!". وشعرْتُ بأنه يريدُ أن يَتهمني بشيء ما، فبقيت صامِتًا، فأردف: "لا تقلق، أنا لا أعاتبك ولا أحاسبك. أنا فقط أسأل من أجل أن أبدأ حديثًا ما". وبقيت صامِتًا لم يُعجبني سؤاله، وتوقَّعتُ أن تبدأ منه عداوةٌ يكون من ورائها كارثة، وتخيَّلتُ للحظة أنه غريمي في لعبة الموت بالضرب بالمواسير التي يُحبُّها قائد المعسكر، فأردتُ تجنُّبه فلم أَرَدَ عليه، وشعرَ هو بذلك، فقال كمن يُطفئُني: "لقد كنتُ أقومُ بمثل هذا الدور في معسكر لوكا في برتشكو، وهو بالمناسبة ليس بعيدًا عن هنا". وانقشَعَتْ بعضُ غمامات الشك والتوجُّس، وقفْتُ على سَاقِي، واثَّكأتُ على المعول الذي في يدي، ونظرتُ في عينيَّه، كان أطولَ منِّي، وجسمُه - على غير عادة أجسامنا - مُمتلئٌ قليلًا، وسألته: "متى أتيتُ إلى مُعسكرنا؟". فردَّ: "قبلَ يومين". وكانت إجابةً مُقنِعة لما عليه حالةُ جسده، وتصديق كلامه حول ما كان يقوم به في المُعسكر السابق، وكان أعور، عينُه اليسرى مقلوعة. وأشرتُ إليها، فقال: "قلعوها لي في مُعسكر لوكا". وأردتُ أن أسأله عن اسمه، ولكنه عاجلني، وهو يمدُّ يده مُصافِحًا بعدَ أن شعرَ أنه يُمكن أن نكونَ صديقين: "أنا عارف". "وأنا حارث". وتبادلنا نظراتٍ لها ما بعدها، وتابَعنا الحفر، ثم سمعْتُ أن شيئًا قد صَكَ أو صَرَ تحت الفأس التي في يدي، فدَقَّقْتُ النظر، فلم أتبيَّن ما إذا كانَ حجرًا أو شيئًا آخر، فهويْتُ أحفر حولَها بكفِّي، فإذا هي جمجمة، فدَعِزْتُ لوهلة؛ لقد كانت تستقرُّ في الظلال الرطبة، باردةٌ كالموت الذي غيَّبها.

ناديث (عارف)، فساعدني في إخراجها، فإذا هي مثقوبة في القمع،
كان الثراب قد أحال لونها الأبيض، وبدت باهتة، كان في جبهتها
ثقب أسود دائري كأنه عين ثالثة حُفرت غنوة، وحوله تشققات بسب
خروج الظلقة مثل تشعب الغزوق في اليد، وكان فم الجمجمة فارغًا
ومفتوحًا كأنما صرّخ نصف صرخة قبل أن يهدم. قلبتها، أرذث أن
أبكي، ما فائدة البكاء؟! أرذث أن أضفها إلى صدري لأقول لها: إنني
أسف، لقد أزعجت رقدتك الأبدية، ولكن ما قيمة الاعتذار، في فضاء
هذه الجمجمة الخالية كان هناك عقل يشعر ويفكر، وكانت لديها
مخططات وأحلام لغد لم يأت، هل أرادت هاتان العينان المطفأتان
أن تتلافيا الزصاصة في الوجه فجاءت في القمع؟! هل أغضتًا على
الزروع فانطفأتا؟! وهذا الفم ماذا كان يريد أن يقول، بم كان يهم
أن يصرخ؟! هل كان سينادي على السماء من أجل أن تُخلّصه من
موت وشيك، وهل يتأخر الموت عن تلبية النداء؟ كم من صرخة
لم تُسمع ولم يتردّد صداها! بدت الجمجمة في صمتها الزهيب،
بأسنانها المصفوفة والتي لم يسقط منها سنّ واحدة تقريبًا، وعيونها
الفارغة، بدت وكأنها تُحدّق في، كانت تريد أن تروي حكاية من
حكايات الألم والغربة والعذاب والمنفى، لكنها لم تروِ حرفًا واحدًا؛
لأن حياتها انتهت بضغطة زناد يتيمة وطلقة واحدة. من يكون
صاحب الجمجمة؟ كائنًا من يكون، ما الفهم؟! لو كانت الجمجمة تعود
لأمي رحمة الله عليها، أكنث أقول: لا يهم. لعنة الله على القلب الذي
يتأرجح بين الشعور واللاشعور في الثانية الواحدة ألف مرة. من
يكون؟ سؤال لا أحد يستطيع أن يجيب عنه، كما لا يمكن أن تنسى
ولا أن تغفر، يمكن أن تسقط في حفرة أشد رطوبة وظلمة من هذه!!

عدت فجر ذلك اليوم، وقد نسيث أمر (عارف)، ولا أدري كيف أثرت بي تلك الجمجمة على هذا النحو، أنا الذي شاهدت آلاف القتلى والمُعدّمين، واكتسبت مناعة ضدّ الشعور، بعد سلسلة لا تتوقف عن موت مُكرّر مُعاد، سقطت في اختبار الصمود في لحظة فارقة أمام هذه الجمجمة!

الأخبار التي تأتي من الجنوب، من (سراييفو) ليست أقلّ بُؤساً ممّا نحن فيه، المدينة مُحاصرة منذ عام ونصف عام، ومطارها يُقصف من حين لآخر، ولا طائرة تأتي بالإمدادات الغذائية، والجوع يفتك بكلّ حي، والناس يهربون، هل الهدف الذي يسعون إليه أن تكون البوسنة خالية من الناس؟ منّا نحن الذين عُجنا بترابها، وشقينا بمائها، ونبتنا مثل أشجارها. يقولون إنّ أعداد المُهاجرين إلى الدول المُجاورة وذول أوروبا تزداد بشكلٍ مُخيف، لقد صاروا أكثر من مليون ونصف المليون. الضرب يقولون إنّها عملية تطهير. تطهير من؟ منّا، افرضوا أنّنا خرجنا، وتركناها لكم، فهل ترضى هي بكم؟ إنّ الجذر يحنّ إلى الثربة التي أنبتته، نحن جذور أصيلة، الطائرثون طائرثون. لا يستمرّ إلا ما كان أصيلاً. اسألوا نهر درينا واسألوا جبال إيجمن، اسألوا الغابات والسهول والسهوب وكلّ ذرة تراب في البوسنة والهرسك، ستقول لكم إنّها تعرفنا، ولو تركناها مضطرين، فستبقى تنتظرنا، لن يحنو على الشجرة إلا فرغ غصنها المياد.

فضّح الكشاف الوجوه. اختار القائد في الساعة العاشرة مساءً مئة امرأة، فيهنّ أكثر من عشر طفلات بعضهنّ لا تتجاوز أعمارهنّ سبعة أعوام. وتحت تهديد الرشاشات ساقهنّ الحرس إلى غرفة القائد وغرفة الجنود. هتف الضابط العالي: "تعرفون ما يجب أن تفعلوا؟".

ردّ أحد الحرس: "يا سيدي، لا نقدر على اغتصابهنّ جميعًا. هؤلاء مئة، ونحن..."، وقاطعه القائد: "ألا يقدر كل واحد منكم أن يغتصب عشرة؟ لقد ماتت الفحولة يا... أين ذهب ماؤكم، أستم مغاوير صربيين؟!" وصمت قليلاً قبل أن يتابع وهو يبتسم بفجور: "أنا أريد عشرتي من الطفلات". وحيء بجنود آخرين من معسكرات أخرى ليتمّوا عمليات الاغتصاب، وصلّوا بعد منتصف الليل، وكانت لديهم أوامر محدّدة: "كل امرأة تقاوم، تقتل برصاصة واحدة".

كان لدينا آلام لا أفواه لها. وكان لدينا أحزان لا لسان لها. وكنا مع كثرتنا قليلين، ومع اجتماعنا وحيدين، وكنا نعرف أن الضرب قد هزموا في معركة من معاركهم مع الجيش البوسني إذا صَبّوا علينا العذاب صَبًّا في ذلك اليوم.

كان قائد المعسكر واضحًا. مكشوفًا. يقول ما يريد، يفعل ما يريد. فقد كان في مأمّن من أن يُحاسب أو يُعاقب. وكان كثيرًا ما يجمعنا في صباح أيام الأحد من أجل أن يخطب فينا، وكان يتكلّم بلهجة شوقية أحيانًا، وببلاغة عجيبة أحيانًا أخرى، وذات خطبة قال: "إنّ هذه الحرب لم تكن اختيارنا ولا خيارنا، إنّها حرب اضطرار. أتعرفون لماذا؟ لمنع انتشار الإسلام في أوروبا. إنّ السبب ليس غنى بلادكم بالقروات، فهي بلادنا وتلك التي شرقي النهر بلادنا، وهي أكثر خصوبة وأشدّ غنى، إنّ هذه الحرب قد شتّ أواؤها من أجل منعكم أيّها البوشناق من إقامة دولة إسلامية في بلادنا. أنا أعرف أنّ أكثركم هنا في هذا المعتقل من المثقفين والمفكرين، وتفهمون ما أقول تمامًا. وأنا لا أريد أن أتلون أمامكم، ولا أن أظهر كالحرباء، أنا أقول ما في قلبي؛ إنّنا نشنّ عليكم حربًا دينية، تشبه إلى حدّ ما

الحروب الصليبية ولكن في القرن العشرين، نحن لا نقاتل منذ عام
أو عامين، ولا من خمسين عامًا، نحن نقاتلكم من خمسمئة عام. إنها
النهاية، ولربما اختارثنا عناية الرب من أجل أن تكون نهايتكم على
أيدينا".

ما الذي يحدث؟!

عادت ضلوعي قابلة للعذ. أيها الضابط الخطيب: ألا تريد حفر قبر جديد من أجل رغيف ساخن من الخبز، لا بأس، أنت لا تريد أن تعطيني إياه ساخنًا! أنا أقبل به باردًا، باردًا كصقيع أوروبا التي صَفَتنا جميعًا، باردًا مثل هذه القلوب التي تراقب موتنا على مدار اللحظة. حسنًا لا تستطيع أن تعطيني رغيفًا كاملاً، أنا أقبل بنصف رغيف، بنصف حَظ، كيف يُمكن أن تشطرَ الحَظَ نصفين؛ أنت إما مَحْظُوظ أيها الغلام الذي لم يعد غلامًا أو مَنحوش أيها الذي صار هيكلاً عظميًا. حسنًا، تقول إن نصف الرغيف المُتَوَقَّر لديك ليس صالحًا للأكل؛ فهو مُتَعَفَّن. لا بأس، ألسنا حيوانات؟! هل رأيت حيوانًا يأنف أن يأكل عَفْنًا. أنا أقبل به على هذا النحو! حسنًا تقول إن علي أن أحفر في اليوم الواحد قبرين من أجل هذا العفن؟! أنا موافق. هاتِ الزَفْس أيها الزَفِيْق واتبغني!

بحث عن (عارف) بين الهياكل البشرية. أين أنت أيها المسخوط، لقد حفرث اليوم قبرين، وتذكّرت نظرتك البريئة الآثمة، ألم تقل لي إنك كنت في (لوكا) تفعل مثلما أفعل، فلماذا لم تُساعِذني أيها الحيوان!!

إنني أموت يا (عارف)، أريد أن تحفر أنت قبري حين أموت. أين أنت؟! تقول: كلنا يموت، كلنا لديه قصة تكفي لأن يموت مئة مرة، أنا لَدَيّ مِئات القصص أيها الحيوان، هل تساءلت مثلي في كل ليلة: ما الذي يحدث؟! إنه ليس سؤالاً عابِرًا، إن كل حرف فيه سكين يُقَطِّع

شرايين القلب. إنه ليس نوعًا من تلك الأسئلة التي يقولها أحدهم حين يرى حادث تصادم بين حافلتين: ما الذي يحدث؟ أو حين يرى حريقًا يشب في غابة: ما الذي يحدث؟ أو حين يرى الشمس قد كُسفت أو صارت حمراء: ما الذي يحدث؟ أو حين يسمع صراخًا في مطعم ويرى إطلاق نار: ما الذي يحدث؟ هذه أسئلة لا قيمة لها، إن حوادث مثل هذه لا ترقى إلى أن يسأل المرء سؤالاً جارحًا عن حالة كحالتنا: ما الذي يحدث؟! ما نحن فيه أكبر من أي سؤال يا (عارف)، أكبر من كل حالة وجودية غامضة، نحن كمن ولج إلى تلافيف هذا السؤال الكحلي، وضاع في متاهاته اللانهائية، وذهل عن حقيقته، كيف يمكن أن نجد حقيقة قابلة لأن يستوعبها أكبر عقل بشري؟! نحن أكبر من الحقيقة نفسها، ما يحدث معنا أكبر من أكبر حقيقة إلى الحد الذي تتحول فيه الحقيقة نفسها إلى خيال، إلى تكرار دائم، إلى استساغة هذا التكرار، إلى عبث، لقد تجاوزنا حد الحقيقة البشرية التي يعرفها البشر عامة منذ وقت طويل. واحسرتاه أيها الحيوان!

وجدت (عارف) مُقَدِّدًا على الأرضية الإسمنتية، صُخْتُ به: "أين كنت؟". نظر إليّ بعينين كأنهما تشتمانني، وهتف: "كنت في سويسرا أتنزّه!". "يا أخي، أنا أبحث عنك منذ يومين". اعتدل من ضجعته، وقال وهو لا يزال قاعِدًا: "أين سأذهب. أنا هنا في هذا المكان مثل كلب أنتظر لحظة الخلاص". هبْطْتُ وجلستُ إلى جانبه، نفَضْتُ الثراب من يدي: "لقد دفنْتُ لثو عشرة". ردّ بسخرية بدت باهتة: "حفار قبور ممتاز أنت". "أنا أريد أن تكونَ معي حين أحفر القبور. سنحصلُ على قطعة خبزٍ ثبقينا أحياء". "قطعة خبز!!"، وأرادَ أن يضحك فلم تُساعده قواه الخائرة، وتابع: "ومن قال لك إنني أريدُ

أَنْ أَعِيشَ؟! أَنَا أَنْتَظِرُ مَوْتِي بِصَبْرِ فَارِغٍ". "لَا تَقُلْ ذَلِكَ. سَنُقَاتِلُ لَكَ نَبْقَى أَحْيَاءً". "قَاتِلْ وَحْدَكَ. أَنَا اسْتَسَلَفْتُ". "اسْتَسَلَفْتُ؟!". "نَعَمْ". "الْأَبْطَالُ لَا يَسْتَسْلِمُونَ". وَانْفَعَلْ، وَرَجَفَتْ شَفَتَاهُ، وَاسْتَجْمَعَ قُؤَاهُ لِيَصْرَخَ: "أَنَا لَسْتُ بَطْلًا، وَلَا أُرِيدُ أَنْ أَكُونَ، أَنَا دَابَّةٌ، أَنَا حَيَوَانٌ، أَنَا نَكْرَةٌ، أَنَا لَا شَيْءَ، كُلُّ مَا أُرِيدُهُ هُوَ أَنْ أَمُوتَ". لَفَفَتْ ذِرَاعِي الْيُمْنَى السَّلِيمَةَ عَلَى جَذْعِهِ لِأَهْدِي مَنْ رَوَّعَهُ، فَأَبْعَدَ يَدِي عَنْهُ، وَأَرْدَفَ: "يَا أَخِي اتْرَكْنِي وَشَأْنِي". "لَنْ أَتْرَكَكَ". "لَنْ تَتْرَكْنِي؟ لِمَاذَا عَلَى خَيْرٍ؟!". "لَأَنْنِي لَا أَسْتَطِيعُ أَنْ أَجِدَ مَنْ يَحْكِي لِي كُلَّ يَوْمٍ، أَنَا وَحِيدٌ". وَهَذَا قَلِيلًا قَبْلَ أَنْ يَقُولَ: "لَسْتُ وَحِيدًا مِثْلِي". "هَاه... لَقَدْ بَدَأَ الْكَلَامَ يَأْخُذُ مَجْرَاهُ الْحَقِيقِي. الْآنَ تَجْمَعُنَا وَحَدَّثْنَا الْمُخْتَلِفَةَ الْمُتَشَابِهَةَ". "مَاذَا تَرِيدُ مِنِّي يَا أَخِي؟! اتْرَكْنِي أُمُتْ بِسَلَامٍ". مَدَذَتْ كَفِّي النَّاقِصَةَ إِلَى جَيْبِي، وَأَخْرَجَتْ قِطْعَةً خَبْزٍ يَابِسَةً أَقْلَ مِنْ حَجْمِ الْكَفِّ، وَرَفَعَتْهَا أَمَامَ نَاضِرِيهِ: "نَصِيبِي الْيَوْمَ مِنْ حَفْرِي الْقُبُورِ". لَمَعَتْ عَيْنَاهُ، وَنَظَرَ حَوْلَهُ مِثْلَ مَنْ يَخْشَى أَنْ يَرَانَا أَحَدٌ: "لَا تُظْهِرْهَا بِهَذِهِ الطَّرِيقَةَ يَا أَخِي، رُبَّمَا تُقْتَلُ بِسَبَبِ هَذِهِ الْعَجْرَفَةِ. رُبَّمَا يَهْجُمُ عَلَيْكَ الْآنَ الْجَائِعُونَ مِنْ أَجْلِ مَنَظَرٍ لَا يَتَكَزَّرُ مِثْلَ هَذَا". خَفَضَتْهَا وَأَنَا أَقُولُ: "لَا تَخَفْ. لَنْ يَسْلُبَهَا مِنِّي أَحَدٌ. أَنَا قَاتِلْتُ صَخْرَ الْأَرْضِ وَأَنَا أَحْفَرُ مِنْ أَجْلِ أَنْ أَحْظِيَ بِهَا، وَسَأُقَاتِلُ كُلَّ الْجَائِعِينَ هُنَا مِنْ أَجْلِ أَلَا أَفْقِدُهَا". أَمَالَ رَأْسَهُ نَاحِيَّتِي، وَهَمَسَ: "نَحْنُ إِخْوَةٌ، أَلَيْسَ كَذَلِكَ؟". نَظَرْتُ إِلَيْهِ مُسْتَغْرِبًا: "بِالطَّبْعِ نَحْنُ إِخْوَةٌ". "إِذَا هَلْ تُعْطِينِي مِنْهَا لُقْمَةً؟!". صَمْتُ لِلْحِظَاتِ، رَاحَتْ دُمُوعِي تَتَقَاطِرُ عَلَى خَدِّي: "بَلْ سَأَقْسِمُهَا نِصْفَيْنِ بَيْنِي وَبَيْنَكَ". خَفَضَ رَأْسَهُ، وَتَمَتَّمَ: "إِذَا لَنْ أَمُوتَ الْيَوْمَ".

رَاحَ يَأْكُلُ نِصْفَهُ بِنَهْمٍ، كَانَ يُعَالِجُهَا بِأَسْنَانِهِ الْبَارِزَةِ أَمَامَ فَمِهِ، وَهُوَ

يجهد في أن يرطب قساوتها بلعابه فلا يكاد ينجح، ويبلغ بصعوبة ما مضى منها، ويتناثر فتاتها على كنزته المُسخة، وكانت عينه الطفافة العوراء تنافس العين الصحيحة في اللّمان. قلت له ومنظري لا يختلف كثيرًا عن منظره: "كنت في معسكر لوكا، أليس كذلك؟". "بلى". حدثني عما رأيت". "الآن؟". "نعم. وهل تسنح فرصة مثل هذه كثيرًا، نحن لا نستطيع أن نلتقي كل يوم". "هنا؟". "نعم". "لا". "لا؟". "هنا لا أستطيع الحديث، إذا سمعونا فربما يذبحونا". ضحكك ضحكة خفيفة: "صرت تخاف من الذبح، قبل قليل كنت تريد أن تموت بسلام، فما الذي تغير؟". "قطعة الخبز هي التي غيّرت كل شيء، لقد أعادت إليّ ثقتي بجدوى الحياة". "لا تبالغ، لا قطعة الخبز ولا سواها تُعيد ثقة أي واحد منا بجدوى الحياة". ابتسم من خلال ثفن الخبز الأبيض التي تستقر على زاويتي فمه: "وما الذي يُعيد إلينا الثقة بجدوى الحياة أيها الفيلسوف؟!". "الحكايات". "لعنة الله على الحكايات، إنها معجونة بالدم وبالموت. أنت حمار". "أقبل أن أكون حمارًا مُستمعًا. جزّني".

مشينا معًا إلى زاوية الحظيرة. أعرف أنها حظيرة. ويعرف الضرب أنها كذلك. ويعرف الله قبلنا وقبلهم أنها كانت للحيوانات، وكان يُمكن في نهاية كل عام أن تتصور الحيوانات أو الحبوب المُخزنة فيها تمور، وتتظاهر ضد الظروف اللاإنسانية فيها، ستقول الحيوانات: "لقد أصابنا الجرب، نريد أن نخرج من أجل أن نرى الشمس كل يوم ولو خمس دقائق". وستقول الحبوب: "لقد أصابنا العفن، نريد أن نُعرضونا للشمس ولو كل أسبوع مرة". هذا كان في الماضي. وكان يوم أن لم تكن حرب. ويوم أن كان الإنسان يتظاهر بأنه إنسان. أما

اليوم وبعد أن نشبت الحرب وأحرقت كل ما وصلت إليه، فلم تعد هناك أية حقوق، نحن أقل حتى من أن نفكر بذلك، أو أن يخطر ببالنا.

مشينا بخطوات حذرة، وعيون فاحصة، نبحث عن مكان نجد فيه فسحة تكون بعيدة ما أمكن عن العيون والآذان، وإِنَّه والله لَطَلَبَ عزيز، ولكننا نقبل بأحسن السيئ، شغلنا عن الحديث قبل أن نستقر وجوه الناس. كانوا بلا وجوه، كيف يُمكن أن ترى اللاوجوه، وكانوا بلا وجوه، كيف يُمكن أن ترى العدم، كان هذا أمرًا مستحيلًا لولا أننا في هذه المعسكرات التي تنتشر على حَدِّ البوسنة والهرسك كانتشار الجدري أو الطفح. كنا نتعثر بأجساد لا تقوى على الحراك، كنا لا نسمع إلا صوت الأنين، صوت العظام المكسورة، والعيون المفقوءة، والأرجل الناقصة. كان يُطلب ممن لا يملك إلا ساقًا واحدة أن يجري في مضمار سباق مع عُرج وكُسْحٍ وغُفي، ولم يكن في سباقٍ إلا مَع الموت!

وجدنا مساحة كمفحص قِطاة. "هنا؟". سألت. ردّ: "لا يوجد هنا. ولكنني سأقول هنا على أية حال". "أنا مُضِغ". "بأية حكاية أبدأ؟". "بأية حكاية". "بالقاسي أم الأقسى؟". "هل يحدث ذلك فرقًا". "لا" ثم استدرك: "رُبما". "رُبما؟!". "لو تحدثت بالأقسى قد أرتاح". "كيف يكون ذلك؟". "الأقسى يُسرِّع خروج الروح من جسدي. القاسي سيُبقى عليها بضعة أيام أخرى". "هل تريد أن تموت؟!". ضحك: "أنت؟ تريد أن تعيش؟!".

سمِعنا جَلْبَةً. نظرنا ناحية الصوت، كان صادرًا من الأرضية الإسمنتية التي تناولنا فيها خُبزنا الأخير قبل رُبع ساعة. كان الضابط

يصرّح: "هَيَّا. قوموا من هنا". تحرّك من استطاع الحركة، وزحف مَنْ
قدر على الزحف، وجزّوا مَنْ لا يستطيع، ثم صرّخ الضابط: "أريد أن
أقول لكم شيئًا". سألت (عارف): "هل اليوم هو السبت أو الأحد؟".
جهّد في أن يتذكّر اليوم الذي نحن فيه، ثم عجز: "لا أدري. لم أعد
أميز بين الأيام"، ساعذثني على التذكّر، ثم هتفت: "لا إنه ليس
كذلك، اليوم هو الأربعاء على الأرجح". "وما الفرق أيّها الفيلسوف؟".
"فرق كبير. إذا لم يكن يومَ سبت أو أحد فهو ليس موعد خطابات
الرّعيم. فلماذا يريد أن يخطب في يوم كهذا؟!". حاول أن يبتسم مع
أنه أراد أن يلعنني: "وهل يُمكن أن تُحدّد للرّعيم خطاباته؟! الرّعيم
أراد أن يقول فما الذي يمنعه؟ أنت؟!" ثم ضحك ضحكة بالكاد
كانت مسموعة، وتابع: "إنه يفعل ما يريد، أم تريد منه أن يستأذّنك
في اليوم الذي يشتهي فيه أن يخطب؟! الرّعيم يخطب متى شاء،
يتفلسف متى أراد، يقتل حيث شاء، ويسحل، وينحر، ويضحك،
ويبكي متى شاء أيّها الأحق، إنه لا يُسأل عما يفعل!."

كان الضابط الأعلى قد بدأ يقول: "عَنْ بِبالي اليوم أن أكسر الرّتابة
التي تُعاني منها معًا. ألسنا في هذا الهمّ سواء؟! لقد تعبث من الجري
في الحلقات المُفرغة، وملث من صوت الزرد في الأيدي والأرجل،
ولم يعد يُثيرني صوت دقات الدّم من الأعناق، هذا كلّه قديم يحتاج
إلى تجديد. اليوم أنا أريد أن..." وقبل أن نسمع ما يريده التفت إلى
(عارف): "نحن لسنا معنيين بما يُريد. لدينا ما نريده نحن". "يعني؟!".
"أريد أن أسمع أولى حكاياتك في معسكر (لوكا). وليذهب الرّعيم
إلى الجحيم". "هههه. نحن الذين سنذهب إلى الجحيم يا صديقي".
غضبت: "إذا فلنذهب إلى الجحيم معًا، ولكن برفقة إحدى حكاياتك."

هَيَّا."

(27)

(الشافا) بدلاً من (درينا)!

أتيث من معسكر (لوكا) إلى هنا منذ أكثر من عام. لا أدري إن كان لا يزال قائماً أم أنهم غرقوه بالدم ثم غسلوه بالماء. كان الماء كثيراً في أيامنا ولكنه كان مُراً ومالحاً؛ أغلب الظن أنه لم يستمر أكثر من عام ثم هدموه، كان عامًا خارج الزمان والمكان، الفظائع التي حدثت فيه تفوق الفظائع التي حدثت في مئة معسكر آخر مُجمّعين. قال (عارف).

كان المعسكر عبارة عن مصنع مهجور، بدا لي كذلك، فُرغث منه آلاته، أو أنه كان (هنجر) لضع مُعدات حديدية. وهو على أية حال ليس كبيراً ولا صغيراً، هو بحجم إحدى هاتين الحظيرتين اللتين نعيش فيهما. كانت ميزته التي جعلته مكاناً مثاليًا للسادية في التعذيب أنه كان مُنشأً على أرض معزولة قرب النهر، مما سهّل عمليات الإخفاء والسحق دون أدنى مُساءلة. ميزته الثانية أنه كان فيه عددٌ من الحراس يفوق عددهم الخمسين أو الستين حارساً، ولم يكن المعسكر بحاجة إلى أكثر من عشرة لحراسته وإشاعة الدُعر فيه، وكان هؤلاء الخمسون أو الستون يُشهِرون أسلحتهم دائماً إلى رؤوسنا، ويسحبون الأقسام، ويُطلقون الرصاص في الهواء من أجل التسلية أولاً، ثم من أجل بثّ الرعب فينا ثانيًا. ومع هذا لم يكن شيء يمنعهم من أن يُفرّغوا الرصاص في أجسادنا بدلاً من إطلاقها في الهواء، ولذا كان من المُمكن أن يقتل واحدٌ من الحرس عشرةً مِنّا بِصُلبة من رشاشه دون إبداء أي سبب. وكُنّا نغرق في الدماء دائماً.

كُنَّا ضِيوفًا دَائِمِينَ فِي حَضْرَةِ الْمَوْتِ، أَلْفَ مَعْتَقِلٍ عَلَى الْأَقْلَ فِي (هَنْجِي) وَاحِدٍ، كُنَّا مَوْتَى عَلَى الدَّوَامِ، الرِّشَاشَاتُ مُصَوَّبَةٌ إِلَى رُؤُوسِنَا وَصَدُورِنَا عَلَى مَدَارِ السَّاعَةِ، كَانَ قَائِدُ الْمَعْسَكِرِ (غُورَان) يَأْمُرُ حَرَسَهُ بِأَنْ يَبْقُوا عَلَى أَهْبَةِ الِاسْتِعْدَادِ لِإِطْلَاقِ الرِّصَاصِ بِمُنَاسِبَةٍ أَوْ دُونَ مُنَاسِبَةٍ، وَكَانَ جَزَازًا قَادِمًا مِنَ الْقُرُونِ الْوُسْطَى، لَا يَنْتَمِي إِلَى هَذَا الْقَرْنِ الْعَشْرِينَ الَّذِي يُوشِكُ عَلَى الْإِنْتِهَاءِ، وَلَا إِلَى الْبَشَرِ، أَيِّ نَوْعٍ كَانَ مِنَ الْبَشَرِ؟! كَانَ يُسْقَى (الضَّرْبِي أَدُولْف)، إِشَارَةً إِلَى طَرِيقِ الْإِعْدَامِ الَّتِي انْتَهَجَهَا، وَشَجَعَ عَلَيْهَا، وَاخْتَرَعَهَا، وَكَانَ الْقَتْلُ بِالْغَازَاتِ يَبْدُو رَحِيمًا بِالْقِيَاسِ إِلَى أَنْوَاعِ الْقَتْلِ الْآخَرَى، وَإِذَا أَرَدْتُ أَنْ أَقَارِنَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ (غُلِيغُور) قَائِدِ مَعْسَكِرِنَا هَذَا، فَسَيَبْدُو (غُلِيغُور) هَذَا حَقْلًا وَدِيمًا. إِنَّ الْمَقَارَنَةَ بَيْنَ الْأُبَالَسَةِ الصَّغَارِ وَبَيْنَ إِبْلِيسِ الْأَوَّلِ تَبْدُو ظَالِمَةً!

كَانَ (غُورَان) يَأْمُرُ الْحَرَسَ بِأَخْذِ عَشْرِينَ وَاحِدًا مِّنَّا، يَخْتَارُهُمْ عَشَوَائِيًّا، وَيَمْضِي بِهِمْ إِلَى نَهْرِ (سَافَا)، كَانَ الْمَكَانُ مَعزُولًا تَمَاقًا، وَلَمْ يَكُنْ يَرَى مَا يَحْدُثُ أَحَدًا، كَانَتْ عَيْنُ اللَّهِ الَّتِي لَا تَنَامُ هِيَ الَّتِي تَرَانَا وَحْدَهَا، بِالإِضَافَةِ إِلَى عَيُونِ الْأُبَالَسَةِ الَّذِينَ يُرَاقِبُونَ مَا يَحْدُثُ بِمَزِيدٍ مِنَ الْإِثَارَةِ كَأَنَّهُمْ يَعِيشُونَ احْتِفَالًا. كَانَ الْقَائِدُ يَشْتَرِطُ أَنْ يَوْضَعَ الرَّأْسَ عَلَى حَجَرٍ، وَيَطْلُبُ مِنَ الْفُوكُلِ بِالذَّبْحِ أَنْ يُشَدِّخَ بِصَخْرَةٍ، فَإِنْ فَقَدَ الْوَعْيَ أَوْ سَالَ دِمَاغُهُ وَإِلَّا فَإِنَّ السَّكِينِ تَشَقُّ حَلَقَهُ، وَيُصَفَّى دَمُهُ عَلَى الْحَجَرِ، ثُمَّ يُلْقَى فِي نَهْرِ (سَافَا). النَّاسُ تَتَحَدَّثُ عَنِ الَّذِينَ رُمُوا فِي نَهْرِ (دَرِينَا)، وَيَقُولُونَ إِنَّهُمْ بِالْآلَافِ، وَلَكِنَّهُمْ لَا يَتَحَدَّثُونَ عَنِ الَّذِينَ أُلْقُوا فِي نَهْرِ (سَافَا)، وَهُمْ أَكْثَرُ مِنْهُمْ!

قَتَلَ (غُورَان) فِي أَقْلٍ مِنْ سِتَّةِ أَشْهُرٍ أَكْثَرَ مِنْ أَلْفٍ، كَانَ الْمَعْسَكِرُ

يُرفَد على الدوام بالمُعْتَقِلِينَ الجُذْد، استقرَ فيه في هذه الفترة القصيرة الآلاف، واستمرَّ فيهم القتل إلى أن أُغْلِقَ كما سمعَ من أحدِ النَّاجِينَ. قَبْلَ أنْ يَقتُلُوهم كانوا يُعزّونهم، لا لكي يسرقوا ملابسهم، وإنْ كان بعضُ الحرس من اللُّؤماء يفعلون ذلك، ولكن من أجل أن تهتدي أسنانُ الأسماك إلى لحومهم بسرعة، وكانوا يقولون وهم يرمون جثثنا المذبوحة: "هذا طَعامٌ جيّد للأسماك. اليوم ستشبع".

وكانت عنده لعبة السكاكين، يَشنُّ في الليل مئةَ سَكِين، ويقول للجنود: "لدينا مهمة مُقدّسة غداً". وقَبْلَ أنْ تُشرقَ الشمس، يضرب هو وجنوده النَّائِمِينَ على بطونهم: "هَيَّا استيقظوا". وكان علينا أنْ نَقفَ على أقدامنا في الحال، وأنْ نخلعَ ملابسنا بالكامل فوراً، وإلاّ فإنّها رصاصةٌ واحدة لا أكثر تُنهي حياتنا على الفور، وكان انتِظار ما سيحدث أكثرَ فظاعةً من الموتِ بالرّصاصة اليَتِيمة، ورؤية بُقعة الدّم تُتسّع حول جسد الضّحية، إذ كانوا ينتشرون اثنين اثنين، أحدهم يُصوّب الرّشاش على جسد الضّحية من الخلف يأمرها: "لا تتحرّك، وإلا..."، وأحياناً يقومون بتكبيّلهم، والثاني يقوم بجذع أنفه، تخيل، يقطعون الأنف، ويتركون الدّم يسيل، ثمّ ينتقلون إلى آخر، فيقطعون أذنه أو الاثنين معاً، وإلى ثالث فيحفرون الصليب على صدره، وإلى رابع فيقطعون غُضوه الثّناسلي. لقد فعلوا ذلك مع العشرات، وكانوا يجدون في ذلك لذة غريبة، كان أشدنا ألماً ذلك الذي قُطِعَ غُضوه الثّناسلي، كان التّزيف لا يتوقّف، يُلطّخ السّاقين، ويغمر الأرض، وبينَ صدمة الحقيقة والذهشة قد يفقد الضّحية الوعي ويخز ساقِطاً على الأرض، ويبقى ينزف حتّى يموت، ونادراً ما كان المقطوعة أعضاءهم الثّناسليّة يعيشون، وإذا عاشوا كانوا عرضةً للبكتيريا والأمراض

والأوجاع التي لا تتوقف، وكانوا لا يستطيعون الثبؤل، وكنت أسمع الواحد منهم يصرخ: "اقتلوني، لا أريد أن أعيش. أرجوكم. الرحمة. اقتلوني". ولو كان بيدي أن أنهي عذابات هذا الصنف من الضحايا لفعلت.

أما الذين جِذعت أنافهم فقد كانت فظاعة الآلام التي يشعرون بها لا تُحتمل، وكانوا يصرخون بشكل هستيري، وكانت صرّخات الجنود لهم - أن يكفوا عن الصراخ - تذهب شدي، ولم يكن بالإمكان إيقاف سيل الصرّخات إلا بإطلاق صلية من الرصاص في الهواء، أو في جسد الضحية فيتوقف فيه كل شيء وقتئذ. ومن كُتِب له النجاة لم يكن يتلقّى أي نوع من الرعاية الطبيّة، فقد كان هذا ضرباً من الخيال، وكان موضع جِدع أنفه يسيل دائماً، ولم يكن أمامه سوى أن يُوقفه بخرقة مَسْخَة، فتبدأ الأمراض والالتهابات تُهاجمه، ولم تكن نملك ماءً نظيفاً للشرب عوض أن نستخدمه في غسل مكان الجِدع، مجرّد غسله لا تطهيره. وموضع الأنف المجدوع لا يعود صالحاً للتنفّس، فكانت الضحية تعتمد على الفم من أجل ذلك، وكثيراً ما كان يُصاب بالاختناق، ورأيث أحدهم يحشو فمه بالثراب، كان يُريد أن يختنق ويموت، ليتخلص من هذه الآلام التي لا تُحتمل. وكانت العدوى تنتشر في تلك المنطقة، فلا يجد الواحد سبيلاً إلى تخفيف وجعه، فتراه يئن في الليل والنهار، وكان النوم من الوجع وإن كان صعباً إلا أنه كان فترة راحة من هجوم الألم الذي لا يرحم.

أما الذين كانت تُصلّم آذانهم، فكانوا يشعرون بوخزة حارقة في ذلك الموضع، ويُصابون بالهلع وهم يرون آذانهم تستقر بين أقدامهم، وكانوا يُغظون موضعها المجدوع بأكفهم وغُيُونهم تنضخ بالخوف،

وكانوا يفقدون السمع تدريجيًا، وبعضهم كان يرى تلك نعمة، فقد تخلصوا إلى حد ما من سماع صرخات الحرس وشتائمهم البذيئة، أو تخلصوا من صرخات الألم الذابح لإخوانهم وهم يُعذبون.

أتعرف يا (حارث)؟ أتريد أن ترى قطيعًا من البائسين يسرون بلا أناف ولا آذان ولا عيون، كان عليك أن تعيش في معسكرنا نجاك الله منه. نحن هنا في نعمة. أليست المقارنة دائمًا فاسدة وظالمة؟!

لم يكن الألم لينتهي مع الزمن، لقد قالوا إن الآلام إذا مز عليها زمن ما تخف وتُتسى، كان هذا صالحًا خارج معسكرات الجحيم التي نحياها، أما في معسكر (لوكا)، فإن مجرد لمس الأنف المجدوع أو الأذن المصلومة كان يُسبب ألما يُذكر بالألم الأول، وكانت أكره ألما كلما اشتد البرد، ولم يكن شيء ليعزي الضحايا عن قدر بسيط من أوجاعهم. أبدًا يا حارث أبدًا!!

أتريدني أن أحدثك أكره يا حارث؟! الحكايا لا تنتهي. تقول: ربّما يأتي المؤرخون أو الأدباء ليحفظوا للأجيال القادمة ما كان يحدث لنا من فظائع، ولكن أي فصل من التاريخ أو صفحة من رواية سيكون خائنًا للحقيقة، إن كل أقلام المؤرخين، وكل بلاغات الزوائيين لن تنقل عُشر معشار ما يحدث لنا. تقول: نحن سنروي هذا كله لأبنائنا ثم لأحفادنا؟ كذبت وكذبنا، نحن سنموث هنا قبل أن نكون قادرين على أن نقول حرفًا واحدًا. فلنمُث يا عزيزي، يكفي أن نكون قادرين على رواية هذا أمام الله يوم يقوم الناس لرب العالمين.

كان معنا في المعسكر أستاذ جامعي، بدت له أيام محاضراته

وإصغاء الناس إليه، وتلقّي دروسه في الجامعة خلُقًا غابِرًا، كان يجلس وحده ويبيكي بصمت، ولم أكن قَادِرًا على أن أخفّف عنه، أعرف كيف يمكن لعزیز القوم أن يُذلّ بهذه الطّريقة، كان يُضرب بالهراوات الثّقيلة حتّى يسقط مَغشّيًا عليه، وكان إذا استيقظ مسح وجهه، ومَسَد على ذَقْنِه، وبدأ بالبكاء الضّامت، وهو يهذي باسم ابنته على ما يبدو!

كان في المُعسكر حلبةٌ أُعِدّت لتسليّة الجنود. هل تريذ أن تتخيّل نوع التّسليّة يا حارث؟! أشك في أنّك رأيتهَا من قبل أو أنّ عقلك قَادِرٌ على تخيلها! كانتِ الحلبةُ أرضًا مُربّعة، بطول عشرة أمتار وعرَض خمسة، أقاموها في زاوية المُعسكر، وكانت مُحاطة بسياج حديدي، كانوا يُجوّعون كلابًا مُفترسة لآيام، ويومَ العرض، يُدخلون إلى الحلبة عشرةً مِنّا غِراءَ تماّمًا، ومُكبّلةً أيديهم خلف ظهورهم، ومُقيّدةً أرجلهم بقيد قصيرٍ لا يسمح لهم بالركض، ثمّ في لحظة صمتٍ لا يقطعها إلّا خرير نهر (سافا) القريب من نوافذ المُعسكر، في تلك اللّحظة من الضّمت الزّهيب يُطلقون عليهم الكلاب الجائعة المسعورة، يبدأ الحفل المحموم، يضجّ المُعسكر بضراخ الضّحايا، تهجم الكلاب على الأجساد، تنهش، تمزّق، تقضم، تشرب الدّم، تلوّك اللّحم المُنتزع، وتنطلق ضّحكات مُتشقّية مريضة من الحرس، (غوران) يصيح وهو يُلوّح بقبضته في الهواء: "هَيَا ارقصوا أيّها الشّياطين، ألا تريدون أن تُحرّروا بلادكم، أنتم لا تصمدون أمام الكلاب حتّى تصمدوا أمامنا"، يتواصل الضّراخ والفزع، تتحوّل الأرض بدم الضّحايا إلى طين، تسقط الأجساد، تواصل الكلاب النّهش، ثمّ يصرخ القائد: "كفّ لهذا اليوم". يسحبون الكلاب، لم ينج

إلا اثنان، كانت أنفاسهم المُتقطّعة تتردّد في صدورهم الغارقة في الدماء، يُطلق عليهما الرّصاص، فتخفّد الأنفاس بشكلٍ نهائيّ.

وصفّت (عارف). ووقفّ على قدّميّه، وراح يصرخ، فسارّغت إلى الوقوفِ مقلّه، وغطّيت فمه بكلتا يديّ: "يا مجنون، تريد أن تقتلنا؟". رأيت عينيّه تدوران بسرعة، وأنفاسه تتلاحق، ثمّ ناستا كأنّهما مصباح في ذبالتّه الأخيرة يكاذ أن ينطفئ، ثمّ سقط!

ذئبة السافا

كنت أظن أنني رأيت ما يكفي من الموت، وسمعت ما زاد عن الحد كثيرًا، غير أن الأيام كانت تقول لي: ما زال في الجعبة الكثير! كل البشر يموتون فجأة، يأتيهم الموت على غير ميعاد، إذا رأوه فلمرة واحدة هي الأولى والأخيرة، أما نحن هنا في هذه المعسكرات، فيهجم علينا في اليوم ألف مرة، نتوقعه، نسمعه، نراه، ولا يغير ذلك من الأمر شيئًا، كان يتهيأ في ضوره المتعددة في اليوم ألف مرة، وتغوض سكينه في أجساد الضحايا في اليوم ألف مرة، كان الموت هو القاعدة، والحياة هي الاستثناء!

"يا (عارف) ماذا لديك مما لم تقل؟". "لم أقل إلا حسو الظائر من البحر يا حارث". "أرأيت؟". "كلنا رأى". "فحدثني بما لم أر". "إنك جائع للكلام". "أنا جائع للسمع". "كيف وفيما تسمع الموت؟!". "أهرب منه بسمع قصصه، أتسلى به عنه، أداريه بالالتفاف حوله، أرقص حول ناره المقدسة قبل أن أحترق بها". "أنت مريض". "أنت السليم؟!".

كان الضعق في معسكر (لوكا) يا (حارث) أمرًا معتادًا. يا رب اغفر لي زلة لساني، كيف يكون معتادًا؟ لعنة الله على الأوهام، رأيت من اعتاد صفقه بالكهرباء؟! هذا في الخيال، أمر لا يمكن أن يفهم، رأيت من وزعوا في جسده نصف كهرباء الشمال؟! ونصف أقطاب الماء؟! إنني أرتجف لمجرد أن أتذكر كيف كانوا يفعلون ذلك، الأمر مؤلم بمجرد أن تدخل العتبة الأولى لتخيّل العملية؛ كانوا يأتون

بخمسة غراة، يُوقفونهم على براميل مقصوفة نصفية، ثم يُكبلون اليدين خلف الظهر، ثم يُوصلون جسد المصعوق بِقُطْبَيْن مَعْدَنِيَيْن، وأَسْلَاكُهَا بِمَصْدَر الكهرباء، ومقبض التّشغيل والتّحكم بشدة الكهرباء، يبدأ (غوران) برفع جهد الكهرباء، عشرة أمبير، يسري الخدر في الجسد، يرفعه إلى عشرين، يرتجف الجسد، يرفعه إلى ثلاثين يهتز ويضطرب ويرتعش ويبدأ بالصراخ، يرفعه أكثر وهو يُقهِقُه: "لنرَ كم تحتل أيها الجسد البوسني الحقيق". يرفع الأمير إلى خمسين، فتقلص العضلات وتنقبض بشدة، والصّحية تصرخ، ثم يرفعه أكثر إلى سبعين، ويزداد (غوران) حماسةً: "هَيَا... هَيَا... لنرَ شدة التّحمّل". تبدأ رائحة الشّواط، ينتشر دُخانٌ خفيف، لقد احترق جزء من الرأس، يزيده ذلك حماسةً، يرفع الأمير إلى ثمانين، ثم إلى تسعين: "أريدُ لهذا الجسد المسكين أن يحترق بالكامل"، وعند الأمير مئة وعشرين تخزّ الصّحية على وجهها وهي تحترق. ثم يصرخ القائد: "جروا الكلب من هنا، وهاتوا الذي بعده". يُوصلون هذه المَرّة القُطْبَيْن، بالقلب، لا يحتمل الصّحية كثيرًا، يسقط بعد بضع دقائق، يأتون بالصّحية الثّالثة، يُوصلون القُطْبَيْن بعضوه الثّناسلي، يتحمّس (غوران) أكثر هذه المَرّة، "إنّه ليس كبيرًا بما يكفي ليحتمل خمس دقائق" يقول وهو يغمز أحد مُعاونيه. يتسم ابتسامة لا تُبين من خلفها أسنانه الذّبيّة: "التّجربة برهان". يبدؤون حفلتهم، اهتزاز، ارتجاف، ارتعاش، ارتعاد، اقشعرار،... وسط صرخات لا تتوقف، ثم سقوط. جزوا الجُثة. تأخّر إصعاذ الصّحية الأخير، سأل غوران: "والصّحية الخامسة؟". ردّ المُعاون: "ألا تريدُ أن تأكل يا سيّدي قبل أن تُتايّع؟". "اقتراح في مكانه. ربّما سيُحسّن الأكل شيئًا من مزاجنا

لنتابع هذه الحفلة المُمتعة".

نجا بعض الضحايا من حفلات الضعق الكهربائي، ولكن بندوق لا تُشفى. كانت لديهم حروق دائمة، وكانوا لا يقوون على السير لضعف عضلاتهم، والأنكى من ذلك أنهم كانوا يشعرون بالخزي، خاصة أولئك الذين ضيعوا في أعضائهم التناسليّة، وكانوا لا ينظرون في وجوهنا، بل ينظرون في الأرض أو في الفراغ، وإذا خلّوا إلى أنفسهم بَكَوا بُكاء صامتًا مريزًا.

"هل اكتفيت من الحكايات يا حارث؟! إنها لا تروى، بل تُنزَف، أتريد أن تقتلنا بهذا؟!". "كلّا يا عارف، الحكايات التي تروى تُرَمَّم، تُعالج، تُشفى، وتُحْفَظ على نسيان الألم". "إنها تزيد الألم بالنسبة لي، أنا اكتفيت". "بل أريد حكايةً أخرى". "لم أعد قادرًا على أن أروي. ربّما غدًا أو بعدّه أو في الأسبوع المقبل". "حكاية واحدة يا عارف فقط" وأشرت إلى عينه المقلوعة. وانتبه هو وابتسم: "تقصد حكاية العين الجوفاء هذه؟". "نعم". "لقد فعلتها سيّدة المذبح". "سيّدة المذبح؟!". "كنا نُطَلِّقُ عليها هذا اللقب، وقد حظيت بألقابٍ أخرى، مثل شيطانة الدّم، وذئبة السّافا". "ما حكايتها؟". "إنها أغرب حكاية في هذا النهر الممتدّ من الحكايا". "أنا مُصغ".

"أولغا"، هذا اسمها، وتعني المُقدّسة، ولقد كانت بالفعل مُقدّسة بشكلٍ غريب، وَضَحِك. كانت فائقة الجمال، عيناها واسعتان، وكانت دائمة التّكخُل، وكان الكُخْل يزيّد من اتّساع عينيها وعمقهما معًا، وشعرها الخروبى ينسدل بنعومة على أكتافها، وبعض خصلات غزتها تُغطّي شيئًا من عينيها الذابّحتين، وكانت لها شفاه مُمتلئة قليلاً

تستخدم لهما اللون القرمزي، وكانت أصابع كفيها بيضاء طويلة كأنها من الزخام. وكانت الابتسامة لا تفارق شفثيها، وكل صفاتها الجسدية الأنثوية الرقيقة لا تكشف عن طبيعتها المتوحشة البتة.

كانت مومسة في العشرينات من عمرها، أو بالأحرى ابنة لمومسة. أمها نامت مع رجال كثيرين، ولا أدري إذا كان تؤثر علاقتها مع أمها سببه كثرة الرجال الذين تسمع نخيرهم في الغرفة المجاورة، أم جسد أمها الذي كان سوقًا مفتوحة ومشاعًا لكل أحد؟!

كانت تتبع القيادة مباشرة. وكان لها سلطة تنافس سلطة (غوران) إن لم تزد عليها. وابتدعت أساليب في التعذيب لا تخطر على بال الشيطان في الجحيم السابع لطبقات الأرض. وكان الذهول يُصيبنا من جهتين: أن تكون امرأة قادرة على التعذيب على هذا النحو من جهة، وأن تكون جميلة المنظر رقيقة الصوت أنثوية الملامح من جهة أخرى وتفعل ما لا يفعله أحد!

كانت تجمع زجاجات الخمر الفارغة، وتكسرهما لتحصل على أطراف حادة، ثم تُمسك الزجاجات المكسورة من عنقها وتبدأ حفلتها. تضرب بقوة لا تناسب طبيعتها وبشكل عمودي بهذه الأطراف الحادة البطن العاري، فينز الدم بسرعة في خطوط، ثم تواصل الضرب ثانية، وثالثة في أنحاء الجسد حتى يخز الجسد، ثم تأمر أحد الحرس بأن يُصفي لها دم أحدنا، وتخلط الدم في زجاجة نبيذ، وتقول: "لونان مصدرهما واحد"، وتشربها!!

كانت فتانة في كسر الزجاجات، وفي اختيار الضحايا، ذات مرة طلبت سيكينا، جاءها الحارس به، جزبته على طرف إبهامها، ثم رمته

في وجه الحارس: "لا ينفع. هاتِ غيره"، وهكذا حتى استقرت على السكين الزايع: "هذا جيد"، وجلبت عددًا منًا، وطلبت تكبيلاهم، ثم هتفت: "بمن نبدأ؟". فلم يُجبها أحدٌ، فضجكت ضحكة فاجرة، ثم قطعت ضحكتها لتصرخ: "أروني أعضاءكم أيها الذكور المغرورون". ثم راحت تفحص الأعضاء الثناسلية بيديها، وتضحك بين الحين والآخر ضحكات بذية، وتطلق النكات، ثم قطعت بالسكين الأعضاء الثناسلية لأربعة منًا، ثم استرحمها الخامس، فأشارت إلى الحارس أن يرميه بالزصاص، فأرداه على الفور قتيلاً، وكان ذلك رحمة له بالفعل.

كانت تأمر بعضنا أن يرتكب الفاحشة مع واحدٍ آخر، وكانت تجلس على كرسي فارجة إحدى ساقيها عن الأخرى قليلاً، نافثة دُخان سجائرهما وهي تتحسس صدرها وفزجها وتتأوه، كان لديها شيء من هذا الجنون كل يومين أو ثلاثة. وكان الحرس يُمازحونها بكلمات جنسية، وهي تضحك وتتغنج.

وكان الشجناء لا يحلمون بالكوابيس في الليل من الرعب بأكثر منها، وكانت إذا أطلت من الباب صمت المعتقلون كلهم، وتوقعوا أنه لن يمز عليهم يومٌ أسوأ من هذا في أيامهم كلها، وكانوا يتهامسون: "جاءت ذئبة الشافا أو رحلت ذئبة الشافا". وإذا كانت في مزاج لا نستطيع التكهّن به فإنها كانت تُجبر بعضنا على أن يزدرد الغائط أو يُلظخ به وجهه بالكامل، وكانت ترقص كأنها في ملهى وتضحك.

أما عيني الفارغة فقد حملت توقعيها، كان ذلك في يوم من الأيام التي اختارني فيها، أمرتني بالتعزي، وصعدت على البرميل النصفي،

وكنث أتوقع أن يُقَطَّع عضوي الذكري أو يُصَعَّق جسدي بالكهرباء،
وجاؤوا بالأقطاب للضعق بالفعل، فأشارت إليهم ألا يفعلوا، فتراجعوا،
وناولها أحدهم السكين، فعرفت أن عضوي مقطوع لا محالة،
وأيقنت أن أيامي معدودة، ولما قامت، وعائنته، ضجكت ضحكة
طويلة ساخرة، وهتفت: "أنزلوه من فوق البرميل". فأنزلوني، وكتبوا
يَدَيَّ خلف ظهري، واقتربت مني حتى كاد وجهها يلامس وجهي،
وشعرث بخصلات شعرها التي تغطي جزءًا من عينيها المكحلَّتين
يدغِغِ حَذِي، وأحسست بأنفاسها الخرى المخلوطة برائحة الدخان
تنفثها في وجهي، ثم... تراجعث إلى الوراء، وضجكت، ثم أرغمثني
أن أجمو على ساقِّي، ففعلث، ثم أن أرفع عنقي باتجاهها ففعلث،
وكادث أن تلف ساقَّيها على وجهي، ثم في اللحظة التي اقتربت
فيها حتى لاصق ذلك العضو وجهي، رجعت وهي تضحك وتتميم
وتنفث رأسها، ثم أمرث أحد الخزاس بأن يُعَبِّث رأسي على وضعيَّته
المشدودة إلى الوراء قليلاً، ثم بدأت لعَبَّتْها التي تعشقها، قزبت
السكين من وجهي، ثم التقت عينانا فابتسمث، وهتفت: "أحببك،
ومن أجل ذلك لن أجعلك تتعذب طويلاً، سيستغرق الأمر أقل من
دقيقتين من أجل أن أفعل هذا الشيء". ثم دون أن تنتظر بعدها،
غاصت السكين في محجر عيني اليسرى، وشقت صرختي الفضاء
من الألم وهي تضحك، ثم غاصت أكثر، ثم زاد زعْب صرختي،
ثم أدارت السكين بالاتجاه الأفقي، ثم اقتعلت العين، كانت بعض
الأعصاب الزفيعة لا تزال تتعلق بالمحجر، فقطعَها بأسنانها، ثم
أمسكت عيني المقلوعة بيمنها، وأعظَها للحارس: "ضعها في
محلول يحفظها. ربما يوماً ما يحتاجها ليري أكثر مما رأى. تكفيه الآن

عينٌ واحدة".

وسَكَتَ (عارف)، ودمعت عينه الباقية حُزنًا على تلك الرَّاحلة،
وهتف: "ألا يكفي يا حارث؟". وضممته إلى صدره، وأراحَ هو رأسه
هناك، وزحنا نبكي معًا.

(29)

استيقظ يا عارف!

الأيام لا تعباً بنا ولا بجراحنا. مجنون. ما علاقة الأيام، ما شأنها بما نحن فيه؟! إنها لا تقدم شيئاً ولا تؤخر، ولا تحرك الأحداث ولا توقفها، ولا تجلب الشر ولا تدفع الخير، الذي يفعل هذا كله هم البشر، فلم نلقي باللائمة على الأيام؟!

خطب الزعيم (غليغور) كأنما قرأ ما يخطر في بالنا: "الأيام تتشابه، وهي سواء، تقولون إننا في كل يوم نذبح منكم عشرة أو عشرين أو مئة، وتلعنون ذلك اليوم الذي حدث فيه ذلك الذبح، مسكينة هي الأيام إنها لا علاقة لها بأي شيء. ومسكينون نحن، إننا نعاني مثلكم إن لم يكن أكثر، إن اجترح الموت مثل اجترح المعجزات، أتظنون أن إقدامنا على الذبح أو القتل أمر سهل، إنه مؤلم لنا ولكم، ولكنه لنا أكثر، نحن نعيش مع ذكرى المذبوحين، أما هم فقد ارتاحوا، فلا تلعنوا الأيام، والعنوا أنفسكم إذ ألجأتمونا إلى ذلك، وإذا أردتم لغتنا فدرجة أقل، فنحن الحلقة الأضعف في دائرة الموت لو تعلمون".

(عارف) حالة عجيبة في كل شيء، في صبره، في لا مبالته أحياناً، في هيئته بعين واحدة، كان يرى بعينه القطفاة مثل تلك السليمة، سبقته عينه اليسرى إلى الجنة كما كان يقول. لا أزال أرى نعم الله بواحدة. أسأله عن النعم وسط هذا الجحيم؟! فيرد: "أنني أتحدث إليك. إنها نعمة عظيمة يا صديقي. أتريدنا أن ننسى الكلام؟!".

في يوم من أيام البرد التي لا ترحم في أواخر عام 1993م، أراد (غليغور) أن يلهو. أوقد النار في إحدى الزوايا وجعلها خلف ظهره، ثم انتقى عشرة، كان (عارف) منهم. خفق قلبي بشدة، هل سأفقده؟ إنَّ الفقد هو عنوان كلِّ مراحل حياتي، ولكن أن أفقد مَنْ أعطاني من خلال الحكايا بصيص أمل، فهذا يعني أنني لن أحتمل مرارة الحياة من بعد. صَفَّ العشرة بشكلٍ عرَضِيٍّ، وأمرهم جميعًا أن يخلعوا كلَّ ما يستر أجسادهم النحيلة، وارتعشت تلك الأجساد من شدة البرد، وكانوا ينظرون إلى النار المُوقَّدة خلف الرُّعِيم، فيأملون ويرتعبون معًا، يأملون بالدَّفء، ويرتعبون أن يُلْقَوْا فيها كما يُلْقَى الحطب، إنَّ موثًا بالحرق سيُشكِّل عددًا كبيرًا من المَوْتات المُتتالية، خاطب (عارف) نفسه: "أليست لديكم رصاصة لا تريدونها؟! فزغوها في رأسي، أريد أن أموت دفعةً واحدة".

طاف القائد وهو ينظر في أعضائهم الثَّناسليَّة، ويستهنئ بها بالفاظ بذينة، ثم أرجع قَدَمَه ببساطاره الثَّقيل إلى أقصى ما يستطيع وركل تلك الأعضاء بأقصى ما يستطيع، لم يحتمل الواحد منهم إلاَّ ضربةً واحدةً ليسقط وهو يتكور على نفسه ويتلوَّى من شدة الألم، ويتقيأ ما في بطنه من مخاط. ثم جاءه أحد الجنود وهمس في أذنه بشيء، فصق بيديه: يكفي لهذا اليوم". وغادر.

ظنَّ المضروبون أنهم نجوا، كانت الضربة أشدَّ ألماً للواحدٍ ممَّا لو خفَّر الصليب على صدره، كان يشعر بالألم حادَّ في ذلك الموضع، وكلَّما أراد أن يتبول زاد الألم، وكان لشدَّته يمنعه من التَّوَم، ويُلجِّئه إلى أن يكرَّ على أسنانه، ويُفرِّغ بعضه في آهات طويلة مكتومة.

بعد أسبوعٍ من تلك الحادثة، صارَ (عارف) لا يقوى على الوقوف طويلاً، وكان يتحامل على نفسه، ولكنَّ الألم كان أكبرَ من طاقته، ثمَّ بدأت تلك المنطقة تلتهب، وانتشرت فيها الثَّقرُحات والثَّقِيَّحات، وصارتِ المنطقة تنز دماً أسود، وإذا تجفد زادَ من مستوى الألم، وصار لا يمشي إلا وهو يحكُّها، أو يضع يده عليها ويضغط هناك ظاناً بأن ذلك قد يُخفِّف الألم.

"أنا تائه يا حارث. أشعر بالذلِّ والعار، لا يُمكن أن يمحوه أيُّ عزاء، ليتني أُموت اليوم قبلَ غدٍ. أنا ملعونٌ يا حارث!". "لا تقل ذلك، أنتَ أظهزنا، وأجملنا، وأكثرنا صبراً". "لم يعد مجالٌ للصبر، نحنُ بشر. إنَّ الله لا يُكلف نفساً فوقَ وسعها ولا فوقَ ما آتاها. واحسرتاه على الأيام التي لم يكن فيها للوحوش وجود. كنَّا نعيش يا أخي بسلام. أتريدني أن أسأل السؤال الكافر الذي لا جواب له: ما الذي حَدَثَ حتَّى صارَ الحالُ إلى ما صار إليه؟ كلاً يا حارث. نحنُ نموتُ بالمَجان، بل أقلَّ من ذلك، المَجان سيكون مقابلًا كريماً لموتنا، نحنُ عدم، فناء جاءَ من هناك ليعودَ إليه". احتضنَّه محاولاً التَّخفيف عنه: "سنبقى معاً. لن أسمح للموت أن يأخذك". "لا.. لا... أريدُ للموت أن يأخذني. أنا لا أحتمل النَّظر في أيامي الباقية التي كُتِبَتْ لي". "غداً تنتهي الحرب، وتعودُ إلى أهلك، وتستعيد كلَّ ما هو جميل". "لن تنتهي الحرب يا حارث، ولن أعودَ لأهلي إلا جُفَّة هامدة. أستغفر الله. لن أعودَ إليهم حتَّى جُفَّة. هل أنا مُتفائلٌ أكثرِ ممَّا ينبغي حتَّى يعرفَ أهلي جُفَّتِي. إنَّ لي زوجةً يا حارث. ولي ابنةٌ لها من العمر سنةٌ واحدة، وحينَ ساقوني إلى هذه المُعسكرات كانوا في القرية التي التهمثها الثيران، لا أدري ما حدثَ معهم، ولكنني بقدر الشوق والثوق للحظة واحدة

أراها فيها عندي المقدار نفسه خوفًا من لقائهما. لن أستطيع النظر في وجه زوجتي يا حارث". شذذت على أسناني، وقلت كمن يتحدث: "ستنتهي هذه الحرب. ستنتهي يا صديقي وسنعود إلى وطننا وقرانا وشوارعنا وأهلنا". "لم يبق لنا وطن ولا قري ولا شوارع يا حارث. لقد قتلوا كل شيء". بقيت صامتًا لا أدري ما أقول، وأردف: "تريدني أن أتصالح مع الواقع؟ لا أستطيع. فيا رب السماء، يا رب الحكمة لا أريد أن تجيبني عن سؤالنا الذي لا ينتهي: لماذا؟ كل ما أريده أن تأخذني إلى ملكوتك".

مَرَّتْ عَلَيْنَا اللَّيَالِي وَهِيَ غَابِسَةٌ كَأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ يَكْفِي لَنَا مَوْتُ يَتِيمٍ كَي يُمَرِّقَنَا... كُنَّا نَتَوَقَّعُ إِلَى مَوْتِ رَجِيمٍ غَيْرَ أَنَّ الْمَوْتَ أَجَلْنَا... كَانَتْ لَنَا دَارٌ وَكُنَّا نَحْنُ نَسْكُنُهَا وَتَسْكُنُنَا... قَدْ حَرَقُوا الدَّارَ إِذْ هُمْ حَرَقُوا غَدَنًا... يَا مَوْتُ زُرْ، يَا عَيْشُ مَثْ، يَا لَيْلُ كُنْ لَيْلًا بِلا ضَبْحٍ يُؤْمِلُنَا... إِنَّا نَعْبَتَا وَهَذَا الْمَوْتُ هَذَا الْمَوْجُ يُغْرِقُنَا...

أعطيت (عارف) نصف القطعة التي معي، أكلها بشراهة، كنت أتابعه بعينين دامعتين، أعطيته نصفه، رفض، أقسمت عليه: "أنا لست جائعًا"، قبلها بعد تردد. مسح بعض الفتات عن صدره، وقلت له: "طلبوا مني أن أحفر قبرًا". "هل هناك جثث؟". "ستكون. إنهم يخططون للقتل، ويطلبون حفاري القبور قبل أن يبدؤوا بذلك". "يخفون جريمتهم". "لقد كانوا دائمًا كذلك". "وماذا تريد؟". "أريدك أن تخرج معي للحفر". "أنا لست قويًا بما يكفي". "أنت أقوى مني" رددت مازحًا، ولكزته بطرف كوعي. ابتسم: "من أجلك". "يا حبيبي".

هل تريدون مني أن أصف لكم كيف قتلوا هذه الدفعة من

الضحايا؟ أنثم في غنى عن ذلك. نحن موت مُعاد مكرور؛ فما قيمة أن أقول. المهم مع غروب الشمس حملنا الأرفاش، وخرجنا، كان القبر قريبًا من نهر (سافا)، بضعة أمتارٍ فقط، كانت الأرض سهلة الحفر إلى حد ما، كانت طينية بسبب الظمي، كانت معاولنا تغوض بسهولة في الطين ولكن المشكلة كانت في حمل الكتل خارج الحفرة، بدا التعب واضحًا على وجه (عارف)، مسح العرق مع شدة البرد عن جبينه، وهمس: "متى ستحفر يا حارث قبري؟!". "أخرش" أجبته، وتابع: "لدينا مهمة يجب أن ننجزها قبل أن تنهال الشياطين على ظهورنا" ردّ كأنه لم يسمغني: "إذا مت فلا أريد من حفار قبور سواك أن يحفر قبري، ولي أمنية واحدة". وصمت، ولم أسأله ما هي، ولكنه أردف: "أن أكون وحدي في القبر، لا تُلقيني في قبر جماعي مثل هذا". كان الليل قد هبط، ومن خلال الغيوم بدا القمر يضحك، كان رغيّف خبز ناضج، أو هكذا تخيلنا، وكانت إشراقته تبعث الأمل والدفع معًا، ومرّ الوقت، وازدادت السماء سوادًا وازداد القمر معها بهاءً، في اللحظة التي شارفنا فيها على الانتهاء، ترنح عارف، أراد أن يقول شيئًا، ولكنه سقط قبل أن يقول، ركضت إليه، صرخت به: "عارف... عارف". كان بلا حراك، عيناه كانتا مفتوحتين تنظران إلى السماء، الفارغة تنظر كالسليمة، كأن أعصابه التي قُصمت بشدق ذئبة السافا ظلت مُرتبطة بذلك العالي! كانت أطرافه باردة، هزّزته من كتفه: "عارف... استيقظ يا عارف... قل لي إنك تمزح... لا تمت الآن..."، ولكنه ظل على سقطته الأخيرة، بكيث كما لم أبك من قبل، نحن تاريخ من البكاء المُستمر. جاءني الحارس وهتف بصوت حشن: "لقد مات، ألا تريد أن تُصدق؟! على الأقل وجد قبره جاهزًا". وزحنا نُهيل

الثراب، لقد حققت لك أمنية واحدة من اثنتين يا (عارف) فسامخني،
لقد حفرث قبرك بيدي، ولكنتي لم أتمكن من دفنك في قبرٍ وحدك.
سامحني يا صديقي. وراح جسدي يرتج.

عُدث إلى المُعسكر أجزَ حزناً ثقيلاً صعباً على الاحتمال، عصياً على
النسيان. مَرَّ الليل كأنه أيَّ ليلٍ، لقد قالها الزعيم من قبل: "الأيام لا
تعباً بنا ولا بكم". خلوث في زاويتي، كان لونُ الحياة الباهت خيظاً
من دُخانٍ يُسافِرُ بعيداً. كم ظل من طاقةٍ لأحتمل بعدَ اليوم. رُثت
كلمات (عارف) الأخيرة في ذهني، أتعرف يا صديقي: أنا لست حزيناً
على موتك، كنتَ ستموت على أية حال. كُنا سنموث على أية حال،
أنا حزينٌ على الحكايات التي كنتَ ستقولها لي ولم يترك لك الموت
ولا لي هذه الفرصة. كنتَ أنتظر أن تقول لي إنك رأيت أبي هناك،
أبي الذي كان كلَّ الرجال في نظري، بطلاً كلا أيَّ بطل، ووسيقاً كلا
أيَّ وسامة، وكانَ صوتي إذ لا صوتَ لي، وغدي الذي كنتَ أرسمه
بالظباشير، أنا حزينٌ لأنني كنتَ أنتظر أن تقول لي: إنك رأيته في
مُعسكر (لوكا)، كنتَ سأسألك عن ذلك يا (عارف)، ولكنتُ رحلتُ
قبلَ الأوان، كنتَ أنتظرُ منك قِصصاً مُؤجّلة، أتحينَ وقتَ قِصصها،
كنتَ أريدُك أن تقول: إنهم لم يغتصبوا أختي في معسكر (لوكا)،
إنَّ الوحوش بعناية الله لم تمشها بسوء، إنها تعيش جائعةً وتضربُ
كلَّ يومٍ، وتجزعُ على الحصى والزجاج المُتشظي، ويكسر لها ضلعٌ أو
اثنان أثناء التعذيب، وتبكي في كل لحظة، كنتَ سأقبلُ هذا كله،
ولكن لا تقل لي إنهم اغتصبوها، أرجوك لا يُمكن أن أحتمل فكرةً
أن تُغتصب، مُحال، أنا لم أبرأ من نظرة أُمي الجامدة نحوي وهي
تُغتصب، مَنْ يستطيع أن يتخطى ذلك؟ هل أنت مجنون؟! مَنْ قال

إنَّ الزَّمن طَبِيب؟! كَافِرٌ مَّن يَقول ذلِكَ، أَحمق، جاهل، لم يُجَرِّب
من مُعاناتنا شَيْئًا، يَتفلسف بِحِجَّةِ المنطق والعقل، أَي منطق وأَي
عقلٍ يُمكن أن يُفسِّر ما نحنُ فِيه. الألم لا يُفلسِّف، الألم الَّذي نعيشه
لا يُمكن لِكُلِّ فلاسفة البشر أن يفقهوه، لعنة الله على البشر وعلى
الفلاسفة!!

(30)

لا يُمكن أن نَحْفِرَ الماءَ!

لم يكن بإمكاننا أن نغير شيئًا في مُعسكرات الاعتقال، لا الجوع، ولا الأمراض، ولا أوقات التعذيب، ولا طُلقات الرصاص التي تخرق الجماجم، ولا متى يُقرّر القائد أن يقتل أو يغتصب أو يُعاقب بالحرق أو الضعق، كُنّا بلا إرادة أبدًا، بل إننا لم نكن نملك أن نغير ثيابنا، ولا أن تكون لنا حُرّية في أن نطلب حذاءً ولو مُفزقًا بدلًا من أن تبقى أقدامنا عارية. لم نكن نملك حتّى النّفس الذي يتردّد في صدورنا، كان هذا النّفس مُلغًا لهم، متى شاؤوا نزعوه!

قبل ذلك اليوم المشهود من إبريل في قرיתי الجميلة (فوتشا) لم يكن للألم معنى، ولا لأيّ مظهرٍ من مظاهره، كان كلّ شيءٍ وادعًا يجري مثل ماءٍ صافٍ في نهرٍ عذب، كيف هبّط علينا الجحيم دُفعةً واحدةً فسحقنا؟! وكيف رَكَضَتْ نحونا وحوشُ أسطورية بأفواه عملاقة فابتلعتنا؟! وكيف في غمضة عينٍ احترق هذا كلّهُ؟ أتمنى لو أنني أعرف!!

يظنّ الواحد منا أنّه سيّد نفسه، صاحب قراراته، ثمّ لما تُقرّر الحرب أن تُشمر عن ساقها يكتشف أن كلّ قوانين الحرب تعمل خلاف قانونه الشّخصي، لا شيء لك، أنت مسلوبٌ تمامًا، إرادتك يُمكن أن تنقعه وتُشرب ماءها، وعليك أن تُدرك أنّك نُكْرَة، لا أحد يرثي لك، لا أحد يشعر بك، لا أحد يعرف من أنت، ولا أحد يهتم!!

وجه الحرب صادق، ليس له من الزّتوش شيء، لا يلبس قناعًا، ولا

يهتمّ إذا بدا وجهه صديقاً أو قبيحاً إلى الحدّ الذي لا يُمكن معه النّظر إليه، الحربُ تُعيدُ البشر إلى زمنِ الخلائق الأولى، كانَ عليهم في تلك العصور أن يُقاتِلوا أعداءَ بحجم الدّيناصورات والماموث من أجل أن يبقوا أحياء، وهؤلاء الحُرّاس في هذه المُعسكرات المُنتشرة كالبحور على وجه البوسنة كلّهُ يعتقدون أنّنا تلك الوحوش وأنّهم يجب أن يستخدموا معنا غرائزهم البدائية فيقاتِلون بشراسةٍ من أجل البقاء، وهم لا يدرون أنّ تلك الوحوش ليست موجودةً إلّا في خيالهم.

لو ظلّت الحربُ خارجَ هذه الأسوار لكانت هينة، فليقاتِلِ الضّرب والكروات والبوشناق كما يشاؤون، ليقتل بعضهم بعضاً هناك في الميدان، وليُفَنّوا وجودهم إذا كان هذا يُعجبهم، لكن لماذا تمُدّ الحرب في الجبال وفي الجبهات لِسانها الطويل فتلحسنا؟ نحنُ الذين لا علاقة لنا بها، ولا نريدها، ولم نُشعلها، لماذا بدلاً من أن يهجم المُقاتِلون من طرفٍ ما على المُقاتِلين من طرفٍ آخر، يهجمون على المدنيّين؟ لماذا يسوقون الأبرياء إلى هذه المُعسكرات؟ لماذا تريدون أن تكونوا قبيحين ومجانين إلى هذا الحد؟ أطلقوا الرّصاص على صدور بعضكم بعضاً كما تُحبّون، لكن ما علاقة العصافير التي على الأشجار بهذا؟

هل جرّبتم أن تحملوا صخرة؟ الحزن أثقل من ذلك. هل جرّبتم أن تُزحزحوا جبلاً؟ الهمّ أكبر من ذلك. هل جرّبتم أن تجلبوا سَمَكَةً من المحيط الأطلسي على عمق عشرة كيلومترات من الماء؟ الثّوم أصعب من ذلك. هل جرّبتم أن تمّدوا أصابعكم إلى النّار طوال أيّام فتحترق؟ الشّوق إلى مَنْ تُحبّ أوجع من ذلك.

كُنَّا جميعًا مُرشحين للموت في أية لحظة، ليس الموت تحت الرصاص أو التعذيب، بل الموت يأسًا، كثيرون ماتوا بهذه الطريقة، كانت هناك أداة للتعذيب في المعتقلات غير مرئية ولا محسوسة، ولكنها أصعب من أدوات التعذيب كلها، كانت تلك الأداة هي الأمل، كانوا يُعذبوننا بِفقدانه، ولم تكن الأدوات المادية إلا وسيلة مُمنهجة من أجل أن تفقده، وحين تفقده فإن الموت يُصبح أمرًا شكليًا ومسألة وقت. ولقد رأيت العشرات ممن قَضُوا بهذه الطريقة، وأنا في هذه الحرب التي تدور بيني وبينه أنهزم تارةً وأنتصر أخرى، وما زلت أحاول أن أخرج مُنتصرًا!

كل فوج جديد يدخل إلى المعسكر، كان لديه عملة ألمانية هي (المارك)، وكانت أغلى من الذهب، كان الحُرَّاس يسرقونها منهم أو يُقايضونها برغيف إضافي من الخُبز، وكان ثمن علبة الشجائر تُساوي بالفعل وزنها ذهبًا. ولم يكن الامتياز الذي يحصل عليه المُعتقلون الجُدد يدوم طويلًا، فسرعان ما ينتهي عندما ينتهي (المارك)، وكان الحُرَّاس عِبْدَةَ المال والشجائر.

ها هو عام 1993م يُعطينا ظهره، لم يكن هناك مَنْ يقول لي: يُمكنك أن تضع خشب (البادينياك) في الموقد ليلة الميلاد المجيد، ولا أن تُضيء شمعة، أو تذبح خنزيرًا، فأنا ما زلت أقيع في معسكر (باتكوفيتش)، أنا كلب؟ ليتي كذلك، إن كلابهم تحظى بالذِّفء وبالشُّبع، إنها تأكل أفضل مما نأكل، وتشرب أفضل مما نشرب. ليتني كلبًا! أستغفر الله، لقد كَرَّمَ الله البشر. صحيح. لكن هؤلاء الجزائريين تفتنوا في إذلاله وإهانته؛ أعني إذلالنا نحن وإهانتنا، وإلا فإنهم يتمتعون بكل شيء، وكانوا سُرهين إلى الطعام وإلى الراحة وإلى

الخمير وإلى الرقص والغناء، وكان الواحد منهم مُستعدًا أن يبيع أباه وأمه من أجل (مارك) واحد يشتري به زُجاجة صغيرة من التَّبِيد، أو علبة سجائر.

"هيه أنتِ ذا العصابة الحمراء. اجمع لي عشرةً من الأقوياء أنتِ تعرفُ ما أريد"، قال (غليغور). لا يُمكن أن أجدَ أقوياء إلا في الوافدين الجُدد، أو أولئك الذين كانت لديهم أوراق من المارك الألماني قبل أن يلتحقوا بنا. طُفْتُ أنظر في الوجوه، الوجوه التي كانت تتحاشى النظر إليّ، لأنّها تعرفُ أنّها ستذهبُ إلى نوع من الأعمال الشاقّة، ولكنني كنتُ أتشفّى بشعورهم هذا: "أنا لستُ وحدي الذي عليه أن يتعذّب أكثرَ من الآخرين. نحنُ سواسية كحدّ السّكين". وكنتُ أجدُ لذة نابعةً من طوافي واضعًا ذراعِي خلف ظهري أملكُ القدرة على الاختيار، وأستطيع بإيماءةٍ من رأسي أن أحددَ مَنْ أختار.

قال لي (غليغور) بعدَ أن جمعتُ له العشرة الأقوياء: "الحربُ تشتدّ، إنّنا لا يمكن أن ننتصر دون خنادق، سنحفرها في كلّ مكان، سنحوّل البلاد كلّها إلى خندقٍ كبيرٍ إذا لَزِمَ الأمر، وعلينا أن نحمل إليها الذخيرة من كلّ مكان، إنّ بلادًا كثيرًا من أشقائنا الأوروبيين يدفعون إلينا بالسّلاح، ويمدّوننا بما نحتاجُ إليه من معدّات"، وصَفَتْ دون أن يجرؤ أحدٌ منّا على التّعليق، وأردف: "هل أنتم مُستعدّون؟". فشددتُ جذعي، وضربتُ بكفّي اليسرى ذات الأصابع القلائ على صدري، وهتفت: "تمام الاستعداد يا سيّدي".

أخذونا إلى الجبهة. تلك مُتعة أخرى. أن تخرجَ من القفص، أن

تشمّ هواءً غير هواء الحظائر، أن ترى فضاءً يمتدّ إلى اللانهاية، أن تمرّ بغير وادٍ وماءٍ وسهلٍ وجبلٍ، كلّ ذلك أعادَ إلينا شيئًا من الحياة المفقودة، كنتُ أتابعُ ببصري الجبال البعيدة وأنا ذاهلٌ عما يجري، أشعرُ أن الانفصال عن الألم ولو في الحلم أمرٌ لذيذٌ وممتعٌ.

كانَ علينا أن نحفر خندقًا بطول عشرين مترًا وعمق مترين، ويُهبط إليه بدرجٍ من الجهتين، سلّمونا الأرفاش والمعاول، وبدأنا على الفور، كانت أصوات القذائف تُلعلع في المكان، وكُنّا نسمعُ الانفجارات غير بعيدةٍ عنّا، ولكنّ مهمّتنا كانت تقتضي أن نشعر بأنّ كلّ ما يحدث هو أمرٌ طبيعيٌّ وعاديٌّ. كان البردُ قارسًا، منحونا لباسًا واحدًا هو عبارة عن كنزة صوف، وبنطال من الكتان الثقيل، وتلك نعمةٌ أخرى ممنونٌ بها علينا، ولم يكن من زملائنا في المُعسكر من يتمتّع بها.

جرى الأمر على صعوبته حتّى بدأت الأمطار تهطل، كُنّا قد حفزنا ما يقربُ من ثلاثة أرباع المتر على طول العشرين مترًا، وتولّى كلّ واحدٍ منّا مترين من الطول يُعمل فيهما الحفرُ عمقًا. وكانَ قد مرّ منذُ بذُنّا في الصباح على هذا العمل حوالي أربع ساعات، وبدأ المطرُ يُعيقُ عملنا، ويتجمع في الجزء المحفور، وبدأ الطين، وبدأت الزحاليق، وطلبتُ منهم كوني الفدائي المسؤول عن هذه المجموعة: "ألا يُمكن أن نتوقّف حتّى يتوقّف المطر؟". وجاءتني صفةٌ بكعب البندقية على رأسي كادَتْ تُفقدني وعيي. وهتَفَ آخر وجسده يرتج: "إنّ الماء يتجمع في الخندق كأنه بركة، لا يُمكن أن نحفر الماء". وكادَ الحارس أن يبطش به، لولا تدخل المسؤول عنهم، قائلاً له: "توقّف. ألا ترى الماء؟!". وبدلاً من أن نتوقّف، طُلبَ منّا أن نُفرّغ الخندق من الماء، واستغرق ذلك منّا ساعةً إضافيةً، ولولا رحمة السماء بنا إذ توقّف

ماؤها لقضينا اليوم كله في تفريغ الخندق من الماء الذي يزداد كلما نقص!!

وَعُذْنَا إِلَى الْحَفْرِ بَعْدَ أَنْ أُعْطَوْنَا وَجِبَةً مِنَ الْخُبْزِ وَالْفَرْبَى، وَسَأَلْتُ ذَلِكَ الْجَرِيءَ الَّذِي اعْتَرَضَ عَلَى الْحَفْرِ فِي الْمَاءِ: "هيه... أَنْتَ؟ مَا اسْمُكَ؟". وَدُونَ أَنْ يَلْتَفِتَ إِلَيَّ، قَالَ: "جَوَاد". "أَنْتَ جَدِيدٌ؟". "وَأَنْتَ؟ أَلَا تَخْتَارُ الْجُدَّ لِهَذِهِ الْمَهْمَةُ؟، وَاسْتَدْرِكْ: "أَوْ أَصْحَابَ الْمَالِ". فَابْتَسَفْتُ، وَسَأَلْتُهُ: "مَنْ أَيُّ مُعْسَكِرٍ أَتَيْتَ؟". "وَهَلْ أَنَا مُضْطَرٌّ لِلْإِجَابَةِ؟". "نَعَمْ، وَلَا". "كَيْفَ؟". "نَعَمْ، لِأَنِّي أَنَا الْمَسْئُولُ عَنْكَ، وَبِالْثَّالِي يُمْكِنُ أَنْ أَجْعَلَكَ تَشْقَى أَكْثَرَ مِنْ سِوَاكَ وَلَدَيَّ السَّلَاطَةُ كَمَا تَعْلَمُ. وَلَا؛ لِأَنَّكَ أَخِي، وَأَنَا أَجْرِي هَذِهِ الْمَحَادَثَةَ مِنْ أَجْلِ أَنْ نَكُونَ صَدِيقَيْنِ". وَرَفَعَ جَذْعَهُ، وَرَكَزَ ذَقْنَهُ عَلَى عَصَا رِفْسِهِ، وَنَظَرَ فِي عَيْنَيَّ عَمِيقًا، ثُمَّ مَدَّ يَمِينَهُ فَصَافَحَنِي: "وَأَنْتَ؟". "مَا أَنَا؟" وَضَحِكَ: "أُرِيدُ أَنْ أَعْرِفَ اسْمَكَ". وَضَحِكَ: "أَنَا حَارِثٌ". وَدَوَّى انفِجَارٌ.

كَانَ عَلَيْنَا بَعْدَ الْإِنْتِهَاءِ مِنَ الْحَفْرِ بَعْدَ عَشْرِ سَاعَاتٍ مِنَ الْعَمَلِ، أَنْ نَحْمِلَ أَكْيَاسَ الزَّمَلِ، وَكَانَتْ ثَقِيلَةً فَاضْطَرَّ كُلُّ اثْنَيْنِ مِنَّا أَنْ يَحْمِلَا كَيْسًا وَاحِدًا، كُنَّا نَفْرَغُهَا مِنْ شَاحِنَةٍ مُغْطَاةٍ لَمْ تَكُنْ قَرِيبَةً مِنَ الْخَنْدَقِ بِسَبَبِ أَنَّهَا لَا تَسْتَطِيعُ أَنْ تَتَسَلَّقَ الْجِبَالَ مِثْلَنَا، وَكَانَ عَلَيْنَا نَحْنُ الْأَجْسَادُ الْبَشَرِيَّةُ الْفَنْهَكَةُ، أَنْ نَصْعَدَ بِهَا ذَلِكَ الْمَرْتَفِعَ الشَّدِيدَ، لِنَضْعَهَا فِي الْخَطِّ الْأَمَامِيِّ لِلْخَنْدَقِ فِي مُوَاجَهَةِ الْأَعْدَاءِ الْمُحْتَمَلِينَ، وَلَمْ يَكُنْ هَؤُلَاءِ الْأَعْدَاءُ الْمُحْتَمَلُونَ إِلَّا نَحْنُ.

فِي آخِرِ نِصْفِ سَاعَةٍ مِنْ هَبْوَ لَيْلِ ذَلِكَ الْيَوْمِ، بَدَؤُوا بِإِطْلَاقِ الرِّصَاصِ فِي الْهَوَاءِ نَوْعًا مِنَ التَّسْلِيَةِ، ثُمَّ عَنَّا لِأَحَدِهِمْ أَنْ يَحْمَلَ

الهاوة ويهوي بها على ظهورنا، ثم صرّح أحدهم: "هَيَّا... نريدُ أن نعودَ إلى المعسكر لقد تعبنا!". وقبلَ أن نعودَ بالفعل، كان علينا أن نحمل صناديق حديدية من الذخيرة، ونُخبِئها في عمق الخندق، ثم نُغْطِي الخندق المحفور بألواح خشبية وبجذوع الشجر لتمويهه، ونبعض الشتائر من الخيش.

(31)

معسكر (ترنوبولي)

قَدِمَ (جواد) إلى معسكرنا في مطلع عام 1994م، وكان قد قضى ما يقرب من عام ونصف عام حبيسًا في معسكرات الشمال الغربي، التي تقع في منطقة (بريدور)، مثل معسكر (ترنوبولي)، ومعسكر (كيراتيرم)، ومعسكر (عمرسكا)، قضى في الأخير أطول أيام اعتقاله وأكثرها زعجًا. وقد صارَ صديقًا لي بملء رغبته، كان في العقد الخامس من عمره، في عمر أبي تقريبًا أو أصغر قليلًا، ووجدت فيه أنسًا من هذه الجهة، وكان جائيًا بشكلٍ لم أتصوّزه إلى الكلام، وكان يروي ويبكي، كانَ بكاءً، ولا يُخفي دموعه إذا هاجمته، ويُمكن أن يمسحها بعد ذلك، ويبتسم، ثم يعتذر بكلمة أو اثنتين.

كانت شقوق يديه المتغضّنين مليئتين بالسواد وبُرادة الحديد، وكان السّخام ينتشر تحت أظافر أصابعه، وتحت جفنيه، وباطن قدميه، وكانَ كلّما حدّثني نَظَر في كفّه اليمنى وقلبها ظهرًا لبطن وهو يسترسل بالحديث، كأنما يريد أن يأسفَ لما يقول أو يأسى، ورافقته هذه الحركة في كلّ جلسائنا. وكانت جبهته العريضة أقرب في غضونها الطولية إلى جبهة طاعن في السنّ، وعيناه الزماديتان أقرب إلى عيني ذئب عجوزٍ قد نُزِعَتْ أنيابه!

كُنّا نسرُق جلسائنا في غفلة من عيون الحُرّاس، وكان كريّمًا كلّما قلّث له: "حدّثني"، قال: "لَبَّيك". أقيم مُعسكر (ترنوبولي) في مدرسة ابتدائية محلية، وكان يضمّ في الوقت الواحد حوالي سبعة آلاف سجين، وعُبره في أقل من سِتّة أشهر أكثر من ثلاثين ألف مُعتقل،

كان مركزًا للترحيل، أنا رُحِلْتُ منه إلى ثلاثة معتقلات، هذا الذي أنا فيه معك آخر المطاف، ولا أدري إن كنت سأحيا من أجل أن أرى معتقلًا جديدًا، لقد تعبَتِ المُعتقلات مِنِّي يا (حارث).

كان حرس معسكر (ترنوبولي) يتحرشون بكل واحد فينا، بالرجال والنساء والأطفال، وكانوا يتحرشون حتى بالجدران، وكان كل ليل يهبّط على المعسكر تهبّط معه المصائب والزوايا، كان ليل الحرس عريضة ولهواً ومجونا، كانوا يسوقون عشرات الطفلات ويغتصبونهن في غرفهم من دون أدنى شعور بالذنب، وكانوا يضربونهن على أعضائهن التناسلية، ويقطعون أثداءهن، ولم يكن يعود إلى المعسكر بعد كل حفلة أكثر من نصف من ذهب.

وفي أوقات من ليالي الرعب تلك، كانوا يأمرّون بعضنا باغتصاب النساء المُعتقلات معنا، ولك أن ترى عينيها اللتين تقولان لك وأنت مدفوع إلى أقبح فعل يُمكن تخيله: "أنا ابنة دينك وعريقك؛ فلماذا تخون الدم يا ابن عقي؟"، وكان الضمّث المُطَبِّق أوجع رَدّ مُمكن، ومن يتردّد في تنفيذ عمليات الاغتصاب، يُقتل هو والمُغتصبة في الحال!

ولقد شاهدت أكثر من شاحنة تخرج بمئات المُعتقلين ثم لا يعودون، ولا يُدرى لهم موضع في أي مُعتقل آخر، لقد كانوا يُقتلون في الطريق أو في القرية أو بين الأشجار، وأنا واحد من الذين أُخذوا من أجل دفن تلك الجثث في المروج القريبة من المُعسكر.

كانوا حين تأتي إلى المُعسكر سلال الخبز، يأخذون الأربعة، ويُقَطِّعونها كل قطعة بحجم قبضة اليد، ويرشون عليها كمية كبيرة من المُبيدات الحشرية، ويتعمدون أن يُركّزوا الرش على الجزء

المُعْجَن الظَّاهِر من أَجْلِ أَنْ يَتَغَلَّغَلَ المُبِيد فِيهِ، ثُمَّ يُقَدِّمُونَهُ لَنَا، وَيُوزَعُونَ أَكْثَرَهُ عَلَى الْأَطْفَالِ، وَكَانَتْ تُصِيبُنَا أَمْرَاضٌ لَا حَصْرَ لَهَا، وَأَلَامٌ فِي الْمَعْدِ شَدِيدَةٌ، وَكَانَ بَعْضُ الْأَطْفَالِ لَا يَحْتَمِلُونَ تِلْكَ السَّمُومَ فَيَمُوتُونَ بَعْدَ يَوْمَيْنِ أَوْ ثَلَاثَةٍ مِنْ تِلْكَ الْحَادِثَةِ.

وَأَغْرَبَ مَا حَدَثَ لَنَا فِي الْمُعْسَكَرِ، أَنَّ بَعْضَ سُكَّانِ قَرْيَةِ (تَرْنُوبُولِي) دَخَلُوا إِلَى الْمُعْسَكَرِ طَوَاعِيَّةً دُونَ إِكْرَاهٍ تَحْتَ تَهْدِيدِ السِّلَاحِ؛ خَوْفًا مِنَ الْمِيلِيشِيَّاتِ الَّتِي كَانَتْ تَنْهَبُ الْقَرْيَةَ، وَتَسْرِقُ مَا فِي الْبُيُوتِ، وَتَقْتُلُ، وَتَحْرِقُ كُلَّ شَيْءٍ. لَقَدْ هَرَبُوا مِنْ جَحِيمٍ إِلَى جَحِيمٍ، وَمَعَ ذَلِكَ كَانَ هَذَا الْمُعْسَكَرُ أَقْلَ سَوْءًا مِنْ بَقِيَّةِ الْمُعْسَكَرَاتِ، وَمَعَ أَنَّهُ ثُمَّ فِيهِ الْقَتْلُ وَالذَّبْحُ وَالْإِغْتِصَابُ، إِلَّا أَنَّ ذَلِكَ لَمْ يَكُنْ بِفِظَاعَةٍ مَا حَدَثَ فِي (كِيرَاتِيرَم) أَوْ (عَمْرَسْكَ)، وَبَعْضُ الشَّرَّاهُونَ مِنْ بَعْضِ.

كُنَّا نَنَامُ فِي الْغُرَفِ الضَّرْفِيَّةِ مِنْ دُونَ غِطَاءٍ، وَلَكُنَّا كُنَّا مَحْمِيَيْنَ فِي اللَّيْلِ مِنَ الْبَرْدِ وَالْكَلَابِ الضَّالَّةِ مُقَارَنَةً بِالْمُعْسَكَرَاتِ الْأُخْرَى، وَكُنَّا نَبْقَى أَيَّامًا مِنْ دُونَ طَعَامٍ، وَلَكِنْ أَهْلُ الْقَرْيَةِ يَعْرِفُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا، وَكَانَ الْقَادِمُونَ الْجُدُدُ يُطْعَمُونَ مِنْ خَيْرَاتِ الْقَرْيَةِ الزَّرَاعِيَّةِ الْمُعْتَقَلِينَ الْقُدَامَى. وَكُنَّا نُذَبِّحُ لَكِنْ لَيْسَ كُلُّ يَوْمٍ، وَكَانَتْ نَسَاؤُنَا تُغْتَصَبُ وَلَكِنْ لَيْسَ بِشَكْلِ مَمْنَهَجٍ، وَهَذَا مَا أَرَدْتُ بِقَوْلِي: إِنَّهُ كَانَ أَقْلَ سَوْءًا مِنْ بَقِيَّةِ الْمُعْسَكَرَاتِ!

فِي أَيَّامِي الْأَخِيرَةِ فِي الْمُعْسَكَرِ، جَاءَتْ شَاخِجَتَانِ كَبِيرَتَانِ، فَأَخَذَتْ أَكْثَرَ مِنْ مِئَةِ مُعْتَقَلٍ مِنْ بَيْنِنَا، قَالُوا إِنَّهُمْ سَيَنْقَلُونَهُمْ إِلَى مُعْسَكَرَاتٍ أُخْرَى، وَأَنَّ قِيَادَةَ الْجَيْشِ هِيَ الَّتِي أَمَرَتْ بِذَلِكَ، وَلَا أُدْرِي عَلَى أَيِّ أُسَاسٍ اخْتَارُوهُمْ، وَعَلَفْتُ فِيمَا بَعْدَ أَنَّهُمْ اخْتَارُوا مِئَةً مِنْ مُعْتَقَلِي

مُعسكر (عمرسكا) كذلك، ثُمَّ قادوهم إلى وادي (كوريتشاني)، ومن قَبْلُ كانوا قد حَفَرُوا حَفْرَةً كَبِيرَةً وَعَمِيقَةً بِقَدَرِ عَشْرَةِ أَمْتَارٍ كَأَنَّهَا حَفْرَةٌ تُسَبِّبُ بِهَا نِيْزُكَ، وَأَجْبَرُوا مِئَتَيْنِ وَخَمْسِينَ مَعْتَقِلًا أَنْ يَصْطَفُّوا عَلَى حَوَافِّ الْحَفْرَةِ الْعَمَلَاقَةَ، وَوَجَّوْهُهُمْ إِلَيْهَا، ثُمَّ أَطْلَقُوا النَّارَ عَلَيْهِمْ مِنْ الْخَلْفِ فَسَقَطُوا وَاحِدًا تَلَوَ الْآخَرَ، بَعْضُهُمْ سَقَطَ مِنَ الْخَوْفِ، بَعْضُهُمْ أَصَابَتْهُ الرِّصَاصَةُ فَلَمْ تَقْتُلْهُ، ثُمَّ أَهَالُوا عَلَيْهِمْ بِالْجِزَافَاتِ الصَّخُورِ وَالْحِجَارَةِ وَالثَّرَابِ فَذَفَنُوا تَحْتَ الرِّكَامِ مَنْ مَاتَ وَمَنْ كَانَ لَا يَزَالُ فِيهِ رَمَقٌ مِنْ حَيَاةٍ!

بَعْدَ تِلْكَ الْمَذْبَحَةِ، اسْتَطَاعَ بَعْضُ الصَّحْفِيِّينَ الْغَرِيبِيِّينَ أَنْ يَصِلُوا إِلَى الْمُعْكَسَرِ، كَانَ الضَّرْبُ قَدْ أَبْقَا عَلَى صَحِيحِي الْأَجْسَادِ أَوْ الَّذِينَ لَا يِعَانُونَ كَثِيرًا، وَأَبْعَدُوا مَنْ دَبَّ فِيهِ الْهَزَالُ وَالْأَمْرَاضُ، وَتَجَزَّأَتْ وَاحِدَةٌ مِنَ الْمُعْتَصِبَاتِ أَنْ تَهْمَسَ فِي أُذُنِ إِحْدَى الْمُرَاسِلَاتِ: "لَا يَغْرُكَ هَذَا الْمَظْهَرُ. إِنَّهُمْ يَخْدَعُونَكَ، أَنَا اغْتَصَبْتُ فِي أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ أَكْثَرَ مِنْ مِئَةِ مَرَّةٍ!" فَقَالَتْ لَهَا الْمُرَاسِلَةُ: "هَلْ يُمَكِّنُ أَنْ تَقُولِي هَذَا الْكَلَامَ لِلْعَدَسَةِ؟". فَرَدَّتْ إِلَيْهَا بِإِشَارَةٍ مِنْ أَصَابِعِهَا إِلَى عُنُقِهَا: "سَيَذْبَحُونَنِي عَلَى الْفُورِ".

لَمْ يُعْمَرْ مُعْكَسَرُ (تَرَنُوبُولِي) طَوِيلًا، نَقَلُونِي أَنَا وَمَنْ تَبَقِيَ فِيهِ مِنَ الْمَسَاجِينِ إِلَى مَعْتَقَلَاتٍ أُخْرَى، أَنَا نُقِلْتُ إِلَى مُعْكَسَرِ (عَمْرَسْكَ)، يُمَكِّنُ أَنْ تَقُولَ إِنَّنِي لَمْ أَصْعَدْ دَرَجَةً فِي الْجَحِيمِ، لَقَدْ صَعَدْتُ فِيهِ سَلْقًا مِنْ عَشْرِ دَرَجَاتٍ

"هَلْ أَعْجَبَكَ حَفْرُ الْخَنَاقِ؟" سَأَلْتُ (جَوَادَ)، رَدَّ وَنَحْنُ نَقْرَفُضُ عَلَى الْأَرْضِ الْإِسْمَنْتِيَّةِ: "هَلْ تَمَزَحُ؟". "أَعْنِي زُبْمًا تُفَكِّرُ بِشَيْءٍ مُفِيدٍ لَنَا

معًا لو في إحدى المرات التي نخرج فيها إلى حفر الخنادق". "ماذا تعني؟". وأشرت إلى التوافذ العالية برأسي: "أنت تعرف. الطيور تتبع مصدر الضوء. الضوء لا يدخل إلى الغرف المغلقة"، رد كمن يُبدي قلة اكتراث: "الموت ينتظرنا داخل القفص وخارجه. إلى أين ستهرب؟". "ألا تريد أن تشعر بمتعة إطلاق ساقيك للريح". "سيُعني الرصاص خلفك، وسيحفر على ظهرك أوضح سيمفونية، لأنها ستكون مكتوبة بالدم". "لكن الأمر يستحق؛ أليس كذلك؟". "الذي يستحق هو ألا تموت، ما الذي فعلته حتى يكون الموت ألصق بك من ظلك؟!". "لا شيء سوى أنك بوسني".

كان الرصاص يطير من شجرة إلى شجرة، ومن غرفة إلى غرفة، ومن جسد إلى جسد، ومن قبر إلى قبر، كان الوطن كله يُمزق بالرصاص، كان كل ما في البوسنة يثن تحت أزيز الطائرات، وهدير المدافع، وأصوات الانفجارات، كان الوطن مذبوحًا من الوريد إلى الوريد، وفي العواصم والمدن الكبرى كان الحصار يخنق حتى النمل فيها، وكان الجوع يفتك حتى بالغث، إنه زمنٌ خارج أزمنة التاريخ كلها!

"لقد بدأت أشعر بتنميل في قدمي، وبوخز في أصابعي" قال (جواد)، وتابع: "ستأتيني التوبة. أرجوك...". وصمت، نظرت إليه مُستفهِمًا: "ماذا هناك يا جواد؟". "أنا مُصاب بالصرع. لقد صعقوني بالكهرباء في رأسي حتى تلف دماغي". "ماذا تقول؟". "ليس مهمًا ما أقول، أرجوك إذا أصابثني التوبة، لا تدع الحرس يرونني، سيُردونني بالرصاص في الحال". صار يُحدق في، اتسعت حدقتا عينيه، ثم راح يمزغ شفاهه، ثم راح يتلفث حواليه مُحزكًا رأسه بطريقة

ثوحي بأنه مذعور أو يخاف من أن يرى. صَفَفْتُهُ إلى صدري، كان جسده قد بدأ يرتجف، لا أعرف ما يمكن أن أفعل في حالة كهذه، ازداد ارتعاش جسده، صارَ بالفعل كمن يمز في جسده تيار كهربائي شديد، ضممه بقوة أكبر ظنًا مني أن هذا يهدئ من رجفته، غامث عيناه، صارتا تدوران في محجريهما، ازداد بياضهما، ثم فجأة خمدت حركته، وتوقَّف ارتعاش جسده. نظرت في عينيّه، كانتا مسافرتين، في وجهه، كان شاجبًا، ضربت بباطن كفي اليمنى خذّه لعلّه يستيقظ، فلم يفعل، مَدَدْتُهُ على الأرضية الإسمنتية، وحاولت أن أبقى بقربه وأداري جسده عن أن يراه الخزاس. تأرجحت بين الشك واليقين في أنه حي أو ميت. بقيت بالقرب منه حوالي نصف ساعة، ثم فجأة استيقظ، وراح يعب نفسًا سريعًا، ويتلفّث حوله، وحين رآني اطمأن قليلًا، سأله: "ما الذي حدث؟". "تصيبني نوبات صرع، لا تقلق، خفيفة، وتمزّ بسلام غالبًا. افرض أنها قَصَّت عليّ، لن تقضي عليّ وأنا بوعبي، هذا أمر حسن، أليس كذلك؟". واصطنع بسمة أراد أن يحولها إلى ضحكة خفيفة فلم ينجح.

وقفَ الزعيم (غليغور) الخطيب المفقوه، بعد أن جمَعنا الخزاس: "إنهما عامان تقريبًا من الحرب الشعواء، هل أنا مضطر إلى توضيح الواضح؟ نحن لسنا في حربٍ مع البوسنيين، البوسنيون شركاء في هذا الوطن، نبتوا معنا من بذوره، ونموا مع جذوره؛ نحن في حربٍ مع العثمانيين الأتراك، لو كان هؤلاء الأتراك مسيحيين أو يهودًا أو حتى ينتمون إلى بوذا أو أي دين آخر لما وضعنا فوهات البنادق في أفواههم. هل يمكن أن تُسميها حربًا دينية؟ هي كذلك بالفعل. لا تنخدعوا بالشعارات البزاقة ولا بحمامات السلام التي تبول في

سراويلها. خذوا مني وعني لعنة الله عليكم. ثم أف لكم ولهذه الحرب، أنا تعبت من احتمال الدفاع عن القيم والمعتقدات، أتمنى أن ينتهي هذا الكابوس سريعًا!!" ثم ولى وجهه وهو يعقد ذراعيه على عصاه خلف ظهره.



(32)

مَعسَكَر (عَمْرَسَكَا)

عدَدٌ لَا يُسْتَهَانُ بِهِ مِنَ الْمُعْتَقَلِينَ مَعْنَا هُنَا فِي مَعسَكَر (بَاتَكُوفِيْتَش) جَاؤُوا مِنْ مَعسَكَر (سُوزِيكََا)، عِنْدَمَا أَغْلَقُوا مَعسَكَر (سُوزِيكََا) هَذَا قَبْلَ حَوَالِي عَامٍ وَنِصْفِ الْعَامِ، أَيْ فِي الثَّلَاثِ الْآخِرِ مِنْ عَامِ 1992م، اخْتَارُوا حَوَالِي 140 مُعْتَقَلًا، وَمَنْ اسْتَطَاعُوا حَشْرَهُمْ فِي شَاخِثَيْنِ كَبِيرَتَيْنِ، وَأَعْدَمُوهُنَّ بِالزَّصَاصِ فِي الطَّرِيقِ، فِي مَنَاطِقٍ لَا يَعْرِفُ بِهَا أَحَدٌ، ثُمَّ تَرَكَوْا الْجُثَثَ مُلْقَاةً عَلَى قَارَعَةِ الطَّرِيقِ، وَعَادُوا إِلَيْهَا بَعْدَ يَوْمَيْنِ لِإِخْفَاءِ جَرِيْمَتِهِمْ، فَحَفَرُوا بِالْبِلْدُزُورَاتِ لَهُنَّ حَفْرَةً كَبِيرَةً، وَرَدَمُوهُنَّ عَلَيْهِنَّ. كُلُّ مَعسَكَرٍ كَانُوا يُغْلِقُونَهُ كَانُوا يُعْدِمُونَ مَا اسْتَطَاعُوا مِنْ قَاطِنِيهِ، وَيَبْعَثُونَ بِمَنْ تَبَقَّى إِلَى مَعسَكَرَاتٍ أُخْرَى، هُنَا فِي مَعسَكَر (سُوزِيكََا) مَا لَا يَقِلُّ عَنْ ثَلَاثِمِئَةِ مُعْتَقَلٍ. لَقَدْ نَجَّوْا مِنَ الْمَوْتِ لِأَتْنِهِمْ لَمْ يَصْعَدُوا إِلَى الشَّاحِثَيْنِ. وَلَكِنْ أَيْ تَعْرِيفٍ لِلنَّجَاةِ يُمَكِّنُ أَنْ يَكُونَ مَفْهُومًا إِذَا كَانُوا نَجَّوْا مِنْ مَوْتٍ عَلَى قَارَعَةِ الطَّرِيقِ، لِيَمُوتُوا هُنَا بَيْنَ الْجُدْرَانِ الْعَالِيَةِ الْمُغْلَقَةِ؟!

"مَعسَكَر (عَمْرَسَكَا) مَا زَالِ قَائِمًا إِلَى الْيَوْمِ، لَقَدْ مَكْنَثُ فِيهِ قَرَابَةَ سِتَّةِ أَشْهُرٍ". قَالَ (جَوَاد). إِنَّهُ وَاحِدٌ مِنْ قَرَابَةِ سَبْعِمِئَةِ مَعسَكَرٍ مَا زَالَتْ تَكْتَضُ بِالْمُعْتَقَلِينَ، فِي (عَمْرَسَكَا) احْتَجَزُوا فِي آنٍ وَاحِدٍ أَكْثَرَ مِنْ سِتَّةِ آلَافٍ مُعْتَقَلٍ، كَانُوا يَقْصِفُونَ الْقَرْيَةَ بِشَكْلِ مُكْنَفٍ، فَفَزَ النَّاسُ مِنْ بَيْوتِهِمْ، أُحْرِقَتِ الْبُيُوتُ بِمَنْ فِيهَا، وَتَمَّ فَتْحُ النَّارِ عَلَى الْهَارِبِينَ فَسَقَطَ مِنْهُمْ الْعِشْرَاتُ وَسَطَ بَرَكِ الدَّمِ، وَأَجْبَزَ الْمِائَاتُ تَحْتَ تَهْدِيدِ الرِّشَاشَاتِ الْمُصَوَّبَةِ إِلَيْهِمْ أَنْ يُسَاقُوا إِلَى الْمَعسَكَرِ.

المُعسكر يضم عددًا كبيرًا من الأكاديميين وأساتذة الجامعات والمُثقفين والسياسيين والشُعراء والأدباء، وكانَ خليطًا من الزّجال والنساء والأطفال، أمّا النساء اللّواتي لم يكن عددهنّ في البداية يزيد عن خمسين، فقد أجبرنّ على تنظيف الأرضيات والجدران والحفّامات، وشطف السّاحات، واغثِصنّ بشكلٍ مُتكرّر، ومات نصفهنّ أثناء الاغتصاب الوحشي أو بعده مُباشرةً بإطلاق الرصاص عليهنّ فورَ الانتهاء من الاغتصاب.

يقع مُعسكر (عمرسكا) في منطقة مناجم، ورفّع (جواد) يديه المليئتين بالشخام والبرادة في وجهي، في منطقة تبعدُ حوالي عشرين كيلومترًا من مدينة (برييدور)، كانت مباني المُعسكر الثلاثة ممتلئة بالكامل، وكانت هناك ساحةٌ بين تلك المباني وقد حُشِر فيها المُعتقلون أيضًا، ولَمّا ضاقت تلك المساحات عن استيعاب الأعداد المُتزايدة، أقاموا لهم في المُجعّع خيامًا وحبسوهم داخلها، كان يتولّى الحراسة أكثر من مئة صربيّ موزّعين على المباني والسّاحة ومنطقة الخيام، وقاموا بإضاءة المناطق كلّها بالكشافات الدوّارة، وكانَ كلّ شبرٍ من المنطقة تحت سمعهم وبصرهم طَوال الوقت.

في مبنى الإدارة كان يتمّ استجواب المُعتقلين وتعذيبهم، ونادِرًا ما كان يخرج حيًّا من يدخله، غالبًا ما كانت تتمّ تصفيته بعدَ انتِزاع المعلومات منه، وكان يُلقَى في حظيرة الطائرات بعدَ أنْ نقوم بحفر القبور لهم. أمّا السّاحة الواقعة بين مبنى الإدارة والمبنيّين الآخرين فكانت عبارة عن شريطٍ إسمنتيّ على شكل حرف (L) وكانت مكانًا شَهِدَ الفظائع التي تتشابه مع المُعتقلات الأخرى، أمّا المبنى الثاني فكان يُعرَف (بالبيت الأبيض)، وكان اسمًا ساخِرًا، فإنّه كانَ أشدّ

سواءًا من الموتِ الأسود، وكان عُمرُ المُعتقلين فيه أطول من أعمار البقية. أمّا المبنى الثالث فكان يُعرَف (بالبيت الأحمر) وكان اسقا على مُسقى فإنَّ أرضه لم تنشف من الدّم، وكانت تتم فيه المُحاكّمات السريعة والإعدام الأسرع، وكُنّا نركض بين موتٍ وموت!

بالعودة إلى مبنى (البيت الأبيض) فإنّه كان مُكوّنًا من حوالي أربعين غرفة، في طابقين، كل طابق عشرون غرفةً تنتشر على الجانبين، وبينها ممزّ ضيق لا يزيّد عن مترين، وكانت كل غرفة من هذه العُرف الأربعين تُحشّر بحوالي خمسين معتقلًا في مساحة لا تزيد عن أربعة أمتار في خمسة، بمعنى أنّ لكل سجين أقل من نصف متر مُربع، وهي مساحة لا تكاد تكفي لوقوفه الدائم على قدّميه عوّضًا عن أن ينام أو يتمدّد فيها أو حتّى يُقرّص، وستسألني كيف كانوا ينامون إذا؟ كانوا ينامون واقفين. واقفين؟ نعم، وإذا سقط فإنّه يسقط على ظهر سجين آخر أو صدره، وإذا كانوا متفاهمين فإنّهم يحشرون أنفسهم في نصف الغرفة، ويوسعون النصف المتبقي، من أجل أن يضطجع خمسة أو ستة منهم بشكلٍ حرفي على جنبه لينام مُدّة ساعة، ثمّ يُوقظهم قَيم الغرفة ليسمح لغيرهم بأن يناموا بالطريقة نفسها ساعة، وهكذا!

وكان يدخل بعض الحرس على الغرفة فيدفعون المعتقلين بأعقاب البنادق حتّى يلتصق بعضهم ببعض، وينهالون عليهم بالسياط المضفورة وبالهراوات الخشبية والمعدنية حتّى تمتلئ أرضية الغرفة بالدّم، وكان الدّم يُغطّي الأقدام والوجوه المُهشّمة والصُدور المُكسّرة، وكان بعضه ينفر من الشّدة فيُلطّخ الجدران، وفي الليل بعد أن تنتهي حفلة التعذيب يُمكنك أن ترى قطعًا من اللحم والشّعر

والجلد والتفت تنتشر على الأرضية، ولربما نُظر الواحدُ إلى جزءٍ منه أمامه وهو في غاية الدهول!

كان الخُراس إذا أرادوا القضاء على واحدٍ منا يتقصدون الجمجمة، أو القلب أو الكلية أو الأعضاء الثناسلية، وبعد انتهاء التعذيب، كانت الأنفاس المُتقطعة مع الاكتِظاظ لا تحتمل المزيد فتموت، وكان علينا أن نعلنَ عن عدد الموتى، وغالبًا ما كان الرِّقم يتراوح في الغرفة الواحدة في الليلة الواحدة بين أربعة معتقلين وِسْة، وكان علينا أن نُخرجهم صباح اليوم التالي ونقوم بحفر القبور لهم خارج المُعسكر وُهيل عليهم التراب. كانَ عدد الموتى الذين ندفنهم في الصباح يصل إلى مئتي جُثة!

كُنّا محشورين كالسرددين في هذه العُرف. نسيث أن أخبرك عن غرفةٍ تُسقى (غرفة موجو)، هذه الغرفة لم تكن تنتمي للمباني الثلاثة ولا للساحة الخرسانية، هذه غرفة مُستقلة ربّما كان ينام فيها عُقال المناجم فيما مضى، وكانت بعرض (12) مترًا وطول (15) مترًا، وكان يُحشر فيها خمسمئة مُعتقل، ولا تسألني كيف كانت تتسع لهذا العدد القهول، كان أجساد كل ثلاثة تنقل الرِّجل اليمنى بنفس اللحظة حتّى لكأنّها رجلٌ واحدة، وكذلك الأخرى، لم يكن المكان يتسع لتخطو خطوة واحدة وحدك!

وفور أن قُدر الضرب إنشاء هذا المُعسكر الزهيب قاموا على الفور بالإضافة إلى تركيب الكشافات عليه، بإنشاء كابينات الحراسة، كانت هناك أكثر من عشرين كابينة يتمركز فيها القناصة مُحولين بإطلاق الرصاص على كل من يُشتبه به، وكانوا مُخلّين من المُساءلة، اقتل

بحسب تقديرِكَ الخاصِّ أو رغبتِكَ الخاصَّة، وقاموا إلى ذلك بِزَرع
ألغام أرضيَّة مُضادَّة للأفراد حول المُعسكر، وكانتِ النتيجة معروفة:
كُل مَنْ يُفكِّر بالهرب سيصيده لُغمٌ أرضيُّ يُحوِّل جسده إلى قِطْع لحم
صغيرة مُحترقة، بحيث لا تكون له جُمة لِثُدْفَن.

كانت المراحِيز قليلة، وبسبب الازدحام امتلأت وانسَدَّت،
وفاضت المجاري في كُلِّ مكانٍ، وغطَّتِ الزائحة الكريهة على رائحة
العرق والذَّم والجُثث، وكانَ لِزامًا علينا وعلى النساءِ بِشكلٍ خاصٍّ أنْ
نقوم بالتَّنظيف، ولكنَّهم لم يكونوا يُعطوننا أدواتٍ لِلتَّنظيف، فأجبرونا
على أنْ نأكل الغائط ونشربَ البول، وأجبرونا كذلك على أنْ نمسح
بذلك الغائط وجوهنا وصدورنا!

كان مُخصَّصًا لنا وجبة واحدة في اليوم، غالبًا قطعة خُبز، وكثيرًا
ما كان لحقًا مفرومًا إمَّا قد انتهت صلاحيتُه منذُ سنوات، أو كان
طعامًا للقطط والكلاب، ولم يكنْ علينا أنْ نحتج، وأحيانًا كُنَّا نأكله
دون أنْ ندري أنَّه لحمٌ حقيقيٌّ أم لحمٌ بشريٌّ مفروم ومعجون. وكُنَّا
نخرجُ إلى الساحة الخرسانيَّة لتسلَّم الطعام بطريقةٍ سرِّيائيَّة لم
أفهمها حتَّى اليوم، كان علينا أنْ نصطفَ في طابورٍ طويلٍ في الممرِّ
بين العُرف، ثُمَّ يُطلقُ أحدُ الحُرَس المُنتشرين على طُول الطابور
صافرة البدء، وكانَ علينا أنْ نركضَ كالكلاب أو الحيوانات إلى موضع
الطعام وأثناء ذلك تنهال علينا الهراوات والسيَّاط من كُلِّ جهة، وكان
علينا أنْ نذهبَ إلى تلك الساحة ونعود في ثلاث دقائق نذوق فيها
عشرات السيَّاط، وكُنَّا نعود بقطعة الخبز مغمَّسة بالذَّم. ثُمَّ كانَ معنا
ثلاث دقائق أخرى حتَّى ننتهي من الطعام، ومَنْ يُزَي يأكل بعدَ ذلك
يُجَزَّ إلى الساحة الخرسانيَّة، ويُجمَع كُلُّ المخالِفين هناك، ثُمَّ يتمُّ

إعدامهم بالزصاص!

وكانت الكلاب الضالة والمسعورة تتجمع على رائحة لحومنا التي سقطت منا في الطريق، عند السياج الخارجي وتبدأ بالثباح بشكل متواصل، وعلى أطراف أشداقها يسيل اللعاب وتبرز أنيابها اللامعة الفخيفة.

أما الماء الذي كنا نشربه فلم يكن ماءً طبيعيًا، كان ماء نهر قريب ملوثًا بمخلفات المصانع والكيماويات، وكنا نعاني آلامًا شديدة في البطن، ونعاني من الإمساك ومن الزحار. ولم نكن نتردد في شربه مع يقيننا أنه سبيلٌ واضحةٌ إلى الموت، ولعل ذلك هو ما دفعنا إلى شربه!

وكان أحد قادة الفعسكر الذي لم يُتمّ تعليمه المدرسي، واسمه (مليمور) يتقصد تعذيب أساتذة الجامعات والفُثقفين، وكان يستعرض ضحاياه، ويسأل كل أستاذ عن تخصصه، ويستهزئ به، ويُطلق عليه الزصاص، أو ينحره بحربة يتناولها بطريقة استعراضية سينمائية من جيب بَزْته العسكرية.

كنا ننظر خائفين، ونتنفس خائفين، ونسير خائفين، ونأكل خائفين، ونشرب خائفين، ونقضي حاجتنا خائفين، وكان بعضنا قد أراح عقله، فسقط في الجنون، وكان سريعًا ما يُعرَف من الحرس، فيقومون بإنهاء حياته، وكان هذا الصنف محسودًا من بعضنا!

وقد تمكّنت ذات ليلة من أن أنظر من خلال نافذة الغرفة، لأرى الحرس قد جمّعوا عشرات من إطارات السيارات على شكل حلقة وحشروا داخلها عددًا من المعتقلين، ثم صبّوا على الإطارات

وعلى المُعتقلين الجازولين، وأشعلوا فيهم النار، وجلسوا يشربون ويضحكون! وكانَ علينا أنْ نسحبَ الجُثث المتفخمة أو ما تبقى منها بأيدينا خارجَ المُعسكر ونقوم بدفنها.

وسمعتُ ذات مَرَّة إطلاقَ نارٍ متقطع لكثته متواصل، واستمرَّ من منتصف الليل إلى شروق الشمس، وحينها عرفتُ أنَّهم أعدموا بتلك الطلقات مئةً وثمانين معتقلاً، وكانوا يُسحبون من قِبَلنا إلى أفواه الجرافات أو بطون الشاحنات، ويُنقلون إلى مكانٍ قريبٍ من المُعسكر ويُدفنون في مقبرةٍ جماعية، ولا أدري عدد المقابر التي رأيتها في المُعسكر، ولا شكَّ أنَّها بالعشرات، ولا تزال تُحفر هذه المقابر لهم إلى هذه اللحظة!

(33)

صحفيون في (عمرسكا)

كان لمعسكر (عمرسكا) ثلاثة قادة على الأقل فيما عرفت. قال (جواد). اتتدبث ذات يوم من أجل أن أنظف غرفة القائد (زيليكو) على ما أذكر، كانت وجوه القادة متشابهة، ولذا لم أميز بينها كثيرًا، كانوا قادمين من الجحيم السفلي، بحيث تشعر إنهم جلسوا مع إبليس الأكبر من أجل أن يُبارك أعمالهم. قال لي القائد مع آخرين جلبونا من أجل هذه المهمة: "لا أريد أن أرى قطرة دم واحدة في أرضية هذه الإدارة بكل شبر فيها"، وانطلقنا نعمل. وعند العصر أنهينا، واشتبقيت أنا واثنان آخران من أجل أن نُجهز كؤوس الخمر، وتنظيف غرفة صغيرة في مبنى الإدارة، كانت تُسقى غرفة الاستراحة.

بحلول الساعة الخامسة والنصف تقريبًا شِمَحَ لوفد من الصحفيين أن يدخلوا من جهة مبنى الإدارة دون أن يمرّوا على البيت الأبيض أو البيت الأحمر أو غرفة (موجو)، فقط دخلوا الساحة الخرسانية، التي كانت قد نُظِّفَتْ هي الأخرى بشكل تامّ، ونُقل منها المُصابون إلى الغرف، نقلوا الذين فقدوا بعض أطرافهم، أو الذين لا يستطيعون الحراك، وأبقوا على الآخرين، وبالطبع كان فيهم الجوعى ومَن يبدو عليه الهزال، فلو أنهم أرادوا نقل هؤلاء أيضًا من الساحة لما بقي فيها أحد.

طاف الوفد الصحفي على الناس، يسألونهم عن تجربتهم وعن العيش في المعتقل، لعنة الله على الصحافة وعلى الحرية الزائفة

التي جاءت بهم إلى هنا، وعلى حقوق الإنسان التي يحملون شعاره على صدورهم، إنَّ مجرّد وجودنا في هذه المعتقلات تحت هذه الظروف يُعدّ أبشع انتهاك لحقوق أبسط الحيوانات، فما بالك بنا نحن؟!

كان المعتقلون يُجيبون إجاباتٍ عامّة: "المعتقل واسع". "السّاحات نظيفة كما ترى". "الخزّاس ينتشرون في كلّ مكانٍ ويوفّرون الأمن". "الكشافات التي تكشف حتّى النمل لا تنطفئ ليلاً أو نهاراً". "الكلاب التي تعوي في الليل بدأت تقلّ، صرنا نسمع ثباحاً متقطّعا".

كان هناك عددٌ من الأسئلة المُحرّمة، كانت الإجابة عنها تعني أنّه لن يطلع عليك الضّباح. كان الصحفي يسأل: "هل تنامون جيّداً؟". فيجيب أحدهم وهو ينظر إلى الحارس الذي يحتضن الرّشّاش: "النّوم ليست حاجةٌ مُلحّة". "هل هناك أسّرة تنامون عليها؟". "في بعض الغرف نعم"، وكان بالطّبع يعني غرفة الضّباط، إذ لم يكن في غيرها خيالٌ سرير. ويتابع الصحفي: "هل تتلقّون طعاماً كافياً؟". "الخُبز موجود. واللّحم المفروم كذلك". ويشدّ على كلمة المفروم. "هل تتعرّضون إلى التّعذيب؟". "انظر إلى النّاس من حولك، هل ترى على وجوههم شيئاً؟!". "هل أنتم مدنيّون أم عسكريّون؟". "نحنُ عشنا في القرى، ولم نحمل يوماً سلاحاً، ولا أطلقنا رصاصةً واحدة". "ما هي أسباب احتِجازكم؟". "هل أنتم مُحقّقون أم صحفيّون، لقد سألنا الضّرب هذه الأسئلة من قبل". "هل هناك خُطة لإطلاق سراحكم؟". كان يُمكن أن نشتم عند هذا السّؤال، لكنّ أحداً أجاب: "أنا معتقلٌ منذ اليوم الأوّل للحرب".

ثم يتنقل الصحفيون بدلاتهم النظيفة، وربطات أعناقهم الأنيقة، ويتجولون في الساحة، وينظرون في وجوهنا بعيونهم الزجاجية، والكاميرات تتدلى من أعناقهم فوق صدورهم، ويدعوهم القائد بأدب جم أن يتفضلوا إلى غرفة الاستراحة من أجل الضيافة.

يدخل الصحفيون إلى هناك، يكون كل شيء جاهزًا. كؤوس الخمر مصفوفة بأناقة فوق الطاولة البيضاء، وأمامها بعض الكعك والحلويات، وزجاجة ماء مقطرة من نهر (سافا)، وفي الوسط غلب المناديل الورقية، ويأخذ الصحفيون مقاعدهم، ويجلس القائد على رأس الطاولة، ويرحب بهم من جديد، ويرفع الكأس، ويهتف: "بصحتكم"، ويعب ما فيه دفعة واحدة، ويفعلون مثلما فعل: "بصحتك"، ثم يشير إليهم بيده، إذا كانت لديهم أسئلة يمكن أن توجه إلى قيادة المعسكر.

"لماذا معظم الشجناء في هذا المعتقل من البوشناق؟". "أولاً ليسوا شجناء، هم في مركز توقيف من أجل التحقق من مشاركتهم في جرائم حرب ضدنا. ثم إنهم مسلمون". "وماذا يعني أن يكونوا مسلمين؟! الإسلام دين مثل المسيحية واليهودية وبقية الأديان". "كلًا. كل المسلمين في الأصل عرب قذرون يمسحون أذبارهم بأيديهم" وانقبضت تعابير وجهه اشمئزازًا. "هل هناك موقوفون في المباني التي لم يُسمح لنا بدخولها؟". "أنا لم أقل إنه غير مسموح لكم بدخولها، قلت إنها ربما تكون غير جاهزة، لو جئتم في وقت آخر فمرحبًا". "ولماذا رأينا المعتقلين في الساحة الخرسانية يبدو عليهم الهزال؟". "لسنا المسؤولين عن هزالهم". "فمن؟". "هم أنفسهم؛ إن دينهم يحرمهم أكل لحم الخنزير، ويفرض عليهم صيام شهر في

العام؛ ولذا أجسادهم ضعيفة"، وصمت قبل أن يُتِمّ كلامه كمن يُوجّه اتهامًا للصحفي الذي سأله: "ذلك هو شأن الأمة الإسلامية؛ أما قرأت القرآن؟!". "فلماذا قامت هذه الحرب إذا؟". "من أجل منع انتشار الإسلام في أوروبا، نحن كما قلت لا نريد دينًا يجعل أتباعه يمسحون أقفيتهم وغائطهم بأيديهم، ولا نريد دينًا يجعل قفا أتباعه أعلى من رؤوسهم إذا سجدوا في الصلاة. هل تفهمني؟!".

عندما خرج الصحفيون في ذلك اليوم، غضب القائد غضبًا شديدًا، وصرخ: "من بعث بهؤلاء الحمقى من أجل أن يُحقّقوا معي بهذه الطريقة المهينة؟". وحين أجابه أحد الحرس: "لقد جاؤوا عبر الصليب الأحمر". ردّ: "لعنة الله عليهم وعلى الصليب". ثمّ قذف كأسه في الجدار فحطّمه، وأردف: "يريدون حماية هؤلاء باعتبارهم بشرًا، الحمقى لا يعرفون أنّه يكفي أن تكونَ مُسلِمًا لِثَقَل".

ورُفِعَت العبارة الأخيرة (يكفي أن تكونَ مُسلِمًا لِثَقَل) شعارًا، واتّخذها القادة والحُرّش منهجًا، ووسيلةً للتعامل معنا، فكانت هذه العبارة هي قرار إدانتنا، فصار الحُرّش يُقدِّمون على قتلنا دون سبب تحت ذريعتها، إنّ خطيئتك الكبرى التي تستوجب أن تُصَبّ عليك لعنات الكون كلّها هي أنّك مُسلِم!

لم يكن الزّمن في معسكر (عمرسكا) يمرّ، كان واقفًا طوال الأيام ومُتشابهًا، إلى الحدّ الذي صرّت إذا رأيت جُفّة تُحدّث نفسك: هل رأيته من قبل. وإذا مرّ بك مشهد اغتصاب: أ يحدث هذا أمامي، أم أنّي رأيته قبل يومين، أم أنّه ذات المشهد الذي كان أوّل دخولي إلى هذا المُعسكر قبل عامٍ، لقد تكرر كلّ شيء حتّى اختلَط فيه الزّمن فلم

يُعرَف له أَوَّل من آخر، ولا باطن من ظاهر.

أمروني بعدَ لقاء الضَّحفيَّين لحسنِ قدرتي على التَّنظيف أنْ أذهبَ لتنظيف الحَقَامات، لم يكنِ الأمرُ صعبًا، لقد فعلت ذلك مرَّاتٍ عديدةً غير أنني تمَنَّيت لو لم أخْطُ باتجاه الحَقَامات خُطوةً واحدةً، وأنْ ساقِي انكسرتا ولم أفعل ذلك. كان الوقتُ في العاشرة صباحًا، لم نكنْ ندري أنْ هذا قد حدث، ولم نسمع به، ولا نعرِف كيف. حينَ دخلتُ إلى تلك الحَقَامات رأيتُ ما يقربُ من خمسين مُعتَقلاً قد ذُبِحوا كما تُذَبِّح النِّعاج عند مصافي المجاري وفتحات المناهل، وقد قُطِعَتْ أعضاؤهم التَّناسلية ووضعت إلى جانبهم.

ضربتُ رأسي في أقربِ جدار، ضربته عشرين مرَّةً من أجل ألا أفقد الوعي أو تأتيني نوبة الصَّرع، هكذا كنتُ أظنُّ. بعدَ أنْ سكَّت جسدي عن الارتجاف، كان المقصود بالتَّنظيف أنْ نضع الجُثث في أكياس سوداء، ثم ذهبوا بها إلى مصنع للحوم الحيوان، وقاموا بتقطيعها هناك!

إنَّ لكل إنسان طاقةً احتمال. إنَّ ما يحدث فوق أي احتمال!! وإزاء طغيان المصيبة على قدرة الاحتمال كُنَّا أمام احتمالين، إمَّا أنْ نُجنَّ، ويفقد الواحدُ منا عقله، وقد استسلمَ لهذا عدوِّ كبيرٍ مثًا، أو يعترض، ولو بطريقةٍ غير مُباشرة مُطالبًا بشيءٍ أو بأقل من شيءٍ من أبسط الحقوق، كأنَّ يقول: لو كانت قطعة الخبز أكبر قليلًا، لو كانت حبتين من الزَّيتون بدلًا من حبة، لو كانت ملعقتين من المربى بدلًا من ملعقة، لو أطفئت الكشافات ساعةً في الليل لنام، وهكذا... وكان القائد أو الحرس يسمعون، ثم في نهاية اليوم يجمعون المُعتَرِضين،

ويذهبون بهم إلى وادٍ قريب، ويُطْلِقون عليهم وابلًا من الطَّلَقَات، وكانتِ الجُثث تنكفي على وجهها من شِدَّة الطَّلَقَات، ثم يتركونهم يتعَفَّنون في العراء!

حدث ذلك مرَّة واحدة. لم يعد أحدٌ يُفكِّر بعدها أن يعترض، ولو دَقُّوا المسامير في قديمه، ورسموا خريطة الضرب بالسكاكين على صدره. وكانوا يطلبون من شجناء الساحة الخرسانيَّة والذين يصل عددهم إلى ألف وخمسمئة مُعتقل أن ينبطحوا على بطونهم العارية من أوَّل الفجر إلى غروب العُسق، وكان يحلو لبعض الحرس أن يدوسوا ببساطيرهم الثقيلة على ظهورنا فتتغرز بقايا من الزجاج والحديد والحصى في بطوننا.

"يا حارث، الوجع أكبر من أن يُروى، يا صديقي أكلنا نتسلى وننسى بما نروي أم نتعذب ونتذكر بما نفعل؟!". "إنَّ الوقت لا يُمكن أن يُحتَمَل بغير هذه الحكايات يا جواد، أنا لا أريدُ أن أستسلم، هل تريدُ أنت؟". "كلَّا". "إذا لا سبيل إلا أن نقول". "ولكننا مَجُوعُونَ". "إنَّ حالنا كحال مَنْ قال وداوْنِي بالتي كانت هي الذاء". قُمنا نمشي في المعسكر، كان النَّاس، أغلب النَّاس، ينظرون دون أن يروا، ويتحرَّكون دون أن يشعروا، ويقولون دون أن يعنوا، إنهم يهزون، أو صامِتون كأنما نشوا أن لديهم القدرة على الكلام، أو كانوا أشدَّ واقعيَّة ممَّا نظنُّ، فصمتوا لأنَّ الكلام لا فائدة منه من جهة، ولأنَّه يُؤدِّي إلى الموت أو يُعجِّل به من جهةٍ أُخرى، أو أن شهوتهم إلى الكلام قد اضمحلَّت. سألتُ (جواد): "هل كنتم تذهبون إلى المناجم من المعسكر؟". "تلك قِصَّة أُخرى"، ورفَعَ كَفِّيه أمام عَيْنَي: "انظر"، فابتسفت ابتسامةً حزينة، وهتفت: "حدِّثني".

(34)

مناجم (بريدون)

كان مُعسكر (عمرسكا) يقع في مجمع (المناجم)، كُنّا نخرج في البداية إلى منجم فحم واحد، لكنّ العمل الرئيس كان في مناجم الحديد والمعادن من أجل رَفْد المجهود الحربي، معسكرنا هذا بالذات كان فيه هنجرات للطائرات، كان شبه مهجور، أو توقّف العمل فيه بشكلٍ حثيث، ومع ذلك، كُنّا نخرج إلى مناجم الحديد دون أدنى معايير للسلامة، لم نكن نضع حُودًا على رؤوسنا، ولا نلبس الثياب الخاصة بالعمل، ولا ننتعل الأحذية التي تقينا من الشّظايا، ومن البروزات الحادة، وكانوا يزدون لنا في وجبة الطّعام قليلًا من أجل أن نكون قادرين على العمل، ومع ذلك لا تتخيّلوا أنّنا كُنّا نأكل ثلاث وجبات في اليوم، أو حتّى وجبتين، كانت وجبة واحدة فقط مُكوّنة من شريحتين من الخُبز، وجِساء من المرق أو الصلصة في زُبديّة صغيرة، نشرّبها في ساعة استراحة، لم تكن تكفي كثيرًا.

طبقًا من الشرف التفكير بأنّنا كُنّا نتلقّى أجرًا مقابل عملنا هذا، كُنّا نعمل بالشخرة، كُنّا عبيدًا بالمعنى الحرفي للكلمة، وكُنّا نعمل طوال النّهار مقابل وجبة الطّعام اليتيمة تلك، كان العمل في المناجم يُدار من الجيش أو الشّركة الضريّة، وتحت إشراف حُرّاس المُعسكر، وكانوا يفصلون النّساء والأطفال عن مجموعات العمل، ويختارون الرّجال الأشدّ قوّة حسب زُويّتهم، وكُنّا هزيلين مع كثرة العمل وقلة الطّعام، بل كثيرًا ما كُنّا نسقط دون أن نقوم أثناء العمل، وكان من يسقط يُسحب مبدئيًا إلى جهة خالية، وكانوا يُجمعون الجثث، ولا

يقومون بدفنها إلا بعدَ نهاية العمل في الليل.

لم يمنع هذا من أن يأخذوا عددًا منّا إلى مناجم الفحم البعيدة في (زينيتسا) و(كاكاني) و(توزلا)، بعض هؤلاء كانوا محظوظين لسبب بسيط؛ كانوا يحصلون على حصة جيدة من الملح الذي يستخرجونه، كان الملح مهمًا مثل الطعام في تلك الأيام، لأنهم كانوا يُقدّمون لنا ماءً لا أملاح فيه عن عمد، وكان نقض الملح عملية مدروسة وممنهجة، فقد كان لديهم علماء وخبراء يُشِرون عليهم بذلك، إن فقدان الملح بشكلٍ مُستمر يعني فقدان العقل، والوقوع في دوامة الاكتئاب والهذيان والضعف العام.

كُنّا نوزّع الديناميت بحسب ما يطلبون منّا، ثم نقوم بالتفجير، كان عليك أن تكونَ بعيدًا، لم يكن هذا مهمًا بالنسبة لهم، مَنْ كان يقتله التفجير بسبب قلة المعرفة بالمخاطر وعدم اتخاذ إجراءات الحيطة والحذر، كانوا يأتون بغيره دون أن يترَفَّ لهم جفن. المحظوظون هم غُمال المعاول لا غُمال التفجير، كانوا يُعطون تلك المعاول ليحفروا في الصخر على أعماق كبيرة، لم يكن هناك لا هواء ولا ماء ولا أي شيء من مقومات الحياة، نسقط من الإعياء أو من الاختناق أو من الإرهاق، لا ضير ما دام في المعسكر المئات الآخرون من الفرّشحين لجلبهم من أجل أن يعملوا هنا!

كُنّا نستخرج المواد الخام، ونضعها في شاحنات خاصة، وتذهب تلك الشاحنات إلى أماكن التصنيع وإعادة الاستخدام. كانت المناجم البيئة الخصبة لإنتاج الحديد والفحم والمجانيّن كذلك، كُنّا نفقد عقولنا بسهولة، ونُصاب بالإغماء، وبالتشنجات الناتجة عن أمراض

ناشئة من الصرع أو سواه. أنا كنتُ مصروعًا. إنني أعترف لك يا (حارث)، تأتيني نوبات صرع تكادُ تقضي عليّ، أنت الوحيد الذي أثقُ به من أجل أن يستر عليّ، إنه سيؤنا الصغير المشترك، لو عرفوا بذلك فسيتخلصون مني على الفور، أنا مملك أحب الحياة، وأحب أن أخرج من هنا حيًا، لا أدري كم ستطول هذه الحرب ومتى ينتهي هذا الكابوس؟ ولكنه سينتهي، أليس كذلك؟ ونظرَ إليّ ينتظر إجابةً مُظفئة، فهزئتُ رأسي.

كان الغقال في (زينيتسا) يقومون باستخراج الفحم، المصدر الرئيس للطاقة في البلاد، لم تعد طاقةً للبلاد، ولا لنا، ولا لهم، لقد دمروا كل شيء. كانوا يحفرون في طبقات الفحم بمعاول بسيطة، في عمق يصل إلى حوالي ثمانمئة مترٍ تحت الأرض، وكان من المفترض أن يُنقلَ ما نستخرجه من فحم خام عبر السكك الحديدية، ولكنها معطلة، فكنا نضطر إلى نقله بأيدينا إلى سطح الأرض، هل تتخيل أننا يجب أن نصعد بأيدينا العارية بذلك الفحم كل تلك الطبقات حتى يكونوا قادرين على نقله إلى أماكن التصنيع الخاصة، لقد توقفت سكك الحديد عن العمل من بداية الحرب، وأغلقت الأنفاق التي كان يُنقل عبرها، وحتى البكرات الآلية لم تعد تعمل، كانوا يستغلون أجسادنا المريضة أبشع استغلال!

بسبب نقص الكهرباء وقلة العمال جراء الحرب، كان كل واحدٍ منا يقوم بدور الكهرباء ودور مجموعة من الغقال المَهرة، ولم يكن لنا من حظ في الحياة، كان نصفنا لا يعود، ونصفنا العائد تنهشه الأمراض والأوهام والاضطرابات.

كانت لا تزال بعض المُعدّات القديمة تعمل، أو يجهدون في تشغيلها، كانت أجهزة من أيام يوغسلافيا الاشتراكية، كانت تالفة، وكثيرًا ما يتسرب منها غاز الميثان فنقع فريسةً له، هذا غير استنشاق غبار الفحم. وكُنّا نعمل حوالي اثنتي عشرة ساعة في بيئات رطبة وخائقة ومظلمة، ولم يكن أحد يرثي لنا، حتى نحن لم نكن نرثي لأنفسنا!

كُنّا نعمل تحت القصف. كل الظروف الكارثية التي أُحدثت بنا لم تكن كافية، فأضاف لها الجيشان البوسني والصربي قذائف لا تتوقف، وكانت الأرض تهتز من حولنا، وتتشقّق جدران المنجم، وقد تنهار بفعل تلك القذائف فتُدفن تحت الزكام أحياء، ولم يكن ذلك يهزّ شعرةً منهم!

كان المسجد يُقابل الكنيسة في (عمرسكا)، سيقول لك الناس ذلك يا (حارث)، سيقولون إنّنا كُنّا نعيش في وئام وسلام، كان هذا صحيحًا. ولكنه كان ماء يجري تحت الأقدام، كان قشرة رقيقة، حين هبّت رياح الحرب كَشَفَتْ كل شيء، كان الذي يغتصب المرأة البوسنية هو جارها الصربي الذي أكل من طعامها وشرب، وكان الذي يُدلي بمعلومات عن الرجل البوسني هو زميله، وشريكه في المحل التجاري، والشخص ذاته الذي يراه في الشارع كل يوم ويُلقي عليه التحيّة، وصديقه الذي يُهنّئه بالأعياد المُقدّسة كلّما حلّت. الحقيقة شديدة القرب شديدة الخفاء، هذا كان الحال يا (حارث)، أنت تعرف هذا أكثر مني؟ هل كنت تتخيل أنّ أبناء (برييدور) سيقثلهم أبناء (برييدور) نفسها؟ هل قلت لي مَنْ ذلك الذي اغتصب والدتك وقتلها، ثم أحرق بيتكم؟ لا تقل حرفًا واحدًا يا (حارث)، لا أريد أن أثير

مشاعرك، ولا أن أنبش ذكرياتك، نحن نعرف كل شيء!

كان مُعسكر (عمرسكا) يعج بالمجانين، كان الحرس يراقبوننا، كانوا يفتحون أبواب الغُرَف يهيمون على وجوههم وهم يُتمتمون بكلام غير مفهوم، ويُحزكون أذرعهم في الهواء، ويرسمون بأصابعهم دوائر في الفضاء، وإذا كَلَّت أقدامهم عادوا إلى غُرَفهم القذرة، كأنهم حيوانات جرباء تعود إلى أقفاصها! وكانوا يُدخنون السجائر، فلا يشعرون بها إلا إذا احترقت أصابعهم أو شفاههم!

أما البيت الأحمر، الذي كان رمزًا حقيقيًا للموت، في بعض الفترات، فقد قتلوا كل من فيه. لم يخرج أحد منه حيًا. ثم بعدَ يومين ملأوه من جديد بالمعتقلين فوق فراش من دم، وأرض من جثث.

لم يكن الأب يحزن على ذبح ابنه أمام عينيّه، ولا الأم على اغتصاب طفلتها أمام ناظريها، لم يكن هناك وقت للحزن، أعني لم يكن له قيمة، فما معنى أن تحزن؟ ما معنى أن تبكي على ما يحدث؟ إنَّ خزان المشاعر قد نفذ، وفرغ بعد أن تكرر ذلك بشكلٍ دائم، أنت تحتاج إلى قلب سليم ليشعر، وعقلٍ صحيحٍ ليُفكر، ومن كان مِنّا يزعم أنه يمتلكهما؟! لا أحد.

لم يكن للموت تعريف خارج وجوهنا أو أجسادنا، نحن كُنّا، نحن الموت، أعني لقد حل بنا، فلو أردت أن تراه فانظر في وجوهنا، ولو بحثت عنه جاهدًا خارج تلك الوجوه فلن تعثر عليه أبدًا، لقد ترك الموت العالم كله وجاء إلينا، ومثل غمامة لا نهائية، تسَلَّ إلى أضلاعنا واستوطن فيها، وانسدل على وجوهنا وغَظّاها.

كان هناك من يُقاتل في جيشنا، الذي أعاد علي عزت بيغوفيتش

تنظيمه، كان لدينا قادة كل واحد منهم بمئة، قادة اصطنعوا الأساطير، كان هناك (ناصر أوريثش)، و(حسين غراداشتيفيتش) و(علي جرزلي)، وآخرون، وكان هناك من أسس كتيبة من المقاتلين العرب تقترب من أربعة آلاف مجاهد، كانوا يملكون أسلحة خفيفة وبعضًا من تلك الثقيلة، لكن ماذا يمكن أن يفعلوا أمام هدير مئات الآلاف من الضرب المزدوجين بكل أسلحة الدمار الثقيلة، كانت لديهم الطائرات والزاجمات والذبابات والصواريخ، وعدد لا يحصى من العتاد والزجال، كانوا يتفنون في سحقنا، وإرعاب الأمنين، وحرق المذن والقرى، لقد كانوا يقومون بأوسع عملية تطهير عرقي في التاريخ، وكنا نواجه ذلك باليات خجولة!

نحن ذاكرة أبطالنا، أعني أن البوسنة خارج هذه الذاكرة عدم، نحن ذاكرة ضحايانا، وصرخات أمهاتنا، واستغاثات أطفالنا، عليك يا (حارث) أن تحافظ على هذه الذاكرة، نحن منسيون من دونها، وسنبقى كذلك إن لم ندونها ونطلق لها العنان، إذا انتهى هذا الكابوس الطويل، وكُتِبَتْ لك النجاة، وكنت قديرًا على أن تروي كل ما رأيت وسمعت ومررت به، ولم تفعل فأنت أكبر خائن. يكفي من خاننا من العالم أجمع، يكفي أوروبا الخائنة، والذول الضامته، ويكفي أمين الأمم المتحدة الذي كان أكبر شريك في استمرار ذبحنا، كان بيده أن يوقف هذا الجنون، أو يكون سببًا في إيقافه، ولكنه كان يستمتع بقتلنا كما يفعل الآخرون!

(35)

مُعسكر (كيراتيرم)

لم يتوقف مُعسكر (عمرسكا) عن الجنون يا (حارث)، وكان يُمكن أن يأكل عقلي، ولربّما أكل شيئًا منه، غير أن الله أنقذني من الجنون الكامل حين نقلوني مع مجموعة أخرى إلى مُعسكر (كيراتيرم)، وكنت أظن أنني نجوت، فوجدت أنني أهرب من جنون إلى جنون، أول ما وفدت إلى المُعسكر رأيت شخصًا يدور حول نفسه بشكل هستيري، وكان كلما هَزّه أحدنا من كَتِفِه توقف للحظات ونَظَرَ بعينين داميتين ثم تابع دَوْرانه، ولم تُفلح المحاولات في جفله يتوقف، استمر على ذلك ساعات حتى تحول شعوري ثجابه من الإشفاق إلى الانزعاج، كان عَلَيَّ أن أتصَرَّف بطريقة مختلفة، وقفت على ساقي وفي اللحظة التي كان يدور فيها وصار وجهه قُبالتي لَكَفْثُه بأقصى ما أستطيع، فخر مغشيًا عليه، نَظَرَ إلَيَّ الآخرون ولم يلوموني، وكانت عيونهم الضامته تقول: شكرًا.

حين استيقظنا في صباح اليوم التالي، قَدِمْتُ له نصيبه من الطعام، وجلست إلى جانبه، كان ينظر إلَيَّ نَظْرَاتٍ جامدة، وكان فيها شيء من الكره، قلت له وأنا أربت على ظهره بباطن كَفِي: "أنا الذي صَرَبْتُكَ أمس". "أعرف، لقد كان وجهك آخر ما رأيت". "كان لا بد أن أفعل ذلك". "أنا لا ألومك، لو حَدَثَ ذلك أمامي لتَصَرَّفْتُ كما تَصَرَّفْتُ". "ما الذي حدث؟". وصمت قبل أن يبلغ غُصَّة في حلقة: "ما الذي لم يحدث؟". "قل. الكلام يشفي". "أنا أشقى بالدوران". "لن يفيدك". "ما الذي سيفيد إذا؟". "أن تقول. أن تبوح. أن تنظر في

عِيَّتِي. أَنْ أَقْتَسِمَ مَعَكَ لُقْمَةَ الْخُبْزِ. أَنْ أُرْتَشَفَ أَنَا وَأَنْتَ مِنْ كَأْسٍ
وَاحِدَةٍ، أَلَيْسَتْ كَأْسُنَا جَمِيعًا؟". "بلى". "فَمَا الَّذِي حَدَّثَ". "الكلاب..."
وَتَوَقَّفْ وَخَفِّضْ صَوْتَهُ وَهُوَ يَنْظُرُ حَوْلَهُ مَتَوَجِّسًا خِيفَةً، قَبْلَ أَنْ
يُتَابِعَ: "الكلاب..."، وَتَوَقَّفْ ثَانِيَةً، فَشَجَعْتُ: "نَعَمْ، الْكِلَابُ... مَا بِالْ
الْكِلَابِ... نَحْنُ جَمِيعًا نَعْرِفُ هَذِهِ الْكِلَابِ... قُلْ، لَا تَخَفْ...". "الكلاب
أَجْبَرُونِي عَلَى..."، وَتَوَقَّفْ ثَالِثَةً، فَنفذ صبري: "الكلاب يا أخي
أَجْبَرْتُنَا جَمِيعًا، وَلَمْ تُجْبِزْكَ وَحْدَكَ، قُلْ وَخَلِّضْنِي.. الْكِلَابُ هِيَ الْكِلَابُ،
أَرَأَيْتَ كِلَابًا تُغْنِي، الْكِلَابُ تَنْبَحُ، الْكِلَابُ تَعَضُّ، الْكِلَابُ تَعْقُرُ، الْكِلَابُ
تَنْهَشُ، الْكِلَابُ تَقْتُلُ، الْكِلَابُ تَعْوِي... لعنة الله عليك وعلىنا وعلى
الكلاب...". كَانَتْ غَضْبَتِي هَذِهِ بِمِثَابَةِ ضَرْبَةٍ قَوِيَّةٍ عَلَى ظَهْرِهِ مِنْ أَجْلِ
أَنْ يَنْتَقِ بِخَصَّةِ الْكَلِمَةِ الْوَاقِفَةِ فِي حَلْقِهِ.

تَنْحَنِحُ. خَرَجَتِ الْبَحْصَةُ بِشَكْلِ تَامٍ لَكِنْ بَعْدَ مَعَانَاةٍ: "لَقَدْ أَجْبَرُونِي
عَلَى دَفْنِ حَوَالِي مِئَةِ طِفْلِ، بَعْضُهُمْ لَمْ يَكُنْ عَمْرُهُ يَتَجَاوَزُ السَّنَتَيْنِ.
وَبَعْضُهُمْ كَانَ حَيًّا. أَنَا وَمَتَعَوِّشٌ آخَرٌ مِثْلِي، حَفَرْنَا لَهُمْ حُفْرَةً كَبِيرَةً
طَوَالَ الْيَوْمِ تَحْتَ التَّهْدِيدِ، ثُمَّ رُحْنَا نُلقِي جُثَثَ الْأَطْفَالِ وَاحِدًا تَلُو
الْآخَرَ كَمَا نُلقِي قِطْعَةً مِنَ الْخَسِّ، أَحَدُهُمْ كَانَ لَا يَزَالُ فِيهِ رَمَقٌ، كَانَتْ
عَيْنَاهُ تَدُورَانِ، وَكَفَّهُ الصَّغِيرَةُ تَعَلَّقَتْ بِي وَأَنَا أَنَحْنِي لِأَلْتَقِطَهُ، لَمْ
يَقُلْ شَيْئًا، لَيْتَهُ قَالَ، كَانَتْ عَيْنَاهُ فَقَطْ تَقُولَانِ كُلُّ مَا لَمْ تَقُلْهُ شَفَتَاهُ،
اسْتَغَاثَتَا، تَوَسَّلَتَا، هَتَفَتَا: أَنَا مِثْلَ ابْنِكَ، تَخَيَّلْهُ بِالْفِعْلِ ابْنِي، وَلَكِنْ
الْحَارِسُ لَمَّا رَأَى تَلَكُّنِي أَطْلَقَ رِصَاصَةً تَحْذِيرِيَّةً فِي الْهَوَاءِ، وَمِنْ
الرُّعْبِ أَلْقَيْتُ بِهِ سَرِيعًا فِي الْحُفْرَةِ كَمَنْ يَرِيدُ أَنْ يَتَخَلَّصَ مِنَ الذُّهُولِ
الَّذِي سَبَّبَتْهُ لِي نَظَرَاتُهُ. هَلْ يَغْفِرُ اللَّهُ لِي؟". "تَسْأَلْنِي؟". "آه... أَسْأَلُكَ،
هَلْ يَغْفِرُ اللَّهُ لِي". "لَا، لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكَ، سَتَحْتَرِقُ فِي جَهَنَّمَ سَبْعِينَ

عامًا". "ويلي. لا... أنت تقول ذلك لكي تخيفني!". نظرت إليه، أعطيته ما تبقى من قطعة الخبز، ووقفت على قدمي، مشيت مبتعدًا، وتركته في شروده.

كان مُعسكر (كيريتيرم) يا حارث يُلقَّب بـ (مُعسكر الموت)، وكنت أضحك في سزي ساخزًا، إنَّ كلَّ معسكرات الاعتقال في البوسنة والهرسك جديرةٌ بهذا اللقب، لكنَّ زُبما لأنَّه تخلص من جميع الأطفال بذبحهم في بداية إعلانهِ مُعسكرًا للاعتقال، استحقَّ هذه التسمية. كان المُعسكر في السابق مخزنًا لمصنع سيراميك، وكُنَّا مثل السيراميك نُعالج بالحرارة، ونُضغط بالمكابس حتَّى يتراكم بعضنا فوق بعض لتتسع المساحة لأكثر عددٍ مُمكنٍ مِنَّا. وعلى عكس معسكر (عمرسكا) شديد الإضاءة حتَّى لثرى النملة التي تدبُّ فيه على الأرض كان هذا المُعسكر مُعتِمًا، مُغلَقًا من جميع جوانبه، ولم تكن النوافذ الصغيرة التي تعلو جهةً واحدةً منه لتكفي لهواء الآلاف الذين احتجزوا داخله.

كان الخزاس في هذا المُعسكر مُغرمين بمضارب البيسبول، كانَّ هذا النوع من المضارب يتدفَّق على المُعسكر فكنت ترى طبقاتٍ منه في غرفة الإدارة يُسلَّح بها الحرس إذا أرادوا الهجوم والبدء بالتعذيب، وضربة عصا البيسبول إذا كانت قويَّة وعلى الرأس، فإنَّه ليس لها ثانية.

لم يكن في هذا المُعسكر نساء، ولكن لا أدري من أين كانوا يأتون بهنَّ بين فترةٍ وأخرى، خمس عشرة امرأة وفتاة في كلِّ دفعة، يقوم القائد وجنوده باغتصابهنَّ ثمَّ يبعثون بهنَّ إلى معسكر (عمرسكا)

كنوع من إجراء روتيني لم يتوقف عن التكرار

كان معسكر (كيريتيرم) أشبه بمحطة توقيف أو إعدام، لم يكن يمكن فيه المعتقلون طويلاً، كانوا يُرخلون إلى معسكرات أخرى بعد التحقيق معهم وتعذيبهم، أو يُعدمون فيخرجون إلى المقابر الجماعية، أنا لم أمكث فيه سوى شهرين، حققوا معي هناك، ثم قرروا أن يبعثوا بي هذه المسافة الطويلة مع شاحنة مساعدات غذائية من التي تلقىها الأمم المتحدة إلى سراييفو، ثم من سراييفو إلى هنا، حيث أنا وأنت يا حارث في معسكر (باتكوفيتش) اللعين هذا.

لقد تعبث من الكلام يا (حارث)، إن الكلام الذي يُريح هو الكلام الذي يُتعب، وأنا تعبث من كل شيء. إنني أتكلم معك لأحمي نفسي من الجنون. أشعر أن الجنون ضيق تدور حولي طوال الوقت تنتظر مني أن أغفل عنها لحظة واحدة من أجل أن تفترسني، أنا أبقى على عقلي من أن يقع في قبضة الضبع بالحديث، بتذكر الأيام الجميلة، باستحضار صور من أحب، ولكن الضبع لا تكف عن الدوران حولي، لا أدري كم سأصمد، أخشى أن أفقد قدرتي على الاستمرار.

لا يا (جواد)، سنصمد أنا وأنت، وسنخرج من هنا أحياء، وسنكتب كل ما حدث معنا، وسنروي البشاعات التي لم يروها الآخرون، وسنقول كم تخلت أوروبا عن إنسانيتها حين تركتنا نذبح بيد جيراننا، ونؤكل بيد من تقاسموا معنا الهواء والماء والرغيف. من الضرورة بمكان أن نبقى على حياتنا يا (جواد)، من أجل أن نخرج فتكون شهادتنا على ما مر بنا صرخة في وجه هذا العالم الظالم العاري الذي يغطي سواته بورقة تُسقى حقوق الإنسان والإنسانية!

يعمل الزّمن كحَفّار في العقل. يُشوّهه، يحاول أن يغرّز فيه دودة اليأس، أو يعبث بأعصابه ليفقد قُدْرته على الأمل، كان كثيرٌ من المُعتقلين على شاكلتنا، يُحاربون بكلّ ما يستطيعون مخرز الزّمن، يجهدون في أن يبقوا أحياء من أجل آمالي كثيرة ماتت بمرور الأيام، وبقي أملٌ وحيدٌ تشبّثوا به ولم يمت، هو أمل رؤية أحبابهم في الخارج ولو لمرة قبل انقضاء الأجل المقدور!

استطاع المخرز أن ينفذ إلى عقل (جواد) قليلاً، يبدو أن الضّبع التي تدور حوله قد صيّقت حلقةً من حلقات الدوران تلك فباتت أقرب إليه، وباتت أقدر على أن تنهشه، وأن تُصيبه ولو ببعض الجراح.

لم يعذ (جواد) يجلس معي، كان يجلس وحده، ولا يرغب في الكلام، ولم نعد نتقاسم معاً رغيّف الخبز، تعرّض للتحقيق أكثر من مرة، ويبدو أنهم اكتشفوا شيئاً ما عن انضمامه إلى الجيش أو إلى ما يُسقونه عصابات البوشناق، فصار يتعرّض إلى تعذيب دائم. وصارت نوبات الصّرع تأتيه أكثر من السابق، ولم أتخل عنه، كان ذاكرةً جيلنا وجزء كبير من وطننا المذبوح، حاولت أن أنعش ذاكرته من أجل أن يروي لي غير ما روى، لكنّه لم يكن راغباً في ذلك، ظلّ صفته طوال الوقت يُحزنني، ولم يكفوا عن استدعائه إلى غرفة القيادة، والتحقيق معه، وكان (غليغور) يقوم بالتحقيق معه بنفسه وتعذيبه، ولم أكن أملك له عزاءً ولا دفْعاً لما يتعرّض له سوى أن أحضنه، وأقول له بعض الكلمات الدافئة لعلّها تُرّمّ جروحه!

صار في الفترة الأخيرة يهذي وهو نائم، ويستمر هذيانّه وهو

مُستيقظ، كان يصنع بإبهام يده اليمنى دوائر في الفراغ وهو ينطق بكلمات غير مفهومة: "الدرج. الغرفة. توقّفوا... وكان يصرخ بالكلمة الأخيرة. يأكلني... الظلام. أنا. لا... لا... الجدران تتحرك. سيعودون. الله يراني. الشيطان بجواري. تخلّوا كلّهم عني. لا مهرب. الحياة هناك". وكان يدور طوال النهار في الساحة الإسمنتية إلى أن تضطرب ساقاه وتختلجاً فيسقط.

كان الحرّش يراقبون تحركاته، ويعرفون أنّه جنّ أو في طريقه إلى الجنون، لم يكن الوحيد بالطبع، كان هناك عدد آخر من المجانين، ولم يكونوا يعزلونهم، لم يكن هناك مكان من أجل ذلك. كنّا محشورين حتّى أنا فإنا.

ومن الجنون نفسه أن تطلب دواءً لهؤلاء المجانين، دواءً ولو بسيطاً يخفف عنهم شيئاً من ذهولهم أو من معاناتهم، إذا كان الخبز والماء مفقودين وعزيزين، فهل سيتكزّم علينا السجّانون ولو بحبة مُسكّن واحدة!

وكان في المعسكر عدد آخر من المُعاقين، مقطوعي الأرجل والأيدي، ومكشوري الضلوع، والمفقوءة عيونهم، وأولئك الذين أصابهم شلل أو فقدوا القدرة على الحركة. عنّ ببال (غليغور) أن يمارس معنا فكرة الانتخاب الطبيعي، كان ذلك في أوائل عام 1995، جمّع كلّ هؤلاء المُعاقين والمجانين، وحشّرهم في شاحنة عصر يوم من الأيام التي تذبّخ وتشرب وتفتك، وأعطى أوامره للجنود: "امضوا بهم إلى أبعد نقطة من هنا، تخلّصوا منهم بأسرع طريقة". ثم أعطاهم ظهره وهو يبتسم، كأنه يريد أن يقول لنا:

"عليكم أن تشعروا بالامتنان لأنني خلّصتكم منهم".

وهكذا رحل (جواد) معهم، لا أدري كيف قُتل، هل أطلقت عليه
رصاصة من الخلف؟ هل شق حلقه على حجر؟ هل دُفن حيًّا؟
لتحلّ عليك رحمة الله أينما كنت يا (جواد)!

فكرت مالوفتشيتش

لسنا لوئًا واحدًا في مُعسكر (باتكوفيتش)، لدينا مُفكرون، ولدينا أصدقاء نضال وزُفقاء درب للمُناضلين الكبار، لدينا من يعرف (علي عزت بيجوفيتش)، لدينا شاعرٌ صديقٌ له، كان يقول ذلك، لكنني لم أكن أتمكن من الجلوس مع أي واحد؛ ليس لأنهم كانوا مُراقبين أكثر من غيرهم، فجميعنا كان يُنظر إليه من خلال فوهة الرشاش، كُلنا كُنا تحت التهديد، فلم يكن يزيد أحدنا موقعه الاجتماعي أو النضالي حيطةً ولا حذرًا، وإنما كان ذلك لأن الحديث مع المجاميع بوجه عام كان سببًا للموت، والشجقات كانت نادرة. لقد كانت أمنية رائعة لو أنه سمح لنا بالجلوس إليهم، بعضهم كان ذاكرة وطن وتاريخ نضال، وكان يُمكن لحكايتي أن تكون أكثر غناء وسعة لو أنني تمكّنت من أن أكون تلميذًا بين أيديهم. ومع ذلك فإنني لطول عهدي بالمكان صار بإمكانني أن أعرف متى يُمكن أن أجالس واحدًا منهم، وأعرف كيف أجعله يتكلم. إن حياتنا ليست طويلة لا داخل المُعتقلات ولا خارجها، هي قصيرة خاطفة على أية حال، ومن الخسارة بمكان أن أتركها تمر غفلاً، وما صُرّني أن أموت وقد استمعت إلى حكايات أكثر الذين التقيتهم، سأموت مُمتلئًا بدلاً من أموت فارغًا.

كان في مُعسكرنا؛ معسكر (باتكوفيتش) المغني (فكرت مالوفتشيتش)، وكان الحرس يتقصدون إهانتته وضربه أمام أعيننا، كان أحدهم يُناديه كُل صباح: "أيها المغني، تعال إلى هنا"، وكان يقوم بضربه، وبسخله، وبزكّله أمام أعين الجميع. حدث ذلك كُل صباح،

كان ذلك أمرًا مدروسًا، لم ينجُ يومًا واحدًا من الضرب والإهانة.

كان يُغني (الفلوكلور) البوسني، وعددًا من الأغاني الشعبية. كنتُ أعرف ذلك، وكنتُ أستمعُ إلى أغانيه قبل أن يجمعنا هذا المعتقل البغيض، وكفيري لم يكن أحدٌ يملك له شيئًا، ولا أن يدفعَ عنه ضربةً واحدة، ولا أن يحتجَ على ذلك. وكنتُ في مرّاتٍ قليلةٍ أزوره وهو مُقعٍ على خلفيته، رافعًا ساقيه التّحليّتين إلى صدره، جامعًا بينهما بذراعيه، ودافئًا رأسه هناك، ويظلُّ على هيئته تلك ساعاتٍ طويلة. قلتُ له مرّةً في غفلةٍ من غيـون الخُراس: "بوذي أن أدافعَ عنك، ولكن أنت تعلم؛ كلنا مسحوقون، أنت مُعزٌّ رائع وكبير، وأنا أحدُ مُعجبـيك، إن حنجرتك كان يُمكن أن يكونَ لها شأنٌ آخر لو أننا في غير هذه الظروف، وغير هذه الحظائر"، وكان يرفعُ حينها رأسه نحوي، وتدمعُ عيناه، ويشعر بالامتنان، وكنتُ أجلسُ إلى جواره، وأتابع: "إنك بلبل غزّيد، ولكنك تعلم كذلك أنهم لا يستطيعون أن يسمّعوا غناء البلابل، إن غناءها يُرعبهم ويُسبب لهم الدُعر، إنّه يُذكر بأنّ البوسنة لنا، وأننا أبناؤها الأصلاء، لكن، لا تقلق. الليل الذي تنعقُ فيه الغربان لن يطول، الصّباح؛ صباح الحزّة قريب، وحينها سثصغي لك قلوبُ أشجارِ البوسنة قبل قلوبِ أهلها". وكانت هذه الكلمات ثرّمٌ شيئًا من نزيف جروحه التي لا تنتهي، كانوا لا يكفون عن مناداته في كلّ صباح: "أنت، أيها المغني، تعال إلى هنا"، ويبدؤون معه جولةً من التّعذيب.

كان (فكرت) يُغني (السيفدالينكا)، كانت كلماته تُثير الشجون، تُعبر عن الحب والشوق بنغمةٍ حزينة، وعن الزّحيل، وكان غالبًا ما يُغنيها وهو يعزفُ على العود، ومن أين لنا بالعود من أجل أن تُثيرَ هذه الحنجرة شجوننا، وتُعيدنا إلى هويتنا القوميّة؟! وكانت أغانيه

المُصَوِّرة القليلة التي شاهذتها في التلفاز قبل أن يُعتقل الشعب كله في سجن كبير، تُؤدَّى مع رقصة (الكولو)، وإلى هذا كان (فكرت) بارِعًا في الأغاني الصوفية التي كان يُغنيها في المناسبات الدينية والأعياد.

قلتُ له مرَّة، إنني كنتُ مُغرَّمًا بكلمات الأغنية التي غَّناها بصوته الشَّجي:

عندما ذهبْتُ إلى بيمباشا

إلى بيمباشا قُربَ الماء

قابَلْتُ حبيبي مع فتَّيات أخريات

فانكسرَ قلبي

هَزَّ رأسه بأسى، وَضَحَكَ ضَحْكَةً سرورٍ وقَّهر، وَدَمَعَتْ عيناه، وهتَف: "أنتَ تعرفُ هذه الأغنية؟". أجَبته: "بل أحفظُها، وأحفظُ الكثير من أغنياتك". "لقد ذهبَ كلُّ ذلك يا..."، وصمَّت، فسارَعْتُ بالقول: "أنا حارث"، فتابع: "لقد ذهبَ كلُّ ذلك يا حارث، أنا أعذَّب في كلِّ يومٍ، بل إنني حينَ يأتي الليل أتمنى أن يطول ولا يطلع الصُّباح، فأنتَ تعلمُ أنهم يُنادونني كلَّ صباحٍ ليتسلَّوا بتعذبي". حَضَنَتْهُ قَائِلًا: "إنَّه العجز والقَّهر، الكريمُ الله". ومَرَّتْ لَحْظَاتٌ صمَّت، قبلَ أن أقول له: "ما رأيك أن أجمعَ لك عددًا من المُعتقلين الذَّواقين وَثَغْنِي لَنَا؟". نَظَرَ إِلَيَّ فَاتِحًا عَيْنَيْهِ على اثَّساعهما: "هل تريدُ أن تُعرِّضنا للذَّبْح؟". وَرَدَدْتُ مَارِحًا وَسَاخِرًا: "يا سيدي نموتُ ونحنُ نَغْنِي أحسنَ من أن نموتَ ونحنُ نَبْكِي!". ويبدو أن الفكرة أعجَبته، فقال وما زالَ

في صوتِه نَغْمَةُ الحذر: "هل تعتقدُ ذلك؟". "نعم، دَغْنَا نُجَرَّب". "هل نستطيع؟". "قلْث: سنَجَرَّب، دَغْ ذلك عَلَيَّ".

بدءًا من السَّاعة الثَّانية بعدَ منتصف اللَّيل تتراخى قبضةُ كلِّ شيءٍ باستثناء السَّواد، الموت، والجنون، والحَرَس، والعذاب... وفي السَّاعة الثَّالثة فجْراً تكونُ عُيون الحرسِ وأذانهم قد تَهْدَلَّت وصارت ترى ضبابًا وغماماتٍ، وفي هذه السَّاعة بالذَّات، وفي زاويةٍ أعرفُ أنَّها الأبعدُ عن العيون والآذان كُنَّا نَعقُدُ حفلتنا، وكان (فكرت) متحمِّسًا، وكذلك المُعتقلون، وكان فيهم مَنْ يستطيع أن يُقلدَ صوتَ الموسيقى، وحيثُها راحت حنجرة (فكرت) تُغني:

في إسطنبول على البوسفور

عَمَرَنِي الحُزن

أتذكرُ البوسنة؛ جمالها ومياها

قلبي مجروح

وكانت قلوبنا كلها مجروحة، وراحت الدَّموع تسيلُ على خدودنا بصمتٍ، فيما صوتُ فكرت يُعيدنا إلى جمالِ بلادنا، إلى ذكريات أحبائنا، ولم يتوقف هو، إذ شَعَرَ أَنَّهُ كَلَّمَا عَنِّي شَفِي، فراح ينشج:

يا حبيبي أينَ تتجولُ بينما قلبُك يُناديك؟

اثركِ العالَمَ وُعذ إلى البوسنة

حيثُ يعيش الحب

وحيثُها كان يُمكن أن تسمعَ صوتَ بُكائنا، وأشرتُ إلى (فكرت):

"توقّف يا سيّدي، إنّ هذا الغناء يُعذّبنا أكثر ممّا يُعذّبنا هؤلاء القُساة"،
وكان يستمرّ بالرّغم من ذلك كأنّه لم يسمغني، أو كأنّه يريد أن يقول
ومن أنت حتّى تأمرني بالتوقّف عن الغناء؟! أو كأنّه يقول: إنّ النّهر
إذا بدأ بالتدفّق فأيّ شيء يُمكن أن يُوقّفه؟! وغلّني بصوت ازداد
شجناً:

يا إيمينا، يا زهرة الحديقة

عيناك تأخذان قلبي بعيداً

أتجول في شوارع سراييفو

لكنّ روحي تائهة تبحث عنك

وكلّ واحد منا كان له (إيمينا) الخاصّة به، وكلّ واحد منا كان
روحه تائهة. ولم أحتمل أكثر من هذا، وقفت، وتركّتهم يُغنون،
مشيت هائفاً على وجهي، وفي البعيد لَمَع من أحد الكمان ضوء
كشاف!

في الصّباح نادوه كالعادة: "أيّها المُغني، تعالَ إلى هنا"، وعذّبوه
هذه المرّة كما لم يُعذّبوه من قبل. وسكّت صوته طويلاً، ثمّ غاب ولم
أعد أراه، ولا أدري إنّ كانوا قد شقّوا حنجرته، أم أنّهم رخلّوه في
الشّاحِجات مع دفعات التّرحيل إلى المُعسكرات الأخرى!!

كيف تبعث الحياة بالنّاس في مذاهب شتى، وفي سبل مُتعرّجة،
وفي مُنعطفات مُلتوية؟! كيف تجمعهم ثمّ تُبعثرهم، وتجمع ما تبعثر
منهم ثمّ تُبعثره من جديد؟! كيف تأكل في بطنها النّاس وكيف
تلفظهم؟! كيف تدوس عليهم بأقدامها العملاقة ثمّ ترفعها؟! كيف

تقبض على أعناقهم فتضغط عليها ثم تتركهم في آخر نفيس قبل أن يختنقوا؟! هكذا كان معسكر (باتكوفيتش)!

أين يمكن أن تكوني يا (سلمى)؟ أي محطة حلت، وأي موضع نزلت؟ كيف تنامين؟ كيف تأكلين؟ هل تتدبرين أمرك جيدًا؟! لا تقولي لي ذات يوم إذا التقينا شيئًا، لنجعل سنوات الاعتقال جزءًا منسيًا من أيامنا، لا تحدثيني عن شيء فيها، إلا إذا كان الحديث عنها يخلصك من الآلام ويطهرك من الأوجاع. إذا أردت أن تحدثني إليّ فحدثيني عن طفولتنا البريئة، عن الفراشات والعصافير، عن دفتر ألوانك، أمن المعقول أنهم رأفوا بك فأعطوك ورقًا وألوانًا لكي ترسمي؟! كان يمكن أن تكوني الزسامة الأولى على مستوى البلاد كلها لو أن الأمور لم تسز على النحو الذي سارث عليه، لو أن الأمور سارث بشكل طبيعي، كان يمكن أن تذهبي إلى أوروبا في المعارض الكبرى لتعرضي لوحاتك وتفتخر بك البوسنة. أيها القلب الذي بين الضلوع، إنه لو كان له صورة لكانك، ولو كان لبشر أن يحتل جزءًا منه، فستحتلين الجزء الأكبر والأوسع.... ثم ماذا عن أبي؟ هل رأيته ولو عَرَضًا في محطات الترحيل، هل التقيتما ولو ضدفة، هل سمح لكم الزمان البخيل باللقاء؟! أموت من أجل لحظة أنظر فيها إلى عينيّك، أغوض في بحرهما، أعتذر لك عن كل كلماتي التي لم أعنيها يوم أن كنّا نتشاجر، وأعوّضك عن كل أيام الحرمان. حدثيني إذا كتب لنا الله النجاة عن الغد، عن المستقبل، عن عالم بلا قيود، وبلا شجون، وبلا قسوة، عن عالم يعيش فيه الناس دون هموم. ويا أبي، يا دمة في العين لم ترقأ، ويا بسمّة على الشفاه لم ترتسم، أين حظت بك المنافي، فأني والله إلى حضنة من ذراعيك لمشوق؟!

نحن محرومون هنا من كل شيء، أتذكر صوت الأذان، أستعيذه،
أشتاق إليه، أشتاق إلى كلماته من فم الإمام (شريف) رحمة الله
عليه، أشتاق إلى ليالي رمضان مع أبي عنده، إلى ليلة القدر التي
غذت زوحي، لولا تلك الزوح التي تشكّلت على معاني تلك الليلة
لفقدت عقلي وحياتي منذ زمن بعيد.

مر ما يقرب من ثلاثة أعوام على أول الذبح والاغتصاب الذي
عائشه وعائنته؛ في ربيع عام 1995م تعرّفت على معتقل وفد إلى
(باتكوفيتش) من أكثر من عام، كنت أبحث عن الذين لم تُقتطع
ألسنتهم، إمّا على الحقيقة أو على المجاز، حيث لم تسمح لهم ظروف
الاعتقال أن ينبسوا بحرف واحد، في هذا البحث المحموم الذي
لا ينتهي التقيث (سامي)، لديه عَرَج في إحدى ساقيه، كان قليل
الكلام، لكنني كنت أعرف كيف أصيد منه ما أريد!

(37)

الذهاب جنوبًا

كنت أراجع في مستشفى الأمراض الصدرية في مدينة (دوبوج)، قال (سامي). لم تكن الحرب قد غرزت أنيابها عميقًا في أجسادنا بعد، كان ذلك في البدايات، ولكنها كانت بدايات كشفت بسرعة عن الوجه القبيح للإنسان. اقتحمت القوات الضريبة المستشفى، وألقت القبض على مدير المستشفى أو نائبه لا أتذكر يا (حارث)، وقامت بشنقه على شجرة في حديقة المستشفى!

أصابني ذلك الحادث بصدمة، ذهلت، لم أكن أعرف أن الإنسان ينقلب إلى وحش بأقل من طرفة عين، نسيث مَرَضِي في ذلك اليوم ولماذا أنا أراجع المستشفى، وحدث إلى البيت مرعوبًا، حدثت زوجتي بما رأيت، وقلت لها: "إنني خائف، أخشى أن ينتشر هذا الجنون ويَطَالُنَا". وكانت خائفةً مثلي، فاقترحت عَلَيَّ أن نذهب جنوبًا إلى قرية (سوتونيا) حيث يعيش أهلها. لم أرتخ للأمر في البداية، فعملي هنا، ولا أستطيع أن أتخلى عنه، إذ كيف نعيش دون مورد مالي. لكن الحرب كان لها رأي آخر، هنا في (دوبوج) بدأ كل شيء يتغير، صارت فكرة زوجتي قابلةً للتطبيق هربًا من الثيران التي تمتد حولنا وستصل إلينا قريبًا بلا شك.

غادرنا أنا وزوجتي وطفلاي، باتجاه قرية (سونيتا) في بلدية (موستار)، هالتي الجنوب المُدمر، والأدخنة التي تتصاعد سوداء كثيفة في المناطق المحروقة، التفث إلى زوجتي، كنت أريد أن ألومها، أو أقول لها: "ألى هنا أتيت بنا؟! ألا ترين الدمار الذي لَحِقَ

بهذه القرى على الطريق؟". لكن لم يكن لي لأقول ذلك، وأنا أعرف أن الوسط والشمال قد بدأ وحش الحرب يسحقها هي الأخرى. كانت الإذاعة تذيع خبر مذبحة (أوبوراك)، لقد قتل الضرب مئة وأربعة عشر بوسنيًا وكرواتيًا، وألقوا بهم في مكتب نفايات القرية، تخيلت سيقانهم التي تظهر من قلب المكبات، وأذرعهم التي تتدلى إلى الخارج من أطرافها، ورؤوسهم التي تتجاوز في نظرتها الأخيرة، والجثث المكدسة، أفأكون قد هربت من الموت لأجده يستقبلني هنا. فكرت بالعودة إلى الشمال إلى (دوبوج) حيث أعمل، أدزث بالفعل مقود السيارة وشرغت في طريق العودة، تلقاني حاجز لم أنتبه إليه على يمين الطريق، ودون أن يوقفني أو يسألني أطلق النار على سيارتي مباشرة، هلعت، لم أعرف ما أفعل، من هول ما رأيث، كرزت هاربًا من الحاجز باتجاه (موستار).

وصلنا إلى قرية زوجتي ونحن لا نكاذ نُصدّق ما نرى. استقبلنا عقي وعفتي، كانت وجوههم شاحبة، لم يأكلوا منذ أيام، قالوا: "إن الضرب قد فرضوا حصارًا على موستار وكل ما يؤدي إليها؛ كيف وصلثما؟"، لم أدري ما أقول، أنزلنا أغراضنا من السيارة التي كان قد انكسر جزء من زجاجها الجانبي، وصنعت الطلقات ثقبًا واضحة في أحد الأبواب اليسرى للسيارة. كان معنا دقيق وشكر وشاي وخبز وبسكويت وكعك وعدس وفول وبعض اللحوم، كنّا قد أتينا بكل ما في بيتنا في الشمال.

كانت الأجواء مشحونة، والثرقيب سيد الموقف، يبدو أن عددًا لا نهائيًا من الغربان السوداء ومن طيور الموت قد حظت على أشجار الغابات في البوسنة، وبدأت التعيق الجماعي، كان كل غراب ينعق

يموت لنعيقه العشرات، لا أدري لماذا اخْطِطَ وطني على هذا النحو بهذه السرعة. صمدتِ الأطعمة التي جِئت بها عشرة أيام، لم يعد هناك مكانٌ نشتري منه ما نحتاج، الحصار على (موستار) يزداد، والحرب بدأت تتسارع. لقد كنّا نعيش حربًا داخل حرب، كنّا حلفاء مع الكروات ضدّ الضرب في البداية، ثمّ تحوّل الأمر، انتصر الذين على الجيرة، والعقيدة على التحالفات، الأمر مُعقّد لفهم كيف تجري الأمور، في النهاية إذا جمّعنا دينٌ واحدٌ مع اختلاف مذاهبنا، فإنّ القواسم المشتركة ستكون أكبر ممّا لو اختلف الذين واثق الجوار، ثمّ تحوّل كل ذلك إلى صراعٍ على الأرض، ونشبت حربٌ أخرى مع الكروات.

أفقت أنا وزوجتي وطفلاي وأبّوأي على هدير الدبابات، كانت القرية قد اجتاحت من كلّ مداخلها، وبدأ الضرب بنهب المنازل وحرّقها، ثمّ راحوا يُمشطون القرية، ويفرزون الزجّال، وبدؤوا بإعدامهم في الحال، أعدموا أوّل دخولهم واحدًا وخمسين من شباب القرية، صاح بي أبي: "لدينا مكانٌ نختبي فيه". هبطنا إلى الملجأ وبقينا فيه يومين، لم يكن لدينا سوى الماء، وحين بدأنا نشعر بالجوع والإنهاك والاختناق صعدنا إلى السطح، كانت الأدخنة جزاء الحرائق ما تزال تتصاعد، كانت الأرض الخضراء قد اسودّت، وقد انتشرت الجثث أمام البيوت وفي الشوارع، وكانت قد تركت من دون أن تُدفن. لم أكن أستطيع أن أفعل ذلك وحدي، بحفت عمن تبقى من شباب القرية، لم يكن قد ظلّ فيها إلا من اختبأ، البقية إمّا قُتلوا وإمّا قُزوا، الأمر ليس سهلاً، كيف يُمكن أن تدفن عشرات الجثث وتحفر لهم عشرات القبور، لم يستجب لي في البداية أحد،

ولكن في اليوم الثالث لَمَّا بدأتِ الزَّوْائِحُ تنتشر، وصارت الزَّائِحَةُ الكريهة عذابًا أشدَّ من الموت، اقتنع بعضهم. ولم يكن من المُستطاع أن نحفرَ لكلِّ واحدٍ قبرًا، فاضطررنا إلى أن نحفر ثلاثَ حفرٍ كبيرة، ودفنناهم فيها.

ازداد الأمرُ حُطُورةً مع الوقت، وازداد الحصار، ومع استفحال الجوع والعَطَش، كان أبواي اللذان نَجَّوَا من المذبحة الأخيرة يموتون من الجوع، كانا مُنْهَكَيْنِ تمامًا، ورَقَدَ كُلُّ واحدٍ منهما على سريرهِ بانتظارِ النهاية.

جُنَّ الجنود مع الوقت، هاجمَ البوسنيون قرية (غرابوفيتشا) وقتلوا ثلاثة عشر كرواتيًّا في القرية، كما هاجموا قَرْيَ أُخْرَى وقتلوا عددًا من الضرب والكروات من أجل فَكِّ الحصار عن (موستار)، وكانت الحربُ تُطِيلُ أَمَدَهُ أَكْثَرُ مِمَّا تُقْصِرُهُ، وكَدْتُ أنا وعائِلتي نموتُ جوعًا، كانَ لا يزالُ لديّ بعضُ النُّقود، وسيَّارتي مع ما أصابَها لا تزالُ تعملُ، فقَرَزْتُ الخروجَ للبحثِ عن شيءٍ يُمكن أن يُشترى لِسَدِّ رمقنا، قالت لي زوجتي: "لا تخرج. الضرب في كلِّ مكان. والحرب لا ترحم. والحواجز أَكْثَرُ من الأشجار. وأنا خائفةٌ عليك". أجبتها: "وأنا خائفةٌ كذلك، ولكن كيف يُمكن أن نواصلَ الحياةَ وهذه حالنا، نحنُ لم نأكل منذَ أسبوعٍ؟!". بكث، ضَمَّنِي إليها، وقالت من خلال دموعها: "اقرأ في الطريق سورة يس".

خرجتُ باتجاه قريةٍ أُخْرَى من القَرْيِ التي اعتقدتُ أنَّها لم تُدمَر بعد، ولم تصلَ إليها النيران، لعلِّي أجدُ دُكَّانًا مفتوحًا، أو أطرقُ بابَ بيتٍ أشتري منهم ولو رَغِيْفًا واحدًا. توجَّهْتُ نحو قرية (كامينا)،

وحيث اقتربت منها عرفت أنها لم تسلم هي الأخرى، وقررت أن أغامر وأدخلها لعلي أظفر بما أريد، كانت الشوارع خالية، والشكان قد تركوا البيوت وهربوا، فكّرت أن أدخل إلى أحد تلك البيوت وأخذ ما بقي فيه من طعام، وقبل أن أقدر ذلك، نظرت إلى ما في يدي من مال، وخاطبت نفسي: "أكمل جولتي قليلاً، فإن وجدت من يبيعني الطعام اشتريته، وإن لم أجده، دخلت إلى هذه البيوت". كان هذا آخر ما فكرت به حين ضربتني قذيفة هاون على ما عرفت فيما بعد. طارت سيارتي إلى الأعلى ثلاثة أمتار، وسقطت معها بين الموت والحياة، كنت أطيّر إلى الأعلى والأشجار تهوي برأسها من الأعلى إلى الأسفل، كان الشارع مقلوباً، كأنه فوق رأسي لا تحت قدمي، وكانت شدة الضربة قد أصقتني، فلم يعد هناك صوت، كان صفح تام، من ذلك النوع الذي يسبق الموت، وخلال هذه الارتقاء التي لم تدم إلا بضع ثوانٍ، رأيت زوجتي على باب بيتنا في (دوبوج)، وهي تقول لي: "لم تعد هذه المدينة آمنة، علينا أن نتجه جنوباً". "بيت أهلي هو بيت الأمان". "لماذا لا تريد أن تُصدقني؟!". "إن أطفالنا في خطر". وكانت عيناها مليئتين بالرجاء بحيث لم يكن الرفض ممكناً. ثم رأيتها تخاطبني بالهيئة ذاتها ولكن من أمام بيت أهلها: "لا تذهب، لا أريد أن أفقدك". "لماذا تغامر هذه المغامرة الجنونية؟!". "نحن هنا في أمان وإن كنا جائعين". ولم يكن الجوع إلا أشد أنواع الأمان فقداً، إنه أوجع من كل شيء آخر، لم يعد ممكناً أن أقبل هذه المرة. وها أنذا أرتطم بعد هذه الثواني الأربع بالأرض أنزف داخل سيارتي. هرع الجنود الضرب إلى السيارة. ظنوا أن فيها ما يمكن أن يُسرق. لم يكن فيها سواي، لم يكن فيها طعام ولا شراب ولا سلاح، أما المال

فأخذوه، وأنا؟ تركوني ظائنين أنني ميت، ومضوا.

حينَ استيقظتُ من الانفجار، كانَ الدَّم لا يزالُ يغطي وجهي، وقد تجعد بعضُه تحتَ جفوني، وكانت ساقِي قد كسرت، والشظايا تملأ صدري. فتحتُ عينيَّ أستطلع المكان، كانَ الدخان الذي يتصاعدُ من كلِّ مكان هو أوَّل ما رأيته، سحبتُ نفسي بصعوبة خارجَ السيارة المقلوبة، وبدأتُ أزحف على الشارع، كانَ مليئًا بالخفر التي خلقتها قذائف الهاون، وبقايا جذوع الأشجار، والأشلاء، والزدم، وكانت هناك أصوات في البعيد لا أتبيّن إن كانت للجيش البوسني أم للجيش الصربي، تابعتُ زحفي إلى أوَّل جدارٍ قريب من الرّصيف نصف منهار، وأرحتُ عليه ظهري، حاولتُ أن أجِدَ خشبةً أعذل بها رجلي المكسورة، ومع معرفتي بالإسعافات الأولى، نجح الأمر إلى حدٍّ ما بعدَ صرخة تفجّرت في الفضاء.

تربعتُ الشمس على كرسي السماء، وأنا لا أزال هنا وحدي، أوقفتُ التّزيف ببعض الشرائط التي شققها من صداريتي، وبقيتُ أنظر إلى الشارع الخالي من الأحياء، وأمدّ الطرف إلى الأفق، كنتُ قد بدأتُ أشعرُ بالإعياء، وتمنيتُ لو أنني أستطيعُ أن أقودَ سيارتي وأعودَ إلى زوجتي وعائلي وأخبرهم بما حدث، لكنّ الأمنيات وجه المستحيلات. بقيتُ على تلك الحالة حتّى راحتِ الشمس تهوي باتجاه الغرب، وبدأ المساء يحلّ تدريجيًا، وقبلَ غروب الشمس بدقائق، في الساعة التي يكون الهدوء فيها أجرح ما يكون، سمعتُ هديرَ مُحركٍ ضخيم، كان مصدره من أوَّل الشارع من الجهة القصية، هاجمني الخوف والظمأنينة، لو كانوا من الجيش البوسني فلربّما أنجوا، وإذا كانوا من الصّرب كانت النهاية. بدأ الصوت يقترب

رويدًا زويّدًا، ورحث أستطلع بعينيّ الجهة التي يأتي منها، فبرزت
هياكل كبيرة وعالية، بدأت أترقبها حتى اقتربت الآليات أكثر فتبين
أنها دبابتان وشاحنة، كانت المدرّعات تدوش في طريقها الجُثث
فتعجنها عجّنًا وتطحنها طحّنًا، وشعرْتُ بقرب انتهاء حياتي، ولَمّا
صارت الذبّابة الأولى على موازاتي، صرّخ أحدهم: "هناك شخص".
ورأيته تحدّث باللاسلكي وأشار بيده إليّ، ثم رأيته قد هزّ رأسه،
ونزل من الذبّابة وتوجّه نحوي وهو يُصوّب رشّاشه إلى رأسي،
صرخ: "ما اسفك؟". "سامي". "بوسني حقير". وجذبني من ذراعي،
وعرّجْتُ على رجلي السليمة، وألقاني في الشاحنة، التي اكتشفت
أنهم قد ألقوا فيها عشرة قبلي!

(38)

مُوسْتَار

صحوث في اليوم الثالي لاكتشف أنني في مُعسكر (فوينو)، كان المُعسكر مباني عِدة صغيرة، وهي في الأساس (هنجرات) عسكريّة، والمُعسكر يقع ضمن منطقة عسكريّة، لم يتسنّ لي أن أتعرّف إلى الناس خارج المبنى الذي كنت فيه، كان كلّ عددٍ من المُعتقلين في مبنى معزولين عن الآخرين، وفي يومي الأول هنا كنت أعاني آلامًا قاسية بسبب ساقِي المكسورة، مع الزّمن خَفّ الألم، ويبدو أنّها انجبرت، لكنني ظللت أعرج بعد ذلك.

كان المبنى العسكريّ الذي احتجّزْتُ فيه غرفةً واحدة عالية، سقفها يُشبه سقف الأكواخ، وكان مليئًا بالشقوق بحيث تتساقط من السماء إلينا كلّ ما يُمكن أن تبعثه؛ شظايا، طيور ميتة، جزمات، وأتربة، وبعض جذوع الأشجار المقصوفة، وفي بداية الشّتاء الأمطار التي كانت تُحوّل الأرضيّة الثرابيّة إلى طين. وكانت غرفتنا ثمانية أمتار في سِتّة، وفي المتريّن الأخيرين دَكّة إسمنتية ترتفع حوالي نصف متر، وكانت مُغلقة بدرابزين من الحديد على عَرْض الغرفة، ولم يكن يُسمح لنا بالانتقال إليها، فيما امتلأت المساحة المُتبقيّة بأكثر من ثمانين مُعتقلًا.

كان أحد جدران المبنى الأربعة من (الزّينكو)، وكان قد صِدئ لطول العهد، ويبدو أنّ المكان كان مهجورًا من قبل، أو كان مخزنًا للذخيرة العسكريّة، وكان من السهل أن تُحدث ثقبًا في جدار (الزّينكو)، أو تُوسّع بعض هذه الشقوق المنتشرة فيه بحيث تسمح لجسدك النحيل

أَنْ يَمَزَ، وبالطبع لم تُفارقني فكرة الهرب من خلال ذلك الجدار في كل يوم تقريبًا.

عرفت فيما بعد لماذا تركوا الجزء من المترين الأخيرين في الغرفة فارغًا، مع أننا كنا بحاجة إلى كل سنتيمتر بسبب الاكتظاظ الخانق، لقد كانوا يعتقدون فيه محاكمات لا تستمر أكثر من عشر دقائق لعسكريين بوسنيين وبعض الضرب، ثم يقومون بإعدامهم شنقًا، من خلال حبل يتدلى من السقف، وكُرسي مهترئ استُخدم لدفعه من تحت أقدام المحكوم عليهم.

وكانت له أغراض أخرى. كان يتحول في أيام أخرى إلى حلّبات ملاكمة بين الشجناء، يُجبرون على تقصص شخصيات الفلاكمين والبدء في الصراع، يجب أن يسيل الدّم من الأنوف ويُغطي الوجوه وإلا فإن السباق يستمر طوال اليوم.

وكانت لديهم طُرُق أخرى للتسلية، كانوا يأتون ببراميل يملؤونها بالماء، ويُمسك الحارس برأس المُعتقل ويُغطّسه في الماء، فيما يكون هناك حارس آخر ينظر إلى ساعته، يضبط الوقت، كانت ذراعا المُعتقل تتخاطبان في البداية، فيما يشد الحارس بقبضته بقوة على رأسه المُغرّق في الماء، ثم تبدأ رجلاه بالزفّس، والحارس الثاني تشتعل فيه الحماسة، وهو يُعلن ثلاث دقائق، وكانت الإشارة لرفع رأس المعتقل المُغطّس في الماء هي توقف ذراعيه وساقيه عن الحركة، حينها يرفع رأسه ويرميه على الأرض صائحًا بالحارس الآخر: "كم استحمل؟". فيردّ عليه وهو يصرخ من النشوة: "خمس دقائق وعشرين ثانية".

أخذونا في أعمال الشخرة طوال شهر، كان علينا أن نعمل في التحصينات العسكرية للكروات ضد البوسنيين أو الضرب، كُنّا نحفر الخنادق، ونحمل صناديق الذخيرة، وأكياس الرمل، وبنينا الكابينات من جذوع الشجر، وفي هذه الأثناء كانت تهوي على رؤوسنا قذائف الهاون والمدافع من الجبال القريبة، ومات عدد كبير منا بهذه القذائف، غيرَ مَنْ مات من الجوع والتعب.

صرنا نواجه الكروات مع الضرب في هذه الحرب الضروس. قصف الكروات جسر (موستار)، فانهار تاريخ عمزه أكثر من أربعة قرون. سقطت حجارته في نهر (نيريتفا) فناخ، وبكى، وزّى، لم يكن مُجَرّد جسر، كان معادلاً للهوية الثقافية وللوجود الحضاري، كان يُمكن إذا مررت به أن تسمع حجارته تبكي منذ ذلك اليوم إلى هذه اللحظة.

ظلت كلمات زوجتي الأخيرة تطرق دماغي، واستحوذت على خيالاتي نظرات طفلي، وصورة أبوي الزاقيدين على فراشهما وقد تقلصت أحجامهم الطبيعية إلى النصف، قزّرت حينئذ أن أهرب، وحدثت نفسي: "لو قنصوني أثناء ذلك، فيكفي أنني حاولت". وبالفعل عملت طوال عشرة أيام - مُحاولاً تجنّب عيون الحرس - على توسيع شق في جدار الزينكو، وكنت أعيد الصفيح الذي ألويته إلى مكانه بعد توسيعه، واختزنت ليلة يكون فيها القمر مُحاقاً، ووسّعت تلك الفتحة أوسع ما يُمكن، ولقفت نفسي، وبصعوبة استطعت الخروج، ووقفت أستنشق هواء الفضاء الخارجي على حدّ الجدار، وتلفتت حولي فوجدت أن المُعسكر يغط في العتمة، فنما الأمل في أعماقي، ولكنني تحيزت إلى أي جهة أهرب، فأنا لا أعرف بين مجموعة هذه المباني أو الهنجرات الصغيرة جهة الخروج. قذرت

الجهة بحسب الحدس، ورُخْتُ أركض نحوها، كان كل شيء جيدًا، الخزاس يغطون في نوم عميق، والليل شديد السواد، ولولا بصيص نور من أمام إحدى الغرف التي يبدو أنه ينام فيها الخزاس لكان المعسكر كله يغرق بكل بوصة فيه في الظلام. وركضت أكثر لكن عرجتي كانت تجعل ركضي مشوّهاً، لقد خائنتني بالفعل، وحدثت نفسي: "ما دام لم ينتبه أحد فإن النجاة ممكنة"، وزاد الاحتمال مع الوقت، وصارَ المعسكر وراء ظهري، وإذا ذلك نبخ كلب فجأة، ولا أدري إن كان من الكلاب الضالة أم من كلاب الجراسة، حينها استيقظ أحد الخزاس، وأضاء كشاف لم أكن أعرف أنه موجود، وسمعت سخب الأقسام، وصوت رصاصة تنطلق، وصوت الحارس: "توقف، وإلا رميئك". وتوقفت جازعاً، وانهار بناء الأمل في أعماقي انهياراً تاماً.

أعادوني إلى المعسكر، ولكن ليس إلى غرفتي، بل إلى غرفة أخرى أصغر، لم يكن فيها سوى عشرين معتقلاً على أحسن حال، ولم أستطع أن أكلم واحداً من الخوف، عرفت فيما بعد أن معظمهم سياسيون أو من المعارضين، وفي الصباح تلقينا جميعاً صعقاً بالكهرباء جعل كل خلية في أجسادنا تتفجر، أو يحدث لها استقطاب فيبعث بها إلى اتجاهات متنافرة. ثم في ظهر ذلك اليوم حملونا في شاحنة كانت متوقفة في طرف المعسكر، وأمرهم القائد: "لا تبقوا على حياة واحد منهم".

مشيت السيارة عبر طريق لا أعرفه، يبدو أنهم سيأخذوننا إلى جبل (برينج) كما سمعت من الحرس، ويقومون بإعدامنا هناك، طافت في خيالي صور الماضي، سأموث بعد ساعة أو ساعتين، سيصبح هذا

العالم المجنون خلفي، ستأتيني رصاصة من الخلف، سأكون أحسن خطأ من غيري، لأن الرصاصة ستصيب جمجمتي بشكل مباشر، سأهوي في الحفرة المعدة لنا بشكل سريع دون أن أحس بشيء، كل ما أريده أن أموت دون ألم، دون أن أحتضر، لا أستطيع أن أحتمل ألم النزع طويلاً، والزوح تغالب الجسد في محاولتها للخروج.

هذا وجه طفلي (ثور)، وهذا وجه طفلي (سالم)، إنهما يتسمان، سيستمران في الحياة إن مت، سيرعاهما الله، أبي وأمي لن يحتملا طويلاً، يكفي أن تسحب زوجتي على وجهيهما الغطاء، وتنتظر حفار قبور كريقاً من أجل أن يدفنهما في حديقة البيت، أما زوجتي الغالية، فسترعى طفلينا، وستكون الأقدار كريمة معها، وستنال تعويضاً من الدولة عن زوجها الشهيد، ولو نصف راتبي الذي كنت أتقاضاه؛ وهذا كاف في تقديري... ارتجت الشاحنة في الطريق بسبب صعودها على حجر أو جسد آدمي، فارتججنا معها، كانت تلك الزجة قد أيقظتني من خيالاتي، واستمرت تتهاى في سيرها باتجاه الشمال.

بعد مرور ساعة توقفت الشاحنة عند أحد الحواجز، سمعت أحد حراس الحاجز يسأل السائق: "إلى أين؟". "معنا مجموعة من المحكوم عليهم بالإعدام". "أوف... إن هذا لا ينتهي، الشاحنات التي تمر من هنا تحمل مثل هؤلاء كثيرًا، هذا عبء إضافي، ألا يمكن أن تطبقوا عليهم أحكام الإعدام من حيث أتيتم؟!". "أنا أنفذ الأوامر؟". وأغضبت الكلمة حارس الحاجز، فصرخ: "أنت على حاجزي، عليك أن تنفذ أوامري، أنا الذي يطلق الأوامر لا أنت؟". وسكت السائق، وكذلك حراس الشاحنة، وبعد مرور أقل من دقيقة تمثيث فيها أن

يتصاعد الغضب من الطرفين فيُشهر كل طرف السلاح في وجه الآخر، ويبدأ إطلاق النار، لكن هذه الأمنية كانت سرابًا، بعدها قال حارس الحاجز: "هل معكم بريء عسكري؟". "لا". "أنا لدي بريء عسكري". "أنا لست مُخوّلًا بنقل البريد". وسمعت صوت الغضب يتفجر: "قلت لك أنا الذي أفرض الأوامر"، وتحفز جنوده الآخرون على الحاجز لما سيحدث، ووجهوا بالفعل رشاشاتهم نحو حرس الشاحنة، حين تدخل الحارس الذي يجلس بجانب السائق: "كفى. لا نريد أن يقتل بعضنا بعضًا. ماذا أصابكم؟!". وهتف قائد حرس الحاجز: "إذا عليكم أن توصلوا البريد". "هات البريد. لعنة الله عليك وعلى البريد".

كان البريد - كما سمعت من آخر عبارة قالها حارس الحاجز مُستعجلاً - ويجب أن يُنفذ على الفور. ولذا أجّلوا فكرة إعدامنا. كان البريد يتضمن أنواعًا من الأسلحة، وتقارير استخباراتية، وبدلات عسكرية، وبعض الثحف الخاصة بالقادة، وبعض الضناديق التي تمتلئ بغلب الشجائر.

مرزنا في طريق (M17) باتجاه (سراييفو)، كان السائق غاضبًا يشعر بالإهانة، ولهذا راح ينهاض الأرض نهبًا، وكنا نرتج ونضطرب في قعر الشاحنة المُسرعة، وصلنا إلى (سراييفو) عبر أكثر من نقطة تفتيش، كانت تخضع لحصار خانق، ولكن السائق كان يملك جواز المرور لأنه ليس من البوسنيين، مررنا ببلدة (كونييتس) على بعد ستين كيلومترًا من (موستار)، سلم الحارث البريد الأول للقاعدة العسكرية المُقامة في البلدة، كانت القاعدة تُقطة تماس، لم يهدأ القصف وصوت القذائف أثناء التسليم، ثم انطلقنا من هناك قاطعين

سّتين كيلو مترًا أخرى تقريبًا حتّى صرنا على مشارف (سراييفو)،
سَلَم الحارس عند حاجز (إيليدجا) البريد الثاني، وبدأت الشمس
تنزل من القُبّة، كانت لا تزال لم تتخلّ عن مركزها، تمامًا مثل القناصة
الذين كانوا يُطلقون الرصاص علينا في الطّريق، وكان السائق يزيّد
في سرعته كلّما سمّع ذلك. وخلقنا كُتًا نسمع انفجارات الألغام.

توجّهنا شرق (سراييفو) إلى بلدة (باليه) التي تقع على بعد مئة
وخمسين كيلو مترًا من (موستار)، لعنة الله على السائق وعلى
الحرس وعلى الحرب، هل سيعبرون البوسنة من جنوبها إلى شمالها
في يوم واحد؟! سمعت السائق يقول للحارس الذي يجلس بجانبه:
"لم يبقَ على مغيب الشمس سوى ساعة، دَغنا نُبت هنا، وفي الصّباح
نواصل المسير". ردّ عليه: "سُقتل". "وما المحطة الأخيرة؟!". "معسكر
باتكوفيتش". "وما البريد المُستعجل الذي سئوِّصله إلى هناك؟".
"السّجائر". "السّجائر؟!". "إنّها أوامر". ولكن...". "السّير في اللّيل آمن".
وانطلقت الشّاحنة.

توجّهنا شرقًا هذه المرّة، مرزنا بمنطقة (شيبا) قريبًا من
(سربرنيتسا)، وسلّفنا بريدًا هناك، ثمّ نهب السائق الطّريق إلى
الشّمال، مُحاذيًا لنهر (درينا)، ومع القذائف التي تملأ السّمع وتُضيء
اللّيل البهيم، وصلنا بعد حوالي عشر ساعات، وقد انتصف اللّيل.
وهكذا صرّث معتقلًا معك يا (حارث) في معسكر (باتكوفيتش).

الأحلام تَعُودُ!

لم يبقَ أثرٌ في مدينة (موستار) قائماً على قَدَمَيْهِ يا (حارث)، جُنَّ جنون الثلاثة، الضرب والكروات والبوسنيين، وحينَ كان التحالف قائماً بين الكروات والبوسنيين ضدَّ الضرب قبلَ أن ينهار، كانت الحربُ قد تسبَّبت بأضرار جسيمة لكلِّ ما هو تاريخي، ليسَ جسر (موستار) العُثماني الذي يبلغ عمره أربعة قرونٍ ونصف القرن هو الذي دُمِّر، الجسر الذي كان يُقَرِّب المسافةَ بين الدِّينين الإسلام في ضفَّتِه الشرقيَّة والمسيحيَّة في ضفَّتِه الغربيَّة، وكان مثلاً للتعايش، لا؛ بل دُمِرت كاتدرائيَّة مريم الكاثوليكيَّة، وكنيسة دير الفرنسيَّسكان، وقصر الأسقف الذي احترقت مكتبته ونُهبت ما فيها من إرثٍ مسيحي هو عبارة عن أكثر من خمسين ألف كتاب، ودُمِّر إلى ذلك اثنا عشر مسجداً من أصل أربعة عشر، بما فيها من مخطوطات ومحفوظات، وأُحرقت كاتدرائيَّة الثالوث الأقدس، وهُدِمت صوامع وبيع ومساجد يُذكر فيها اسمُ الله، وطال الهدم جسور المدينة كلها، ولم يتبقَّ منها سوى جسر (ستاري موست)، وهو الوحيد الذي بقي معبراً لنهر (نيريتفا)، ولا أدري إن دُمِر بعد ذلك أم لا.

كان كلُّ طرفٍ يُلقى باللوم على الطرف الآخر، وإذا انتهى من ذلك ألقي اللوم على المُجتمع الدولي الذي لم يُوقِف الحرب، وتسابقت الصحف اليومية والإذاعات وبرامج التلفاز المملوكة إلى كلِّ طرفٍ بآتهام الآخر بأنَّ يده مُلوَّثة بالدماء، وكان الدم لا يُلَوِّث الأيدي والوجوه والصدور فحسب، بل كان يُلَوِّث كلَّ شارعٍ وحيٍّ وبيت،

وكان يصبغ باللون القرمزي حتى الشفق في السماء البعيدة!

كانت شُغور رؤوسنا مُلبدة ومتناثرة فوق جماجمنا، كانت أعناقنا خيطة رفيعة يصل الرأس بالكتفين، كان رفيعة جدًا يُمكن أن تُحيطه بقبضة اليد الواحدة، كانت كل عظامنا بارزة، مشهد الكبار في السن لم يكن لأي عقل أن يتخيله، كان أحدهم قد جرح عينه فظلت دامية، وعروقها الحمراء تُغطي على زرقتها الطبيعية، وكان لا يُمكن أن تُشاهد بُؤبؤها، في حين أن بُؤبؤ العين الأخرى كان مُثسِّعًا كأن العجوز فتح عينه على مشهد مُرّوع ولم يبرأ منه، وكان يُنطأه لا يثبت على خصره، وينام على الأرض، وقد أشفق عليه بعضنا فجعلناه لا ينام على الجزء الإسمنتي من الحظيرة، بل ينام على البلاط، وكان هذا امتيازًا لا يحصل عليه الكثيرون، ولا أدري إلامَ سيستمز تجويعنا، لقد كان الكثيرون مُلقين على الأرض لا يستطيعون تحريك أذرعهم النحيلة، وكانوا يطلبون منهم أن ينهضوا ويقوموا بأعمال التنظيف، ولم يكن أحدٌ منهم قادرًا على أن يستوي قاعدًا من صُجعتِه، وحين يضجرون منهم كانوا يجزونهم ويلقونهم أحياء في الحُفر ويردمون فوقهم!

أوجع موتٍ هو موت الجوع، ائتونا بالفطائس لنأكلها، نحن نقبل بجيفة كلب نأكلها ولا نموت، إذا لم تجد الكلاب ما تأكله فاجعلونا لقمة في أفواهها وأريحونا.

كانت الأيدي تتخشب على البطون التي التصقت بالظهور، والعيون التي نشف ما حولها فازدادت اثساعًا كانت تدور ببطء في المحاجر، كانت أحجامنا قد تقلصت، وكانت الأم الوالدة تحتضن طفلها الذي

صار أخف من وزن الزيشة متكوزًا مثل كرة صغيرة بين أيديها.

أطل الخطيب (غليغور) علينا ففرخت فرحًا آثقا، إن كل خطاب له يعني مزيدًا من القتل، وبالتالي مزيدًا من القبور، ولحفار قبور مثلي تعني وجبة من الطعام تسدّ الزمق. هيا يا (غليغور) لا تتأخر.

هتف: "نحن نحاصِر (سرايفو) من الجهات كلها، وستسقط قريبًا في أيدينا، الأخبار التي تأتي من هناك مُبشرة، وقريبًا ستنتهي هذه الحرب، وستتحولون إلى خديم في دولة صربيا العظمى" ثم ضرب بعصا الخيثران على باطن كفه برفق، وأردف: "فقط، أردت أن أبقاكم على اطلاعٍ بآخر المُستجدات"، ثم أدار ظهره وخرج. لعنة الله عليك يا (غليغور) أهذا كل ما عندك، ألا تريد أن تقتل وتذبح، ما فائدة أن تنقل لي مثل هذه الأخبار الباردة كوجهك أيها الوغد، أنا أريدك أن تقتل عددًا جديدًا منا لكي آكل، ألا تحس بي أيها الحقير، ألا تعرف أنني بحاجة إلى العمل من أجل الخبز، إنني أطالبك ألا تتخلى عن طبيعتك الوحشية، هيا اقثلنا، إذا كنت لا تريدني أن أحفر القبور فضّمني إلى القتل. أهذا مطلب صعب؟! إنه أحد حقوقي أيها الوحش!

بعد يومين، صارت الأشباخ تتراقص في مدى رؤيتي، كانت عيناى تزوغان، وكنت أرى الناس كأنهم هياكل من دخان تتحرك بلا أرجل، وتتسلق على الجدران، إذ ذاك صرخ الحارث الذي دخل للتو: "يا ذا العصابة الحمراء"، ولم أنتبه في البداية أو أسمع، غير أنه لقا صرخ ثانية: "أيها الكلب، يا ذا العصابة الحمراء أين أنت؟". استيقظت من شرودي، ونفضت رأسي وفززت واقفًا على قدمي، وهتفت: "أنا هنا".

"هَيَّا أَيُّهَا الْكَلْبُ، الْقَائِدُ يُرِيدُكَ". وَلَمْ أُمِثْ.

كُنَّا نَمْشِي فِي حَقْلِ فُسِيحٍ فِي نَهَارِ رِبِيعِي مُشِمِسٍ، كَانَ نَهْرٍ (دَرِينَا) بِجَانِبِنَا يُغْنِي، وَكَانَتْ أُمِّي تُعِدُّ شَطَائِرَ الْجُبْنَةِ وَاللَّحْمِ، وَكُنَّا نَرْكُضُ أَنَا وَسَلْمَى، نَتَسَابِقُ فِي الْمَدَى الْمَفْتُوحِ، وَكُنْتُ أَقُولُ لَهَا: مَا رَأَيْتُكَ أَنْ نَصِيدَ الْفَرَاشَاتِ، مَنْ يَصِيدُ فَرَاشَاتٍ أَكْثَرَ يَأْخُذُ شَطِيرَةً الْآخَرَةَ! وَافَقْتُ بِشَرَطٍ أَنْ تَفُوزِ هِيَ، وَكُنَّا خَلْفَ الْفَرَاشَاتِ، صَدْتُ أَكْثَرَ مِنْ مِئَةِ فَرَاشَةٍ، لَمْ تَسْتَطِعْ أَنْ تَصِيدَ هِيَ إِلَّا اثْنَتَيْنِ، أَعْطَيْتُهَا فَرَاشَاتِي: "هِيَ لَكَ". وَمَدَّتْ يَدَهَا لِتَأْخُذَهَا، فَكَفَفْتُ يَدِي: "عِنْدِي شَرَطٌ". "مَا هُوَ؟". "أَنْتِ الْفَائِزَةُ وَلَكِنْ لَا تَأْكُلِي شَطِيرَتِي". وَهَزَّتْ رَأْسَهَا مُوَافِقَةً. لَمْ يَكُنْ فِي قَامُوسِنَا شَيْءٌ أَسْفَهُ الْجُوعِ، كُنَّا نَأْكُلُ كُلَّمَا اصْطَدْنَا فَرَاشَةً!

خَرَجْتُ إِلَى الشَّارِعِ، لَا يَزَالُ يَحْتَفِظُ بِجَمَالِهِ الَّذِي أَعْرِفُهُ، مَشَيْتُ فِيهِ كَأَنِّي أَمْشِي فِي الْجَنَّةِ، وَاصَلْتُ السَّيْرَ إِلَى الْمَدْرَسَةِ، وَصَلْتُ إِلَيْهَا فَوَجَدْتُهَا مَفْتُوحَةً وَلَكِنَّهَا فَارِغَةٌ، تَجَوَّلْتُ فِي الصَّفُوفِ، تَخَيَّلْتُ كُلَّ طَالِبٍ مِنْ طُلَّابِ الصَّفِّ فِي مَقْعَدِهِ، كَانُوا يَرْفَعُونَ أَقْلَامَهُمْ إِلَى الْأَعْلَى بِأَذْرَعِهِمْ وَهِيَ تَقْطُرُ دَمًا، وَنَظَرْتُ إِلَى السَّبُورَةِ فَلَمْ أَرَ الْأُسْتَاذَ، رَأَيْتُ جُمْلَةً مَكْتُوبَةً عَلَيْهَا، لَمْ أَسْتَطِعْ قِرَاءَتَهَا، اقْتَرَبْتُ أَكْثَرَ لِأَتَمَكَّنَ مِنْ ذَلِكَ، لَكِنَّهَا كَانَتْ كُلَّمَا اقْتَرَبْتُ ازْدَادَتْ خَفَاءً، ثُمَّ تَحَوَّلَتْ الْحُرُوفُ إِلَى دِمٍ رَاحَ يَسِيلُ فِي خُطُوطٍ رَفِيعَةٍ عَلَى السَّبُورَةِ.

سَأَلْتُني سَلْمَى: "أَيْنَ كُنْتَ؟". "كَانَ سُؤَالُهَا غَرِيبًا. أَجَبْتُهَا: "فِي الْبَيْتِ". سَأَلَتْ مِنْ جَدِيدٍ: "أَيْنَ فِي الْبَيْتِ؟". أَرَدْتُ أَنْ أَقُولَ لَهَا: "مَا هَذَا السُّؤَالُ الْغَرِيبُ؟". لَكِنِّي قُلْتُ: "فِي غُرْفَتِي". "تَكْذِبُ؟". غَاضِبُنِي ذَلِكَ، نَظَرْتُ إِلَيْهَا بِعَيْنَيَّ مُغْضَبًا: "أَنَا لَا أَكْذِبُ". "لَقَدْ فَتَّشْنَا عَنْكَ كُلَّ

غرفة في البيت وكل زاوية ولم نعتز عليك، منذ سنين ونحن نبحث عنك يا أخي، لماذا تفعل هذا بنا؟".

ركضت أختي خارج السياج، وأشارت لي من بعيد أن أتبعها، أريد أن أصرخ عليها: "لا تخرجي إلى الشارع، لقد رأيت أسودًا مفترسة تذرعه"، ولكنني لم أصرخ ولم تتوقف هي، غابت خلف السياج، أريد طرفي عن يميني، رأيت أمي تنفخ بالونًا كبيرًا، قالت لي: "صار جاهزًا، بإمكانك أن تتعلق به وتُسافر مثل السندباد". تعلقت بالخيط النازل منه، وطرث بالفعل، حلقت فوق الأشجار، رأيت أختي تركض في الشارع وخلفها الأسود المفترسة وهي تنهش ظهرها.

رأيت الشيخ (شريف) في مسجد (ألا دو) كان يعتمر عمامة بيضاء كبيرة، ولكن الدم كان يتقاطر من تحتها على لحيته الشهباء، وكنا نجلس حوالي أربعين طفلًا بين يديه، وكان ينوي أن يفسر لنا قوله تعالى: "يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا..."، ولكن صوته توقف ولم يكمل الآية.

رأيت مئة سجين من الذين معي في حظيرتنا الصغيرة قد مَدُّوا جنبًا إلى جنب، كانوا شبه غراة، وبلا عيون، جاء أحد الحرس وسكب عليهم البنزين، وأشعل فيهم النار، كانت أفواههم تَمْتَمُ بنشيد جماعي لم أستطع أن أفهم منه كلمة واحدة، ولم يتحركوا من أماكنهم مع أنهم لم يكونوا مُقَيَّدِينَ حتى تفحموا.

رأيت مجموعة من الكلاب إلى جانبي يركب بعضها فوق بعض، وكانت تعوي غواءً جريحا، ودخل علي الحارس، وركلني في بطني، فأشربت إلى الكلاب، وقلت له: "إنها جريحة"، فلم يلتفت لِمَا قلت،

بل ركلني بقوة أشد من السابقة هذه المرة، وصرخ: "قم يا كلب!". واستيقظت فزعًا.

هل لدينا هنا مفسِّرو أحلام؟! شيوخ يعرفون المرامي من وراء أحلامنا؟! كثيرون، لكن لا أحد ينطق بكلمة، ولا أحد يجذ جدوى من تفسير الأحلام، إنَّ كلَّ مفسِّر سيقول لك إنَّك ستخرج من المعتقل قريبًا وستعود إلى أسرتك هو كاذب أو مدلس، لن نخرج من هنا إلا إلى القبور الجماعية، ولن نعود لأهلنا؛ لأنَّه لم يبقَ لنا أهل نعوذ إليهم.

بحثت عن (سامي)، اهتديت إليه وسط هذا المد البشري اللزج، شدَّته من ذراعه: "أنت تفسِّر الأحلام؟". "لا شيء يُمكن أن يُفسِّر الواقع يا (حارث) حتَّى يُفسِّر الحلم". "ألا تحلم؟". "أنا أرى كوابيس". "أيها المُتَشائم، سمعتَ خطاب القائد قبل يومين؟". "سمِعته". "إنَّه قال إنَّ سراييفو تسقط في قبضتهم، هل هذا صحيح؟". "وما أدراني؟!". "ألم تأت من هناك؟!". "لا، هل نسيت؟". "ليتني أنسى يا سامي!". "أتيت من دبوج، وزُحلت إلى معسكر (فوينو) في موستار، وتنقَّلت في البريد العسكري على حواجز عُدَّة، مررنا بسراييفو مرورًا، كانت تُقصِّف وتُحاصر بالفعل، ولكنني لا أعرف عن حصارها شيئًا". "مَنْ يعرف؟!". وحك ذقنه، ثم رفع أرنبة أنفه، وهتَف: "هل أنت مهتمُّ بسراييفو؟!". فأجبتُه: "لقد قال لي ذلك العجوز إنَّ مهمتي مُقدَّسة". "مُقدَّسة؟!". "أن أروي". "تروي ماذا؟". "ماذا يروي النَّاس في العادة، حكايات، قصصًا عن الأوطان المذبوحة، وسراييفو أليست مذبوحة هي الأخرى؟". "تذكَّرتُ، كان هناك طبيب تعرَّفت عليه عندما كنت أراجع في مستشفى (دوبوج) اسفَه (حميد) وهو من (سراييفو)، حين بدأت الحرب عادَ إليها، وظلَّ فيها على ما أعلم، وقد رأيته هنا

قَبْلَ أُسْبُوعٍ". "حَقًّا؟!". "حَقًّا". "إِذَا ذُلَّنِي عَلَيْهِ".

حصار سراييفو

كان (حميد) طبيبًا مُخْلِصًا، حوَّلته الحربُ إلى عبقرٍ، لكنّها في النهاية غدرت به مثل الكثيرين، وساقته إلى هذه المعتقلات التي لا تصلح حتّى للحيوانات. طوَالاً كأجداده، حنونا في تعامله لكنّه حازمٌ كذلك، عريض الأكتاف، واسع الصدر يما يُغري لأن تدفنَ وجهك فيه لشدة حاجتنا لمن يحنّ علينا، كانت له بنية رياضية لم تنل الحرب منها كثيرًا، وإن كنت تشعر أن أطراف بنيته احترق أو تهرأ، شعره البني إذا شامته الشمس مع وجهه القشوب بالحمرة بدوا أوسم ما يكون، حادّ ملامح الوجه، وكانت عظمتا وجنتيه بارزتين، وعيناه بحرّ من العسل، ولحيته وخَظها الشيب فأضاءها بنور فضي بعد أن كانَ ذهبيًا. كان صورة نموذجية للعرق السلافي. وقد إلى معسكرنا قبل شهرٍ، في أوّل نيسان من عام 1995م، وها هي الحرب تدخل عامها الزابع، وقد ساقطنا جميعًا إلى المسالخ الوحشية!

أوّل ما التقيته، نُظِر في عينيّ، ودون أن يقول كلمة واحدة فتح جفني العين اليمنى، ودقّق النظر فيها، ثم هتف بأسى: "لا تفكر كثيرًا. دَغها تمرّ". وزممت شفتيّ مُستغربةً، ثم ابتسفت محاولاً أن أفهم مغزى عبارته: "ماذا تقصد يا دكتور؟". "كم عمرك؟". "سنة عشر عامًا أو سبعة عشر". "لديك مؤشر على ارتفاع الضّغط، ما زلت شابًا". أرذت أن أضحك، ولكنني منعث نفسي، وقلت: "يا سيدي الطبيب، السّجين هنا يكبر في اليوم الواحد أعوامًا". تصافخنا، وتقاسفنا الطّعام، وبعض الذكريات عن جسر (درينا)، كان إلى جانب كونه

طبيبًا مُحبًا للتاريخ وقارئًا نهمًا.

كنتُ أعمل في مستشفى (دوبوج) العام حين اندلعت الحرب، وبدأ حصار (سراييفو)، أنا من هناك، ولكنني أعيش في (دوبوج) بحكم عملي، كان صوت الوحش القادم من فوهات المدافع وجنازير الذبابات قد غطى على صوت العقل وعلى كل صوت، فقررت أن أعود إلى مسقط رأسي. كانت زوجتي قد ثوفيت قبل نشوب الحرب بعامين، وتركت ابنا الذي كان يدرس في سنته الأولى في كلية الطب في جامعة (سراييفو)، كان يريد أن يصبح جراح قلب. عدتُ لكي أكون إلى جانب ابني، فلم يبق لي من عائلتي سواه، كان أبوي قد رحلا من زمن بعيد.

هاتفني ابني (سامر) في البدايات: "أبي إنهم يُحاصرون (سراييفو). الجامعة تُقصف. مباني الطب تأثرت، وهناك مبانٍ أخرى رُميت بالقذائف. القناصة يستهدفون الطلاب، إننا نذهب إليها ونحن نشعر أننا لن نخرج منها، هناك عددٌ من الأطباء الشجعان استمروا في التعليم، وأعطوا المحاضرات في الأقبية، والملاجئ". قلتُ له وأنا أغلق سَماعة الهاتف: "أنا قادمٌ على الفور". وهكذا رجعتُ إلى (سراييفو)، وعشتُ كل مأساتها الحية، وهي لا تزال إلى هذه اللحظة مُحاصرة، إنَّ هذا الحصار لا مثيل له في التاريخ.

التحقت على الفور بمستشفى (كوشيفو) في وسط المدينة، وقدمتُ نفسي طبيبًا مُتخصِّصًا في إصابات الحرب البليغة متطوعًا. وكان أول ما رأيته من المُصابين طفلًا لم يبلغ السنتين قد بُترت قدماه. لم يهزني المنظر فحسب، بل جعلني أصم على أن أنقذ أكبر

عدد ممكن من الأرواح في هذه الحرب الشعواء.

كانت قُوات صرب البوسنة قد تركزت على الثلال الفحيطة بسراييفو، واحتلت المواقع الاستراتيجية، وبدأت حصارها الخانق، كانت تقصف وتتقدم من الجهات كلها، وتغلق المنافذ جميعها، لا طعام يدخل إلى المدينة ولا قطرة ماء ولا قطعة خبز، "وماذا يفعل نصف مليون من البشر يقطنون فيها؟!". "ليموتوا، مَنْ قال إنهم يستحقون الحياة؟!".

بعد شهر من الحصار نفذ المخزون الداخلي، بدأ السكان يشعرون بأثر الحصار، فكر الضرب: "لقد أغلقنا المنافذ كلها الداخلة إلى المدينة، كيف لا يزال الناس يعيشون؟". قال أحدهم: "ربما يستخدمون مطار سراييفو؟". ردّ (رادوفان كاراديتش): "سيطروا على المطار، لا أريد لعصفور صغير أن يُحلق في سماء المدينة، اخنقوا حتى العصافير". قال له آخر: "قد يستخدمون الشوارع والبنية التحتية". صرخ: "اقصفوا الشوارع، اقلبوا الإسفلت، سقموا المياه، هدموا الأبنية، أحرقوا المصانع والمخابز، وعظّلوا كل مظاهر الحياة، ولا تسمحوا لذبابة أن تدخل المدينة".

وفي الهدوء الظاهري الخادع، كانت بعض المخابز تفتح خفية، وكان لدى القناصة أوامر أن يتركوا النساء خاصة تتوافد إلى المخبز، حتى إذا تشكل أمام المخبز طابور طويل من النساء اللواتي فقدن أزواجهن وأبناءهن في القتال، جاءت الأوامر بقصفهم بقذيفة صاروخية، فيختلط عجيب الذقيق مع عجين اللحم، والخميرة مع الدّم.

كان الشهداء والجرحى يصلون تِبَاعًا إلى مستشفى (كوشيفو) الذي أعمل فيه، كان المستشفى يقع بالقرب من جامعة سراييفو في شارع (بولنيشكا) وسط المدينة، قطع الصرب الكهرباء من أول الحصار، فكنا نُسْغَل بعض الفولتات الاحتياطية من أجل القيام بالعمليات الجراحية، كان الحصار قد جعل دخول المُستلزمات الطبية صعبًا جدًا، لقد عائنا من نقص الأدوية، والمضادات الحيوية، ووحدات الدم، وكنا بحاجة إلى وحدات كثيرة في اليوم من أجل أن نُنقذ حياة أولئك الذين ينزفون طوال الطريق بشكل فظيع حتى يصلوا إلى المستشفى.

حينَ عدتُ إلى (سراييفو)، سكنتُ أول الأمر أنا وابني (سامر) في بيتنا، في حي (باشارشيا) حيث الأسواق التقليدية والمساجد العثمانية إلى الشرق من مستشفى (كوشيفو)، وكان بيتنا مُستقلًا وأمامه حديقة صغيرة مُسورة، وَرِثْثَةُ عن والدي، وكان يقع في مكان مُزدحم نوعًا ما بالشقق والأبنية، ونادرًا ما كان الحي يضم البيوت المنفردة، وفيه عاشت عائلتي قبل أن تموت زوجتي، ومن هنا كان يقطع (سامر) المسافة التي لا تزيد عن ثلاثة كيلومترات مشيًا على قدميه إلى الجامعة.

كانَ القصف لا يتوقف، حينَ كنتُ أغامر بالمشي من بيتنا إلى المستشفى، إذ كان أكثرَ أمانًا من أن أستقل سيارتي، لأنه يُمكن أن أختبئ تحت أي مبني، أو خلف أي حاوية أو شجرة أو عمود إذا شعرتُ بأن قنّاصًا يُصوّب بُندقِيته نحوي، أما السيارة فكيف يُمكن أن تختبئ بها خلف أي شيء... في الطريق يُمكنك أن ترى بوضوح القبلات المُتوخشة للقذائف على جدران الأبنية، كانت الحُفَر شاهدةً

على حجم تلك القنابل ومصدرها، صغيرة أو كبيرة. وكان يُمكن أن تدوس على آلاف فوارغ الرصاص على الأرض، كانت الفوارغ تدرن، وإذا ما تحرك الهواء شعزت أنها تصفر.

فيما بعد ازداد عدد القناصين، استولوا على البنايات العالية، وتمركزوا خلف نوافذها المُطلّة على الشوارع، وراحوا يجلسون على المتاريس الزمليّة ويصوبون مناظير بنادقهم إلى كل من يتحرك في الشوارع طوال الوقت بما في الكلمة من معنى، كانت فوهات الرشاشات مُستعدة للإطلاق على مدار الساعة، وكان يُمكن أن أمر بعض من قنصوا في الشارع وهم يزحفون باتجاه أي شيء يمنع عنهم ذلك الرصاص، وكنت بخبرتي التي اكتسبتها مع الوقت، أعرف مصدر الرصاص، فأسحب المُصاب إلى جهة بعيدة وأقوم بمعالجته، في البداية لاحظت أنهم يُصوبون على الركب، وأسفل الظهر، وعلى الأقدام، وهي إصابات غير مُميتة، ولكنها تُحدث إعاقة دائمة خاصة إذا كانت الإصابة في الفقرات القطنيّة في العمود الفقري، فإنها تتسبب في شلل دائم، واستنتجت أنهم يريدون شعبيا بوسنيا مُعاقا غير قادر على العمل يكون عبئا على نفسه ومُجتمعه، وتذكره الإعاقة بكل ما هو مؤلم وكريه طوال العمر. ثم مر وقت تغير فيه القنص الذي يُسبب الإعاقة دون الموت، صار القناصة يتقصدون القلب، والعنق، والرأس، والصدر، والكلى أحيانا، فعرفت أنهم غيروا أساليبهم وصاروا يريدون القتل لذاته، وعلفت بعد أن تكرر ذلك أن الأثرياء من الضرب وبعض أثرياء أوروبا كانوا يدفعون مبالغ كبيرة جدًا لمن يقوم بقنص بوسني، كان رأسنا له ثمن مرتفع، وكان بعض القناصة يفتخر بأنه أتى بأكثر من عشر رؤوس بوسنية في اليوم،

وكانت تتدفق عليه الأموال بعد أن يُعيث ذلك للأثرياء، وماذا كان يفعل بالماركات الألمانية التي تملأ جيبه؟! كان يسكر بها، يشتري التبذ، يشتري السجائر ويدخن، ويرقص حتى يقع مُنهكًا.

وحيث بدأت الجثث تنتشر في شوارع (سراييفو)، وفاق عددهم قدرة الأطباء على إنقاذهم أو قدرة الناس على دفنهم، بدأ السكان ينزحون إلى الخارج، غادر أكثر من مئة ألف من سكانها هاربين بأنفسهم، وبعد خمسة أشهر من الحصار كان يُمكن أن تمر بأحياء كاملة خاوية على عروشها، قد حمل أهلها معهم ما استطاعوا من أدوات و طعام، وتركوها للزبح، وليتهم نجوا، كثير منهم وقعوا ضحية القنص الذي صار قتلًا في هذه المدينة البائسة المحاصرة.

كان وصولي من البيت إلى المستشفى لا يستغرق أكثر من أربع دقائق في السيارة، التي لم أعد أقودها أبدًا بعد استفحال الحصار، فبالإضافة إلى أنها عرضة أكثر من غيرها للتفجير فإن البنزين قد شح، ثم نفذت تحولت إلى كومة من الحديد، وأما مشيًا على الأقدام فلم تكن المسافة لتأخذ أكثر من ربع ساعة في الوضع الطبيعي، ولكنني كنت أخرج من البيت فجرا ولا أصل إلى المستشفى إلا بعد ساعة حتى تشرق الشمس، كان الوقت يذهب في الاختباء من الرصاص الجاهز للطاير، ولا حقا صارت إقامتي في المستشفى أكثر من البيت، ولم أكن أعود في بعض الأحيان إلى البيت إلا يوما واحدا في الأسبوع.

منذ ستة أشهر والكهرباء مقطوعة. الفولتات موجودة ولكن الوقود الذي يُشغلها غير موجود. صرنا نقوم بالعمليات على ضوء

المصابيح اليدوية، واضطررنا نحن الأطباء إلى إجراء عشرات العمليات الجراحية في اليوم دون تخدير، لم تصمد أدوية التخدير إلا شهرين من بداية الحرب. الحكومة البوسنية تقول إنها اتفقت مع الأمم المتحدة على جسر جوي يقوم بتوصيل المساعدات الغذائية والطبية إلى المطار. المطار مُحاصر، وقوات الضرب تقصف حتى طائرات الإغاثة، ففكروا بأن يقوموا بإسقاط المساعدات من الطائرة مباشرة على سكان المدينة المنكوبة.

دخل شتاء عام الحصار الأول، مرّت ثمانية أشهر حتى الآن على هذا الحصار. يُمكن أن أقول إن المدينة تموت ببطء، وإنّ مَنْ فيها لن يصمدوا طويلاً، هم جائعون، ومصابون، ووحيدون، ولا يستطيعون أن يُطلّوا من نوافذ بيوتهم خوفاً من القنّاصة الذين لا يدري أحد كيف ينتشرون بهذه الكثافة، وكيف يكونون في كل مكان، ولا أحد يدري من أين تأتيه الطلقة الحاسمة. وأنا بعد ثمانية أشهر من الحصار لا أدري إن كانت المدينة ستصمد شهراً أو شهرين إضافيين، المسألة ليست في بطولة الشكّان وصبرهم الطويل، فهم أبطال حقيقيون، المشكلة أننا إن لم نبحث عن طرق لإدخال الطعام، أو بدائل للحصول عليه، فإننا سنموث من تلقاء أنفسنا دون أن يُكلف القنّاصة أو الجيش أنفسهم عبء الضّغط على الزّناد.

مع استمرار الحصار، انضمّ ابني (سامر) للمقاومة، كنت أريدّه أن يبقى إلى جانبي يُنقذ الجرحى فهو وإن لم يكن تخرّج في الطب، إلا أنّ ثلاثة أشهر مع مصابي الحروب ومعاينة حالاتهم ومعالجتها تُعادل شهادة الطبّ كاملة. لكنّه أثر الالتحاق بالمقاومة، وانضمّ إلى الجيش البوسني الذي راح (علي عزّت بيجوفيتش) يُعيد تنظيمه من

(41)

اختناق

مُذت يذ عملاقة أكبر من سلسلة جبال (إيجمن) يا (حارث) إلى
عنق (سراييفو) وشدت عليها بأصابعها الجبارة، وراحت أنفاسها
تتقطع، وتتردد بظيء في رثتها، كانت الزئتان مملوءتين بذخان
القصف ولم يكن فيهما بقية لهواء نقي، وبدأ وجهها يزرق لقلة
الأكسجين، وراحت أقدامها ترتخي لشدة الجوع، وربما تسقط
في أية لحظة، الضرب ينتظرون هذه اللحظة من أول يوم، غير أن
عزيمتنا كانت أكبر من كل معجزة، وأمضى من كل مُستحيل، قرر
شكائها المتبقين: "المدينة يجب ألا تسقط ولو سقطنا جميعًا!".

كنت بعد مرور عام لا أغادر المستشفى إلا نادرًا، تعاملت مع كل
حالات إصابات الحروب، رأيت ما لا للبشر طاقة برؤيته، كانت
الإصابات جميعها مُعقدة، تلك الإصابة البسيطة لم تكن تُنقل إلى
المستشفى، كان يُمكن للفصا ب أن يُعالج نفسه بنفسه؛ لا تأت إلى
هنا إلا إذا كانت شظية القذيفة دخلت الجانب الأيسر من صدرك
وخرجت من ظهرك، وإذا كنت محظوظًا ستتلافى القلب، وإلا فلن
يصل مُصاب من هذا النوع إلينا حيًا. كان شكل الشظايا التي تستقر
في أجساد المُصابين كثيرة، بعضها غريب، لم أره من قبل، إنهم ربما
يستخدمون أسلحة مُحزمة دوليًا، ومن سيحاسبهم إذا ركلوا كل
قرارات الأمم المتحدة بأرجلهم، كان الغاز الذي يستنشقه هو غاز
الفسفور الأبيض، كانت لحوم الضحايا تتساقط، ليس هذا ذخان
القذائف ولا ثفات الذبابات أنا أعرف هذا، وكانوا يأتوننا بمصابين

منقولين من المركز الثقافي أو بعض المسارح، قد اختنقوا بغاز الميثان على ما يبدو. إنهم يستخدمون كل ما يمكن أن يُسهل عليهم عملية التطهير العرقي التي كان مُخطّطًا لها من البداية.

لَمَّا دخل الشتاء صار الأمر صعبًا جدًّا، لا تدفئة في المستشفيات، ناهيك بالذين يصلون وقد تصلبت أطرافهم لشدة البرد، أو ماتوا جزاء ذلك. نحن نحاول أن نوَفِّر طاقةً بديلة، من خلال السخانات الشمسية، ولكن الشمس في الشتاء لا تطلعُ ألبتة، كانت (سرايفو) في تلك الأيام تغرق في الظلام والحزن والضمت الدولي.

كانَ عليّ في بعض الأيام أن أجري حوالي أربعين عملية جراحية، من الفجر حتّى منتصف الليل، كنتُ أنتهي وقد خارت قواي كلّها، أسقط تحت سرير آخر مريض عالجه، الشّطايا، البتر، الجروح الغائرة، انفجار الدماغ، الأطراف المكسورة والمبتورة، واللحم الذائب، كان يُمكن أن تتحاشى كلّ هذه المشاهد الفظيعة، ولكن لم يكن ممكّنًا أن تتحاشى نظرات الثّوسل أو النظرات الأخيرة للضحايا، كانوا يتعلّقون بنا كأننا قادرون على أن نُعيدَ لهم الحياة إلى أجسادهم التي رفضتها أو غادرتها، وكُنّا نشعر بعجزٍ مؤلِمٍ جدًّا أمام تلك النظرات.

كانَ الضرب يتقصّدون هذا المستشفى الرئيس في (سرايفو) بالمدفعية، أجرِث عشرات العمليات والقذائف تتساقط على بُعد أمتارٍ منّا، يتحوّل الفصائون إلى مصابين مرّة ثانية، ونحن نصاب معهم، وكنتُ أحيانًا أمسحُ الدّم عن وجهي أو صدري أو ذراعي وأتابع العملية الجراحية، كنتُ أرى أنني لو توقّفتُ فقد خنت أمانتي

وخنت شعبي، وقد رفعت أنا والأطباء الآخرون شعار: "إذا توقفنا عن العمل فبالموت فقط".

الكهرباء في أكثر من عام كامل لم تصل إلا مرة واحدة، نحن نعاني من انقطاعها منذ سبعة أشهر، نضيء العتمة بالقناديل الزجاجية التي تعمل على الكاز، وكنا نضيئها بأقل إضاءة تمكننا من إتمام عملنا بالحد الأدنى، إذ لم يكن لدينا ترف أن نضيء المصباح الكازي بطاقته العادية.

اضطررنا في مرحلة لاحقة بسبب تعمد القصف المباشر الفوجّه إلى مباني المستشفى أن نعمل في الأقبية، نزلنا إلى ظلمات حقيقة تحت الأرض من أجل أن نواصل عملاً في إنقاذ الناس، ولك أن تتخيل طبيعة العمل في ظروف كهذه، السواد الثام، والرطوبة، والعفن، والأوساخ، ثم علينا أن نجري عملية ولادة قيصرية أو نصل ساقاً تكاد تنفصل عن جسد ما، أو نخرج شظية قطعت نصف المسافة داخل الدماغ!

غير أن هذا لم يزدنا إلا إصراراً على متابعة العمل تحت أي ظرف كان، كنا نقاتل على جبهتنا الخاصة، وكنا نشعر أننا لن ننظر إلى أنفسنا نظرة لوم لأننا كان يُمكن أن نفعل ولم نفعل. كنا ننام في اليوم أقل من أربع ساعات، ولم تكن كافية في الوضع الطبيعي، ولكننا كنا نشعر بأن قوة علوية تمثنا بالعزم والمتابعة!

لم يكن لدينا مُعقّمات طبيّة بطبيعة الحال، ولا مشارط، كنا نشحذ سكاكين المطابخ اليدوية ونستخدمها بدلاً من المشارط، وكنا نعقمها بغليها في الماء، وأما الضفادات فكنا إذا اطمأنا إلى تحسن حالة

المريض نأخذها، ونغسلها بما تيسر ونُعيد استخدامها لمريض آخر
أشد حاجة إليها منه، أو كُنّا نقسّمها إلى قِطع صغيرة، بحيث لا تزيد
عن موضع الجرح ولا تنقص مليمترًا واحدًا.

كانتِ الدكتورة (نادية) مسؤولة قسم الأطفال والنسائية، هي
الأخرى تبتكر، الحاجة أم الاختراع كما يقولون، كان الحليب شحيحًا
جِدًا، تخيل أن كل خمسين طفلًا كان لهم ما مُعدله علبة حليب
واحدة، وكان يُمكن أن يموت الأطفال جزاء هذا النقص الحاد، فكانت
الدكتورة تقوم بصناعة خلطة من الأرز المطحون والماء لإطعام
الأطفال الرضع وثبقي بهذا على حياتهم، ذلك أن الأمهات لم تكن
صدورهم جافة ولا تُدر الحليب بسبب هزالهن فحسب، بل كان
أكبرهن تفقد الحياة أثناء الولادة أو بعدها، كانت قواهن تنهار بسبب
ضعف بنيتهن وبسبب التّزيف!

كانتِ الدكتورة تستخدم الأعشاب التي لم تحترق في ساحات
المستشفى لتصنع منه مراهم مهدئة لمعالجة الالتهابات بدلاً من
المضادات الحيوية. وكُنّا بالفعل في صراع مع الحياة والموت، يُسابق
أحدهما الآخر، يقول الموت: "أنا سأفوز"، ونقول مع الحياة: "نحن
سنفوز". وكانت الخسارات رغم ذلك لا تتوقف.

كان (سامر) يتلقّى التدريبات العسكرية في الجبال، وكان يعود
خفيةً إلى البيت كل أسبوع أو أسبوعين مرة، وأحيانًا تطول غيبته
شهورًا، كان يقول لي: "يا أبي ليس لدينا أسلحة، نحن نواجه
الطائرات ببنادق صيد، ونواجه الذبابات بالمقاليع". وأسأله: "هل
يُمكن أن ينجح ذلك؟". "واقعيًا لا. لكننا نعمل على تطوير أسلحتنا.

نحن نصنع أسلحة جديدة". "هل لديكم مصانع؟". "لقد دُمّرت، وصار العمل فيها من المستحيلات". "فأين تصنعونها؟". "نصنع فوهات البنادق من مواسير المياه، وكعوبها من الشجر، ونحشوها برصاص من البارود". وكان يبدو متحمسًا جدًا.

كان إلقاء المساعدات الغذائية عبر الطائرات في طرود كبيرة يتم بشكل عشوائي، ولهذا كانت الاستفادة منه قليلة، ذلك أنه إما أن تسقط في ثكنات الضرب ومواقعهم العسكرية الفحيطة بسراييفو، أو تسقط في الشوارع التي ما كان أحد يجرؤ أن يقترب منها جهرًا بسبب القنّاصة، أو تسقط فوق البنايات المهجورة، والوصول إليها مجازفة كبرى، والقليل القليل كان يمكن أن يذهب إلى مكانه الصحيح، ولذا استمرّ الجوع يأكلنا، حتى أذاب لحومنا ولم يبق إلا على عظامنا، حتى عظامنا وهنت، ولم تعد قادرة أن تحمل كيس الجلد الذي يغطيها، ولا أن ينهض بعضها ببعض!

بدأت في الأيام النادرة التي أعود فيها إلى البيت أزرع الحديقة الصغيرة أمامها، كانت الطرود التي تسقط فيها بذور لزّرع بعض الخضروات والنباتات الصالحة للزراعة، زرعت البندورة والخيار، ولم ينبتا كما يجب، ولكن حبة بندورة واحدة قد تكون سببًا في النجاة. وزرعت بعض البقوليات كذلك، وتركث عليها قئًا من أحد الجيران ليرعاها، ويوزعها بالتساوي على من ظل قاطنًا في الحي، لم يكن قد بقي فيه إلا كبار السنّ والعجزة ومن لم يستطع أن يغادر بعد إحكام الحصار.

أما الخبز فأعز مفقود، ولكن الناس تعلّمت أن تصنعه من الحفص

أو الفول أو العدس أو بعض القشور، تخلط ذلك كله ببعض البذور،
وُثْضِيْفُ إليه الماء، وُثْنَضِجُه، لم يكن خُبْزًا ولا يُشْبِه الخُبْز، ولكُنَّا كُنَّا
نُسْقِيه كذلك!

في الحي الذي أسكنه، كان يُمكن أن تدخل إلى البيوت فتجدَ فيها
امْرَأَةً مُسِنَّةً أو عجوزًا قد تجفد من البرد وماتت، كيف يُمكن لقلب أن
يتخيل لَحْظَاتِه الأخيرة قبل أن يتردد آخر نَفْس في صدره؟! لربّما
نادى على ابنه المقتول أو ابنه المُهاجر أو ابنه المُعتقل، أو نادى على
أي عابر في الطريق، ولكن لم يكن يسمعه أحد، ولم يكن في الطريق
غير الموت، فلبّاه دون الآخرين.

أعرف (سراييفو) جيّدًا يا (حارث)، فيها وُلِدتُ، وفي مرابعها
درجتُ، وفي أعرق أحيائها نشأتُ، وفي جامعته درستُ، أعرفها
شَبْرًا شَبْرًا، ولكن (سراييفو) اليوم غير (سراييفو) التي أعرفها؛
الفراغ المُوجِش في كل مكان، الحقائق التي كانت تضجّ بضحكات
الأطفال صارت صامتة صمت القبور، والأسواق التي كان يصطفق
فيها الناس، وتسمعُ جَلَبَتهم في كل منحنى تحوّلث إلى أزقة خرساء،
والحمام الذي كان يحظ على الشرفات غادر ولم يعد، والطيور التي
كانت تطير من شجرة إلى شجرة لم يعد يطير مكانها سوى الزصاص،
والشبابيك التي كانت تتراءى خيالات الناس الجذلى من ورائها
صارت مكسورة لا تُظهر إلا الموت، وسوى السواد والفراغ، والستائر
الممزقة التي تلعب بها الرياح من خلف تلك الشبابيك، وعلى الأبواب
لم تعد هناك يد لتطرق، ولا ضفة من الورد لِثَعْلَق، ولا اسم ساكن
البيت، بل لم يعد هناك باب أصلاً... الطرقات لا يملؤها إلا الرماد،
والأحياء لا تجد فيها حيًا يدور، والزؤوس التي كانت تُطلّ من فوق

الأسطح وهي تغني في ليالي الصيف لم تعذ تصعد إلى هناك، وإذا
ظل من رؤوس ثطل، فإنها تفعل ذلك من خلف ستائر ممزقة، تنظر
بعينين دامعتين ذابلتين إلى المدينة التي تحولت إلى مدينة أشباح
تخشى أن تخدم أنفاسها رصاصة قناص طائشة. والقمر الذي كان
يعلو رؤوس البنايات ويتخلل عذوق الأشجار لم يعذ هو البدر، إنه
شاحب؛ رأيته بدراً أسود، يطل خجولاً من خلف الشجفات كأنه لا
يريد أن يرى البشر ولا يريد أن يروه؟!

كلانا يُقاتِل من موقعه

وقعَ عددٌ من سُكَّانِ (سراييفو) في الأسر، كانوا يُساقون إلى معسكراتٍ قريبةٍ من المدينة، كانوا يجمعون الأطفال من بينها، ويتقدّمون بهم إلى داخل المدينة، كانوا يستخدمون هؤلاء الأطفال دروغًا بشريّة، وفي أجسادهم النّحيلة انفجرتِ الغامّ، واستقرّت قذائف، وكانوا يصلون إلى المستشفى في حالةٍ يرثى لها، ولم يكن يعيش أكثر من عشرين في المئة منهم.

كان القصف لا يهدأ ساعةً من ليلٍ أو نهار مع الحصار، كنتُ من أيّ مكانٍ في المدينة تستطيع أن ترى في الليل شُهَبًا من الثيران تتساقط عليها بلا توقّف! بعدَ مرورِ عامين على الحصار كان أكثر من ثمانين في المئة من مباني المدينة قد تهدّم كليًا أو جزئيًا، ولم يعد شارعٌ واحدٌ صالحٌ لأن تسير عليه مركبةٌ إلّا إذا كانت مُجنزرة. لقد ألقى على (سراييفو) قرابة نصف مليون قنبلة!

قال لي ابني: "لا يُمكن أن تُحاربَ على طريقة (غاندي)، هذه حربُ إبادة، إنّها أشبه بمحرقةٍ كبيرةٍ أكبرَ من محارق النازيين كلّها، كانَ على الشباب أن يحملوا البنادق ولو كانت بدائيّة، ويشحذوا السّكاكين، ويدافعوا عن بلدِهم بأسنانهم، إنّهُ لا خيَارَ آخر، العالم لا يحترمُ إلّا القوي، ولا يرثي لحقوق الإنسان ولا للمجتمع الدولي، إنّ لم تُوجّه الرّشاش إلى مَنْ يُوجّهه إليك فإنّك ستهلك لا محالة، هلاكًا لا تقوم لك بعده قائمة. السّلام كذبة كبيرة، والمُفاوِضات خُدعة أكبر، إنّها مسألة وجود، فإمّا أن نكونَ أو لا نكونَ".

كان (سامر) يقول لي: "يا أبي، أتذكر (فيليب)؟! لقد كان صديقًا لي، كنّا نسهر معًا، لقد انضم إلى الجيش الضربي وارتكب فظائع، لا أدري كيف حوّلته الحرب، ولكنها الحقيقة، ولو رأي في الطريق لقتلني، إنه سباق على من يضغط الزناد أولاً، وأنا لن أسمح له بذلك، إن أيام صداقتنا تبدو نُكْتة، مزحة، خيال، هراء، لو رأي لما تواني أن يُفرغ مشط رشاشه في جُمجُمتي".

بعض الشباب انضم إلى جيش الدفاع عن (سراييفو) في سنّ الرابعة عشرة؛ أي أصغر منك يا (حارث)، حين يكون الخيار بين أن تموتَ وأنت تفتحَ عينيك على اثّساعهما تعجبًا من جارك الذي يهّم بنحرك، وبين أن تحملَ السكين في يدك لِثدّافِع عن نفسك، فبالضرورة ستمضي في الخيار الثاني. لقد كان يأتي إلى المستشفى مقاتِلون مُصابون في المعركة أصغر منك يا (حارث). هل تفهم ما أقول؟!

لكي تُصوّب بندقيتك على شخص ما وتضغط على الزناد وتطلق النار، يجب أن يكونَ في داخلك غضبٌ كبير، يجب أن يكونَ لديك دافعٌ يُجبرك على ذلك، لم يعد أحدٌ بريئًا، لقد حملوا البنادق في غفلةٍ منا حينَ كنّا نحمل أغصانَ الزيتون، اكتشفنا مُتأخّرًا أن أغصانَ الزيتون لا تحمي الحمام ولا يُمكن أن تصنعَ لها عُشًا، كان هذا ما يُفكّر به شبابنا، إنهم الأمل الباقي في عروق الأمة، إنه إذا صمّث (سراييفو) أو سقطت فسيكونون هم المسؤولين مسؤولية مباشرة عن ذلك، هل تُدرك ما أعني يا (حارث)؟!

لقد اعتقدنا قبل أن نصحو من غفلتنا أن المُجتمع الدولي سيحمينا،

رجلي بالمجتمع الدولي كله من أكبر رأس فيه إلى أصغر رأس، إنهم كذابون ومُنافِقون، ومُتآمرون علينا، نحن وحدنا، لا أحد يريد أن يقف إلى جانبنا، ولا أن يُعطينا سلاحًا، إنهم يقولون لرئيس أمريكا: "لا داعي للتدخل من أجل المسلمين". هذه حقيقتهم، لم تكن جديدة، ولكن الحرب كَشَفَتْهَا. نحن سنقاتل من أجل بقائنا حتى آخر شاب في البوسنة، وحتى آخر قطرة دم. هل تسمعي يا (حارث)؟!

ولكثرة ما سألني هذا السؤال، قلت له: "أسمعك يا دكتور لماذا عليك أن تُعيدَه في كل مرة؟". "لأنك لم تسمعي!". "كيف؟!". "لو كنت سمعتني لما سمعتني الآن، لو كان مثل هذه المعاني مُختمة في عقلك لما قبضوا عليك ورموك كالحيوان الأجرى مع الآخرين هنا، لو كنت تسمع لكنت على جبهات القتال. الشباب مثلك ليسوا حمقى حتى يُمكنوا أعداءهم من القبض عليهم وأسرهم، إنهم إما مُقاتلون في الجبهة، أو مُستشهدون في المعارك". "معك حق يا دكتور، ولكن ما باليد حيلة". "هذا جواب العاجز". وضايقني لومه وطريقته في الحوار، وأردت أن أتخلص من هذا التّعنيف الذي لا أستحقّه، فسألته: "وماذا يُمكن أن أفعل؟". "فكر في طريقة للهروب، اصعد جبال (سرايفو) أو هضاب (سربرنيتسا) وانضم إلى المُقاتلين ولا تقعد هنا عاجزًا مع النساء". "وأنت ألا تقعد أيضًا مع النساء؟!". "أنا سأهرب أو يقتلونني. لقد رأيت الموت خلال الأعوام الثلاثة الماضية مئة ألف مرة، لم يعد يُشكل فرقًا، سأبحث بجدية عن طريقة للهروب، وإذا قُتل أثناء ذلك فلن يُحدث في عزيمة فرقًا، منيتي ستأتي في وقتها المكتوب، إن الموت الذي تخطاني أو تخطيئه عبر آلاف المرات السابقة لا بُد أن يقع في أو أقع فيه في النهاية". وأراد أن يقوم

كمن غَضِبَ من أخذِ الجِوار بهذا الاتجاه، فاعتذرتُ منه، وقلتُ إنَّ رأيَه سديد، وإِنني سأحاول الهروب مثله، ولكن: "يا دكتور لا توقف الحديث عن حصار (سراييفو)".

مستشفى (كوشيفو) كان عالماً مستقلاً بذاته، كان يحاول أن يجلب الحياة في مُحيط كلّه ينضح بالموت، كُنّا في المستشفى نركّض في الاتجاهات كلها من أجل أن نُعيد الأرواح المُحلقة خارج الأجساد في فضاء الغرفة إليها قبل أن تصعد أكثر ويكون أمراً اللّحاق بها مُستحيلاً، كان المُستشفى يعمل كدوّامة لا تكل ولا تهدأ على مدار الساعة، كل مَنْ كان فيه هو بطلٌ وعنده قِصةٌ تستحق أن تُروى. الأطباء الذين لا يُزّون ولا يُسمَع بهم - وهم أعظم أثراً وتأثيراً في الحربِ مثلاً - هم الأطباء النفسيّون، كانوا يتنقلون في شوارع (سراييفو) المُدمّرة والمُعتمة والمُوحِشة والتي تفوح من جناباتها روائح الموت من أجل أن يزوروا المرضى النفسيّين في الأقبية، كان عددٌ كبيرٌ من هؤلاء المرضى يعيشون مع الآخرين في هذه الملاجئ، كان الأطباء يزورونهم، ويتحدثون إليهم، ويُعالجونهم علاجاً سلوكياً أو بما يتوفّر من الأدوية، ويشدّون من عزيמתهم ويرفعون من معنوياتهم بحسب خبرتهم. أمّا المُصابون بالضدمات من الأطفال فكان الأطباء يحكون لهم القصص المُسلّية والمُضحكة، وكانوا يلعبون معهم، ولربّما اختلطت ضحكائهم في تلك الأقبية مع صوت الانفجارات في الأعلى، لم تكن الحرب الدائرة تكثرُ بكلّ هذا!!

كان لدينا الجراح (ميرزا)، كانَ من أمهر الأطباء في العالم، أنكرَ ذاته من أجل شعبه، كان يُجري عمليات جراحية دقيقة ومُعقّدة تحتاج إلى فريقٍ طبّي كامل، ولم يكن يُجريها إلا بنفسه، لم يكن

لدينا أطباء كافون، كُنّا نعاني نقصًا في كل شيء. ذات مرة جاءه أحد الفصابين بكسرٍ في ساقه، كان الكسر في عظمة الفخذ، وكانت عملية مُعقّدة، لم يكن لدينا عظام داعمة من البلاتين كما في الوضع الطبيعي، فاستخدم لها أسلاكًا معدنية، وراح يُحاول تثبيتها مع الجزء المكسور، وإذ ذاك هَوّث قذيفةٌ على المستشفى وانفجرت في مكانٍ لا يبعدُ عشرين مترًا عن الغرفة التي يُجري فيها العملية، تطايرت الشظايا، وأصابته إحداها في ساقه، تخيل في ساقه، وبدلاً من أن يُؤجل عملية المريض، أو يهتم بنفسه، ربّطها على عجل، وأصر أن يُتمّ عملية المريض، وكان مثالاً للتضحية والصبر والشجاعة.

لم نكن نحن الأطباء نجرؤ على أن نسير في الشوارع، كان الضرب يعرفوننا بالهيئة وبالاسم، وكانوا يقنصوننا، كانوا يقصدون إلى القضاء علينا لكي لا نُعالج أحداً، من أجل ذلك كانت لنا غرفة مُتنقلة نبيت فيها، أعني لم نكن نبيت في غرفة واحدة مُعيّنة، لأن الضرب لو عرفوا بها لاستهدفوها، ولم نكن نتجمع كلنا، غير أنه إذا تجمع ما بين سبعة إلى عشرة في الليلة في تلك الغرفة، بدأنا من أجل أن نُرمّم جروحنا الداخلية بالغناء، فنحن بشراً في النهاية، واستمع بعضنا إلى قصص بعضنا الآخر، وكثيراً ما كان غناؤنا يختلط بصوت بكائنا.

كُنّا نقع أحياناً في مسؤولية أخلاقية صعبة. إذا كان الهجوم بالقذائف الضاروخية أو المدفعية شرساً أو مُركّزاً في جهة مُعيّنة، فإنّه كان يأتينا العشرات من الفصابين ذُفَعَة واحدة، وكان فيهم الكبير والصغير والزجل والمرأة والطفل، وكانت بعض إصاباتهم خطيرة وبعضها مُتوسطة وأخرى طفيفة، والدواء قليل، ويجب أن نُعالج به الحالات الاضطرارية. وكانت الحيرة إذا لم نستطع أن نُعالج

الجميع دفعةً واحدة لكثرتهم، فإنه علينا أن نختارَ مَنْ نُعالِجُ أولاً، وكان اتخاذ قرارٍ مثل هذا صعباً جدّاً، إذ كلُّ مريضٍ كان يَرى إصابته أخطرَ من سواها وأنه الأجدَرُ بالمُعالَجة، كانت لدينا بالفعل إصابات خطيرة لكثرتها لِشُبَّان، وإصابات أقلَّ خطورةً ولكثرتها لكبارٍ في السِّنِّ، وكنا نعتقد أن الأولوية في هذه الحال لكبار السِّنِّ؛ لقدرة الشَّبَابِ الكُبرى على الاحتمال. وأحياناً كانت القاعدة المبدئية: الأوليّة لمن يموت. ولم تكن قاعدة يُمكن العمل بها لولا الحرب، فإنَّ الموتَ بالفعل كان يرافقُ المُصابين إلى هنا!

في الأيام القليلة أو النادرة التي كُنْتُ أعودُ فيها إلى البيت كان يتعيَّن عليّ أن أتحوَّلَ من طبيبٍ إلى مُقاوِمٍ مدنيٍّ؛ أن أجدَ وسيلةً لنقلِ الماءِ أو جلبه، أو تأمين سطلٍ واحدٍ أسبوعياً، وفي الأيام التي كانَ يَعودُ فيها (سامر) من الجبهة ربّما في الشهرين أو الثلاثة مرّة كُنْتُ أعرفُ أنه قد عادَ من خلال ما تركه لي من خُبزٍ أحياناً أو ما يأتيهم من مُساعداتٍ غذائية، مثل الأطعمة المُعلّبة، وبعض الذّقيق والذرة، وكانَ في كلِّ مرّةٍ يترك لي رسالةً مُختلفة، يكتبها بخط يده، ويدشها في طرف المرآة في غرفة الجلوس أو يتركها فوق طاولة الطّعام الصغيرة في المطبخ: "أبي نحنُ نزداد يوماً بعدَ يومٍ، أصبح قِوامُ الجيش أكثرَ من مئة ألف مُقاتل، القائد عليّ عزّت بيجوفيتش يقوم مع القيادة العسكريّة بتنظيم الصفوف وإعادة الانتِشار، تصل إلينا بعضُ المساعدات الغذائية والطّبية والعسكريّة من دولٍ عربيّة مُسلمة، لا تقلق عليّ، كُنْتُ أريدُ أن أكونَ إلى جانبك في المستشفى وأكتسبَ من خبرتك في الطّب، ولكُنني آثرْتُ أن أكونَ في الجبهة، لا فرق، كلانا يُقاتِل من موقعه. في المرّة القادمة أريدُ أن أراك،

وأحضنك، وأقبل يدَيك، وأدفن وجهي في صدرك، ألا يكفي أن أمي
لم تعذ معنا!."

من أجل لقمة الخبز!

كيف يمكن أن تسد المنافذ كلها من الجهات جميعها ما لم تكن الدول الكبرى متواطئة مع عدوك؟! تسهل له الأمر، وتدعي أنها تقف على الحياد، ولكنها تراقب كيف يتقدم نحو خنقنا وهي تبتسم، ولربما تشجعه على ذلك عبر وسطاء غير مُعلنين!

يحدث في الشوارع الخالية أن يعبرها قِط أصابه الهزال كما أصاب البشر، ما إن يُصبح في مرمى القناصة حتى يسقط بالرصاص. بسبب هذه الرصاصات سوف يتراجع عدد آخر من الكلاب والقطط والبشر عن عبور الشارع؛ الشارع الذي طُتوا أنه لظول هدوئه آمن، لقد كان أحد سكان المدينة يُراقبه منذ عشر ساعات، كان صمته مريبًا في البداية، ثم تحول إلى صمت مُظفّن، لولا أن القِط عبره قبله لكان هو الآخر ميتًا. يحدث ألا يعبر قِط قبل بشري الشارع، فيغامر أحدهم، يمشي حائثًا ظهره واضعًا يديه فوق رأسه في محاولة لحمايته، وهو في هذه الوضعية الفنحية يركض بسرعة على قدميه اللتين تبدوان في هذه اللحظة كأنهما ذولابان يدوران، يُسرّع أكثر، يقطع ثلثي الجزء المكشوف، يُخامِزهُ الشعور بالأمان، لم يبقَ إلا جزء بسيط من الشارع، سيجتازه، وسينجو، تتحول لحظة النجاة هذه إلى لحظة غرق، رصاصة تُصيب الرأس تمامًا، تسقط الضحية غارقة في دمائها، تحدث حركة سريعة أخرى، يركض رجل أو اثنان إلى المُصاب يسحبانه من ذراعيه بسرعة البرق، وينهمر عليهم الرصاص، ينجحان في الاختباء خلف أحد الجدران، يُسندان ظهريهما إلى ذلك

الجدار وصدرهما يعلوان ويهبطان من شدة اللّهات، فيما لا تزال ذراعاً الضّحية في أكفهم، وخطّ واسع من الدّم المُعَقَّر بالثراب يرسم الأمتار التي سَحَبَا الجُثّة خلالها.

في مرّات أخرى، ينجح الفدائيون في إنقاذ المَقْتُوصِينَ، لا لأنّ رصاصة القناص لم تُصِب الهدف، بل لأنّ الإصابة لم تكن قاتلة. في هذه الحالة، تصلُ إلَيّ في المُستشفى هذه الأنواع من الإصابات. في البدايات كان يَفُذ ما بين عشرة إلى عشرين مَقْن قُنِصُوا في الشوارع، ازدادَ العددُ مع الحصار حتّى وصل إلى قرابة خمسين إصابة في كلّ يوم، كانت الناس مخنوقة، ومع علمها أنّ القناصة لن يرحموا أيّ واحدٍ يمز في الشوارع أو حتّى في السّاحات الخلفيّة للأبنية، إلا أنّ الذي كان يُخرجهم أشدّ من الموت المُحقّق هذا، إنّهُ الجُوع، كانث الرّصاصات المُوجّهة من قِبَل القناصة المُحترفين تستهدفُ بطنَ ذلك الذي خرج من أجل لُقمة خُبْز!

لم أكنُ أستطيعُ وحدي التّعامل مع هذا العدد الكبير من الإصابات، كانت الإجراءات تقضي بأنّ يتولّى عددٌ من الممرّضين وكذلك الأطباء الإسعافات الأوليّة من وقِف التّزيف، والضغط على الجرح أو تثبيت الكُشُور. بعض الحالات تصل ميّته، وبعضها كان إنقاذها مستحيلاً، كان على الطّبيب الأولي أن يثخذ قراراً في أن يُنقِذَ مَنْ لديهم نسبة احتمال عيش أكثر من سِواهم، أعني أكثر من الميئوس من إنقاذهم، ولم يكن قراراً سهلاً، كان دَوْرًا يشعر فيه الطّبيب أنّه يقوم فيه مقام الأقدار السّماويّة، إذ إنّهُ - أستغفر الله - هو الذي يُقرّر مَنْ يموت ومن يعيش!

بعض الحالات كانت تستدعي التصوير المقطعي لتحديد شدة الإصابة، ولتحديد موضع الرصاصة، وإذا كانت الإصابة في البطن، فإن ذلك يستدعي جراحة استكشافية لإصلاح الأعضاء الثالفة أو إيقاف النزيف، ولم تكن لدينا أجهزة لذلك، كنا نخرج الرصاصة بتوقع مكانها، ولم تكن الرصاصات وحدها التي تستقر في الأجساد ويصعب إخراجها، كانت هناك شظايا من أنواع كثيرة لا يمكن التنبؤ بها. لم نستطع أن ننقذ أكثر من نصف المصابين بهذا النوع، بمعنى أنه كان يموت بين يدي بسبب القناصة فقط في اليوم الواحد حوالي خمسة وعشرين شهيداً!

ظل الجوع ينهش في الأجساد، بعضنا فقد حوالي ثلاثين كيلو غراماً من وزنه، وبعضنا وصل وزنه إلى أربعين كيلو غراماً، إن رجلاً بهذا الوزن ليس رجلاً حياً، إنه لا يتحرك فيه شيء سوى عينيه، وأنفاسه البطيئة. مات الناس في بيوتهم من الجوع، لم يجدوا شيئاً يأكلونه في أحياء لا يدخلها أحد، بعيدة عن العيون وعن الوجود وعن الناس وعفا يسقى المساعدات الغذائية، التي كانت أحياناً تفسد مع الوقت فوق أسطح البنايات المهجورة لأنها لم تذهب إلى مكانها الصحيح!

كان الإعلان عن مكان توزيع الطعام من قبل هيئة الإغاثة التابعة للأمم المتحدة بمثابة إعلان حرب، كانت الشاحنة تصل مع قوة حماية من الجنود، وكان الناس يتجمعون قبل وصولها بوقت طويل بأعداد كبيرة، كانوا يخاطرون بحياتهم وهم يمزون عبر شوارع القناصة ليصلوا إلى مكان المساعدات، تزداد أعدائهم مع الوقت حتى يصلوا إلى المئات أو الآلاف، وفور البدء بتوزيع الطرود

الغذائية يتدافع الناس تدافع الناس يوم الحشر، ويتدفقون تدفق الطوفان، ويدوش بعضهم فوق بعض، ويشارك في هذا التدافع النساء والأطفال، كانوا يصرخون بشدة ويصيحون، ويمذون أذرعهم العارية باتجاه الشاحنة، وكان جنود الأمم المتحدة يحاولون صدّهم بأعقاب البنادق، وإطلاق النار في الهواء للتحذير، ولكن أتى لهم ذلك، وهم موجّ هادز لا يُوقفه شيء، وتختلط الصيحات، ويتصاعد الهياج، ويسقط الناس من التدافع، وسقوط أول متدافع يعني سقوط العشرات ثمّ المئات، ويدوش بعضهم فوق بعض، ولم ينتبه الناس إلى أحبائهم وإخوتهم أو أبنائهم الذين سقطوا، ومات العشرات هزّسا وسحقا تحت الأقدام، وكان عدّد الذين رجعوا بالعدس أو الزيت أو الدقيق أقلّ ممّن ماتوا من أجل الحصول عليه، ولو أنّهم بقوا في بيوتهم لما مات من الجوع مثلهم. وتكرّر المشهد وتكرّرت المأساة.

كان الجوع وجهًا من وجوه الموت المتعدّدة، لم يكن الوحيد، ولكنه كان الأبرع، غير أنّ الموت كان يختبئ خلف المال أيضًا، إنّ شيئًا مُدبّرًا يحدث هنا يا (حارث)، لقد أعلن ذلك بوقاحة: "كلّ صربي يحصل على (300) جنيه إسترليني مقابل كلّ طفلٍ يقوم بقتله"، هذا يُفسّر لماذا الأطفال. فحتى تقتل مستقبل المدينة اقتل أطفالها. كان الأولاد المُشرّدون والأيتام، والذين وجدوا أنفسهم بلا شيء ينتشرون في الشوارع من أجل الحصول على ما يسدّ الزمق لأهلهم، وغالبًا ما يُقنّصون ولا يعودون إلى أهلهم، أو من تبقى منهم.

كانت هناك شركة سياحية لها فروغ في بلدان أوروبا كلّها تعرض رحلاتٍ إلى البوسنة والهرسك، من ضمن برامجها التّشجيعية الاشتراك بعملية قنّص البوسنيين الذين يعبرون الشوارع أو الأحياء،

والاستمتاع بمشاهدة الحرب على الطبيعة. لقد اشترك في هذا النوع من الرحلات عددٌ كبيرٌ وكانَ برنامج القنص فيها الجزء الأمتع في الرحلة كلها!

من بداية الحصار دَمَر الضرب مصادر الطاقة، ووسائل اتصال المدينة بالعالم الخارجي، وكان التَّجويع في قائمة أهدافهم، حُدِّدوا المراكز التي توزع الذِّقِّيق، والمطاحن، والمخابز، وقصفوها كلها. صارت بعض المخابز تعمل وهي تتظاهر بأنها مُغلَّقة بسبب التدمير، وتقوم بإنتاج الخبز في جزء غير ظاهر أو تحت الأرض؛ قصفوها هي أيضًا.

كانَ التَّطهير العرقي يعمل في الاتجاهات كلها، ليس في القتل ولا في التَّجويع ولا في الإبادة المُمنهجة، كانَ هناك ابتزازٌ من نوعٍ حقير؛ بعضُ سُكَّان المدينة الذين أُلقي عليهم القبض كانوا يُرغمون على توقيع أوراق تقضي بالتنازل عن ممتلكاتهم مقابل السماح لهم بالخروج أحياء من المدينة. إنهم يسرقون بلادنا يا (حارث)، كأنَّ البلادَ ورقة يضعونها في جيوبهم!!

إنني لا أريدُ أن أشتُم، ولا أقول إنَّ العالمَ كافر، ولا أنفُس عن غضبي، وأنت ترى كيفَ نقيعُ أنا وأنت في هذا المعسكر ككلَّبين أجريين، أو شائين عفاوين، ولكن ما معنى هذا الصمت على ذبحنا، هل يُمكن أن تُفسره لي، أو يُفسره أيُّ عقل؟ إنَّ (ماكينزي)... تعرفه؟ قائد قوَّات الأمم المُتحدة أخبرَ أمريكا أنَّه لا يُؤيد تدخلها العسكري في البوسنة، ولا حتى حماية القوافل الغذائية التي لا تُقدِّم ما يَبُلُّ الزَّيْق عبر الجسر الجوي، وقال: "إنَّ تدخل قوَّات الناتو سيُشجِّع

البوسنيين على الاستمرار في القتال بدلاً من التفاوض مع الضرب".
ثم ماذا؟ هل تعرف ماذا فعل هذا الزجل الفحايذ اللطيف الوردى،
حمامة السلام الوادعة؟ لقد ثبت أنه قام باغتصاب أربع فتيات
مسلّمات، وحصل على رشاي مائة من الضرب في هذه العاصمة
المنكوبة (سرايفو)!

نحن نتعامل مع مجانيين يا (حارث). كان المطار المفتنفس الوحيد
للحياة، يمكن من خلاله أن يدخل الخبز والعدس. قصفه الضرب. ثم
احتجزوا فيه الرئيس (علي عزت بيجوفيتش)، اعتقلوه وهو عائذ
من البرتغال بعد مفاوضات سلام فاشلة. أين الموائيق الدولية التي
تجزم الاعتداء على رؤساء الدول؟! لقد تعامل المرتزقة معه كأنه
أسير حرب، أو جندي عادي؛ هذا رئيس دولة، ولكنه مسلم، فلنفتقله
ولنذله، إنه لا يستحق أن يطلق عليه رئيساً ما دام مسلماً. واقتادوه
مع ابنته إلى ثكنة (لوكافيتشا) العسكرية، وكان مبنى الرئاسة في
تلك الأثناء بالذات يتعرض للقصف الشديد، ولم يقبلوا بالإفراج عنه
إلا مقابل الإفراج عن جنرال صربي، كأن حياة الرئيس تعادل حياة
عسكري! لم ينجح الأمر، ولم تنجح المفاوضات بين الطرفين، لولا
تدخل الجنرال (جوفان ديفياك) الذي اعتلى ظهر مدرعة عسكرية
تعود للمقاتلين البوسنيين لإقناعهم بضرورة الاتفاق، وأن حياة
الرئيس ستكون في خطر ما لم يطبق، الغريب أن (جوفان) هذا
جنرال صربي أرثوذكسي، انتصر للرئيس أكثر مما انتصر له من كان
حوله. وخرج بعدها الرئيس، لكن الحصار اشتد. والمطار نفسه أعلن
لاحقاً منطقة عسكرية مغلقة. ونقصت أنفاس (سرايفو) نفساً آخر!

في مستشفى (كوشيفو) قالت لي امرأة شهدت حادثة الملعب

الرياضي ما تشيبت له النوادي، كانت لا تزال مذعورة، حاولنا أنا والدكتورة (نادية) عبثًا تهدئتها. قالت: دخلوا بيتي، ولم يكن فيه غيري وغير طفلي، قال لي الضابط الصربي: إما أن أقتل ابنتك أو أقوم باغتصابك. كنت أرتعد من الخوف، لم أقل شيئًا، كان الدعر يسيطر عليّ، حينها اقترب مني الصربي، وقام باغتصابي، ثم قتل طفلي. وأجهشت بالبكاء، وزحنا نخف عنها، ودون أن تسمع سألت الدكتورة: تقول إنها قادمة من بيتها، أليست ضمن الذين جاؤوا بعد حادثة الملعب الرياضي؟! هزت الدكتورة رأسها، فيما تابعت هي حديثها كأنها ثجيب عن تساؤلي: ساقوني من بيتي إلى الملعب الرياضي المغلق في المدينة، كان يمتلئ بالنساء من كل أنحاء (سراييفو)، كنا أكثر من مئة امرأة، وأعمارنا بين الخامسة عشرة والخامسة والعشرين، حين دخل أربعة من الضباط الصرب، فصاح قائدهم بصوت عالٍ: "سنجتث الإسلام من هذه البلاد، ارحلوا فليس لكم مكان هنا... هذه بلاد مسيحية وستبقى للأبد كذلك". ثم قام بأخذ إحدى المسلمات من المدرج وكان معها طفل رضيع بعمر شهرين تقريبًا، أخرجها من المدرج وقام بتعريضها أمام المئات من، وأمام الجنود الصرب، ثم قام باغتصابها بوحشية، ثم قام ضابط آخر كذلك باغتصابها، والتفت بعدها الضابط الصربي إلينا وقال مُهذَّبًا: "كلكن سنفعل بكن هكذا".

نَفَقُ الأَمَل

"لن تدخل ذبابة إلى سراييفو"، لم يكن هذا خلقاً، ولا مقولةً اعتباطيةً، لقد عملت القوّات الصّربيّة على ذلك فعلاً. كان تمركزها على الجبال المُحيطة بالمدينة، واعتلاءها البنايات العالية، وانتشارها خلف نقاط كاشفة، وانيساط مُدزج المطار هدفاً سهلاً أمام سلاح المدفعية، جعلَ كُلّ مَنْ يتحرّك غرضةً للإصابة الفباشرة. في المطار نفسه لقي حوالي خمسمئة شخص حتفهم بنيران القناصة!

اشتدّ الحصار، واشتدّ معه الجوع والمرض والبؤس، وأحكم الموت قبضته على الحجر والشجر مثلما فعل مع البشر، ولم يكن من سبيل لتفادي سقوط المدينة بأيدي الصّرب إلا باجتراح مُعجزة، وهنا كان التّفكير بمعجزة حقيقية، هي معجزة النفق.

اقترح أحد قادة الجيش البوسني حفر نفق بين طرفي المطار من أجل إدخال الطّعام والشراب في البداية حتّى لا تستسلم المدينة، ثم نرى إن كان يُمكن إدخال الأسلحة. كان اقتراحا يشوبه الجنون، ولكن هل في الحرب أي شيء عقلاني؟! فليكن، إنّه جنونٌ وسط جنون، فلنبدأ به، هتف القائد (راشد).

كان السؤال الأبرز: من أين نبدأ؟! كل شيء تحت سفع الصّرب وبصرهم، لا بُدّ أن تكون البداية بيتاً. بيتاً؟ نعم، نبدأ من تحت ذلك البيت الذي سنختاره. ابحثوا إذاً عن أقرب بيت يقع في طرف المطار. إنّه بيت عائلة (كولار) في منطقة (بوتمير)، هذا البيت يجب

أن يكون نقطة البداية، النقطة التي سنعيد فيها الأمل لنصف مليون يواجهون الموت الذي يطلع لهم من كل زاوية. أما الطرف الآخر الذي سيخرج منه التفق ليتم امتداد الشريان فهي منطقة (دوبرينيا).

لكننا لا نملك خرائط للمطار، ولا خرائط لطبوغرافية الأرض، ولا طبيعتها، ولا عمق المياه الجوفية فيها، ولا تأثير الآبار الارتوازية هناك. إن الأمر لا يعدو محاولة لإطلاق ضربة معول في المجهول، وليكن؛ إن لم نربح فلن نخسر.

دخل المهندسون البيت الذي يعود لعائلة (كولار) في منطقة (بوتمير) الأنسب للبدء بعيدًا عن الأعين، لم يجدوا فيه غير امرأة عجوز، هي (شيدا كولار)، أخبروها بالمهمة، وأنهم يطلبون موافقتها من أجل البدء وسط بيتها ومتاعها بالحفر، صمّت صمّا مريبًا، قبل أن تجيب: "لا أوافق إلا بشرط واحد". توقعوا أن يكون المال أو الطعام أو أي شيء آخر، لكنها تابعت: "بشرط أن أحفر معكم هذا التفق، وأنا الذي سأتولى عملية إطعامكم". وهكذا بدأت العملية.

تولى المشروع المهندس (نجاد)، لم يكن لديه الكثير من المعدات، باستثناء الحماس للفكرة، وعدد من المتطوعين الفدائيين، كان يقيش وجود الماء من خلال حبل في أنابيب المضخات، لا من خلال جهاز رقمي ولا حتى جهاز يدوي، ولكن ما حيلة المضطر إلا ركوب الأخطار. قرّر أن العاملين يجب أن يصلوا إلى موقع الحفر فرادى حتى لا تلاحظ أية حركة مشبوهة، وأن يتم الحفر على مدار الساعة، بالطبع لم تكن هناك آليات حفر ولا معدات، كان لدى الحفارين المعاول البسيطة، قسّمهم المهندس إلى مجموعات، كل

مجموعة من خمسة أفراد، يدخل الأول فيحفر ما استطاع حتى إذا شعر بالاختناق أو قلة الأكسجين، خرج على الفور، ونزل الذي بعده، وهكذا، وعلى كل مجموعة أن تحفر مترًا واحدًا فقط، ثم تخلي الموقع لصالح مجموعة جديدة، وهكذا.

كان الأمر يتطلب سرية تامة، لا أحد يُجيب عن أي سؤال، ولا يُناقش الموضوع مع أي شخص حتى لو كان في مجموعته، ولا أن يستعرض بطولاته ولا العمق الذي وصلوا إليه، ومن الخارج يجب أن يبقى بيت ماما (شيدا) في الظاهر بيت عجوز تقضي لها ما تبقى في هذه الحياة وسط حرب مجنونة داخل غرفة مربعة. ولا يخرج من هناك في النهار أحد. عند هبوط الليل يتم تبديل المجموعات.

حين بدأ الحفر ينجح، ووصل الحفّارون إلى عمق جيد، برزت تحذيات جديدة، الكهرباء مقطوعة، والتفق بطبيعة الحال مُظلم ظلامًا أشد من الليل في ساعاته الأخيرة، سُضيئه بالمصابيح اليدوية أو بقناديل الكاز، أمر جيد، ولكن هذه القناديل تنفث من فتحة رُجاجتها العلوية الشخام والهباب وثنائي أكسيد الكربون وبالتالي تسرق الأكسجين القليل أصلاً الذي بالكاد يكفي رِثَي الحفّار خمس دقائق، التّبديل السريع حلّ شيئًا من هذه المشكلة، لكن الحفر بدأ في الشّتاء، كان الماء أحيانًا يُغطّي الجزء المحفور وهذا يُعقّد الحفر، كانوا يُزيلون الماء بالأيدي وبالذّلاء، ثم يعودون للحفر الذي يُصبح أصعب في بيئة طينية.

وجه المهندس العاملين حتى لا يموتوا من انهيار التّفق عوض الاختناق، أن يُبطنوا جوانب الأجزاء التي تم حفرها وشقوفها

بالعوارض الخشبية، والحديدية إذا توفرت، ولا يتقدموا في الحفر إلا إذا أمّنوا ما تمّ حفّزه.

لو هُيئَ لك أن تنظر من الخارج إلى النفق، وكان هذا الجزء يُمكن رؤيته فستشاهد الحفّار مثل حيوان الخلد يقوم بالحفر بهمة وبدأب من أجل أن يجد منفذًا. كان النفق يقع بين هاتين المنطقتين وتحت مدرج المطار تمامًا. وكانت الطائرات القليلة التابعة للأمم المتحدة تربض فوقه دون أن تتحرّك في مشهد لا يتكرّر.

كانت ماما (شيدا) تقول: "احفروا يا أبنائي، أعيدوا الحياة للمدينة، إنَّ أهلكم ينتظرون منكم أن تُساعدوهم". حفرت في البداية كَارثَ ورمز، ثم قبل المهندس رأسها: "لقد وفّينا بشرطك"، فردت وعيناها دامتان: "بقي أن أفي أنا بشرطي الثاني". وكانت تطبخ في طنجرة قديمة من الألمنيوم على بابور الكاز، تُعدّ بعض الشوربات، وبعض فطائر البطاطس، وكانت سعيدة جدًا بوجود الغُقال في بيتها.

غير أنَّ البيت لم يكن بعيدًا عن أعين الضرب، ولا عن مدافعهم وقذائفهم، لاحظوا حركة غريبة فيه بالرغم من السريّة الثامة التي انتهجها المهندس مع الغُقال، فبدؤوا بقصفه، انحفر الجدار خفّزًا كبيرًا، وتشوّه بمواضع الطلقات، ولكنه ظلّ صامدًا إلى اليوم، كان الله يريد أن يصمد، وإلا فإنَّ عددًا من الحفّارين قُتلوا جزاء ذلك القصف، ومات آخرون بسبب ظروف الحفّار

كان اتجاه الحفر لا يعتمد على القياسات الدقيقة ولا على أجهزة المساحة، كان المهندس يُعمل في ذلك خياله الهندسي، ويعمل بمقتضاه، استمر حفر النفق أربعة أشهر تقريبًا، من الجهة الأخرى

من منطقة (دوبرينيا) رُئيت السماء لأوّل مرّة بعد انتهاء الحفر، كان طول النفق حوالي ثمانمئة متر، لكنّها جعلت المدينة تصمد أكثر من ألف وأربعمئة يوم حتّى الآن يا (حارث). كان ارتفاع النفق مترًا وعشرين سنتيمترًا، كان عليك وأنت تعبره أن تنحني إجلالاً لثلاثمئة عاملٍ أعادوا لسراييفو خيط الحياة الذي كان سينقطع لا محالة، أمّا عرضُه فلا يزيد عن متر، كان ضيقًا وواطئًا، ولكنّه أدخل إلى المدينة المنكوبة في اليوم الأوّل لافتتاحه اثني عشر طنًا من المواد الغذائية والطبيّة. نحن في مستشفى (كوشيفو) لم نكن لنستمرّ في مهمّتنا الإنسانية لولا وجود هذا النفق، إنّه نفق الأمل كم سقينا، وسقاه آخرون شريان الحياة.

لا أدري عدد الذين عبروا من خلاله حتّى اليوم يا (حارث)، لكنني أعتقد أنّهم بالملايين، كانت الحركة فيه لا تتوقف، حتّى ألعاب الأطفال هزّيناها من خلاله، وحتّى الرئيس (علي عزّت بيجوفيتش) كان يصل إلى المطار عبره مُتجنبًا بذلك رصاص القناصة، لقد كان الرئيس نفسه في مرمى هؤلاء القناصة الملاحين. الرئيس الذي أرسل مئة رسالة إلى زعماء العالم وخاصّة المسلمين منهم لإنقاذ شعبه في حرب التطهير العرقية التي كنّا نتعرض لها.

يومًا ما حينَ تخرج من هنا يا (حارث)، عليك أن تتحدّث عنه، إنّه ليس رمز صمودٍ فحسب، ولا عنوان إرادةٍ أننا لن نستسلم ولن نموت، بل إنّه معجونٌ من قصص كثيرة، لقد عبره بعض الناس الذين تركوا أطفالهم على الطرف الآخر وعادوا إليهم من خلاله بعد سنوات. الأسلحة التي جعلنا نصمد مرّث من خلاله. الأحلام ظلّت حيّة حينَ عبّر هواؤها بين طرفيه. والصحفيون الذين نقلوا قصّتنا

إلى الصحفات العالمية استخدموه كذلك، والجنود الذين دافعوا عن وجودنا وهويتنا وطئته أقدامهم وهم ينحنون على بنادقهم ويضفون عليها شغاف قلوبهم.

نحن صورة الحرب الأكثر تجلياً هنا في المستشفى، نحن الذين نسمع صرخات المُعذِّبين الأخيرة، ونرى العيون المُسافِرة في البعيد، ونحن الذين نُعيد ترتيب أشلاء الموتى أو المُشفيين على الموت، ونحن الذين نسمع القصص التي تنخلع لها القلوب، ونحن إلى ذلك كله علينا أن نعالج ونطبب ونأسو وننقل التَّفاؤل إلى المُنهكين، ونحن الذين سنقول للموتى الحقيقيين: "إنكم أحياء، اهدؤوا، سنعالج إصاباتكم، لن تموتوا الآن"، ولكنهم كانوا يموتون أمامنا!

كان(سامر) يترك أخباره الشَّحيحة في مَراته النَّادرة التي يعود فيها إلى البيت، تمثيث أن ألتقي به هناك لو مرّة واحدة من أجل أن تُفرَّغ طبقات الوجع التي تتراكم فوق قلوبنا، ستأتي هذه المرّة، أنا على أمل أنها ستأتي، ولو بعد سنة أو سنتين، المهم أنها ستأتي، كان في المرّة الأخيرة قد كتب لي على ورقة قد قَطَّعها من الصفحة الخالية الأخيرة من كتاب: "أكتب إليك من الظُّلال الباردة، من خندقي في الجبهة، إننا نستمع إلى الأغاني الشعبيّة والثوريّة لكي لا نُفكر بالترجع، لا تقلق عَليّ، إنني أقوى من قبل، و(سراييفو) أقوى كذلك، ومعنويّات زملائي عالية، ما زلت أحلم، سترتفع هذه القبضة الفولانيّة عن عنق البلاد، وستعود (سراييفو) كما كانت مدينة الجمال والسلام والحب والأنهار، وسأعود إلى جامعتي، وأكمل دراسة الطّب، وأعالج النَّاس، وأمسخ على جراحهم، وأعطيتهم أملاً كما أعطيتني. من خندقي الضيق أرى الفضاءات الواسعة، ومن عتمة الحفرة التي

ننام فيها أرى الضياء ينتشر في كل البقاع. نحن أقوياء يا أبي.
وسنتصر. صدقني".

قبلت الورقة، وكتبت على ظهرها: "ألا يمكن أن أراك؟ لدي إجازة
يوم السبت 5 شباط القادم، وعلي أن أعود الأحد إلى المستشفى.
أتمنى أن أراك في ذلك اليوم، ألا تعطونكم أيضًا إجازات؟ أبوك
المشتاق".

الحرب والكتابة

كنتُ أجهز نفسي بالفعل للعودة للبيت بعد أربعة أشهر في المستشفى متواصلات مع الموت والضحايا لم أزر فيها الحى ولا جنيّة البيت، ولم أر (سامر). بحلول ظهر ذلك اليوم كنتُ قد بدأتُ أحزم حقيبة صغيرة أخذها معي في الإجازة، تضم بعض متعلقاتي الشخصية حين راحت سيارات الإسعاف في ساحة المستشفى بالتوافد تباغًا وهي تطلق أبواقها التي لا تهدأ، كانت قد حدثت كارثة!

في 5 شباط من عام 1994م كان سوق الخضار المركزي (ماركالي) المغطى والمزدحم بالناس ازدحامًا شديدًا، والذي فتح في ظل هذه الظروف الصعبة من أجل أن يؤمن للناس شيئًا من احتياجاتهم قد قصفه الضرب في الثانية عشرة ظهرًا بقذائف الهاون من عيار (120) ملم، تفجّر المكان، تبعثرت الأشياء، تناثر الأطفال، واختلطت صناديق البندورة بدم الناس، وانقلبت العربات، وارتدى الناس في كل جهة، وشبت الحرائق، واختنق من ظل حياء، وتصاعد الغبار، وتراكمت طبقت من الدّم، وراحت أجزاء أخرى من البناء والعوارض تنهار فوق الرؤوس، وتكسرت السيّقان، ودخلت الشظايا في كل جزء من جسد الضحايا، وتفحّم اللحم، وخمدت الأصوات تدريجيًا، ولما سكت الغضب وتوقّف القصف، وصمت الوقت، ووقفت عقارب الساعة كان السوق قد انهار فوق الناس واحترقوا داخله.

ما بين التفجير إلى نقل الناس مات ضعف من كان سيموت.

ووصلت إلينا الجُثث متفحمة، وناقصة، ومبتورة، وغير ظاهرة
المعالم. كنت قد وضعت حقيبتى على كتفى وصرت على باب
المستشفى أفكر بالطريقة التى سأصل فيها إلى البيت دون أن
تصيدني رصاصة أحد القناصين، إذ ذاك بدأت سيارات الإسعاف
تصل بأعداد كبيرة إلى المستشفى، رميت حقيبتى، وتوجهت إلى
غرفة العمليات على الفور، وبدأت أصعب مهمة في تاريخ عملي،
وفي تاريخ الحصار، كانت الأجساد متهتكة، ذائبة، مُحترقة، مُلطخة
بالسّخام والثراب، مُقطعة، مُتذرذرة، كان علينا أن نعيد جميع بعض
الأطراف المبتورة، وبدأنا أنا والفريق الطبى عملاً متواصلًا مدة
اثنتين وسبعين ساعة لم نتوقف فيها إلا لشرب الماء أو تناول قطعة
بسكويت أو خُبز.... وفي اليوم الثالث عادَت إليّ الذاكرة... ذاكرة
الرسالة الأخيرة، لقد كان من المُفترَض أن أكون في البيت ونحظى
أنا وابني (سامر) بقاء عزيز لا يحدث إلا في أحلام لا تتحقق. ولا
أدري إن كان قد تمكّن من أن يخرج من ثكنته ويأتي إلى البيت،
ويجد رسالتى في وقت سابق، ثم يفد في هذا الموعد الذى صرّبه
له... كل شيء سيجري بقدر، ولِحكمة. كان من الممكن أيضًا ألا أصل
إلى البيت لو مضيت خارجًا حتى ولو كنت في إجازة، وكان يُمكن أن
يموت آخرون لولا عناية الله واضطراري للزجوع إلى غرفة العمليات
لأقوم بواجبي الإنسانى.

كانت المذبحة قد قتلث وجرحث أكثر من مئتي مواطن عادى،
لم يكن يحلم بأكثر من حبة يقطين يُدير عليها ماء ساخنًا من أجل
أن يصنع حساء ينقّضه كل شيء، ولكنه يُمكن أن يجعله يصمد أيا ما
أخرى في سباق الموت معه. لكن الموت سبقه. وكل شيء عنده

بالطبع ستقول لي يا (حارث) أين الأمم المتحدة؟! إنها تغط في نوم عميق. أين القوّات الدوليّة؟! إنهم يَزُون ويستمتعون بالمنظر. أين المُجتمع الدولي؟! إنه يُغْطِي وجهه بذراعه ويغض طرفه لأنّ المشهد آذى شعوره. أين زُعماء الدّول الكبرى التي تتخذ من الحرّية وحقوق الإنسان أكبر شعاراتها؟! إنهم مشغولون بالزّقص في حلّبات النوادي اللّيلية الحمراء.

بعد أسبوع من تلك الحادثة تمكّنت من العودة إلى البيت وأخذت استراحة ليوم واحد. أسرعت إلى طاولة الطّعام الصغيرة في المطبخ، وجدت الورقة، كان ابني بالفعل قد تمكّن من القدوم في الموعد المضروب، وقد كتب تحت رسالتي الأخيرة: "أنا أموت شوقاً إليك يا أبي. أتيت ولم أجذك. انتظرْتُكِ ليلةً كاملة. قلقت عليك. ولكن أحد الجيران أخبرني أنّه رآك في المستشفى، علفت بأمر مذبحة سوق (ماركالي)، وعذرْتُكِ. أنت ثبلي بلاءً حسنًا يا أبي. سنلتقي في المرّة القادمة إن شاء الله. المشتاق جدًّا: سامر".

قبِلْتُ الرّسالة وبكيت، نحن نقاتل يا بُني من أجل وطننا المذبوح، أنا أقاتل من أجلك، من أجل (سرايفو) التي عشنا فيها، لا نريد لهذا الغول أن يبقى، لكن لا أحد يدري كيف لهذه الدّوامة التي تبتلع كل شيء أن تتوقّف. الأمل بالقدير.

كان هناك بائع حليب يعرفه أهل الحي عندنا. زبائنه قبل الحرب يعرفونه ويعرفون مواعيده. حين بدأت الحرب لم يتوقّف. كان يأتي من المزارع القريبة من العاصمة بسيارته ويوزّع الحليب على

المُشتريين، مع استمرار الحِصار تغيّرت خُطّته، كانَ يركبُ حمارًا يومًا واحدًا في الأسبوع، ينتظر غروب الشمس، ويبدأ مع أوّل الليل، يتفق مع الحمار هامسًا في أذنيه: "إذا أردت أن ننجو، فعليك ألا تنهق، وأنا سأخذك من طريقي لا يوجد فيها قنّاصة"، فيهرّ الحمار رأسه علامة الموافقة، ثمّ يمسح بائع الحليب على عنقه، ويردّ: "إننا نقوم بمهمة إنسانية لا تقوم بها الأمم المتحدة" فينفّض الحمار رأسه ويبرطم بشفتيه الغليظتين، ويظهر صف أسنانه الصفراء العريضة كأنه يريد أن يقول: "ظز بالأمم المتحدة". وأردف: "إننا نحاول إنقاذ الناس الذين يموتون جوعًا هناك في العاصمة. سننقذ الأطفال المساكين. هل أنت معي في هذه المهمة؟!". ويضرب الحمار الأرض بباطن حافر قدمه اليمنى ليؤكد أنّه لها. ويمضيان.

كانا يأتیان مرّة واحدة في الأسبوع، يوزعان الحليب على البيوت، ولا يأخذان مقابل ذلك فلسًا واحدًا، كان بائع الحليب يضع الحليب على الباب دون أن يطرقه في ذلك اليوم، وينتقل منه إلى بيت آخر ويفعل معه الشيء ذاته حتّى يطوف على البيوت التي اعتاد أن يطوف عليها. وكان أهل البيوت أو من تبقى فيها يخرجون في الموعد المُتوقّع فيجدون دلوًا صغيرة من الحليب أمام الباب، فيأخذونها بحذر، ويغلقون على أنفسهم.

في الآونة الأخيرة لم يعد يزور بائع الحليب الحي ولا حماره، صار الناس يفتحون أبواب بيوتهم وهم يتلقّتون حولهم بحذر، فلا يجدون الدلو. تكرر الأمر، منذ شهرين لم يروا له أثرًا، غاب كأنه خيال زارهم في حلم بعيد. تحوّل البائع إلى حكاية تنبث على الشفاه، إلى قصة حزينة، دارت حولها أسئلة كثيرة: ما الذي حدث للبائع الطيب،

هل سقط عن حمارة وذقت غثقه، أم أن رصاصة طائشة أصابته؟ وما الذي حدث لحمارة؟ هل مات؟ هل شرب ماء ملوثًا فتسقم، لماذا لم يعودا إلى الحَي؟! وخلف هذه الأسئلة قضى عددٌ من الأطفال نحبهم، وأطفئت مصابيح كثيرة بعد أن جفَّت دُبالثها!

جزءٌ من الطريق يظل غامضًا، جزءٌ لا يُفسر، وجزءٌ لا يمكن أن يُرى. كانت حياتنا طريقًا تتوزع فيه الأجزاء بحسب توزعنا في زقاقاتها. كانت طريقي المعتادة إلى المستشفى فيها ألف جزءٍ وجزءٌ غير معتاد، كان فيها الغموض الذي لا يُفسر وذلك الذي لا يُرى. وكان هناك جزءٌ من تلك الطريق أعطى الحياة للمقاتلين، لم يكن دواءً ولا طعامًا ولا شرابًا، ولا أملًا، ولا كلمةً دافئة، كان سلاحًا.

شاركْتُ في مراحل من عملي في المستشفى في نقل الذخيرة. كنّا ننقلها إلى الأقبية التي يعرفها جنود الجيش البوسني. كانت هناك لغة خاصة، وطريقة مُحددة. كل شيء كان يتم بسريّة، ولكنه كان يصل إلى الجيش. كنتُ أشعرُ بفخرٍ إذا نقلتُ صندوقًا أو جوالًا إلى مكانٍ من هذه الأمكنة السريّة، كنتُ أشعرُ بابتسامة ابني في الجبهة حين يعرف أن هذا الصندوق المعدني الأخضر كان أبوه قد حمّله بين ذراعيه أو على أكتافه في دروبٍ لا تُرى من أجل أن يصل إليه.

كانتِ الدواب هي أفضل وسيلة لنقلها من الجبال إلى الخطوط الأمامية أو إلى الخنادق، كانتِ الجبال وعرة، ولم تكن فيها طُرُق سالكة، وكان ذلك يتطلب طريقًا خاصًا ومجهودًا كبيرًا، وكانت الحمير سيّدة الموقف في هذا، ولو وجب لأحد أن يُكرّم بعد انتهاء المعركة وانتهاء هذا الكابوس الطويل فإنني أرشح حمار الحليب،

وحمير الجبال في مُقدّمة المُكرّمين.

سمعنا جلبةً في طرف المُعسكر، التفتُ إلى (حميد): "أنتَ جَزّة حكايا بالفعل يا دكتور". "أنا لم أقل عُشر ما ينبغي أن أقوله لك. هناك قصص كثيرة تستحق أن تُروى، إذا كنتَ تريدُ أن تكونَ بطلاً، فالضمود في هذه المُعسكرات وحدها لا يكفي، عليك أن تروي هذه القصص وتكتبها". تعالتِ الجلبة في تلك الزاوية. سألتني الدكتور (حميد): "ما الذي يجري؟ ما هذه الجلبة؟". أجبتُه: "بالعادة يكونُ الحرس يهَيئون المكان لخطاب الزعيم، غالباً سنرى طلّته البهية بعد قليل".

قُفنا نتمشّى في المُعسكر، كان (حميد) يشدّ على يدي، إنَّ أوجع فُصلٍ في حكايتي لم أزوه لك بعد". "أتريدُ أن تحكيه اليوم؟!". "إنَّ طاقتي لا تحمل ذلك". "ربّما غداً، أو في الأيام القادمة، أنا أسجل كل ذلك في عقلي". "ضروري. كانت لك محاولات في الكتابة؟". "أنا؟ لا. لكن يبدو أن الحرب سثحّولني إلى كاتب يكتب بالسكّين". "إنَّ هذا قتالٌ من نوع آخر. جميعُنا نقاتل يا (حارث)".

جلسنا نتناولُ خُبزنا، كانَ خُبزنا كفافنا بالفعل كما قال المسيح، كان يجعلنا نصمّد لليوم الثالي بشقّ الأنفس، لموعِدِ القطعة القادمة، إذا تأخر موعِدُ تلك القطعة فإنَّ بؤابة الموت تفتحُ ذراعَها، وداعي الفراق ينعقُ على أسلاك المُعسكر الشائكة.

كانتِ الجلبة قد ازدادت، وظهر الزعيم، التفتُ إلَي حميد: "ماذا يُمكن أن يخطبَ هذا البائس؟". "إنَّه يُفرغُ جنوّه وجنودَ سلطته". "لن يكونَ أكثرَ جنوناً ووقاحةً من زعيمه (رادوفان كراديتش)

الذي قال: الضرب ليس عندهم أصدقاء بعد الله واليونانيين. وقال
يتهذؤنا: أهل (سراييفو) لن يتمكنوا من عدّ أمواتهم، بل على العكس
سوف يتمكنون من عدّ أحيائهم. وأنا أبصق على الاثنين".

مَذْبَحَةُ الْكُتُبِ

كان التّطهير العرقي لا يعني قتل النّاس فحسب، بل كان يعني قتل الكُتُب. إنّ قتل الكُتُب جريمةٌ بِشَعَةِ جِدًّا، إنّها تساوي قتلَ البشَر، لأنّ في بطون هذه الكُتُب الحياة للبشَر، المعرفة التي تُنقّذهم من الطّاعون والأمراض، وتكشف لهم الطّريق، وتهديهم سواء الصّراط، إنّهم بقتلها كأنّما يريدون أن يقولوا: "إنّنا نقتل ما يجعلكم أحياء، وما يحميكم من الضّيع".

كانت مكتبة (سراييفو) الوطنيّة تقع في مبنى (فييشنيتسا)، ذات الطّابع العثماني العريق، الذي حَدَثَ فيما بعد. وكانت تحتوي على مليوني مُجلّد. هل تتخيل الرّقم يا (حارث)؟! ربّما كانت من أكبر المكتبات في أوروبا كلّها إنّ لم تكن الكُبرى، وكان فيها أكثر من مئة وخمسين ألف مخطوطة نادرة باللّغات القديمة؛ العربيّة والعثمانيّة والفارسيّة، يعودُ عمرها إلى أكثر من خمسة قرون. وفيها وثائق عن التّاريخ اليهودي والمسيحي والإسلامي والسّلافي للبوسنة.

في العام الأوّل للحصار، بعدَ خمسة أشهرٍ من بدايته، فكّر الضّرب بنوعٍ جديدٍ من الإبادة؛ إنّها الإبادة الثقافيّة، إذا أرذت أن تمسح وجودهم، فإنّ القتل وحده لا يكفي، عليك أن تطمس ثقافتهم، وهكذا في ليلة الخامس والعشرين من أغسطس من ذلك العام قصفت قوَّات الضّرب المكتبة الوطنيّة بنوعٍ خاص من القذائف، تلك القذائف الحارقة المُصمَّمة للاشتعال أوّل سُقوطها، وكان الهدف قلب المكتبة، قصفوها بهذا النوع من القذائف طيلة اللّيل، بأكثر من مئة

قذيفة، انفجر الصاروخ الأول وأشعلَ كتلةً هائلةً من النار، ثم الثاني، ثم الثالث، وهكذا حتى اشتعلتِ النيران بكل طوابق المكتبة، وبدأتِ النيران تلتهمُ الكتب التهامًا سريعًا، وبدأتِ الأرفف تتهاوى، وأرواح الكتب تزهق، ومَن فيها من علماء ومفكرين وفلاسفة وتاريخ وأدب وحياة يسقطُ بشكلٍ مُتتابع.

استمرتِ النيران مشتعلةً في المكتبة ثلاثة أيام، لم تتوقف لحظة، أكلت كل شيء، قضت على مئات الألوف من الكتب، أسقطت حتى الجدران، وتفحمت كل حجر، وراحت الأوراق المحترقة التي تحولت إلى السواد ترتفع إلى الأعلى، وغطت فضاء البوسنة كاملة، ومَن نَظر إلى السماء في تلك الأيام كان يرى تلك الأوراق بأعدادٍ لا حصر لها تحلّق عاليًا كأنها طيور سوداء مسافرة على هيئة أسراب، وكانت الكتب تقول: إنه لا أشد سوادًا من قلوب البشر، كيف طاوعتكم أنفسكم أن تقتلونا على هذه الهيئة التي لا تُصدق؟!

دمروا كل ما في المكتبة يا (حارث)، ورأيث دموعَ الطبيب تتقاطر على خديه. إن هذا الحقد الأسود غير مسبوق. لم يقتلوا الأوراق يومها، إنها ليست أوراقًا يا (حارث)، بل قتلوا أرواح مَن كتبوها، نسفوا خلاصة جهود الأوائل من العلماء الذين سهر كل واحد منهم أعوامًا طويلة من أجل أن يكتب للعالم غصارة عقله. ثم جاء هؤلاء بصواريخ عمياء فجعلوا كل ذلك عدما وفناء!!

قال الدكتور (ياهيتش): "إن الحفاظ على تراثنا وكنوزنا الثقافية والعلمية أهم من الحفاظ على حياتنا، لأننا إن مُتنا سيأتي مِن بعدنا آخرون، أما إذا تمّ تدميرُ الثراثِ فلن نستطيع أن نُعوّضه؛ إن موت

شخص أو أكثر هو بلا شك أمرٌ جَلَلٌ، لكنّه بالتأكيد أهونٌ بكثيرٍ من تدمير الهوية الذي يعني موت الشعب بكامله! كان الهدف سحق تراثنا، فقد كانت المكتبة تحوي كنوزاً تعكس التعايش بين المسلمين والمسيحيين واليهود. إنّ الحرب بالأساس هي حربٌ على هويتنا، وأن أحد الأهداف الرئيسية للمعتدي هو تدمير ذاكرة الشعب البوسني المتمثلة في مكتباته، لذا، قررنا أن نقاوم، ولئن فاتنا أن ننقذ تلك الكتب التي ذُبِحت بأبشع طريقة في المكتبة الوطنية، فإنّ الضحية التالية ستكون مكتبة الغازي خسرو بك، المكتبة التي تحوي كنوزاً تاريخية لا تقل أهمية عن كنوز المكتبة الوطنية".

هُرِعَ إلى المبنى المُحترق عشرات المدنيين ورجال الإطفاء يُحاولون إخماد الحرائق وإنقاذ ما تبقى، ولكن القنّاصة الضريبيين كانوا بالمرصاد، أمطروهم بالقذائف، فاستشهد عددٌ منهم، وتراجع الآخرون، لقد حكموا على المكتبة بالفناء الثام. استبسل المواطنون في مقاومة الحريق، ولكنهم لم ينجحوا.

وبالرغم من القنّاعة بأنّه قد أُحرق كل شيء، إلّا أنّ أمناء المكتبة لم يُصدّقوا ذلك، توافدوا مع أناس عاديين منهم صرّب وكروات هزّتهم بشاعة الحادثة، وشكّلوا سلسلة بشرية لنقل الكتب من المبنى المُحترق إلى مكان آمن، وكانّ الضرب الآخرون لا يرحمون أبناء جنسهم ودينهم، كانوا مستمزين في القصف، نُقل عددٌ ضئيلٌ من الكتب، ربّما يزيد قليلاً عن عدد الذين قُتلوا في عملية الإنقاذ هذه.

غير أنّ ما فاتنا في المكتبة الوطنية يجب ألا يفوتنا في مكتبة (خسرو بك)، إنّها ستستهدف عاجلاً أو آجلاً، ولا بُدّ من التحرك

السريع. فأينَ أنتم أيها الأبطال الذين سيُصقّمون على عمليّة الإنقاذ بالزّغم من الظروف القاسية جدًّا، ومن الجوع والأمراض وتفكير الناس كيف يُبقون على حياتهم، فمن يُفكر في إنقاذ أرواح الكتب المتبقّية في الجزء الوطني الآخر بدلاً من أن يُنقذ روحه التي تنهاوى؟!

لدينا مخطوطات ترجع إلى القرن الحادي عشر الميلادي، ممّا يعني أن عمرها حوالي ألف عام، وبعضها لم تمتدّ إليها اليد الآثمة، وهي تساوي وطنًا بأكمله، أيها الأبطال موتوا ولا تجعلوا هذه المخطوطات تموت، إنَّ عددها بالآلاف، كيف تسمحون لهذا الإرث العظيم وهذا الكنز المذخور أن يضيع أمام أعينكم؟! كلاً. لن يضيع ولن يموت، ولو مُتنا دونه!

إنّها ليست مُجرد مكتبة، ولا أوراق، ولا أرفف، ولا طوابق، إنّها أرواح، وحياة ممتدّة في الوجود القديم، وتاريخ متغلغل في عروق الأدمغة البشريّة الجبّارة، لقد كان للمكتبة دورٌ كبيرٌ في الحياة التعليمية والثقافيّة والبحثيّة، ليس في دولة البوسنة والهرسك فحسب بل في أوروبا والعالم أجمع، كان يقصدها الدارسون والباحثون للتعرف إلى التاريخ والتراث الثقافي العلمي الشرقي من أصقاع الأرض.

شكّل المواطنون سلسلةً بشريّة، كان الفدائيّون في المُقدّمة، دخلوا إلى المكتبة، وهم يحملون صناديق الخُضار، نعم صناديق خضار خشبيّة لوئها قريب من لون الكُتب، كانوا يملؤونها بتلك الكتب، ويُسَلّمونها إلى الشخص الأقرب إليهم، ثمّ يُسَلّمها هذا إلى الشخص

الذي يليه، وهكذا طوال هذه السلسلة التي تمتد مئات الأمتار حتى يصل الصندوق إلى بدايتها، ثم تقوم المجموعة الفدائية الأخرى بنقل هذه الصناديق في الليل إلى أماكن أكثر أمانًا، كانوا ينقلونها إلى المباني المجاورة، أو إلى الأقبية، لم تكن الطريقة مثالية، لم نكن نستطيع تغليف الكتب المنقولة، ولا حمايتها في البداية من رطوبة الأقبية، ولكنها كانت الطريقة الممكنة في ذلك الطرف، كان يحدث أن يُقصف الذي يحمل الصندوق حين يلاحظه أحد القناصة، فيتفحم هو والكتب. لكن ذلك لم يمنعنا من الاستمرار.

بعض المخطوطات النادرة جدًا لم نُزلها إلى الأقبية الرطبة، استطعنا بطرق صعبة جدًا وشبه مستحيلة من نقلها خارج (سراييفو)، وحفظها في أماكن مؤقتة ربما تنتهي الحرب وتعيدها إلى أمها الكئون. كانت السلسلة البشرية تعمل طوال الليل، وتتوقف أثناء النهار، ثم تعود إلى العمل من جديد، دون أن تُفكر بالعواقب الوخيمة من الحرق والقصف، كانت (ليلى إيتش) نائبة مدير المكتبة تقول: "إن هذا الذي يفعله الضرب لم يفعله هتلر؛ ذلك أنه لم يقم بتدمير الآثار الثقافية والفنية والتاريخية، إن الضرب يقتلون تاريخنا وثقافتنا". وكان رئيس فرقة الإطفاء (كينان) يقول حين يُسأل لماذا تفعلون ذلك، إنكم تُعرضون أنفسكم لخطر الموت: "لأنني ولدت هنا في (سراييفو)، وهم يحرقون جزءًا مني".

كان في المكتبة تسعة وسبعون مصحفًا شريفًا يعود بعضها إلى عام 1368م لخطاطين مجهولين، فيها مصحف نُسخه الخطاط (غفار بن محمد) من غرب البوسنة. وكان هناك مئتان وست وخمسون مخطوطة في علوم القراءات والتفسير تعود إلى القرن

القائي عشر يندُر وجودها في أي مكان في العالم، وأقدم مخطوطة في مجموعة المصاحف تلك التي قامت سيّدة بنسخها، هي ابنة (موفق أبو نعيمة أحمد) في عام 1175م.

لم تكن البطولة محصورة في أولئك الذين يُقاتلون على الجبهة. الذين ينقلون الحليب كي لا يموت الأطفال أبطال. الذين يضيئون شمعة في ظلام (سرايفو) الطويل أبطال. الأطباء والممرضون المُرابطون في المستشفيات أبطال. الذين حقوا ما تبقى من المخطوطات والكتب في مُقدمة هؤلاء الأبطال. كان هذا فعل المقاومة الأبرز في هذه الحرب الطاحنة.

لن تثبّت جذورنا ما دام فينا مثل هؤلاء. لقد وعوا وثيقة المؤسس الغازي خسرو بك عند إنشاء المكتبة: "إنني أنشئ هذه المكتبة من أملاكي الخاصة لتكون وقفًا يستفيد منه جميع مُرتاديها، إنني أقف الأراضي والأسواق من أجل أن تبقى هذه المكتبة عاملة، أنفقوا كل خراج هذه الأملاك على الأمناء والعاملين فيها، والمسجد الذي في مُجمّعها يجب أن يبقى قائمًا من أجل أن يرفد المُجتمع بالعلماء. وعلى القيمين عليها ألا يمنعوا أحدًا من كتاب أو معلومة. وعلى الوقف أن يُخصّص جزءًا منه للشّاخ، وعليكم أن تختاروهم من أهل العلم والحقّة والأمانة بالإضافة إلى الخطّ الجيّد، ومَن أراد أن يدخل في سلك هذه المكتبة ولديه هذه الصفات فلا يمنعه أحد".

لا أدري يا (حارث) أين هي الكتب التي أنقذت اليوم، أتمنى ألا تموت من جديد، ألا تُقصّف الأبنية التي حُفظت فيها، وألا يطالها العذاب مرّتين، إن الكتب كالشّرايا (حارث)، تتألم وتتوجع وتبكي،

وإن لم نخنْ نخنْ عليها فَمَنْ؟

سألته وأنا أرى دموعه تسيلُ على خَدَّيه، وهو يمسحها بطرف أصابعه: "هل هذا ما قصدتَ بأنه أوجع ما حدث؟!". رَدَّ وهو ينظرُ في البعيد، ويعبثُ بلحيته الشَّهباء التي وَخَّطَها الشَّيب: "صحيح..."
وصمتُ قليلاً قبل أن يُردِّف: "هناك ما يُوازِيه في الوجع، الوجع الذي لا يُنسى".

الوجع الذي لا يُنسى!

قبل شهرين فقط التقيته. كانَ لقاءً بعدَ غيابٍ دامَ سنة وثلاثة أشهر. احتضنته: "إنَّ الحربَ لا تعترفُ بالمشاعريا (سامر). تُفرِّقُ بين الأب وابنه. ليت تلك الأيام الهادئة الهائلة تعود". "لن تعود يا أبي، أنت تعرف". "لا تقل ذلك يا بُني؛ أيُّ شيءٍ نحنُ لولا الأمل؟!". "أليس الأملُ مخلوقًا هو الآخر؟ لقد قتلوه يا أبي". "إنَّ أسوأ ما في الحرب أن تجعل اليأسَ طعامًا. دَغَ عنكَ كلُّ هذه الأفكار السوداء. وخبرني عن الجبهات". "نحنُ بخير. نحاول، ولكن كيف يُمكن أن تنجح إذا سُحِبَ منك السلاح قبل الحرب بحجة السلام، ثم تبين أنهم في الوقت الذي كنَّا نُسَلِّمُ فيها أسلحتنا إلى الحماية الدولية، كانت هي تقوم بالسماح بتدفقه من أوروبا كلها إلى خضمنا. السذاجة لا تحمي أحدًا. ونحنُ نحاول اليوم ألا ننتهي". "النصر مع الصبر". "خياراتنا صعبة. صعبة جدًا". "الصبر أصعب الخيارات، إنَّ مرارته لا تُحتمل، ولكن عاقبته خلوة. أليس الضبح بقريب؟!". "لديَّ مهمة". "لم تعذ من الجبهة إلا اليوم". "الجبهة التي غُذت منها لا تُعطي إجازات؛ عَلَيَّ أن أوصِلَ رسالةً إلى جهة ما". "ليس اليوم". "بل اليوم". "ليس قبل الليل". "ليكن". "دَغْنَا نَصْنَعُ طعامًا، ونأكل قبل أن تذهب في مهمتك".

طبَّختُ على (البابور) نصفَ كأسٍ من الأرز، مع ثلاث ملاعق زيت، وفاصوليا مُجففة، صحنٌ واحدٌ لنا معًا، كان هذا طعامًا مُلوكيًا في زمن الحصار، طعامُ الواحد يكفي الاثنين. وضعت الصحن وسكبته فوقه رُبْدِيَّة الفاصوليا، وإلى جانبه ملعقتان على الطاولة الصغيرة

في المطبخ، وفركت يدي سعيديًا، وهتفت: "ها نحن نجتمع على الطاولة معًا، إنها أسعد...". وتوقفت قبل أن أتم وقد خنقني العبرة: "إنها أسعد لحظات حياتي لو أن أمك معنا". جلس وهو يتنهد، غص باللقمة الأولى وهو يتذكر أيام طفولته في هذا البيت قبل أن نتقل إلى العمل في (دوبوج)، هتف بصوت مبحوح: "إنني لم أكل الأرز منذ أشهر. إنك ذكرتي بطعمه من جديد يا أبي. الفرحة دون الأم ناقصة". مددت يدي فشددت بباطن كفي على كفه: "عزاؤنا أنها ماتت قبل أن تشهد هذه الفظائع، قلب الأم لا يحتمل. لو كانت حية لربما كانت آلمها تفوق آلامنا جميعًا". أمن على كلامي. وزحنا نمضغ الطعام بصمت.

قطفنا الوقت بالأحاديث والذكريات التي جعلت الوقت يمر سريعًا. كانت أصوات القذائف التي مر على سقوطها على (سرايفو) أكرر من ألف يوم تسمع على الدوام، صارت جزءًا من الخلفية الطبيعية لأي حديث. الوقت يركض. الوقت يقفز. يجب. يتدحرج. يهرب باتجاه النهايات. يُصدر أصواتًا مخيفة. الوقت بغيض دائمًا في الحرب. الوقت هو الموت. الوقت هو الوقت.

وقف فجأة على قدميه وهو ينظر إلى ساعته، كانت الساعة تُشير إلى التاسعة مساءً، هتف وهو يُصلح من برّته العسكرية: "يجب أن أذهب". "ما زال الوقت مبكرًا". "تأخرت". "لم تتأخر على شيء. الحرب هي التي استطالت. أي وقت فيها هو وقت مبكر". "يجب أن أذهب". احتضني، وأنا في ذهولي، ومضى باتجاه الباب الخارجي، وغاب في الظلام.

كان عليه أن يسلك طريق (زقاق القناسة)، لا يعرفه مثلما أعرفه، لو كان أخذني معه لقلت له عن المواضع العمياء التي لا يرى فيها القناسة العابرين، ولكن الأولاد لهم آراؤهم، ولا أحد يستطيع من الآباء أن يعدل منها شيئاً ما لم يقتنعوا! إنه يظن نفسه ذكياً، وحريصاً بما يكفي، ومتدرباً في الجبال، يستطيع أن يعتلي الجدران أو يقفز فوق الحيطان، أو يركض بأسرع ما يمكنه. لا أحد يركض مع الموت ويفوز، لا أحد يسبقه، الموت يسبق كل ساعٍ، فلماذا لا يستمع إلينا هؤلاء الأولاد المُتحمسون؟!

كان لا يزال يفحض أول شارع (فويبود بوتنيكا)، وهو شارع الموت الذي عُرف بـ (زقاق القناسة)، كل من يعبره من المركبات أو البشر أو الحيوانات هم هدف مباشر لطلقات البنادق الآلية ومدافع (المورتر). كان ممثلاً بالفوهات التي لا ترى، ألف عين وألف فوهة ولا يمكنك أن تراها في النهار حتى تكشف لك عن نفسها في الليل. كان ينتظر انتظار الورد، ويلبذ كما يلبذ الورد، حتى إذا داخله شيء من الاطمئنان، زحف إلى أقرب جدار وانتظر هناك. كل شيء هادئ. والشارع خالٍ تماماً. والأمر مشجّع على بضع خطوات أخرى باتجاه الجدار الآخر. ركض كفحارٍ عتيق ولم ينطلق شيء من الرصاص، ركن ظهره الفتقوس إلى الجدار، وانتظر دقائق أخرى كاتماً نفسه ما استطاع وعينه تدوران في الاتجاهات الست، رأى نوافذ الأبنية القريبة فارغة، مسحها كلها بعينه، ولم يلاحظ أي شيء مريب، التفت إلى الناحية الأخرى من الشارع ومسح البنايات القابعة فيه، تلك التي تتكون من طابقين إلى تلك التي من ثمانية، فكر: "يمكن أن يركض إلى الأمام قبالة المبنى الأخير الذي فحّصه في أقل من

نصف دقيقة وينجو". نفذ على الفور ما فكر به، نجا بالفعل. ابتسم في داخله: "خُطّتي تنجح"، هذا الانتصار الآتي أصابه ببعض الغرور، فتخلّى عن شدة الحذر السابقة، وقّرر أن يركّض مسافة أكبر، لم يبقَ من شارع القناصة هذا سوى عشرين مترًا أو أكثر قليلًا، لو ركضها بأقصى طاقته فسيُفِلت من مرمى الرصاص، ويكون من القلائل الذين استطاعوا أن يعبروه دون أن يسمعوا صوت رصاصة واحدة. وركّض. لم يدرِ أنّه يركّض مع الموت، كان أبوه يريد أن يقول له: "لا أحد يفوز في سباقه مع الموت"، ولكنه خرج قبل أن يسمعها. ركّض الأمتار العشرة الأولى بأسرع من فهد إفريقي، في الثلث الأخير من المسافة التي كادت تنتهي، سمع صوت الرصاصة، كان أزيزها كأزيز نحلة في رأسه، كان يعدو - وقد ارتقى لسرعته في الهواء مع ساقيه السريعتين الطويلتين - مترًا أو يزيد، ولكن الرصاصة أسقطته، كان أزيز نحلتها في أذنه آخر ما سمع، قبل أن يتعفّر جسده ببقايا الزماد في الشارع، خيل إليه أنّها نحلة واحدة وأزيزها ليس مُزعجًا إلى هذا الحد، فركّ أذنه، ونظر إلى الموضع الذي انطلقت منه الرصاصة، فرأى القناص وجهًا لوجه، وقف على ساقيه، وركّض مع جراحه من جديد، كان القناص هاديًا على العكس منه، أطلق الرصاصة الأولى أسفل قلبه، فخرّ، وحاول أن يستمر في الركض، فأطلق الرصاصة الثالثة على رأسه، وهذه المرة غرق في دماؤه، ولم يستطع أن يجري فترا واجدًا!

أقسيم يا (حارث) أنني سمعت صوت الطلقات الثلاث، وعرفت أنّها اخترقت جسد ابني، كنت أنتفض مع كل رصاصة كأنها رمثني معه أو دونه، هُرِغْتُ إلى المستشفى، وصلت وأنا ألّهث، كان في غرفة

العمليات، خرج منها الدكتور (ميرزا)، سألته دون أن أحرك شفاهي: "هل نجا؟". أخذني بذراعيه، وأبعدني عن غرفة العمليات، حاولت أن أتفلت من ذراعيه، وأعدو إلى الغرفة، أردت أن أصرخ، أن أبكي، أن أقول: "لماذا لم تستمع إلي؟"، ولكنني لم أفعل، راح جسدي يرتعش ارتعاشة الورقة الصفراء في مهب الريح. ظل الدكتور (ميرزا) يهدئني، قلت له بلهجة شديدة الزجاء: "أريد فقط أن أراه". هز رأسه، وهتف: "الآن، نعم". دخلت غرفة العمليات، كان مسجى على السرير وقد غطاه الدكتور بملاءة بيضاء، كانت شفتاه تنفرجان عن ابتسامة وردية، بدا نائما بسلام أكثر منه ميتا، لم أصدق أنه رحل، اقتربت منه، أردت أن أتأكد بنفسي، وضعت إصبعي على عنقه، إنه ميت بالفعل، وانفجرت بعدها بالبكاء. في آخر الليل، وقبل أن يَصُوءَ الفجر، دفناه في ساحة المستشفى. قلت للدكتور (ميرزا): "إنه قبر مؤقت كما تعلم. هذه الساحة تتعرض للقذائف كل يوم، لا أريد لفظة كبدي أن يموت أكثر من مرة، حين تسمح الظروف، سأنقل رفاته لأدفنه في مقابر العائلة".

لم يعد لدي بعد موت ابني خيار، كان علي أن أحمل السلاح وأقاتل. قال لي الدكتور (ميرزا) والدكتورة (نادية) حين علما بقراري: "إنك هنا أيضا تقاتل. وأنت في موقع ربما لا يقل أهمية عن أولئك الذين في الجبال وعلى الجبهات، ونحن كما تعلم نعاني نقصا في الأطباء"، أجبتهما: "لا أستطيع أن أبقى في مستشفى مات فيه ابني الوحيد، لا يمكن أن أُمز بغرفة العمليات ولا أتذكر هيئة ابني الملائكية وهو ممدد على السرير فيها ولا أنهار. إن هذا الجزء العاطفي لا يمكنني أن أتغلب عليه، أرجو أن تعذراني". وهزا رأسيهما بأسى، خلعت ثيابي

الطَّيِّبَةِ، وسَلَفَتْهَا لَمَدِير المُسْتَشْفَى، وَقَلْتُ لَهُ: "سِيلْبُشْهَا مَنْ هُوَ خَيْرٌ مِنِّي"، وَمَضَيْتُ.

لَمْ أَكُنْ أَعْرِفُ كَيْفَ أَتَوَاصَلُ مَعَ الْجِيْشِ، وَلَا كَيْفَ أَصِلُ إِلَى جِبْهَاتِ الْقِتَالِ، أَخَذْتُ بِنَدَقِيَّةِ ابْنِي، حَشَوْتُهَا بِالرَّصَاصِ، وَدَخَلْتُ مِنْ دُونِ حِذْرِ كَافٍ إِلَى إِحْدَى الْبَنَائِيَّاتِ فِي (زُقَاقِ الْقَنَاصَةِ)، صَعَدْتُ إِلَى الطَّابَقِ السَّادِسِ، وَهُوَ أَعْلَى طَابَقٍ فِي تِلْكَ الْبَنَاءَةِ، وَرَحْتُ مِنْ خِلَالِ الْمَنْظَارِ أَمْسَحُ التَّوَافِذَ الَّتِي أَعْتَقَدُ أَنَّ قَنَاصَةَ الْجِيْشِ الصَّرْبِيِّ يَتَمَرَّكُزُونَ خَلْفَهَا، وَأَكْتُمُ أَنْفَاسِي، وَأَطْلِقُ الرَّصَاصَةَ، وَقَبْلَ أَنْ أَطْلِقَهَا أَهْتَفُ: "هَذِهِ مِنْ أَجْلِ وَطَنِي وَمِنْ أَجْلِ ابْنِي". قَتَلْتُ الْأَوَّلَ، وَالثَّانِي، وَجُنَّ جَنُونَ الصَّرْبِ، وَظَنُّوا أَنَّ أَحَدَ قَنَاصَتِهِمْ قَدْ أُصِيبَ بِالْجَنُونِ وَرَاحَ يَقْنِضُ رُؤُوسَهُ، لَمْ يَتَوَقَّعُوا أَنَّ بَوَسْنِيًّا مَفْوُودًا قَدْ تَسَلَّلَ إِلَى قَلْبِ مَوَاقِعِهِمْ، وَقَبْلَ أَنْ أَقْتَلَ الثَّالِثَ كَانُوا قَدْ كَشَفُوا مَوْقِعِي. اعْتَقَلُونِي، تَعَرَّضْتُ لِتَعْذِيبٍ شَدِيدٍ، تَنْقَلْتُ بَيْنَ مُعَسْكَرَيْنِ قَبْلَ هَذَا فِي أَقَلِّ مِنْ شَهْرٍ، ثُمَّ بَعَثُوا بِي إِلَى مُعَسْكَرِ (بَاتْكَوْفِيْتَشْ)، وَهِيَ أَنْذَا مَعَكَ فِيهِ!

"الْمُعَسْكَرُ هَشٌّ يَا حَارِثُ". "هَشٌّ؟ مَاذَا تَعْنِي؟!". "مِنْ السَّهْلِ أَنْ تَجِدَ طَرِيقَةً لِلْهَرُوبِ، هُنَاكَ أَكْثَرُ مِنْ ثَغْرَةٍ فِيهِ. أَلَمْ تُفَكِّرْ فِي الْهَرُوبِ مِنْ قَبْلِ؟!". "نَعَمْ فَكَّرْتُ، وَلَكِنْ...". "مَنْعَكَ أَنْ تَرَى نَفْسَكَ تَسْبُخُ فِي بَرَكَةٍ مِنَ الدَّمَاءِ، أَلَيْسَ كَذَلِكَ؟!". لَمْ أَعْرِفْ بِمِ أَجِيبِهِ، وَأَرْدَفْتُ: "الْخَوْفُ لَا يُطِيلُ الْعُمُرَ، وَالْإِقْدَامُ لَا يُنْقِصُهُ". سَأَلْتُهُ: "مَنْذُ مَتَى أَنْتَ هُنَا يَا دَكْتُور؟!". "مَنْذُ أَسْبُوعَيْنِ". "لَا زِلْتُ مُتَحَمِّسًا، رَبِّمَا مَعَ الزَّمَنِ سَتَعْتَادُ مَا نَحْنُ فِيهِ، وَلَنْ تُفَكِّرَ بِشَيْءٍ كَهَذَا". "تَقْصِدُ أَنَّهُ يَتِمُّ تَدْجِينُكَ، وَتَحْوِيلُكَ إِلَى دَجَاجَةٍ أَوْ هِرٍّ مَنزُوعٍ الْمَخَالِبِ". "لَا تَكُنْ قَاسِيًّا يَا

دكتور". "الجزء الواقع بين المبتئين منطقة عمياء، الشمال منه ثغرة
يُمكن التسلل منها. الجزء الذي عند البوابة التي تُفضي إلى الشارع
مُحصنة، إذا أردت أن تهرب فلا تُفكّر فيها أبداً. هناك ثغرة ثانية، إنها
في الشمال أيضاً في الجزء الواقع عند غرفة الحرس إلى الشرق
قليلاً من المبنى الكبير، الأشجار المزروعة هناك تتكفل بإخفاؤك،
وهناك سياجٌ طولي من الأسلاك الشائكة التي يُمكن التّفاذ من تحتها.
ألم تعرف ذلك من قبل؟". "بصراحة؟ لا". "كم لك في هذا المعتقل؟".
"أكثر من سنتين". "غريب. هل أنت حمار؟!".

أريد حياته وأريد موتي

جَلَبَةٌ غير عادية تحدث في الجزء الشرقي الشمالي من المُعسكر حيث غرفة الحرس. كانت هناك حَرَكَةٌ غير طبيعية. كان الحَرَس مُهتاجين. فجأة اندفع أحدهم إلى الجزء الذي كنا نتمشى فيه الفاصل بين المبنى الكبير وغرفتي القيادة والحرس، صارخًا: "أريد طبيبًا. هل بينكم طبيب؟". وراح يركض ويصرخ بالسؤال نفسه. لم يتحرك أحد. أطل حينها (غليغور)، بالتأكيد لن يكون خطيبًا اليوم، هناك ما هو أهم من خطاباته يحدث الآن، صرخ: "أين ذو العصاة الحمراء؟ يا ذا العصاة؟". وسمعته فُهرِغث إليه: "ها أنذا... يا سيدي". جذبني من ذراعي: "هل تعرف طبيبًا في هذا المُعسكر؟". أجبته بعد أن فكّز قليلاً: "نعم يا سيدي". "مَنْ هو؟". "الدكتور حميد". "أين هو؟". "لا أدري". "ماذا تنتظر، هيا ابحث عنه، واثبتنا به على وجه السرعة". ركضت في الساحة كالمجنون، وأنا أصرخ: "دكتور حميد... دكتور حميد". لم أبحث كثيرًا، كانت سقاعة المُعسكر تُطلق هي الأخرى نداء البحث عنه، لم يطل البحث كثيرًا. وجدته لأنني أعرفه بالاسم والصورة، قلت له: "الإدارة تريدك". رد ببرود: "ماذا تريد مني هؤلاء القَتلة؟". أجبته وأنا أغلي: "أرجوك. إن لم تذهب سأعاقب أنا. القائد (غليغور) طلب مني بنفسه أن أبحث عنك ونذهب إليه معًا". "أمري إلى الله".

دخلنا غرفة الإدارة. كان أحد الحرس قد أصيب برصاصة في بطنه، ونزف طوال الطريق حتى وصل إلى هنا. قام الدكتور (حميد)

بتمديد المُصاب على ظهره فوق أحد الأسرّة في غرفة القيادة، وثني رُكبتيه قليلاً ليخفّف الضّغط على البطن، وسأل الجندي المُصاب: "هل تسمعي؟". هَزَّ الجندي رأسه علامة الموافقة، وأردف الدكتور: "لا تُحرّك ساقيك، وابقِ على هذه الحالة وأنا أعالجك". هَزَّ الجندي رأسه مرّة ثانية، وهو يكرّز على أسنانه من الألم.

طلب الدكتور جهاز قياس الضّغط، أعطوه له، ومن خلال النتيجة تأكّد أنّ الإصابة فوق المتوسطة، وأنّ فرصة النّجاة مُمكنة. أشار الجندي المُصاب إلى شَفْتيه الجافّتين: "أنا عطشان. اسقوني ماءً". منعهم الطّبيب: "إذا شرب ماء ستتفاقم إصابته، ممنوع أن يأكل أو يشرب حتّى أقول لكم ذلك". طلب مشرطاً، أتوه به على الفور، همس الطّبيب وهو يُعاين المشرط: "إنّه مشرط من النوع الجراحي لم نكن لنحظى بمثله في مستشفى (كوشيفو)!". وسّع موضع الجرح، صرخ الجندي، نهره (غليغور): "تحمل قليلاً أيّها المُتَرَف". لم يكن في المُعسكر إبرة تخدير. أزال الدكتور (حميد) الشّظايا بدقّة وبهدوء، وأسلوبٍ خبيرٍ مرّت عليه آلاف الحالات المُشابهة، أراد أن يقول ذلك، ولكنّه أثر الضّمت. غاصّ بحثاً عن الرّصاصة، وجدها، أخرجها بملقط ورفعها فوق عينيه، أراد أن يُقبّلها، لربّما كانت رصاصةً من الكتيبة التي كان يُقاتل ابنه ضمن أفرادها، لكنّ الدّم عليها منّعهُ من ذلك. ألقاها في وعاءٍ معدنيّ. طلب من القائد بعض المُضادات الحيويّة، أتوه بها، أعطاه بعضّها، ووقف على قدميه، وهتف: "يحتاج إلى ثلاث وحدات على الأقلّ من الدّم". فكَرَّ (غليغور) أن يقول للطّبيب: "عندك ألف معتقل، اسحب الوحدات منهم"، وكأنّما سمع (حميد) ما يجول في خاطره، فقال: "يجب أن أسحب الدّم منكم، أنتم أكثرُ صحّةً.

أعني لا يمكن المقارنة. المُعْتَقَلُونَ مُنْهَكُونَ، دمهم لا يفي بالغرض".
سحب الطبيب الوحدات الثلاث من ثلاثة حُرَس. الملاعين حتى
أكياس الدَّم ووسائل نقله موجودةٌ هنا في المُعسكر، فلماذا يتركونا
نموت؟ ثم أين هو طبيئهم الخاص، إذا كانوا يحتفظون بهذه المُعدات
الطبية كلها هنا؟ لا بُدَّ أنه في إجازة، أو لربما كانوا سيعتمدون على
طبيبٍ منا في حالاتٍ صعبةٍ كهذه!!

"هل هناك إبرة الخياطة الطبية؟". جاؤوه بما ينبغي. قال له الطبيب:
"عليك أن تحتمل، سأخيظ الجرح". خاطه بعناية ودقة. أعطاه
مُسكناً. "سينام الآن" خاطب القائد، وأردف: "حين يستيقظ، أعطوه
رَشَفَاتٍ قليلةً من الماء. ثم بعدَ ساعتين يُمكن أن يأكل أكلاً خفيفاً".

قال له (غليغور) بعد أن انتهت المهمة: "من أين قدمت؟". أجابه
الطبيب: "من سراييفو". "حيث لم تسقط حتى الآن. أعدك أنها
ستسقط". ثم طلب منه بلهجة أمرة أن يخرج. خرجنا معاً، وأنا لا
أزال ألتفت إلى الوراء، لعلَّ القائد يتكزَّم علينا بوجبةٍ ساخنة، بقطعة
لحم، أو حتى بنصف رغيف، لكننا خرجنا بالخواء.

تفرقنا بعدها، لم أرَ الدكتور (حميد) منذُ أسبوع، أين يُمكن أن يكونَ
قد اختفى؟ هل هربَ بالفعل؟ هل تمكَّن من ذلك؟! المُعسكر شديدُ
التحصين رغم ما قاله في لقائنا الأخير وهو يتحدث عن ابنه. الواقع
غير ما يتواردُ إلى الذهن، نحنُ مُحالٌ أن نهربَ في الأحلام أو في
الخيالات من قسوة هذا الواقع. لكن شخصية (حميد) كانت ممثلة
بالغضب والحكمة معاً، إنَّ فكرته عن الهروب عنده ليست كفكرتي أنا
عنها، إنها سهلةٌ قابلةٌ للتحقيق، بعضنا لا يراها مستحيلةً فحسب، بل

إنه يرجف لمجرد التفكير بها، كيف يمكن أن يركض إذا أصابته عشر رصاصات في ساقه، ومثلها في ركبته؟!

إنه يوم سبت. يوم خطبة وتسلية. خطب (غليغور): "هل جزاء الإحسان إلا الإحسان؟ نحن من بنينا البؤسنة وصنعنا مَجْدَهَا، ونحن من وُلدنا قبل أن تُولَد، فلماذا تُصْرُون أيها البوشناق الجاحدون على مقاتلتنا؟! كن يُمكن أن تكونَ لكم مُقاطعة، حكومة فيدرالية في دولتنا الكبرى؟ لكنكم تنسون المعروف. وأنا؟ أحسن من يعرفه ويُقدّره"، ثم أشار إلى حرسه، فجاءوا - كما دأب في مرّات سابقة - بعشرة من المُعتقلين، حين بروزا من المبنى الكبير رُحْتُ أُنْفَخَصهم، وخفق قلبي حين رأيْتُ الذّكتور (حميد) من بينهم، إذا هو لم يهرب، إنه هنا، وقد نُقِلَ إلى المبنى الآخر، وها هو يظهر ثانية، ثم خفق قلبي بأشدّ من خفقانه حينما رأيته بعدَ هذ الغيبة، لقد كان ينهض في أعماقي سؤال راعش: "ماذا سيفعلون به؟".

أمر (غليغور) بأن يصفّهم الحرس بشكلٍ عَرضي، ثم وقّف قُبالتهم، ومن ورائه الحرس، ونادى على جنوده: "خُذُوا مواقعكم". وتوقّف قليلاً قبل أن يُكْمِل: "اليوم سنرى دِقَّتكم في الإصابة. هَيّا تراجعوا إلى الوراء مسافة أربعين مترًا، سنعرّف من القناص الحقيقي منكم، ونبعث به إلى (سراييفو) لينضمّ إلى القناصين الذين يقومون بمهمة خطيرة مُقدّسة هناك". راحت ضَرَبَات قلبي تتسارع، فيما راح الجنود بالفعل يَتخذون مواقعهم التي حَذّدها القائد، صرُخْتُ بصوت عالٍ سمعه كل من في المُعسكر: "لا.. لا يا سيدي، إنه الطّبيب الذي أنقذَ جنديكم الجريح من الموت". التفت إليّ (غليغور) غاضبًا: "أنت يا ذا العصابة الحمراء إن لم تصمت فسأضعك معهم، وأكُن ~ أنا القناص

الحادي عشر". وصمتُ من شدة الخوف، ورفعتُ نظري إلى الدكتور (حميد)، والتقتُ عيوننا، وشعزْتُ أنه يلومني: "كنتُ تعرفُ أنهم سيفقدون بي، لولا أنَّك دلتَه عليَّ ما حدثَ هذا، لولا أنَّك قلتَ لهم إنَّ عندنا طبيبًا ماهرًا ما وقفتُ هذا الموقف. أترى؛ إنه لا ذمَّة لهم ولا عهد، ماذا تريدُ دليلًا أكبرَ من هذا؟!".

كانتُ أيادي العشرة مُقيَّدة خلفَ ظهورهم، وثركتُ رؤوسهم حسيرةً لكي يُشاهدوا عمليَّات القنص، وبدأتِ التَّسليَّة. سقطوا جميعًا، الذين كانتُ رصاصاتهم في الضَّدر وفي الرَّأس وفي القلب أربعة، رُقَّوا، وحصلوا على ليلةٍ حمراء، وثقلوا بالفعل إلى رُقَّاق القناصة في (سراييفو). كانتُ إصابة طبيب القلب في القلب. لم يحتمل كثيرًا. رحلَ وهو يُحدِّق بي. وحينَ تولَّيتُ مع الآخرين دفنهم في مقبرةٍ جماعيَّة في ليلِ ذلك اليوم، كانتُ عيناه لا تزالان تُحدِّقان بي.

صار التَّفكير بالهرب من هذا الجحيم لا يغادر خيالي ساعةً من ليلٍ أو نهار. كان الضَّيف قد حلَّ، وها هو أوَّل تفوز من عام 1995م يُعلن عن نفسه. إنَّ لياليه لا تقلُّ عن نهاراته، موثٌ لا يتوقَّف، وجحيمٌ لا يخبو أواره، وجنونٌ لا يخفتُ شعاره، وكنا جميعًا ضحايا القائد المجنون، ولم يكنْ إلَّا نُسخةٌ تتكاثر في مُعسكرات الاعتقال كلَّها، نسخةٌ تُحاول أن تجعل من نفسها فريدةً مُميَّزة!

أردتُ أن أطرح الفكرة على (سامي)، أن أوزع الشرَّ على اثنين، ولكنني خائف، خائفٌ من أن ننكشف، خائفٌ أن أبحثَ عنه ولا أجده، خائفٌ أن يكونَ قد قُتل، خائفٌ من المآلات، خائفٌ من أن تأتيني الإصابة في الرُّكبة، إنني أتخيَّل أنها أشدُّ أَلَمًا من الإصابة في القلب،

مُصاب القلب لا يعيش طويلاً، ومُصاب الزُكبة يموت ألف مِوتة، وأنا خائف من الموت على كلِّ حال!

لكنَّ الحلم بالنَّجاة، الحلم بأن أرى أختي (سلمى) التي صارت صبيّة، لا بُدَّ أنَّها ازدادت وسامةً، لكن هل يُمكن حقًّا أن يُحافظ المرء على جماله في جحيم الحرب؟! الحلم بأن ألتقي أبي، هل يكونُ قد مات في ذلك اليوم؟! لقد رأيتُ دمه على الجدار، ولكن قد تكونُ الرِّصاصة التي أصابته غير قاتِلة، لربّما جرح وتعافى فيما بعد. الحلم بأن يلتَم شملُ العائلة وإن نقصتنا أُمِّي، هذا الحلم دَفَعَنِي إلى أن أَجْزِب، إلى أن أَغامر. إنَّ المُغامرةَ غيرَ مضمونةِ النَّتائج أحسنُّ من الاستسلام الذي يعني أكثر من ذلٍّ وأكثر من خوفٍ وأكثر من موت!

درستُ موقع المُعسكر بعقليّة المُهندس. وفكرتُ بالثَّغرتين اللَّتين قالَ لي عنهما الشَّهيد (حميد)، وبعدَ أسبوعٍ من المعاينة اكتشفتُ أنَّه كان مُحقِّقاً، واستطعتُ بإدانة المُراقبة أن أكتشف ثغرةً ثالثة ينفذُ منها الحلم نفاذ الضَّوء من شقوق الباب، إنَّها الجزء الغربيُّ من المُعسكر، ذلك أنَّها الأبعد عن غرفتي الحرس والقيادة، ثمَّ إنَّ المسافة المُعتمدة بينها وبين الشَّارع ليست كبيرة، وإذا توجَّهتُ غرباً على الجهة المُضادة لبوابة المُعسكر فإنَّ الفرصة ستزداد، ثمَّ إنَّ هذه الجهة الغربيّة هي الأقرب للمبنى الذي أعيش فيه، ويُمكن مراقبتها بشكلٍ أدقَّ حتَّى أعرف متى تكونُ اللَّحظةُ المُناسبة للهروب.

وجلسْتُ في إحدى اللَّيالي أضع احتمالات الهَرَب وفرضيَّاته، وضعتُ أكثر من ثلاثين احتمالاً وفرضيّة، كلّها كانت نتيجتُها صفرية، ونسبة النَّجاح فيها تكادُ تكونُ معدومة، ولكنّه هروبٌ باتِّجاه الضَّوء،

بأثجاه الفضاء المُطلَق، بأثجاه الأمل، وهذا وَخَدَه قد يكون دافِعًا
معقولاً!

الخزيرة لا يُعادِلُها شيء!!

أصوات طَلَقَات مُتتَابِعَةٍ. المورتر. الهاون. القذائف الصاروخية. الألغام. القنابل. دخانٌ كثيفٌ في رابعة النهار. إنها معركةٌ فيما يبدو. حدثت حالة إرباك. حركةٌ سريعةٌ في المُعتقل. رأيث (غليغور) يتحرك بشكلٍ غير عادي، ويصرخ ضارخًا مُتواصلًا على جنوده، لا بُدَّ أن هناك حَدَثًا أمنيًا كبيرًا. أعرفُ من هذا الأصوات المُتداخلة بين أصوات القذائف وأصوات الجنود. هل هو هجومٌ للجيش البوسني على المُعسكر؟! أَسْتَبْعِدُ ذلك. ولكن يُمكن أن يكونَ هُجُومًا في المناطق المُحيطة. وإذا؟ إنها فرصةٌ لا تتكرر من أجل الهرب؟ ولكن الشمسُ تفضخُ الثملة وهي تتحرك تحت أشعتها اللاهبة. الجنود والحرس والقائد وكلُّ من في المُعسكر مُشْتَتون. المُعسكر في حالة فوضى، وإذا؟ الفرصةٌ جيدة. ألا تنتظر إلى الليل؟ قد تهدأ هذه الفوضى، ويعود كل شيءٍ إلى سابقِ عهده، وحينها أُنَى يُمكن أن تنقذ هذه الفكرة القديمة التي ظَلَّتْ تقفزُ إلى ذهنك بين حينٍ وآخر طوال ثلاث سنوات.

مَسَحْتُ في ذهني مُخَطَّط المُعسكر. الرشاشات المرفوعة أكثرها كانت جهة غرفة القيادة في الجزء الشمالي الشرقي، وجهة البوابة الرئيسية في الجزء الجنوبي. أحسنُ مكانٍ هروبٍ في هذه اللحظة هي الخاصرة الضعيفة، تلك التي تقع خلف المبنى الصغير في الجهة الشمالية الغربية، حتى الحُرُش الذين في تلك المنطقة رأيثهم يَهْرَعُونَ إلى مركز القيادة بناءً على أوامر (غليغور) على ما يبدو. إذا،

فلتكن تلك الخاصرة هي موضع هروبي.

ربطت العصابة الحمراء على ذراعي وتظاهرت بأني تلقيت أمرًا من (غليغور) بالعمل في الجهة التي تقع خلف المبنى الذي أقيم فيه، درت حول المبنى وأنا أتصنع الثقة على أنني أقوم بتنفيذ أمر القائد، الأمر الذي قد يكون الخروج لعمل خفرة في تلك الجهة، أو لتبليغ الحارس الذي هناك بشيء ما. خطوات الخطوات العشرين الأولى بتلك الثقة، ثم بدأ أرنب الخوف يقفز في صدري، رأيت حارسًا واحدًا لا يزال في كابينته في تلك الجهة، بقية الحراس هرعوا إلى الجهة الشرقية المُقابلة حيث اجتمع أكثرهم مع القائد هناك. خطر ببالي أن أخاطب ذلك الحارس الوحيد بما أنوي عمله من تنفيذ أمر الحفر، ولكن ليس معي معول ولا رفش، استعدت خطواتي التي نهبتها بذلك الاتجاه، وعدت أبحث في منطقة الرفوش عن أحدها، وكنت محظوظًا، لقد وجدت رفشًا صديًا. حملته، ورحت أغذ السير غربًا، حتى إذا صارت كابينة الحارس عن يميني، رفعت الرفش، ولوحت بيدي، مُشيرًا إلى أنني يجب أن أعبر السياج من أجل أن أقوم بالمهمة وسط استمرار إطلاق النار في الجهة المُقابلة البعيدة شيئًا ما عن المُعسكر، غير أن الحارس لم ينتبه إلى ما أقول، اعتبرت ذلك إشارةً سماويةً، سأظل ماشيًا قاطعًا الأمتار القليلة التي تفصلني عن الشيك الحديدي المُغطى بمجموعة من الأشجار، وخاطبت نفسي: إذا انتبه الحارس، فسأقول له عن المهمة وأُني أخبرته بذلك من قبل، وأسأله مُنكرًا: "لقد قلت لك ذلك، ألم تسمعني؟!".

بحذر وبهدوء راعف رُحْتُ أنحني وعيناي مُعلقتان بالحارس، ثم أمّر جسدي في فتحة معقولة يبدو أن أحدنا فُكر بعبورها قبلي.

صَارَتْ غُنْقِي وَثَلَاثَةَ أَرْبَاعٍ جَذَعِي خَارِجَ الشَّيْكِ وَلَا زَالٍ أَكْثَرَ مِنْ
نَصْفِي دَاخِلَ الْمُعْسَكَرِ، كَانَ قَلْبِي يَدُقُّ أَلْفَ دَقَّةٍ فِي الثَّانِيَةِ، دَفَعْتُ
الرَّفْشَ بِهَدْوٍ وَدُونَ أَنْ يُحْدِثَ أَيَّ صَوْتٍ إِلَى الْخَارِجِ، وَرَحْتُ بَعْدَهَا
أَتْرُكُ جَسَدِي الَّذِي كَانَ يَتَلَوَّى كَأَفْعَى - يَنْزَلُ خَارِجًا. حِينَ صَرْتُ
بِكُلِّي خَلْفَ الشِّيَاجِ، أَخَذْتُ نَفْسًا عَمِيقًا وَوَجْهِي لَا يَزَالُ مَثْجَهَا إِلَى
الْمُعْسَكَرِ وَالْحَارِسِ، حِينَ بَدَأْتُ أُدِيرُ جَذَعِي إِلَى الْفُضَاءِ الْوَاسِعِ الظَّلَقِ
تَارِكًا الْمُعْسَكَرَ وَرَاءَ ظَهْرِي إِذْ ذَاكَ رَأَيْتُ الْحَارِسَ قَدْ انْتَبَهَ، فَتَجَمَّدَ
الذَّمُ فِي عُرُوقِي، حَذَقْتُ إِلَيَّ مُضِيْقًا عَيْنَيْهِ، غَالِبَتْ الضَّدْمَةُ، فَانْحَنَيْتُ
بِهَدْوٍ وَتَنَاوَلْتُ الرَّفْشَ وَأَرَدْتُ أَنْ أَرْفَعَهُ إِلَى الْأَعْلَى لِأَقُولَ لَهُ إِنِّي
فِي مَهْمَةٍ لِحْفَرِ قَبْرِ طَلَبَةٍ مِنِّي الْقَائِدِ، كَانَتْ كُلُّ خَلِيَّةٍ فِي جَسَدِي
تَتَمَنَّى أَنْ يَفْهَمَ الْحَارِسُ ذَلِكَ وَيُصَدِّقَهُ، لَكِنِّي فِي اللَّحْظَةِ الَّتِي رَفَعْتُ
فِيهَا الرَّفْشَ، رَفَعْتُ الْحَارِسَ رَشَاشَهُ الْآلِي وَأَطْلَقْتُ النَّارَ صَوْبِي، إِذْ ذَاكَ
انْتَهَتْ الْفُرْصُ كُلُّهَا، وَانْتَهَى كُلُّ تَفْكِيرٍ، وَلَمْ يَعِزْ مِنْ مَجَالٍ سِوَى أَنْ
أَهْرَبَ بِاتِّجَاهِ الْحَزِيَّةِ دُونَ ضَمَانٍ لِأَيَّةِ نَتِيجَةٍ، لَكِنِّي عَلَى أَيْةِ حَالٍ
لَنْ تَكُونَ أَسْوَأَ نَتِيجَةٍ مِنَ الْاسْتِسْلَامِ، رَكَضْتُ بِالْفِعْلِ، أَطْلَقْتُ سَاقِي
لِلزَّيْحِ كَفْهِدٍ تَدْرِبُ عَلَى الرِّكَضِ فِي الْأَدْغَالِ طَوَالَ هَذِهِ السَّنَوَاتِ
الْعِجَافِ، وَرَاحَ سَيْلٌ مِنَ الرِّصَاصِ يَنْهَمِرُ فَوْقِي، كُلُّ رِصَاصَةٍ كُنْتُ
أَسْمَعُهَا مِنْ بَيْنِ الرِّصَاصِ الْكَثِيرِ تُعْطِينِي عَزِيمَةً أَقْوَى لَكِي أَنْهَبَ
الْأَرْضَ فِي رِكَضِي الْمَحْمُومِ، سَمِعْتُ الْحَارِسَ يَصْرُخُ صَرَخًا مَقْهُورًا:
"لَقَدْ هَرَبَ.. لَقَدْ هَرَبَ". لَكِنْ لَمْ يَكُنْ أَحَدٌ مِنَ الْحَرَسِ الْآخَرِينَ يَسْمَعُهُ
وَسَطَ الْهَجُومِ الَّذِي يَسْتَمِرُّ فِي الْجِهَةِ الْآخَرَى، وَلَمْ يَكُنْ أَحَدٌ يَرَانِي
سِوَاهُ، وَلَمْ يَكُنْ مَعَهُ مَنْ يُطْلِقُ الرِّصَاصَ نَحْوِي، فِي هَذِهِ الْفَوْضَى
الَّتِي لَا تَحْدُثُ فِي الْمُعْسَكَرِ إِلَّا فِي الْأَحْلَامِ، رُحْتُ أَرْكُضُ بِسُرْعَةٍ

عشرينَ عداءً، كانتِ الأرضُ مزروعةً بالألغام كما أعرف، ولكنني لم أَدسَ على لغيمٍ واحدٍ، ولا أدري إنَّ كان قفزي نتيجةَ سرعتي الشديدة جئبني انفجار أحد هذه الألغام أمَّ أنَّها عناية الله. وأيقنْتُ أنَّها عناية الله، فالمنطقة المُحيطة بالمُعسكر تمتلئ بالألغام أكثر ممَّا تمتلئ بالنمل.

ركضتُ لساعةٍ دونَ أنْ ألتفتَ خلفي، صار صوتُ الرصاص بعيدًا، وصارتِ الأصواتُ المُختلطة خافتةً جدًّا، وأزعم أنَّها انتهت ولكنَّ طنينها هو الذي ظلَّ في أذني لشدةِ رُعبي، بعدَ ساعةٍ حينَ صمتَ كلَّ شيءٍ باستثناء صوتِ خفقان قلبي، عرفتُ أنَّني نجوت؛ نجوتُ بأعجوبة.

توقَّفتُ وقد قطعْتُ بضعة كيلومترات مُبتعدًا عن المُعسكر، انحنيتُ واضعًا ذراعِي على رُكبتِي، ورحتُ ألتقطُ أنفاسي، ظلَّ صدري يعلو ويهبط أكثرَ من عشر دقائق، ونظرتُ حولي فلم أرَ غير الأشجار، وغير الهدوء، وغير الضمت، وشعزْتُ بأنَّني خرجتُ للتو من بين أشداق قطيع من الأسود المُفترسة، كنتُ لا أزال غير مُصدِّقٍ أنَّني نجوت، واختلطتْ عَلَيَّ المشاعر بين التُصديق والتكذيب، وانخرطتُ في بكاءٍ شديد، ورفعْتُ جذعي ورأسي إلى السَّمَاء وتابعتُ البكاء بشكلٍ هستيري!

أنا حرٌّ. خلقتُ حرًّا. وخلقنا جميعًا أحرارًا، فلماذا يُريدون أنْ نكونَ عبيدًا؟! لماذا هذا القهر والعذاب الذي غرقوني فيه ثلاثة أعوام؟! ليتني أعرفُ ماذا جنيْتُ وماذا جنى أهلُ قرية (فوتشا) التي أحرقوها أمامي؟! نفضتُ رأسي، لعنةُ الله على الأسئلة، لماذا

ثداهمني في هذا الوقت فتزيد من تعذيبي ولوعتي. أليست نجاتي معجزة؟! فلأفرخ بهذه النجاة ولا أدع شيئاً آخر يُنقصها علي، وفرخت حقاً، لكن فرحي اتخذ شكل بكاء، فجعلت أبكي وأضحك، وأضحك وأبكي، وأهذي بكلمات تائهة، ولم يكن يراني غير الله وتلك الغابة التي لا أدري كيف وصلت إليها.

سحبث نفسي إلى منطقة خرجية هناك، انتقيت مكاناً اعتقدت أنه بعيد عن الأعين المتلصصة وعن عابري الطريق، أقعيت، وأرخت جذعي إلى ساق شجرة كبيرة، ومددت ساقي أمامي، وزحخت أستعرض في ذهني صور الساعتين الأخيرتين هذا اليوم، لقد كانا أجمل ساعتين مزا علي في عشرات الآلاف من الساعات التي عشتها في معسكرات الموت هذه.

استعدت صوت الطلقات التي كانت تأتي من الجهة الشرقية، جهة مبنى الإدارة، شغرت بشيء من الفخر والطمأنينة، فكزت أنه هجوم من الجيش البوسني، لقد بدأ في الآونة الأخيرة يُقاتل بقوة، ويستعيد بعض ما فقد من مواقع، وهو لن يتوقف إلا أن يحزر ما احتل من أرضه. تذكزت الطبيب (حميد) وابنه (سامر)، لقد ماتا في سبيل أن تتدفق هذه الزوح إلى دماء الشباب المقاتلين على الجبهات. هل بدأنا بالفعل نضغط على الجيش الضربي، ونعيد توازن القوى المفقود، ونفرض وجودنا على الأرض؟! هل بدأ عهد التحرير؟! أم أنه لا يزال أمامنا مشوار طويل لذلك؟!

هدأت خيالاتي للحظة وأنا أنظر إلى المدى المنظور أمامي، حيث تتشابك سيقان الأشجار وتتعانق، سقطت الخيالات المتفائلة السابقة

وحل محلها خيالات مُغمَّسة بالشك والتشاؤم: ماذا لو كان صوت
الطلقات والمناوشات التي حدثت قرب مُعسكر (باتكوفيتش) هي
حربًا بين الضرب والضرب، بين فصيل وآخر، ألا تحدث بينهم نزاعات
على السلطة أو على طريقة إدارة المعركة؟ من يدري؟ قد يكون
أحدهم جن ف أطلق النار على زملائه وهب الآخرون ليحموهم منه،
فاحتمت دوامة الرصاص، وتطاير في كل اتجاه. هل يحدث شيء
من هذا في المعارك؟ نعم. ما الذي يمنع؟!

قرصني الجوع، نظرت حولي، وجذت شيئًا من كوز أشجار الصنوبر
قد تساقط حولي، تناولت واحدة منها، كانت فارغة إلا من بعض
الحبات، كسرتها وأكلت ما وجدته، ولكن حلقي الجاف وعطشي
الشديد جعل أمر الابتلاع صعبًا، فغصضت، ثم إن طعمه كان مُرًا أو
هكذا شعزت، لم أستسغه، فلفظته، فكُرت بالعطش الذي يلهب حلقي
فداهقني موجة من الخوف أن أموت في الغابة جوعًا وعطشًا،
وفكرت أنني نجحت في الهرب؛ نجحت فيما كنت أحلم به، ولم
يستطع أحد أن يفعل ما فعلت، فقلت: فلأمت على أية هيئة ما دمت
حُزًا.

راحت النسائم تداعب وجهي، شعزت بالنعاس، تمذذت تحت
الشجرة، ووضعت ذراعي اليمنى على شكل وسادة تحت رأسي،
وخلال لحظات قليلة كنت أغرق في النوم.

مرّت قطة الوقت، وردت على ماء الأحلام؛ رأيت (حميد) ينهض
من قبره ويخيط جراح صدره بيده، ويرفع البندقية، ويقول لي:
"اتبغني". رأيت أمي تبسم رغم عينيها المُحدقتين بي، ورأيت

شفاهها تتحرك، وسمعها كأنما تقول: "الحزبة لا يُعادِلُها شيءٌ يا بُنَيَّ". ثم تتوقف شفاهها عن الحركة، فيما تبقى عيناها الجامدتان تحدقان بي. رأيت (سلمى) تقول: "لقد صذت فراشتين في الحقل الذي ذهبنا إليه، أستطيع أن أصيد اليوم أكثر من عشر فراشات". رأيت (فوتشا) ترجع بالزمن إلى الوراء، تنطفئ فيها الحرائق، وتنظف فيها الشوارع، وتنعمر فيها البيوت بالأطفال والضحكات. كانت الأحلام تقفز إلى ذهني تباغًا. وأنا أبتسم في نومي وأشعر بالفرح الشديد. قطعَ حبلَ أحلامي أحدُ العابرين الذين اختبأ منهم، كان يهز كتفي، ويقول: "استيقظ... هيا.. استيقظ".

كوخ دافى و طعام ساخن

صحوث مذعورًا. كان يقف عند رأسي شخص لم أتبين من هو أول الأمر، رأيته يبتسم فزاد ذلك في شكّي، فركت عيني، زادت ابتسامته وسمعته يقول: "أنا جواد...". وضربني الخوف في حبة القلب، فانتفضت واقفًا على ساقي، وهتفت وأنا مذعور: "جواد؟ من جواد؟". "جواد صديقك في معسكر باتكوفيتش". "ولكن...". وفركت عيني، وقال: "تظن أنني مت". "ألم يُعدموك في تلك الشاحنة التي...". فركت عيني حتى أتيقن من أنه هو، نعم إنه هو، كيف... ووقف هو في تلك اللحظة، والتفت غيونا، وذابت الحواجز فجأة، واعتنق بعضنا الآخر وانخرطنا في البكاء.

لا أدري كم نمت. لكن حين رأيت الشمس ترتفع جهة الشرق حتى تكون في القوس الأول منها، علفت أنني نمت يومًا أو يومين متواصلين. لقد كان (جواد) بالفعل. لكن كيف حدث هذا؟ لقد أخذوه ليطلقوا النار على رأسه من الخلف أمام حفرة عملاقة تشع لكل من كان معه في الشاحنة ثم يردموها فوقهم. سأله: "كيف نجوت؟". ردّ وهو يضحك: "إنه سؤال مُشترك؟ هروبي كان سهلاً، لكن هروبك من معسكر باتكوفيتش يُعدّ مُعجزة!". "الفعجزات تحدث أحيانًا". "لا زال لدينا وقت لكي نحكي القصة. ألسن جائعًا؟". "أنا أتضور جوعًا". "لدي بعض الطعام. الحياة ليست كلها شرًا. هذا من عند عائلة تسكن في أجمة كثيفة في سفح هذا الجبل".

"سارث بنا الشاحنة" قال (جواد)، قصتي، ألا تريد قصتي؟ بداية

الخيـط عندك في ذلك اليوم الذي يذبح ويـشرب ويـفتك، كانت الأوامر تقضي أن تذهب الشاحنة شمالاً إلى أقصى نقطة. يحفرون حفرة كالعادة تتسع لنا جميعاً أو لا تتسع، يراكمون جثتنا ويهيلون ما استطاعوا من تراب فوقها، ولا يهم إن بقيت أجزاء منا مكشوفة من تحت التراب، يجب أن يتم ذلك بسرعة. توقفت الشاحنة بعد أن سارت أكثر من ساعة حتى مالت الشمس للغروب. بدؤوا يحفرون بسرعة وفوضى. كان كل من معي مذهولين عن أنفسهم، إنهم إما مجانيـن لا يعرفون ما يدور حولهم أو معاقون حركياً، فهؤلاء لا يستطيعون الهرب ولو أرادوا. انشغل الخراس عنا بحفر المقبرة، وظنوا أننا لإعاقتنا فلن نفكر في الهرب، وإذا فكّرنا فلن نستطيع. كنث أراقب الوضع بحذر. إن الهرب سهل. لم يبق في الشاحنة معنا من الخراس أحد، ولا يوجد فيها غير السائق الذي يجلس غافياً من التعب خلف مقوده، إذا فلأهرب، إنهم حتى لو رأوني، فلن يتمكنوا من ترك الأرفاش، وتناول بنادقهم والتصويب نحوي، سأكون في تلك الأثناء قد قطعت مسافة أمان كافية، ونفذت ما فكرت فيه على الفور، قفزت من قلب الشاحنة واتجهت بهدوء مبتعداً عنها جهة الأشجار، لم يلحظ ذلك أحد. تخيل، كانوا منهمكين في الحفر، منهكين من الأوامر الكثيرة المتعبة التي يتلقونها، وعليهم أن يعودوا قبل أن يشتد الظلام، ولذا فإنهم مرتبكون انصرفوا أذهائهم لإنهاء الأوامر بأقصى سرعة والعودة في الوقت المحدد. مشيت تاركاً إياهم خلف ظهري، وتسلفت أول شجرة قذرت أنها ستخفيني تماماً عن أعينهم. ولبذت فوقها، وزححت أراقب المشهد.

بعد مرور ما يقرب من نصف ساعة، عاد أحد الحرس وأمر

المُعتقلين في الشاحنة بالترجل منها، والتوجه إلى الحفرة. كانت الشمس قد غربت، ولا يزال مُمكنًا أن ترى على غَبَش ما تبقى من آثارها على الأرض. نزل المُعتقلون، وظننت أنه سيغدهم، أو سيتفقدهم، أو يعرف إن كانوا قد نقصوا فردًا أم أنهم كاملون؟ ولكنه لم يفعل شيئًا من ذلك، عاونه اثنان آخران من الذين أتموا الحفر، ووجهوا بنادقهم وهم يمسحون العرق عن وجوههم وجباههم بتيابهم العسكرية، ويواصلون الضياع بالمُعتقلين أن يتقدموا.

صَفَّوهم على طرف الحفرة، وراحوا يُطلقون رصاصة واحدة على الرأس من الخلف كما تقتضي الأوامر، كانت كل رصاصة تُطلق أشعر بوخزها في القلب، وكان كل معتقل يسقط في الحفرة تسقط معه روي، ورحث أعرض على شفاهي، وأبكي بحرقة. أتموا عمليات الإعدام، وراحوا يردمون الحفرة، ولما ظهر الشفق الأحمر في الأفق أحسنت أنه يبكي، وأن السماء شعرث بالرحمة تجاه هؤلاء المُعاقبين الذين لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلًا... وهكذا نجوثن يا (حارث).

بقيث فوق الشجرة أفكز فيما يُمكن أن أفعل حتى انتصف الليل في تقديري، هبظث من هناك، ومضيث إلى الحفرة، كانت لا تزال طرية، شعرث بسكينة تغمر المكان، وأن سلامًا قد تغمد أرواحهم التي صعدث إلى بارئها، صليت عليهم صلاة الشهداء، وعدث إلى شجرتي، ونمث تحتها حتى الصباح.

كان علي أن أبحث عن وسائل النجاة الثانية بعد النجاة الأولى، كان البحث عن الطعام الغاية العظمى. أكلث بعض الثوت البري،

أسندني قليلاً في رحلتي نحو المجهول، لم أكن أعرف إلى أي اتجاه أترك لساقّي المسير، إنه من السهل أن تجد نفسك قد غدت من حيث بدأت، يُمكن أن تقع في قبضة الضرب مرة ثانية، حينها ستكون المرة الأخيرة. رُحْتُ أتنقل في الغابة بين الأشجار متلفّئًا كغزال يتوقّع وحشًا مُفترسًا في أية لحظة، كنتُ أحيانًا أكمُن لساعات أراقب المنطقة حتّى أتأكد من أنّها لا تحوي تهديدًا من نوع ما، بقيت على هذه الحال حوالي شهرين، لقد عشت مثل رجال الأدغال، أكل ما تهبّه الطبيعة، ولم أجاوز كثيرًا المساحة التي كنتُ أدور فيها، إلى أن فكّرت في أن أبحث عن البشر، وشعرت بالوحشة وحدي، وفكّرت بأن أيام الوحدة التي أعيشها ليست بأحسن من أيام الفعسكر، فهناك كنتُ على الأقل تجد مَنْ تنظر في عينيّه. ولذا قرّرت أن أخرج من هذه الدائرة الضيقة.

واصلت السير العشوائي إلى أن بدا لي كوخٌ من بعيد. خفت وفرحت، يُمكن أن يكون ملجأً لجنودٍ من الضرب أو الكروات وتقع الكارثة، تمثيث أن يكون كوخًا يعيش فيها أناس عاديون، لكن ماذا لو كانوا صريًا وعرفوا أنني هاربٌ من مُعتقلاتهم، ستكون هذه أيضًا كارثة. بقيت أراقب الكوخ إلى أن غربت الشمس، عند الغروب خرجت منه امرأة قدّزت أنّها في الستين من العمر من مشيتها، كانت قد ملأت ماءً من بئرٍ على ما يبدو حول الكوخ. ثم حملته بتماقلٍ ودخلت إلى الكوخ ثانية. تابعت المراقبة حتّى رأيت دُخانًا يخرج من البوريّ المُثبت في أعلى الكوخ جهة المدخل، قدّزت أنّها تطبخ طعامًا، قرصني الجوع، فكّرت في أن أطرق بابها وأطلب صحنًا أو لقمة، لكنني خفت أن تُشهر في وجهي البندقية وتردني بالزصاص،

لكن نداء الجوع كان أقوى من تحذيرات الخوف، فوقفْتُ ونفضتُ
التراب عن ثيابي كمن يستعد لمشهدٍ اجتفالي، ومشيتُ بثقةٍ مُتصنعةٍ
مُحاولاً القضاء على الزجفة التي يحدثها خفقان القلب بين الضلوع.
طرقْتُ الباب، ولم أسمع استجابة، طرقته ثانية وتكرّر الضمت،
وبعد الثالثة دفعتُ الباب بهدوء، رأيْتُ العجوز على ضوء المصباح
اليدويّ تجلسُ إلى سرير مُمدد فيه عجوز قدّزت أنه في الثمانين من
الوهلة الأولى، وهي تحاول أن تُطعمه بملعقةٍ خشبيةٍ وقد ألبسته
مريولاً على صدره حتى لا تتسخ ثيابه، ومن دون أن تُدير المرأة
ظهرها نحوي، هتفت: "صحّك على الطاولة. ادخل". حيرني الأمر،
ضيقتُ عيني، ونظرتُ عن يساري، فرأيْتُ بالفعل صحناً على طاولةٍ
في تلك الزاوية التي لا بُدّ أنّها مطبخهما. أردتُ أن أقول: "إنني...
إنني (جواد)، وأنا هاربٌ من معسكر..."، وكأنّها عرفت ما يدور في
خاطري، فهتفت: "ألم تسمع ما قلته لك؟ لا يهمني من أنت ولا من
أين أتيت. لا بُدّ أنّك جائع. هيا. لا تشغلي أكثر من ذلك". وانزاحت
سحابات الخوف عن صدري، ودخلتُ فألقيتُ السلام على العجوزين،
ولم يردّا بكلمة، وتوجّهتُ إلى الحساء على الطاولة فالتَهَفْتُه التهاماً.

بعد أن هدأت نفسي، وسرى الطعام في جسدي فأناز عيني، سألتها:
"ما اسمك يا خالة؟". ردّت: "وما يعنيك من اسمي؟". "أريدُ أن أعرفك
وأعرف من أيّ عرقٍ أنت؟". "هل هذا أمرٌ مهمٌ بالنسبة لك؟! نحنُ على
باب الله أنا وزوجي كما ترى". "ولكن ألا تعرفين ما يجري في البلد؟".
"أعرف". "طيب؟". "هل يُغيّر ذلك من الأمر شيئاً بالنسبة لِمَا فعلتُ، أنا
أستقبلُكَ لأنني أعرفُ كم عانيتُ في هذه الحرب اللعينة، أنا أقدمُ
هذه الخدمة لك ليس لأنك منّا أو من الكروات أو من البوشناق، أنا

أَقْدَمَهُ لَوَجْهَ الرَّبِّ". "أَنْتِ صَرِيَّةٌ إِذَا؟". "وَهَلْ هَذَا يُخِيفُكَ؟". أَرَدْتُ أَنْ أَقُولَ لَهَا: "نَعَمْ، إِنَّهُ لَا يُخِيفُنِي فَحَسَبْ، بَلْ يَجْعَلُنِي أَشْعُرُ بِالرَّعْبِ يَجْتَاحُ كُلَّ ذَرَّةٍ فِي جَسَدِي". سَمِعْتُ زَوْجَهَا مِنْ فَوْقِ سَرِيرِهِ يُتِمِّتُ، وَهُوَ يُشِيرُ بِيَدِهِ إِلَيَّ، فَعَرَفْتُ أَنَّهُ يَرِيدُ مِنِّي أَنْ أَقْتَرِبَ مِنْهُ، جَلَسْتُ عَلَى الْكَرْسِيِّ الَّذِي عَنْ يَمِينِهِ، وَسَمِعْتُ صَوْتَهُ الْوَاهِنَ يَسْأَلُنِي: "مَا اسْفُكَ يَا بَنِي؟". "أَنَا جَوَادٌ". "وَأَنَا (دِيمِيتْرِي)، وَهَذِهِ زَوْجَتِي (نَاتَاشَا)، وَنَحْنُ نَعِيشُ مَعًا فِي هَذَا الْكُوخِ مِنْذُ نِصْفِ قَرْنٍ، هَلْ كُنْتَ فِيمَا مَضَى تَخْشَى مِنَ الصَّرْبِ أَوْ مِنْ جِيرَانِكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِدِينِكَ؟". تَرَدَّدْتُ قَبْلَ أَنْ أَجِيبَ: "لَا". فَأَرَدْتُ: "وَنَحْنُ كَذَلِكَ، فَمَا الَّذِي تَغْيِرُ إِذَا؟". هَزَزْتُ رَأْسِي وَبَقِيتُ صَامِتًا. أَرَدْتُ: "الْحَرْبُ يَا بَنِي هِيَ الَّتِي غَيَّرَتْنَا، هِيَ الَّتِي أُبْرَزَتْ مَا كَانَ خَافِيًا. وَأَيَقِظْتُ مَا كَانَ نَائِمًا. دَغْنِي أَشْثُمُ الْحَرْبِ وَأَشْثُمُ مَنْ أَشْعَلَهَا، وَأَشْثُمُ مَا صَارَتْ إِلَيْهِ حَالُنَا. كَانَ يُمَكِّنُ لِلْأَرْضِ أَنْ تَتَّسِعَ لَنَا جَمِيعًا. لِمَاذَا نَتَقَاتِلُ عَلَى شَيْءٍ لَوْ فَكَزْتُ فِيهِ لَوَجَدْتُ أَنَّهُ سَخِيفٌ؟! كَانَ يُمَكِّنُ أَنْ نَعِيشَ نَحْنُ وَأَوْلَادُنَا بِسَلَامٍ وَنَمُوتَ كَذَلِكَ. أَبْنَائِي الثَّلَاثَةُ مَاتُوا فِي الْحَرْبِ، نَحْنُ هُنَا وَحَدْنَا نَعَانِي بِسَبَبِ هَذِهِ الْحَرْبِ الْكَافِرَةِ. الْمَسِيحُ جَاءَ مِنْ أَجْلِ أَنْ يَنْشُرَ السَّلَامَ لَا أَنْ يَنْشُرَ الْمَوْتَ. مَاذَا رِبْحَ الصَّرْبِ؟! الْمَوْتُ. مَاذَا رِبْحَ الْكُرُوتِ؟ الْخَوَاءُ. مَاذَا رِبْحَ الْبُوشْنَاقِ؟ الْبُؤْسُ. فِي الْحَرْبِ كُلُّنَا خَاسِرُونَ. هَؤُلَاءِ الْحَمَقَى لَنْ يُدْرِكُوا هَذِهِ الْحَقِيقَةَ إِلَّا بَعْدَ أَنْ يَطْحَنَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا". ثُمَّ رَاحَ يَسْعَلُ، كَأَنَّهُ حَدِيثَ الْحَرْبِ أَعَادَ إِلَيْهِ الْمَرَضُ. قُلْتُ: "هَلْ تَعْرِفُ مَا يَجْرِي فِي الْمَعْسَكَاتِ؟! أَنَا قَادِمٌ مِنْ ذَلِكَ الْجَحِيمِ". ظَلَّ سَاكِئًا، فِيمَا هَتَفْتُ (نَاتَاشَا): "نَعْرِفُ. الْإِنْسَانُ وَحْشٌ بِالْأَسَاسِ. هَلْ تَظُنُّ أَنَّنَا رَاضُونَ بِمَا يَجْرِي". "وَلَكِنَّا خَسَرْنَا كُلَّ شَيْءٍ". "لَا تَظُنُّ أَنَّ الصَّرْبَ قَدْ رَاحَ".

وسادت لحظات صمت، قبل أن تقول المرأة وهي تشير إلى غرفة أخرى: "يمكنك أن تنام هنا حتى تستطيع تدبر أمرك. أنت منهمك، ومريض، وعليك أن تستعيد قوتك قبل أن ترحل".

أويث إلى الغرفة التي أشارت بها علي المرأة، كانت واسعة ومريحة، ونافذتها تطل جهة الغرب، والنسائم الباردة اللذيذة تتسلل من خلال حوافها العتيقة، ورائحة البلوط تأتي من الأشجار القريبة، كان فراشا مريحاً وطرياً وناعماً وهادئاً ودافئاً لم أنم عليه منذ سنين. وفي غمرة ذهولي بالظراوة التي لم أعهدها، شعزت بأثهم سيذبحونني في أنني أنام في بيت صربي، وداهمني شعور بأثهم سيذبحونني في منتصف الليل بعد أن أكون قد غرقت في النوم، واستويث بالفعل من رقتي جالساً، ونظرت حولي، فوجدت المكان يغرّق في الهدوء والظلام، وعدت إلى النوم ولم أصح إلا في ظهر اليوم الثاني.

هذه قصة هروبي يا (حارث)، بقيت في بيت العجوزين شهراً، ساعدتهم أثناءها في جلب الماء، وفي بعض الأعمال المنزلية من التنظيف والظهو وقطع الأشجار من أجل التدفئة، لقد أعجبنى الأمر في البداية، وشعزت بأثني محظوظ جداً، ثم ملث، وأدركت أنني لا أنتمي إلى هذا العالم، فخرجت أبحث عن بشري يشبهني، بعد أسبوع فكرت خلاله مئة مرة بالعودة إلى كوخ العجوزين وجذتك.

سألته: "والآن ماذا؟". "لا أدري". "ماذا تقترح، إلى أين نمضي، ماذا نفعل؟ هل يمكن أن نسير باحثين عن بوسنيين مثلنا، أو نعود إلى قرانا؟". "الحرب ما زالت قائمة. قريثك فوتشا مثلاً احتلها الصرب على الأرجح، والعودة إليها تعني الموت". "صدق. ولكننا

وحدنا سئعاني كذلك. قد نصمّد أسابيع أو شهورًا، ولكننا سننهار في النهاية". ففكر قليلاً قبل أن يهتف بحماسة كأنه وجد الحل: "نتوجه إلى منطقة (سربرنيتسا)؛ فهي تحت الحماية الدولية، وهي منطقة منزوعة السلاح. عرفنا أن عدداً كبيراً من الناس قد تقاطروا إليها". وهكذا توجهنا جنوباً.

(51)

كيف سأنجو؟!

كان صيفًا لاهبًا من عامٍ أشدَّ لهيبًا، لا أدري إن كان يُمكن للإنسانية أن تنساه، أو أن يُصبح ذكرى موتٍ، مثلَ أية ذكرى أخرى! بعض الأحداث تريد أن تنساها ولكنها لا تنساك. تريد أن تتخلص منها، ولكنها تنشب في شرايين قلبك نشوب الشوكة في كبة الضوف. كان تقوِز من عام 1995م قد دخل منذ أسبوع.

الطريق قد يكونُ عدوًا. الكلاب الضالة. الألغام. المفاجآت غير السعيدة. الاتجاه الخاطيء. رجفة القلب التي تُصاحبك طوال الطريق. الخوف من أي عابرٍ مُحتمل. النهار الفاضح. الليل الآثم. القذائف العشوائية. الذئاب. الشقوق في الجروف. الأفاعي التي تكثر في الضيف. الشوك. الوجع. الجوع. الذكريات الأليمة التي لم تبرا منها الروح. الأشباح. العتمة. التعب حد الارتعاش. المنعطفات الوعرة. دقات القلب التي لا تهدأ. الزهبة من كل ما يتحرك ولو كان طيرًا. السواد الذي يُغلف الكائنات في الليل. الأفكار التي تطرق الجمجمة فتسبب طنينًا مُستمِرًا. جهة الواجهة. مع ذلك كان علينا أن نظل سائرين دون أن نتوقف. نتلصص على الظلال الجامدة خوفًا من أن نتحرك، ونكتنم أنفاسنا خوفًا من أن يسمعها غريب.

بقينا نسير أنا و(جواد) خمس ليالٍ حتى رأينا دُخانًا من بعيد. ضربت صاعقة الخوف قلبينا في اللحظة نفسها. هل نكون قد أخطأنا الاتجاه وسرنا إلى الفخ بأنفسنا. جفنا على الأرض نرقب الوضع. كانت أصوات الجنود تصل إلينا خافتة، وأحيانًا مسموعة بوضوح إذا

حزَّكَها الهواء باثْجَاهنا، سأَلْته: "يبدو أنه مُعسكر جنود؟". ردَّ بهمس: "يبدو كذلك". "هل هو تابعٌ للجيش البوسني أم الصربي؟". "إذا ركَّزنا في اللَّهجة التي يتحدَّثون بها سنعرف، الفروق الطَّفيفة بين اللَّهجة الصَّربيَّة والبوسنيَّة ستكشف الأمر". أَصغَّينا ننتظر أن ينقل الهواء تلك اللَّهجة، وتأكَّدنا أنَّهم بوسنيُّون. شعزنا بالراحَة، قلَّت: "إذا يُمكن أن ندخل المُعسكر". ردَّ: "أحسنُ خيارٍ مُمكن الآن. هل تريدين أن نبقى مُشرَّدين، سنموث من الجوع".

قلَّت له ونحنُ نمضي باثْجاء المُعسكر: "ألم يكن من الأفضل أن ننام اللَّيلة هنا، ثم ندخل إليه في الصُّباح؟" ردَّ: "لماذا؟". "حتَّى لا يقتلنا حَرَس المُعسكر ظَنًّا منهم أنَّنا أعداؤهم". "علينا أن نمضي؛ إذا نجونا من الألغام فسَننجو من البنادق الصَّديقة".

دخلنا المُعسكر بعدَ أن مشينا ما يقربُ من ربع ساعةٍ مشيًا حِزًّا، نحسُّ فيه كلَّ خُطوةٍ نخطوها. حتَّى إذا صرنا على بابِه لم يُوقِّفنا أحد، ولا سألنا من أينَ أتينا، ولم يتحقَّق من هُويَّاتنا أيَّ حارس؛ كان المُعسكر في حالة فوضى.

في المُعسكر خليطٌ غيَّر مُتجانيس من النَّاس، رجال مدنيُّون، ونساء، وأطفال، وطاعِنون في السِّنِّ، وجنودُ مُقاتِلون، وكانوا في حالةٍ يرثى لها، لم يكن لديهم ما يكفي من الطَّعام، ولا السَّلاح، وكان الجنود في حالة ترقُّبٍ لِمَا تُسِفِر عنه الأمور، ولم يكونوا قادرين على الدِّفاع عِوَضَ أن يكونوا قادرين على الهجوم والُفْباغْتَة.

تعرَّفنا على قائد المُعسكر، كان اسمُه (مُصطفى)، وأخبرناه بقصَّتنا، فلم يكثرث لنا، ويبدو أنَّ سَمِعَ مئات القصص المُشابهة من آخرين

وفدوا إلى هنا. وبقي صامئًا. وأرادنا أن ننتظر مع الآخرين إلى طلوع الفجر. بقيت أنا و(جواد) بقربه، وفي آخر الليل تكلم: "ألا تعرفون ما حدث؟". أجبناه: "كلا". رد: "لقد حدثت مذبحة كبيرة، كيف لم تسمعوا بهذا؟". ولم تكن لدينا إجابة، فكّر: "هناك معسكرات كثيرة شبيهة بهذا المعسكر". وصمت فيما بدا التأثير واضحًا على وجهه قبل أن يتابع: "في الصباح سأنظر كيف أتدبر الأمور".

في الصباح المنتظر، وصلت إلى القائد (مصطفى) أخبار جديدة، ويبدو أنها مروعة، فقرّر أن ينتظر ليلة أخرى أو اثنتين. وتقربت منه وسألته: "إنها الحرب؟". واستغرب السؤال، وشعر أنه يريد أن يبصق في وجهي، ولكنه بلغ ذلك، وقال: "ماذا تقول؟". "أقصد كيف بدأت هذه الحرب اللعينة؟".

كان هناك هجوم مدفعي من دولة (صربيا) علينا دائمًا، وإحدى القذائف أصابت منزلنا واستشهد والدي. كان أخي في الجيش البوسني، وكنت أنا ضابطًا في القوات الخاصة. لقيت الحرب فدخلنا قبل أن ندخلها. ولما رأيت الناس أن الحرب لا مفر منها؛ بدأت القرى تتجهز، في كل قرية شكلنا وحدة خاصة بها؛ مثل حرب العصابات كان لدى كل قرية ثلاثون شخصًا للدفاع عنها، وشيئًا فشيئًا أنشأنا ما يشبه خطوط المواجهة، وبدأ الجيش يتكوّن في (سربرنيتسا)، في هذا الجيب المحاصر. شنت القوات الصربية علينا أكثر من هجمة، بعد أن هاجرنا من قرانا، ودخلنا هذه المدينة.

حين دَبّ الجوع في الأجساد اضطررنا لمهاجمة القرى الصربية، وأخذ الطعام منها، كانت فرقتي تهاجم القرية بكل قوتها، لناخذ

طعامًا قدر المستطاع. كان المدنيون الضريون قد التحقوا بدولة (صربيا)، ولم يكن في القرى التي هاجفناها سوى المسلحين. كنا نحرق القرى كما فعلوا بقرانا، كانوا قد قتلوا حتى تلك اللحظة أكثر من أربعين ألفًا مئًا، وقالت قيادتهم: إننا قد قتلنا ثلاثة آلاف صربي، حينها قزروا أن يحتلوا كل الجيب الذي تقع فيه (سربرنيتسا).

تدخلت الأمم المتحدة في النزاع في عام 1993م، وقزروا أن يكون هذا الجيب منطقة خالية، منزوعة من السلاح تحت حماية قواتها. حين أردنا استعادة ما احتله الضرب بالقوة قالت لنا تلك القوات الأممية: "لا تفعلوا. أنتم تحت حمايتنا". كانت تلك أكبر كذبة في التاريخ. وطالبونا بتسليم سلاحنا. وحسب ما كان معلنًا، اقتنع بعض القادة وبعض الجنود بذلك فتم تسليم سلاحنا. وتلك كانت أكبر خبيثة في التاريخ!

لقد طالبوا القائد البطل (ناصر أورييتش) أن يسلم سلاحه ويترك البلاد، وبعثوا له بطائرة (هليوكبتر). وقال بعض المقاومين: إذا تم ذلك فهذه خيانة كبرى، إن الجيش البوسني يريد أن يتركنا لاتفاقية لا تسمن ولا تغني من جوع، وشعروا أنهم سيحققون تمامًا!

كانت القوات الأممية الفرابطة في (سربرنيتسا) من القوات الكندية، ثم تخلت عن دورها لصالح القوات الهولندية بعد عشرة أشهر، وكانوا يقولون إنهم جاؤوا لحمايتنا، كانت خدعة كبيرة، فقد كانوا يكرهوننا، ويتآمرون علينا، ويتواطؤون مع الضرب على ذبحنا، كانوا يتقصدون إزلائنا، حتى إن الأطفال حين كانوا يأخذون قمامتهم ليأكلوا كانوا يُعذبونهم، وبنائنا اللواتي كنَّ يعملن عندهم

بالتنظيف كانوا يستغلونهن جنسيًا. أنا لا أتحدث عن اغتصاب النساء من قِبَل الجيش الصربي، أنا أتحدث عن جيش الحماية الهولندية المزعومة، لقد كانوا يفعلون بنا ما يفعله الصرب من اغتصاب وتعذيب.

كان الهولنديون يسكرون مع ضباط الجيش الصربي، ويسهرون، ويتبادلون الأنخاب، ويقتسمون معهم نساءنا، وكانوا يرفعون ثلاث أصابع، إشارة إلى الصليب الذي يجمعهم، وتعبيرًا عن التعاطف.

في شهر حزيران الفائت، أي قبل شهرٍ فقط، بدأت الحشود العسكرية الصربية تُطَوَّق (سربرنيتسا) من الجهات كُلِّها، ونشروا مدافع المورتر والهاون في المناطق القريبة، وزحفت إلينا الدبابات، وبدأت بإطلاق نارٍ كثيف استمرَّ أسبوعًا، قتلوا المئات، أرسلت قيادتنا إلى القُوَّات الهولندية تقريرًا بما يحدث، ذكروهم أن (سربرنيتسا) تحت حمايتهم، وأنَّ الاتفاق أن تكون منزوعة السلاح، فردوا: "لا تقلقوا، لن يحدث لكم سوء، كل شيء تحت السيطرة".

جرث مفاوضات بين قادة من الجيش البوسني كنت أنا ضمنهم، مع قُوَّات الأمم المُتحدة لكي يسمح الصرب للناس بأن يخرجوا من المناطق المحاصرة في (سربرنيتسا) ويغادروا إلى أي مكان بعيدًا عن النزاع، لكن الصرب رفضوا، كانوا يريدون أن يُبقونا مُحاصرين، وكانوا يُعدّون لمذبحة كبيرة.

في الثامن من تموز، أي قبل حوالي عشرة أيام، قرّرت مع هذه الحالة أن أضع خطة استباقية للهجوم على الصرب، واستعادة بعض الأماكن المُحتلة منهم، ودحرهم بعيدًا لتوسيع الدائرة حول

(سربرنيتسا) وتمكين المدنيين من مغادرتها. لكن قائد القوات الهولندية قال: "لا حاجة لذلك. أنتم في أمان". ووعدنا إذا حصل أي هجوم منهم أن يحرق مواقعهم التي يتركزون فيها حول (سربرنيتسا).

في ليلة العاشر من تقون، بدأت القوات الضربية مهاجمنا من المحاور جميعها، كان هجوما شرسا، ولم تتوقف القذائف طوال الليل، وما اضطررنا ما يقرب من ثلاثين ألفا من المدنيين أن يلجؤوا إلى مبنى الأمم المتحدة في (سربرنيتسا) في منطقة (بوتوتشاري)، وقد أدخلت القوات خمسة آلاف منهم لأن المبنى لا يمكن أن يتسع لأكثر من ذلك، وأغلقت البوابات على خمسة وعشرين ألفا خارج مبانيها، بل إنهم تعرضوا للضرب، وهُددوا بتسليمه للجيش الضربي، وأشهر في وجوههم السلاح لإرغامهم بالقوة على ألا يدخلوا المبنى، لجأ كثير من هؤلاء المطرودين إلى مصنع البطاريات القريب من المبنى بانتظار مصيرهم المجهول. كان كل شيء معدا سلفا.

بقيت مع وحدتي العسكرية ليلتين لم ننم فيهما دقيقة واحدة ونحن ندافع عن المدينة، لكن سلاحنا لم يكن كسلاحهم. كان الضرب قد بدأوا بدخول ضواحيها، وصار شقوقها وشيكا، بالإضافة إلى أن بعض الهاربين المذعورين لجؤوا إلى معسكرنا كما ترى، فصارت استباحتها أمرا محققا.

بدأت القوات الهولندية بالتخلي عن مواقعها، وتسليمها للضرب، وانكفأت داخل المبنى فحسب، وتركث كل ما خارجه لرحمة الجيش الضربي، قائلة: "نحن قوات حماية، ولسنا قوات قتال!".

كان عددٌ من وحدات الجيش البوسني قد غادرت (سربرنيتسا) بمن فيهم القائد (ناصر أورييتش)، لقد فات الأوان على إنقاذها. وحدتي وحدها بالإضافة إلى قادة قليلين بقينا هنا ولا زلنا. بعثت رسالةً إلى رئاسة الوزراء، سألتهم فيها: "هل حُكِمَ على أهل (سربرنيتسا) بالموت، وجرى التخلي عنها كليًا؟! نحن لا نستطيع أن نوقف مد القوات الضربية التي تستخدم الآليات الثقيلة، إن أهل (سربرنيتسا) يشعرون بالهلع وخائفون جدًا على حياتهم، هل ستتركونا نواجه مصيرنا المرير وحدنا؟".

كانت التقارير العسكرية تأتيني تباغًا، لم تكن أبشع ولا أشد من الأخبار التي كان ينقلها لنا الناجون الهاربون من الجحيم. إنهم موجودون في هذا المعسكر. المعسكر الذي ترك يتيقًا، مقطوع الذراعين، مكسور الساقين، ومطلوبًا منه أن يصمد أمام آلة الجيش الضربي الجزار.

قالوا لي: "سَلِّمْ سلاحك أنت وكتيبتك. وستنجو". سألتهم: "كيف سأنجو؟! رثوا: "يُمكنك أن تدخل إلى مبنى قوات الأمم المتحدة كما دخل الآخرون". لقد خدِعتُ أنا وبعض قادة الجيش في السابق بما يكفي. إذا كان لا بُد من الموت، فأنا سأموث والسلاح في يدي. وكان قد سرى في الجيش وفي الناس يأش شديد، وجزع أشد.

مذبحة سربرنيتسا

كان ثلاثون ألفاً من البوسنيين يعيشون داخل مبنى قُوات الأمم المتحدة وخارجة في هلع دائم، وفي قلقٍ يُورجِحُ الشرقيات، ويُقلِّلُ الجوارح، ويجرِّخُ لحن الضمت، ويضربُ بنقراتٍ من رأسٍ مُدبَّبٍ على القلوب الواجفة.

كان الناس غرقى في بحر الخوف، مُتعلقين بقشةٍ اسفها تطمينات القُوات الأممية التي كانت تراقبُ دون أن تفعل شيئاً، وكانوا يهمسون بشفاهِ مُرتعشة كما يتنفسون: "سينزل الجيش الضربي من الثلال المُحيطة ويقومون بذبحنا جميعاً. سيشقون حلوقنا. لن يرحمونا أبداً". وكانت الهمسات الزاعشة لا تلقى أذناً، ولا أحد يهتم لها!

ستداعى (سربرنيتسا)، ستهوي كجذع شجرةٍ عتيقةٍ جرى اجتثاثها بشكلٍ حثيث، لن تُصبحَ إلا ذكرى؛ ذكرى ملعونة، ذكرى تُشير إلى وجه العالم المُخزي، وتفضح كلَّ الأدعياء فيما يُسقى بالعالم الخزا

دخل (راتكو ميلاديتش) في الحادي عشر من تموز من عام 1995م مدينة (سربرنيتسا) مُنتصراً، كان يتجول فيها برفقة جنوده مُنتشياً بما حققه، وكان يطلب من المُصوّرين الذين كانوا يركضون خلفه أن يقوموا بالتقاط الصور له في هذا الشارع أو ذاك، وأمام ذلك المبنى أو بجواره، ومن خلفه الآليات الثقيلة، وجنوده المُدججين

بالأسلحة، وكان يُدلي ببعض التصريحات القصيرة مُتبجّحًا ومُهدّدًا: "ها نحن في سربرنيتسا، سنقدّم هدية للشعب الصربي. لقد حان الوقت للانتقام من الأتراك". "لقد حزننا سربرنيتسا. هذا انتصار لنا جميعًا. لا أحد يستطيع إيقافنا الآن".

ثم توجه إلى مبنى قوّات الأمم المُتحدة، وكان الآلاف قد تجمعوا هناك مَن لم يُسمَح لهم بالدخول، كان قد قرّر - من قبل - أن يقتل كل مَن في المبنى أو خارجه من الرجال. وطلب من قوّاته أن يتنكروا في زي قوّات الأمم المتحدة ليطمئن الناس إليهم، ويُنفذ المذبحة على طريقته.

وقف أمام الحشد، وأوماً لعددٍ من جنوده أن يبدؤوا بتوزيع الهدايا، كان الجنود يحملون صناديق مليئة بِقِطَع الشيكولاتة والبسكويت، راحوا يوزعونها على الأطفال، وكان يمسح على رأس كل طفل يُعطيه قطعة من تلك الشوكولاتة، ويبتسم في وجهه، وأجرى حوارًا قصيرًا مع أحدهم: "مرحبًا، كيف حالك؟". ردّ الطفل وهو ينظر إلى حبة الشوكولاتة، لم يذق منذ أكثر من ثلاث سنوات قطعة شكر، ولم تقع في يده هدية عزيزة كهذه: "بخير". "كم عمرك؟". "اثنتا عشرة سنة". "ما اسمك؟". "عز الدين". وازدادت ابتسامة (ميلاديتش) ومسح من جديد على وجه الطفل: "ستكون بأمان".

ترك الحديث معه، وعقد ذراعيه حول خصره، وخاطب الجمع الكبير من الآلاف الذين احتشدوا أمامه راجين النجاة، وآملين في العفو والسلامة: "لا تخافوا، لن يُمس أحدٌ بسوء. النساء والأطفال سيُنقلون في الحافلات بأمان إلى (توزلا). فقط التزموا الهدوء.

تَحَلُّوا بالصَّبْرِ وَاتَّبِعُوا التَّعْلِيمَاتِ". وَهَتَفَتِ الْخُشُودُ حِينَهَا: "شُكْرًا. شُكْرًا". ثُمَّ التَفَتَ وَرَاءَهُ إِلَى قَادَتِهِ وَجَنُودِهِ الْآخَرِينَ: "عَلَيْكُمْ أَنْ تَهْتَفُوا بِهِمْ جَيِّدًا". وَعَادَ يُوجِّهُ خُطَابَهُ إِلَى الْحَشْدِ: "دَعُوا النِّسَاءَ وَالْأَطْفَالَ يَفْزُونَ أَوَّلًا، انْتَبِهْنَ، لَا تُضَيِّعْنَ أَطْفَالَكُنَّ الصُّغَارَ، لَا تَخَافُوا فَلَنْ يُؤْذِيَكُمْ أَحَدٌ".

تَوَجَّهَ النَّاسُ إِلَى الْحَافِلَاتِ كَمَا طُلِبَ مِنْهُمْ، كَانَتِ النِّسَاءُ وَالْأَطْفَالُ يُوجِّهْنَ مِنْ قِبَلِ قَوَّاتِ الْجَيْشِ الصَّرْبِيِّ الْمُتَنَكِّرِ بِزِيَّ الْقَوَّاتِ الْهَوْلَنْدِيَّةِ إِلَى الْبَاصَاتِ. يُفْصَلُ الرِّجَالُ عَنْهُمْ حَتَّى وَلَوْ كَانُوا كِبَارًا فِي السِّنِّ. الرِّجَالُ يَنْقَلُونَ إِلَى الشَّاحِنَاتِ. فُصِّلَ الْأَبُ عَنْ ابْنَتِهِ، وَالْأُمُّ عَنْ وَلَدِهَا، كَانَتْ بَعْضُ الْأُمَمَاتِ اللَّوَاتِي أُجْبِزْنَ عَلَى الْإِنْفِصَالِ عَنْ أَبْنَائِهِنَّ يُشِيرْنَ إِلَيْهِمْ مِنْ خِلَالِ نَوَافِذِ الْحَافِلَاتِ، كُنَّ يَبْكِينَ. كَانَ الْجَوُّ رَهيبًا. كُنَّ يَوْقِنَنَّ بِالْمَوْتِ الْوَشِيكِ. كَانَ الطَّاعِنُونَ فِي السِّنِّ مِنَ الرِّجَالِ لَا يَتِمَكَّنُونَ مِنْ صُعُودِ الْحَافِلَاتِ مَعَ بَنَاتِهِمُ اللَّوَاتِي كُنَّ يَرْعَيْنَهُمْ.

بَدَأَتِ الْقَوَّاتُ الصَّرْبِيَّةُ تُكْشِرُ عَنْ أَنْيَابِهَا، كَانَتْ تَدْفَعُ بِأَعْقَابِ الْبِنَادِقِ كُلِّ مَنْ يَتَسَلَّلُ مِنَ الرِّجَالِ إِلَى تِلْكَ الْحَافِلَاتِ. كَانَتْ أَعْمَارُ الرِّجَالِ الَّذِينَ فُصِّلُوا عَنْ أَهْلِهِمْ بَيْنَ الثَّانِيَةِ عَشْرَةَ وَالسَّابِعَةِ وَالسَّبْعِينَ، كُلُّ هَؤُلَاءِ نُقِلُوا إِلَى الشَّاحِنَاتِ. أَمَّا حَافِلَاتُ النِّسَاءِ فَانْطَلَقَتْ إِلَى (ثُوزَلَا)، قَالُوا إِنَّهَا أَقْرَبُ مَدِينَةٍ لِلْبُوسْنِيِّينَ الْمُسْلِمِينَ يُمكنُ أَنْ يَلْجُؤُوا إِلَيْهَا، وَكَانَتْ تَبْعُدُ عَنْ (سَرِبَرْنِيْتْسَا) أَكْثَرَ مِنْ مِئَةِ كِيلُو مِتر.

نُقِلَ الرِّجَالُ ابْتِدَاءً مِنَ الْحَادِي عَشَرَ مِنْ تَقْوِزَ إِلَى الْمَذَابِجِ. كَانَ (رَاتِكُو مِيلَادِيْتْس) قَدْ وَجَّهَ أَمْرَهُ الْحَازِمَ إِلَيْهِمْ: "لَا تُبْقُوا عَلَى وَاحِدٍ مِنْهُمْ وَلَوْ تَعَلَّقَ بِقَدَمِي الرِّبِّ".

رافقت الشاحنات التي ثقل الرجال والأطفال الذين تزيد أعمارهم عن اثنتي عشرة سنة، جرّافات وبلدوزرات ضخمة. بقيت القوات الضربية يومين تنقل هذه الآلاف التي لم يُسمح لها بدخول مبنى قوات الأمم المتحدة، وحين أتموا نقلهم، تخلّت القوات الهولندية عن الآلاف الخمسة التي تلجأ إليها، وأجبرتهم على أن يُسلموا أنفسهم للضرب، ويستقلّوا الشاحنات كما حدث مع سابقهم.

توجّهت شاحنات الرجال إلى أكثر من سبعة مواقع مُعدّة لأكبر مذبحّة منذ الحرب العالمية الثانية. أخذوا الدفعة الأولى منهم إلى مستودع (كرافيتشا)، كان مُستودعًا زراعيًا في القرية التي تحمل الاسم ذاته، حشروا في المستودع حوالي ألف وخمسمئة مُعتقل أُزِلوا تحت التهديد من الشاحنات، رُبطت أيديهم خلف ظهورهم، وُعِصبت عيونهم، وقامت وحدة العقارب في الجيش الضربي؛ الوحدة التي كانت مُكلّفة بتنفيذ هذه الفظائع، باستخدام البنادق الرشاشة في الثاني عشر من تموز بقتلهم، وكانوا يُلقون عليهم القنابل اليدويّة داخل المُستودع المحشور، فقتل كلّ من فيه.

أخرون نُقلوا إلى سدّ (بيتاركا) الثاني في الرابع عشر من الشهر، وشاحنات توجّهت في اليوم نفسه إلى مدرسة (غربوفاكي) بالقرب من (زفورنيك)، وإلى مدرسة (روجاني) وموقع (أوبراهوفاتشي) في اليوم التالي. وإلى مركز (بيليفيا) في السادس عشر من تموز، وإلى مواقع أخرى في قرية (نوفا كاسابا)، وإلى الغابات المُنتشرة هناك حتّى الثامن عشر من تموز.

في كلّ موقع من مواقع المذبحة، كانوا يُجبرون الأسرى على حفر

قبورهم قبل قتلهم. وفي حالات أخرى كانت الجرافات المرافقة للشاحنات تقوم بحفر تلك المقابر. كانت بانتظارهم فرقة الكوماندس من المجموعة العاشرة، وفرقة (العقارب)، ووحدات من جيش صربيا، كانوا لا يستطيعون قتل هذه الأعداد الغفيرة دون مساعدة من وحدات كثيرة. ينزل الأسرى من الشاحنات، ويقفون في صفوف تمتد عشرات الأمتار، كانوا مقيدين من الخلف، وكانوا مغطشين، وكان الواحد يرفع ذقنه منتظراً لحظته، وكان المسلحون يوجهون الزشاش على مسافة نصف متر من رأس الضحية من الخلف، ويطلقون الضلية، يسقط، وينتقل إلى الذي بعده، ثم يسقط، والذي بعده، ثم يسقط الصف كاملاً، ثم يؤمر صف جديد بالنزول، يقفون ويتولى الجلاد السابق التنفيذ، أو يُعهد إلى غيره إذا تعب. بعض الجلادين بكوا، كانوا يطلقون النار ويبكون، بكوا من التعب لا من الرحمة، بكوا لأنهم استمروا في هذا العمل طوال اليوم. كان عليهم أن يرتاحوا، ولكن لا راحة في الموت.

في بعض الشاحنات أجبر الجنود السائقين على قتل بعض الأسرى. كانوا يقولون: "إن هذا يضمن صمتكم". لم يكن أحد سيسألهم أو يحاسبهم، كانوا يقصدون: "إن هذا يعطيكم فرصة الانتقام التي نحظى بها. فرصة الاستمتاع بها مثلنا؛ نحن لسنا أنانيين إلى ها الحد حتى نستأثر بمتعة كهذه وحدنا. إن هذا يجعل القتل عندهم سهلاً؛ من الضروري أن تتدربوا على ذلك، نحن نتكفل لكم به".

في مدرسة (غربوفاكي) جمعوهم في غرفة سفلية كبيرة أشبه بمسرح، أغلقوا عليهم الأبواب كلها، لم يُقيدوهم، ولم يعصبوا عيونهم، أطلقوا عليهم النار من الثوابذ العالية، كان الأسرى

يصرخون، يركضون في كل اتجاه، يبحثون عن منفذ للنجاة، لا نجاة. عن فرصة للهروب. لا هروب. كانوا ينظرون نظرات الزعب الأخيرة، يرتطم بعضهم في الهرب بالآخر، يسقطان معاً، تتكدس الجثث. مات أكثرهم، بقي بعضهم أحياء، ما زالت تتردد في صدورهم أنفاس أخيرة، رموا عشرات القنابل، لا نفس يبقى في الصدر، لا أحد يخرج حياً.

مركز (بيليفيا) كان مركزاً ثقافياً، يبعد عن (سربرنيتسا) عشرين كيلو متراً إلى الشمال الشرقي، كانت فيه قاعة مسرحية، إنها مناسبة للذبح كما حدث في مجازر المدارس، جمعوا فيه حوالي ألف ومئتي معتقل، أبقوهم ثلاثة أيام دون طعام أو شراب، في السادس عشر من تقون، كانوا يُقزرون بدلاً من الله أن يموتوا، لم يكونوا يريدون أن يُقتلوا في هذا المكان المحشور فحسب، كانوا يريدون الاستمتاع بالمشهد، أخرجوا مئتين، أجبروهم على حفر قبورهم، صَفُّوهم على طرف الحفرة الكبيرة، وأعدموهم بالزصاص، أما الألف الذين بقوا في المسرح، فيمكن أن تُشاهد كيف يتدافعون بحثاً عن أمل في النجاة وهم يُقنَّصون واحداً واحداً، ثم ستتكدس القنابل وغازاتها بالقضاء على مَنْ ظَلَّ حياً. الموت ليس شربة ماءٍ تُشرب هكذا بسرعة، يجب أن تكون مائدة من الطعام تُؤكل بأناةٍ وهُدوء، ويجب أن يأكلوا من الأطباق كلها بالمتعة نفسها!

في مواقع المذبحة المفتوحة طلبوا منهم أن يتقدموا الواحد تلو الآخر، تشكّلوا على هيئة صف. مشى القتل خلفهم وأردوهم، أبقوا على عشرين، أوهموهم أنهم ناجون، قالوا لهم: "احفروا حفرة كبيرة، وألقوا القتلى فيهم. إذا فعلتم ذلك سنطلق سراحكم". حفروا الحفرة،

وَأَلْقَوْا إِخْوَتَهُمْ فِيهَا، ثُمَّ قَتَلُوهُمْ بَعْدَهَا، وَجَاءَتِ الْجَزَافَةُ فَرَدَمَتِ
الْحُفْرَةَ عَلَيْهِمْ جَمِيعًا.

طيلة النهار كان هناك قتل، طيلة الليل كان هناك موت، وكان
صراخ، وكان رُعب، وكان هَول، وكانت قسوة، وكانت قلوب لا تنتمي
إلى الآدمية، وما بينها حُفْرٌ وَجَرٌ، وَرَذَمٌ، كانتِ الجُثث تنتشر في
الحقول، يُمكنك أن تراها مثل خطٍ طولي يمتد إلى مئة متر. هذا
الثراب الأحمر الذي يتشكل على هيئة دائرة غير منتظمة، أو طريق
غير مُستقيمة، كان يُخفي تحته الأجساد الذبيحة التي صعدت
أرواحها إلى السماء.

في مزرعة (برانييفو) في السادس عشر من تقوز جلبوا حوالي
ألفي مُعتقل، كان فيهم أكثر من ثلاثمئة طفل تقل أعمارهم عن أربعة
عشر عامًا، وفيهم من قارب الثمانين من العمر كذلك، وُزِعوا بشكلٍ
مجموعاتٍ وأوكلت مهمة القضاء عليهم إلى الوحدات الخاصة التي
تشكّلت إلى مجموعاتٍ كذلك، وراحوا يتسابقون من يقضي على
مجموعته قبل الآخر. فازوا جميعًا في الذبح، لم يكن بينهم خاسر!!

في أقل من خمسة أيام، بين الثاني عشر والسابع عشر من تقوز
عام 1995 قتلت وحدة (العقارب) مع أخواتها أكثر من ثمانية
آلاف شهيد، ودفنّتهم في أكثر من سثنين مقبرةً جماعية على طول
خطِ يُسقى محور الموت. كانوا يسكرون ويفرحون ويرقصون
ويُغنون ويقفزون بعد كل مجزرة، لقد كان شعورهم بالنشوة والراحة
والابتهاج أكبر من أي وصف!!

مسيرة الموت

ما ظلّ في القتلى مَنْ يبكي عليهم. ولا ظلّ فيهم مَنْ يُخبر عن لحظاتهم الأخيرة، وما نأخ عليهم غيرُ الثراب، ولا رثت لهم في الليل غيرُ النجوم، والشحْبُ الغريبةُ العابرة، كانت تريدُ أن تهبطَ من عليائها فتحتضنَ أجسادهم داخل قبورهم، وتحنو عليهم وتعتذر لهم نيابةً عن البشر.

في التاسع عشر من تموز قرّر القائد (مُصطفى) أن ينسحبَ من الموقع لقد وقعتِ الكارثة على مقربةٍ من هنا، وإذا بقي في المعسكر فستحدث مقتلةٌ عظيمة. خير المدنيين في أن ينسحبوا معه أو يتدبّروا أمر أنفسهم، قال وهو يكاد يبكي: "لم أعد أستطيعُ حمايتكم بعد الآن". دبّت الفوضى في المعسكر، وحدث هياجٌ كبير. وصرخ أناسٌ غاضبون: "الجيش يتخلّى عنا". "مذبحة سربرنيتسا ستتكرّر هنا". "ماذا نفعلُ بالأطفال؟!". "كيف يُمكن لكبار السنّ أن يتدبّروا أمورهم؟!". كان (مُصطفى) يردّ عليهم بالضمت، لم يكن في يده شيءٌ بالفعل، كل ما استطاع أن يُعلنه قبل أن يشرع في الانسحاب من الموقع باتجاه (توزلا): "عليكم ألا تأخذوا كثيرًا من الأمتعة. خذوا الضّروريّ فقط. اتركوا الخيام، والقياب، والصناديق، والحقائب الكبيرة، كل ذلك سيُعرقل مسيرتنا، وسيجعلنا هدفًا للموت، لقد وقعنا في فكّ الوحوش، حقيبة واحدة فقط تُحمل على الظهر فيها طعامٌ وشرابٌ يكفي لبضعة أيام، إذا كان ذلك مُمكنًا".

تبعثر المُعسكر. لم أرَ فوضى في حياتي مثل هذه، كان في المعسكر

أكثر من عشرين ألفاً، نصفهم مدنيون. قرّر عددٌ منهم أن يغادروا باتجاه قراهم، حذرهم آخرون: "لا توجد ممزات آمنة إلا تلك التي تؤدي إلى (توزلا). الضرب في كل مكان. والشكاكين في أيديهم". وقرّر عددٌ أن يذهبوا باتجاه (زفورنيك)، هؤلاء لم يكونوا يعلمون أن أبشع المذابح قد تمّت في حقولها الواسعة. وقرّر آخرون أن يمشوا مع الجموع، وقرّر عددٌ أيضاً أن يبقى في المعسكر، أغلب هؤلاء من كبار السن الذين لا يستطيعون الحركة أو من الفعّاقين، كانوا قد استسلموا لمصيرهم: "كلنا سنموت، فليزحفنا الله".

بدأ القائد (مُصطفى) بالانسحاب شمالاً، وانسحب معه آلاف الجنود، وكانوا يحملون البنادق والقنابل اليدوية والبلطات والشكاكين للدفاع عن أنفسهم، وحقبة واحدة على الظهر. طلبت من القائد أن يُسلمني بندقية، فردّ: لا توجد بندق كافية. "كيف سأدافع عن نفسي إذا هاجمني صربي؟!". "لو وجدت بندقية سأعطيها لك. ربّما أجد لك على الأقل بندقية صيد، ولكن هل تُجيد استخدام البنادق؟". "لا. لم أمسك واحدة في حياتي". "عجيب". "اعتقلت من أول يوم، لم أهرب إلا من بضعة أيام". "طيب". وأمر أحد جنوده أن يُعلّقني أنا و(جواد) بسرعةٍ كفيّةٍ تلقيمها واستخدامها.

بدأنا السير باتجاه الشمال بالفعل ضحى ذلك اليوم. كان القائد (مُصطفى) يحاول أن يُجمع الصفوف، ويجعل انسحابنا منظمًا، بحيث تكون هنا فِرَق إسناد من جنوده خلف المدنيين لتساعدهم إذا احتاجوا إلى شيء، لكنّ المدنيين لم يكونوا مُدربين على ذلك، وكان الإرهاق والخوف يفتك بنفوسهم، فانسحبنا بشكلٍ أقرب إلى الفوضويّة. كنّا سيولاً من البشر تتدفّق في مسارٍ مُبعثرة نحو

الشمال مع ميل إلى جهة الغرب قليلاً. كنّا نترك نهر(درينا) عن يميننا على مبعدة حيث لا يرى ولا يُسمع، والنهر يُمكن أن يكون أنيساً، فقدنا أنسَه في تلك اللحظات، ولم تكن تُحيط بنا سوى الأشجار والغابات.

لم نكذ نسير خمسة كيلو مترات حتى أرادَ الناس أن يتوقفوا. تجفّع عددٌ كبيرٌ منهم، كان أغلبهم من المُثقفين والأساتذة الجامعيين، رَمَى بهم البين والقدر إلى هنا، وبدؤوا يُفكّرون على النحو الآتي، قال أستاذٌ جامعي: "نحن لم نُطلق النار على أحد، ولسنا طرفاً في أي نزاع، لِمَ لا نُسلم أنفسنا للقوّات الضريّة أسفل هذه الجبال، بدلاً من أن نسير إلى المجهول". المساكين لم يكونوا يدرون أنهم سيُسلمون أنفسهم إلى المجهول. بدأتِ الفكرة تُقنّع عدداً كبيراً، من أولئك المدنيّين الذين رأوا أن الطريق طويلة وأن المسافة إلى (توزلا) سوف تقتلهم قبل أن يصلوا إليها. والمُثقفون يملكون لساناً ذريّاً، وهذا اللسان هو سبب المصائب. قال لهم القائد (مُصطفى) حين رأى أعدادَ المُقتنعين بهذه الفكرة تزداد: "هل أنتم مجانيّن؟ إنكم ستضعون رقابكم تحت رحمة سكاكينهم". ائهموه بأنّه لا يفهم، وأنّه قاس، وأنّه عانى من ويلات القتال، وأنّه لا يعرف شيئاً، وقال أحد هؤلاء الأساتذة: "ليس لك سلطة علينا". فردّ: "بالطبع. إذا أردتم أن تسلموا أنفسكم فافعلوا، ولكن لا تقولوا إنني لم أحذركم". قام آخر فقال: "أنا أعرف عدداً كبيراً من هؤلاء المُنتسبين إلى القوّات الضريّة، بعضهم أصدقاء وبعضهم جيران، وبعضهم كان يزورني في البيت، وكان ينام عندي أحياناً. إنهم لن يفعلوا لنا شيئاً. فقط نريد أن نبقى في (سربرنيتسا)، ليست لنا قدرة على السير في الغابات

مسافات طويلة، ومن يدري كم سيستغرق هذا المسير؟". وقام ثالث فقال: "حتى لو أرادوا محاكمتي، فلن يُدينوني، أنا لم أرتكب جنحة ولا جناية". حذرهم القائد من جديد: "لا أستطيع أن أناقشكم أكثر من هذا، ولا أن أنتظر أكثر، الوقت ليس في صالحني، كل دقيقة هنا - قريبًا من فرق الموت التي قتلت إخوتكم في مذبحة (سريرنيتسا) - ولم تنشف بَعْدُ دماؤهم - سثْقَرَبنا من الخطر. عَلَيَّ أن أمضي". وتركهم.

أكثر من أَلْفَي مدني ومن كانوا معنا في المسير، انفصلوا عنا، واقتنعوا بكلام المُثَقِّفين وأساتذة الجامعة، وسَلَمُوا أنفسهم للضرب، رفعوا الزايات البيض، وقالوا: "نحن جيرانكم، ولم نقتل نملة، ولم نُطلق رصاصة". قال الضابط الضربي حينَ رآهم: "صَيْدٌ سَهْلٌ، لن نتكَلَّف فرزهم إلى رجال ونساء ولا إلى صغار وكبار". ثم ذبحهم جميعًا.

لكن مَنْ يثق بِمَنْ؟ مَنْ يُقَدِّم للذئب قلبه؟ مَنْ يَأْمَنُ مَنْ؟ لماذا لا يتعلَّم المرء من الدرس الأول، ولا من الثاني، ولا من العاشر؟ لماذا يكون الأمل خائئًا وقَاتِلًا إلى هذا الحد؟ لماذا قلبُ المرء ضعيفٌ بحيث يُصدِّق ما يقول له الأمل الكاذب؟ لماذا يكون رجاؤه النجاة أكبرَ من حذره الموت، وإنَّ كان الأول يقود إلى الثاني؟!

كانتِ المسيرة شاقَّة من أولها، العارفون بالطريق القائد (مُصطفى) ومجموعة قليلة من القادة والضُّباط الآخرين، ومجموعة أقل من المدنيين المُتَبَقِّين معنا، كان علينا أن نمرَّ خلال مناطق الضرب في هذا السَّير الطويل، وكان الأمر يحتاجُ إلى ذهنٍ صافٍ وتركيزٍ عالٍ

من أجل أن تعرف كيف تتجنب الدخول إلى مناطقهم والالتفاف عليها من أجل متابعة المسير، أو إذا أردت الدخول في تلك المناطق، فعليك أن تكون مستعدًا لمعركة حقيقية. وإذا فقد المرء تركيزه في مهمة كهذه، فيعني بالضرورة أنه سيفقد حياته، وكان العارفون بالطريق طوق النجاة.

قررت القيادة أن تخترق مناطق الأعداء، عيّنت على رأس القافلة خمسمئة مقاتل، كانوا من أقوى المقاتلين، ومن الذين لديهم خبرة في إزالة الألغام؛ لكي يمهدوا لنا الطريق؛ ونصل إلى هدفنا (توزلا) بأقل الخسائر. كان لدينا مشكلة انعدام وسائل الاتصالات، ولم يكن هناك لاسلكي بين أيدينا؛ فاضطررنا أن يكون التواصل عن طريق مرشدين يوصلون الرسائل، مثلما يفعل شعاة البريد، وكان بعضهم يركب الخيول من أجل السرعة. وكل ساع يسلم الرسالة للثاني، والثاني للثالث، وهكذا.

توجهت القافلة خلال الغابة، مضت كتيبة كتيبة بهدوء وتتابع وعلى دفعات. ومضى الأمر حتى الآن على نحو جيد، وفي نهاية هذه الكتائب المتتابعة كانت هناك فرقة جبلية مهمتها حماية آخر القافلة، وكان عرض القافلة يصل في بعض الأحيان إلى مئة متر.

عين القائد (مصطفى) ثلاثة قادة على الفوج الأول من هذه الكتائب، وكان هو في الفوج الثاني، وكنت أنا و(جواد) معه، صرنا ملازمين له على الدوام، كانت القافلة المتكوّنة من ثلاثة أفواج من الكتائب المتتابعة متماسكة، وكان من تبقى معنا من المدنيين قد تعلموا شيئًا من الانضباط أو اضطروا إليه، وهكذا تتابَعنا في المسير

فوجًا فوجًا. وكان الهدف اختراق صفوف الضرب، والقتال بأقل كلفة، والخروج بأقل خسارة، وكثنا نمشي بهدوء دون صخب، مشينا قرابة ثلاثة أو أربعة كيلو مترات في الخطوط الضريبية.

كانَ رأس القافلة المُكوّن من خمسمئة مقاتل قد بدأ يُشاهد الأوراق أو العلامات الدالة على وجود الألغام. كان الضرب يصنعون هذه الخدعة، انطلت على الجيش البوسني في أوّل الحرب، أمّا الآن فصارت مكشوفة، كانت الأوراق التي يُدعى أن تحتها ألغامًا من أجل أن يتجنبها البوسنيون، هي أوراق وعلامات كاذبة، فليس تحتها أيّ لغم، وحين يتجنبها الجندي البوسني عابِرًا ممزًا آخر بعيدًا عنها، يدوس حينئذ على الألغام الحقيقية التي لم تكن تحمل علامات فتنفجر به. الآن نحن نكشف موضع الألغام بالطريقة العسكرية، دون الأخذ بهذه الأوراق ولا بسواها.

وكان الضرب يستخدمون هذه الأوراق أحيانًا من أجل أن نبتعد عنها، فنتوجه إلى ممز مُعين، فلا تتبعثر القافلة حين يتوجه كل فرد منها إلى هذا الممّز، وتحتشد سائرةً فيه، وهنا يسهل على الضرب ضربنا والقضاء علينا، وكثنا منتبهين إلى ذلك أيضًا.

بعد أن توغلنا حوالي خمسة كيلو مترات في أراضي الضرب ومناطق تجمعاتهم العسكرية، عرفوا بذلك، وكان من المُفترَض أن يهاجمونا، لكنهم كانوا يخشون أن نهجم على مدينة من مدينتهم التي فيها مدنيون. ولم يخطر في بالهم أننا لا نملك أسلحة، لم يكن معنا إلا أسلحة خفيفة، أو بقايا أسلحة، كانت معنا بنادق رشاشة قليلة، وبنادق صيد، وبعض المسدسات، وبعض القنابل، ومن كل عشرة مِنّا

كان هناك مسلح واحد. وأما هم فقد ظلت الأسلحة تُوزد إليهم من جيرانهم ومن أوروبا ومن العالم كله على مدار أعوام الحرب إلى اليوم!

لم يعد مكائنا خفيًا. كان لا بُد من أن نمر بأرضهم، وكان لا بُد أن يعرفوا. بدؤوا مهاجمتنا بالقذائف. كانت تقع علينا أشد غزارة من المطر، رأيت حينها سبعة أشخاص قُتلوا أمامي، كان طول القافلة اثني عشر كيلو مترًا، فعند إطلاقهم القذائف تشتتت، ولم نذر إن تمكن المقاتلون الخمسمئة الذين في المقدمة من الاختراق والنجاة، أو أنهم قُتلوا جميعًا. ولم يعد من سبيل للاتصال بهم، وكانوا قد أعدوا كمائن على طول الطريق، ومرزنا بعشرات منا قد قتلهم الضرب، وعلقوا جثثهم على الطريق بحيث تتدلى بوضوح أمام المازين من هناك، وهنا دب الدُعر في قسم كبير من القافلة.

وعلفنا أنه في الكمين الأول مات مئتا شخص من القافلة بقذائف الآليات الثقيلة، وحدث اضطراب عام، وضاع الفراسلون كلهم، ومضت مجموعة من ألفي شخص فغيروا مسار الطريق باتجاه الجنوب؛ حيث مدينة (شيبا) وكانت أيضًا من المدن منزوعة السلاح التي تحت حماية الأمم المتحدة. ولا شك عندي أنهم أخطؤوا التقدير، فكل الجنوب القريب من (سربرنيتسا) مثل الشمال القريب من (زفورنيك) لا يوجد فيه إلا الذبح. وخرج هؤلاء الألفان إلى موتهم بأرجلهم بعد أن خالفوا أوامر القائد (مُصطفى)، وبدأت سلطته تخف، وتهلّل أمر القافلة، ودُعر الناس، ولم ندر من أين تسقط علينا القذائف، وسادت الفوضى، ولم يعد هناك تنظيم البثّة.

الحقيقة قابلة للشك!!

حاول القائد (مُصطفى) أن يُرتب الفوضى التي حصلت. وجاءه أحد المراسلين بأخبارٍ طيبة، أعادت له الثقة في أن يتولى الدِّفة من جديد؛ رغم أن عددًا منها قُتلوا في الهجوم إلا أن عددًا كبيرًا من المجموعة الأولى المُكوّنة من خمسة آلاف شخص أكثرهم من مُقاتلي القوّات الخاصّة في الجيش البوسني، قد استطاعوا إيجاد ثغرة في الجيب الضربي، وتمكّنوا من العبور، وقد أسروا ضابطًا صربيًا كبيرًا وفاوضوا عليه، فكر (مُصطفى) أن هذا سيُسَهِّل عبورنا إلى حدّ ما، ما دامت في أيدينا ورقة رابحة. كان مع ذلك الضابط الضربي لاسلكي فأتصلنا بالضرب من خلاله، وقُلنا لهم: "إذا لم تتركونا سنقتله"؛ فترك الضرب المجموعة الأولى يمزّون، لكنهم ركّزوا على المجموعات الثّانية التي بقيت من القافلة؛ وإذ ذاك سَقَموا ينابيع المياه الموجودة في المنطقة، والتي كُنّا نشرب منها. النّاس الذين شربوا من هذه المياه بدأ يصيبهم فجأة نوع من الهلوسة، صاروا يصرخون، ويقولون: "بيتي هنا". "سأذهب إلى هناك". وبعضهم تهيأ له أنّه يرى أمّه، فصارَ يحتضنُ أيّ واحدٍ منّا أو حتّى يحتضن جذع شجرة ويبكي، وهو يقول: "أنتِ لم تموتي إذا". لقد جئوا. لم يحتمل الذين شربوا من المياه المُسَمِّمة طويلاً، شنقوا أنفسهم على الأشجار، وبعضهم أطلق النار على نفسه.

انتبهت إلى (جواد)، سألتُه: "هل شربتَ من هذه الينابيع؟". لم يردّ. كان ساهِمًا. أدركت على الفور أنّه فَعَلَهَا، هَزَزْتُهُ من كتفيه،

وقطعت غُشْبَةً عِطْرِيَّةً مِنَ الْأَرْضِ، وَأَلْقَفْتُهَا فَاهُ، وَقُلْتُ لَهُ: "امضِغْ".
وَرَاخَ يَمْضِغُ وَهُوَ ذَاهِلٌ. حَرَضْتُ عَلَى أَنْ يَكُونَ بِجَانِبِي، وَأَلَّا يَغِيبَ
عَنْ نَاضِرِي. أَعَدْنَا تَرْتِيبَ بَعْضِ الْفَوْضَى الَّتِي حَدَّثَتْ جَزَاءَ الْكَمَائِنِ،
وَارْتَحَلْنَا مُجَدِّدًا.

عَبَزْنَا مَا يَقْرُبُ مِنْ سِتَّةِ كِيلُو مِتْرَاتٍ أُخْرَى، لَمْ نَكْذُ نَنْسَى الْكَمِينَ
الْأَوَّلَ حَتَّى وَقَعْنَا فِي كَمِينٍ جَدِيدٍ. أَهَذَا الَّذِي قَالُوا عَنْهُ إِنَّهُ الْمَمَرُ
الْأَمْنُ؟! أَعَدْنَا الْإِنْتِشَارَ، حَاوَلْنَا أَلَّا نَكُونَ فِي مَجْمُوعَاتٍ مُتَلَاصِقَةٍ
حَتَّى لَا نَمُوتَ بِالْمَجَّانِ، كَانَتْ التَّيْرَانُ شَدِيدَةً، وَبَقُوا يَقْصِفُونَ الْمَوْقِعَ
الَّذِي نَحْنُ فِيهِ سَاعَةً مُتَوَاصِلَةً، أَحْدَثَ ذَلِكَ حُفْرًا كَبِيرَةً، وَتَطَايَرَتِ
الضُّخُورُ وَالْحِجَارَةُ وَالْأُتْرَبَةُ وَحَتَّى الْأَشْجَارُ، وَاحْتَرَقَ عَدَدٌ مِنْهَا،
الْقَائِدُ (مُصْطَفَى) جَرَّخَ فِي سَاقِهِ، عَرَّجَ إِلَى جَذَعِ إِحْدَى الْأَشْجَارِ
الْقَرِيبَةِ، إِذْ ذَاكَ بَدَأَتِ النَّاسُ تَتَفَرَّقُ وَتَهْرَبُ مِنَ الْجَوَانِبِ كُلِّهَا. سَارَعَ
أَحَدُ مُسَاعِدِي الْقَائِدِ، غَسَلَ الْجَرْحَ وَطَهَّرَهُ، ثُمَّ خَلَعَ قَمِيصَهُ وَشَدَّ
عَلَيْهِ، وَسَقَاهُ جُرْعَةً مِنَ الْمَاءِ. تَوَلَّى جُنُودُ الْقَائِدِ (مُصْطَفَى) الرِّدَّ
عَلَى مَصَادِرِ التَّيْرَانِ، وَتَوَقَّفَ الْقَصْفُ، أَخْلَى الضَّرْبُ الْمُنَاطِقَةَ، حَمَلْنَا
الشُّهَدَاءَ، بَحَثْنَا عَنْ مَكَانٍ نَدْفِنُهُمْ فِيهِ، بَعْضُ ذَوِيهِمْ وَأَصْدِقَائِهِمْ
رَفَضُوا أَنْ يُدْفَنُوا فِي هَذَا الْمَكَانِ الْمَجْهُولِ، قَالَ لَهُمُ الْقَائِدُ: "لَا يُمَكِّنُ
أَنْ نَحْمِلَهُمْ لِمَسَافَاتٍ طَوِيلَةٍ. لَوْ أَنَّ أَخِي اسْتَشْهَدَ فِي هَذَا الْمَكَانِ
لِدَفْنَتْهُ فِيهِ". اقْتَنَعَ بَعْضُهُمْ وَلَمْ يَقْتَنِعْ آخَرُونَ، وَغَدْنَا نُتَابِعُ السَّيْرَ.

كُنَّا فِي الْإِسْتِرَاحَاتِ الْقَلِيلَةِ، نَشْرَبُ جُرْعَةً وَاحِدَةً أَوْ اثْنَتَيْنِ مِنَ
الْمَاءِ، فَالْمَاءُ الَّذِي مَعَنَا لَا يَكْفِي أَكْثَرَ مِنْ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ إِذَا اقْتَصَدْنَا فِيهِ،
وَلَمْ نَكُنْ نَأْكُلُ إِلَّا طَعَامًا مُعَلَّبًا، كُنَّا نَفْتَحُ عُلْبَةَ الشَّرْدِينِ، وَيَتَقَاسَمُهَا
أَرْبَعَةٌ مَعَ قِطْعَةٍ خُبْزٍ لِكُلِّ وَاحِدٍ.

استخدم الضرب طريقةً جديدةً لخداعنا، لم ننتبه إليها في البداية. كان عددٌ منهم يخلع لباسه العسكري ويلبس لباسًا مدنيًا، ويدخل في قافلتنا، ولأن أعدادنا كانت بالآلاف وقتها فلم نكن نعرف أنهم صربيون، ولم يكن القادة يعرفون الناس كلهم. كانت مهمة هؤلاء إرسال مواقعنا للضرب من أجل قصفنا، وهذا يُفسر الكمائن التي حدثت لنا. كان صعبًا جدًا معرفة هؤلاء الجواسيس، ولولا بعض المواقع التي كشفتهم لما اهتدينا إليهم. بعضهم كان يُعلن عن نفسه أنه جاء من أجل حمايتنا، وكانت لديه جرأةٌ غير مُفسرة في دخوله بيننا، كان يقول: "أنا ضابط صربي أطلب منكم أن تُسلموا أنفسكم لقواتنا في الأسفل، لن نُؤذيكم، أعدكم بذلك". كان يتوجه بهذا الخطاب إلى المدنيين، كان يعرف أن الحرب قد أثقلتنا جميعًا، وأنهم يمكن أن يُصدقوا، الكارثة أنهم كانوا يُصدقون، كهيرون وافقوا وسلموا أنفسهم. وساروا معه إلى حتفهم المحتوم. كانت الفوضى تُسيطر على الموقف، ولم نعد نستطيع تمييز الصربي من غير الصربي!!

كانت بندقيتي التي حصلت عليها قد نفذ منها الرصاص، لقد كنت أطلقه بشكلٍ عشوائي أثناء تبادل النيران في الكمائن، توجهت إلى ثلاثة مسلحين، قلت لأحدهم: "لم يبقَ لديّ إلا رصاصتان. هل يمكن أن تُعطيني مشطًا من الرصاص؟!". نُظر إليّ باحتقار، وشعرْتُ أنه يود أن يرفع بندقيته ويقوم بقتلي. سَحَبَنِي (جواد) من ذراعي بعيدًا، وهمس في أذني: "لا تطلب منهم شيئًا، اعتقد أنهم مُقاتلون صربيون مُتَنَكِّرون". سأَلْتُهُ: "هل أنت مجنون؟". ردّ: "أنا مجنون بالفعل ولكنني أعقل منك".

بتنا ليلتنا القالة في العراء. لا زالت الحرب قائمة. إن أخبار سقوط (سبرنيتسا) ومذابحها لم توقف الحرب، ولم تكن كافية لتدخل قوات (الثاتو)، بل على العكس من ذلك، جعلت عقول قادة الضرب تنتشي ويصيبها الخمار، فيزداد شعارها. في الليل كنا نحاول أن نختبئ من القذائف. كان بعضنا يعزي الآخر: "ما زلنا أحياء. قطعنا مسافة جيدة باتجاه (توزلا)، وهناك سننجو". كنا نقول مثل هذه العبارات، وقد مات منا الآلاف، وانسحبت آلاف أخرى، ونقص عدد القافلة السائرة إلى أقل من النصف!

في يومنا الرابع اقترب أحد المسلحين من القائد (مُصطفى)، وخاطبه غاضبًا: "أنتم ألا يكفيكم قتل؟!". ثم هوى بحربة البندقية على ساقه الجريحة، فسقط القائد مُغقى عليه، سارغث بمحاولة إيقاظه، ورش قليل من الماء على وجهه، وصرخت بالجنود الآخرين: "إنه جاسوس"، وكان المسلح أثناء ذلك قد اختفى بين الجموع. بقي القائد مُغقى عليه حوالي ثلاث ساعات، قبل أن يستيقظ، حين صحا سألني عن المسلح الذي وجه إليه الضربة، فقلت له: "إنه هرب"، واستوى القائد جالسًا وتلفت حوله بريبة، وهمس في أذني: "إلى هذا الحد نحن مخترقون؟!" وكانت كلمته كفيلة بأن تجعل الرعب يدب في أوصال كل من في القافلة، ولحسن الحظ لم يسمفها سواي أنا و(جواد)، ولو دب الرعب في أوصالنا أنا وهو فسيبقى الأمر أهون من أن يُصيب الرعب الجميع.

تابغنا السير، صار كل واحد مُنشغلًا بنفسه، كانت عيناى تجوسان خلال الجموع التي تسير حين رأيت مشهدًا آخر من الرعب، رأيت

أحد المُسلّحين المدنيّين قد ضربَ آخرَ على رأسه فخرَ مَغشياً عليه، ثمّ قام بجزّه من شَعره الطويل، ووضعَ رأسه على حَجَرٍ وأخرجَ سِكِّينًا وهَمَّ بِدَبْحِهِ، عندها صرختُ فيه: "دَعِه... اتركه أيّها الصّربي"، والتفتُ إلَيّ بعيني وحشٍ تستعر فيه شهوة الدّبح، كنتُ موقّناً أنّه صربي، فلا يقوم بهذه الطّريقة في الدّبح سِواههم، أسقطَ السّكين من يده، وتناول البندقيةَ وصوّبَ ثُجَاهِي، بدوري صوّبتُ ثُجَاهَهُ، وانطلقتِ الرّصاصتان، ولَمّا سمعَ القريبون في القافلة صوتَ الرّصاص، راحوا يُطْلِقون الرّصاص لا إرادياً، وقتلَ بعضنا بعضاً. وصرخَ القائد: "كفى. كفى. ماذا حصلَ لكم؟". أسفرتِ الحادثة عن إصابتي بجرحٍ خفيف قريباً من كتفي، مَسَتْ الرّصاصةُ اللحمَ القليل هناك وخرجتُ، وأمّا الصّربي فقد هرب، ولَمّا استيقظَ ذو الشّعر الطّويل على صوتِ الرّصاص كان مذهولاً ومذعوراً ينظرُ حوله ولا يدري ما الذي حدث.

حينَ استعدنا أنفاسنا ونفوسنا بعدَ أن حدثَ ما حدث، كان الذّعر قد سيطرَ على كثيرين، ولم يعد أحدٌ يثقُ بالآخر، وصارتُ تأتينا أفكارٌ غريبةٌ، وهواجش مُريبة، وفكرٌ كثيرٌ بالانتحار، بل إنّ بعضهم شقَّ حلَقَه بنفسِه فعلاً. وآخرون صعدوا إلى أعالي الأشجار ورفضوا أن يتابعوا السّير.

لم يقفِ الأمر عند هذا الحدّ. يبدو أنّ في الضّرب فرّقاً انتحاريّة تتخفّى بيننا، لم نكد نبرأ ممّا حدث ونسير بضع مئات من الأمتار حتّى بدأ إطلاق النّار مرّة ثانية، ويبدو أنّ الرّصاص كان من داخل القافلة لا من خارجها، عرفتُ ذلك من الحركات التي رأيثها أمامي، كانَ هناك شخصٌ مُسلّح لم أعُد أشك في أنّه صربي يركضُ خلف

مُسَلَّح آخر، وهو يُطلق الرصاص باتجاهه، حينها تدخل القائد (مصطفى)، أطلق الرصاص باتجاه الأقرب إليه الذي يلاحق الآخر في ظهره، فسقط وتدحرج على الأرض، وارتطم رأسه بصخرة، وصار يصيح: "سافو... سافو..." ثم خمدت أنفاسه، وكان واضحًا أنه كان يُنادي على صربي آخر مُتَنَكِّر بيننا، ولم يردَّ عليه (سافو) هذا الذي ناداه، وعَقَّد هذا الأمر، فإنَّ كلَّ واحدٍ منا صار من المُحتمل أن يكون هو (سافو) بالنسبة للآخر، وسرى الشك في القافلة كما يسري الماء المُنداح في المُنحدر. وراح الناس يختبئ بعضهم من بعض في الحُفر أو خلف الحشائش الطويلة، وانفرط عَقْد القافلة، وبدأ أن كلَّ واحدٍ راح يسير على هواه، وفي الاتجاه الذي يعتقد أن فيه النجاة!

قتلني الشك - بطبيعة الحال - كما قتل الآخرين، وصار الحذر واجبًا، في الليل بعد تلك الحادثة، اختبأت أنا و (جواد) في حفرة مُغطاة بالأعشاب، وطوال الليل كُنَّا نسمع أصوات أناس يُذَبِّحون بالسكاكين، ولا أدري إن كان ذلك حقيقة، أم أن التعب والإرهاق والجوع والشك رَسَم ذلك في خيالنا؟!

غفوْتُ وإلى جانبي (جواد)، أي قلبٍ يحتمل ما رأى، أي عقلٍ يُمكن أن يقتنع أن ما جرى كان حقيقة. كانت الحقيقة نفسها قابلةً للظعن والشك. في النوم سمعتُ الصربي يصيح وهو يشقُّ حلقه بنفسه: "سافو... سافو... سامخني... أرجوك سامخني". حينَ استيقظتُ مذعورًا كان الليل لم يسرِ بعد، والفجر ما زال بعيدًا، نظرتُ حولي أستطلعُ أمر القافلة، لم أرَ أحدًا، أين ذهبَت يا ثرى؟ إنهم ليسوا عشرةً أو عشرين، إنهم آلاف، أين يُمكن أن يكونوا قد اختفوا، ثم كيف راودني هذا الكابوس على لسان الصربي، أتكوّن أرواحهم قد حلَّت

فينا؟ أنكون قد تبادلنا الأدوار؟ أفكون قد جئنت فعلاً؟ أنا الذي أتباهى بأنني حافظت على شيء من عقلي رغم المد الهائل الفتابع من الأهوال التي عاينتها بنفسي؟! أجلت طرفي مرة أخرى في المحيط، كان هادئاً، أيكون الناس قد ناموا على الأشجار أو اختبؤوا مثلنا في الحفر وتحت الحشائش؟! أرسلت نظرة إلى (جواد) فرأيته مُستسلماً تماماً للنوم. حسدته. أرذت أن أهرب من الأسئلة الكثيرة التي تطرق دماغي، لففت وجهي بذراعي ورجوت طائر النوم أن يُخبئني تحت جناحيه.

شجرة كرز وطائرة هليكوبتر

تجمّعنا حوالي عشرة، أنا و(جواد) والقائد (مُصطفى)، وسبعة آخرون، كان البقية قد اختفوا، لا ندري كيف حدث ذلك، لا بُدّ أنهم ظلّوا يهربون مذعورين باحثين عن نجاة يرشّفها لهم الخيال والظن. قال شخص من السبعة: "سأُتجه أنا وزملائي جنوبًا إلى (شيبا)، خبِطت الأرض بقدّمي، وصرخت وأنا أكاذ أنفجر من الغيظ: "إلى (شيبا). هل تريد أن تُقتل أيّها المجنون؟!". وجه بُندقيته نحوي، فرجف قلبي، وداهقني على الفور الشك بأنّه صرّبي. رفعت يديّ مُستسلمًا: "لم أقصد الإهانة. أنا أعتذر". فيما تابع هو: "أنا لم أجبرك أن تأتي معي، ولا أريد رأيك من الأساس".

راح السبعة يتناقشون: "هل نُسلم أنفسنا للضرب؟". لم يكن هذا نقاشًا مُمكنًا بالنسبة لي. أنا لن أُسلم نفسي إلّا لله. تشوّش ذهني؛ إنّ هؤلاء السبعة إمّا مجانين أو جواسيس، لكنّ المُصيبة أنّ القائد (مُصطفى) دخل معهم في النقاش، وسألهم بلهجة لم أستطع أن أصدّق أنّها حقيقية: "ما هي فُرص أن يعاملونا بكرامة إذا سلّمنا أنفسنا" همست لنفسي: "لا بُدّ أنّ مصطفى شرب من النّهر المُسّم، لا بُدّ أنّه فقد عقله". أجابه الذي سأله: "لديّ ضمانات، يُمكن بالفعل أن ننجو، وأنّ نُحاكم محاكمة عادلة". أرذث أن أصرخ، أن أصفع (مُصطفى) على وجهه، أن أقول له: "اصح... أنت لا يُمكن أن تكون مصطفى الذي أعرفه"، لكنّه كان قد بدأ يُخطّط معهم لتسليم نفسه، حدّث نفسي: "إذا كان قد جنّ بالفعل، فلن يكون النقاش معه

مُفيدًا"، وتخيّلُ النهايةَ المأساويّةَ لقائدٍ كبيرٍ مثله، فَتَقَبَّني الحُزنُ ثَقْبًا.

قال أحدُ السَّبعة: "سنمضي غداً قبلَ شروقِ الشَّمسِ باتجاهِ (شيبا) في الجنوب"، وأَمَنَ (مُصطفى) على كلامه: "وأنا معكم". والتفتَ صوبي وصوبَ (جواد): "وأنتما؟". أخذتُ (مُصطفى) جانبًا، همستُ في أذنه: "ماذا دَهاكَ؟". "ماذا تعني؟". "كيفَ تُسَلِّمُ نَفْسَكَ، وأنتَ الَّذي كنتَ ترفُغُ من معنويّاتِ اليائسين وتبثُ فيهم العزيمة، وتحذِّرهم من خطأ قاتِلٍ مثل هذا". حينها غضبَ، وصرخ: "اخرس، أنتَ لا تفهمُ شيئًا. مَنْ أنتَ حتّى تقول لي هذا الكلام؟! أنتَ لم تُقاتِلَ يومًا واحدًا في معركةٍ من مئات المعارك التي قاتلتَ فيها، لا يحقُّ لك أن تنصحني كأنتي طفلٌ صغير". حينها جاء أحدُ هؤلاء السَّبعة بعد أن سمع ضراخه، وسأله: "ما الَّذي يجري؟". ردَّ (مُصطفى): "لا شيء". وهذا الأمر، ولما ذهبَ، اقتربتُ ثانيةً من (مُصطفى)، ونظرتُ في عينيهِ طويلاً: "سيدي. أنا أعتذر إن كنتُ تسببتُ بغضبك. ولكن ألا يحقُّ لي أن أسألك سؤالاً؟". تأفَّفَ، وهتفَ: "تفضَّل". "هل أنتَ تُحطِّطُ لأمرٍ ما بقبولك التوجُّه إلى الجنوب مع هؤلاء الغُرباء؟!". هَزَّ رأسه، وهمسَ وهو يتلفَّتُ حوله: "نعم". لم أدر إذا كانت نَعْمُهُ هذه قد طمأنَّني قليلاً، أو أنَّها زرعَتْ حقلاً من الشوك في حلقي. قلتُ له: "إذا كانتَ لديكُ خُطة، وأنتَ واثقٌ ممَّا تفعل، فأنا... أنا و(جواد) قد نذهبُ معكم". وهَزَّ رأسه، ولمعث عيناها ولم يقل شيئًا. وتدخلَ أحدُ السَّبعة من جديدٍ: "هيه... أنتَ، وهذا الأحمق الَّذي يبدو أنَّه والِدُكَ" وأشارَ إلى (جواد) بازدراء، وتابعَ: "لا يُمكنكما الذهابُ معنا". وسألته: "لماذا؟". "لأنَّه لن يذهبَ في مجموعتي سوى الَّذين يملكون بنادق".

كنت قد فقدت بندقيتي في الكمين الأخير. وأرسلت نظرة إلى (مُصطفى) لأعرف رأيه فيما قال، فلم يعترض. وهكذا وجدنا أنفسنا أنا و(جواد) خارج المجموعة.

في الموعد المضروب رأيت الثمانية يتوجهون فعلاً نحو الجنوب، وتركونا أنا و(جواد) وحدنا، وأرادَ (جواد) أن يلتحق بهم، وأمسكته من ذراعه، وشدّث عليها: "دعهم يذهبوا. نحن لن نشارك في ذلك". وشعرت براحةٍ لقراري هذا.

مع أولى أجنحة الضوء، مضيت مع (جواد) نحو الشمال الغربي حيث (توزلا) كما هي الخطة التي كانت في البداية. صرنا نجد أناساً متفرّقين من قافلتنا في الطريق، كان عقدها قد انفرط تماماً. قطعنا مسافة كبيرة، وصارَ (مُصطفى) من الماضي، وأغلب الظن أنه قُتل في سيره، أو سلّم نفسه للضرب وذبحوه، لم أكن أظن أنه نجا أبداً.

أكلت الطريق من أقدامنا، وقصّمت عافيتنا، كانت وعرة، مليئة بالحفر، والألغام، والمنحدرات الشاقة، ولم نأكل طوال اليوم، ولم نجد في مسيرنا شيئاً يُعيننا على أن تتقوى به أجسادنا، وعند الغروب، كان وجه (جواد) قد اصفرّ من العطش والجوع، وأنفاسه تتلاهدت، وعيناه تنوسان، وقال فيما بين إغماءة وصحو: "دعنا نسلّم أنفسنا ونرتخ". كنت أريد أن أضربه: "لا ينقضي الآن إلا أن أسمع هذا الكلام!!". "نحن هالكون". "إذا كنت تريد أن نسلّم نفسك، فإذهب أنت والشيطان إليهم". ولم تُغيّر عبارتي كثيراً من لهجته الزاجية، وقال: "أنا لا أطلب منك أن نسلّم أنفسنا للجيش الضربي؛ لأنني رأيتهم يذبحون الناس، دعنا نسلّم أنفسنا لقرية صربية، لعلنا نصبح

عبيدًا في تلك القرية، يُمكن حينها أن نعمل ونعيش". ضربته بباطن كفي ضَرْبَاتٍ خفيفةً على وجهه حتّى لا يُغْمَى عليه، وهتَفْتُ: "سنبقى سائرين إلى (توزلا)، لن نموتَ من الجوع، الَّذي خَلَقْنَا سيبعثُ لنا ما نسُدُّ به رَمَقَنَا. الآن نَم. سنرتاح قليلاً ونواصلُ سيرنا".

لا أدري كم نفنا في ذلك الموضع، حينَ صحوْنَا كانت لدينا قدرةٌ على السير، قلْتُ له: "هَيَّا بنا يا صديقي". كان اللَّيل شديدَ السَّواد، كُنَّا نسير مُعْتَمِدِينَ على الاتِّجَاه دون أنْ ندري كم قطعنا وكم بقي، لاحث لنا أضواءٌ من بعيد. لا ندري إنْ كانت قريةٌ بوسنيّة أم صربيّة، قدزْتُ أنّها صربيّة على الأرجح، ولتكنْ ما تكون، قلْتُ (لجواد): "علينا أنْ ندخلها مهما تَكُنْ، لنبحث عن طعام. عن شيءٍ يُؤكل".

مضينا في الطَّرِيق دون تخفٍّ، ولما اقتربنا من القرية؛ رأينا مجرى مياه تصل إلى القرية، وسمعنا صوت عِجل، وحين سمعناه خِفْنَا واختبأنا، بقينا في مخبئنا حوالي ساعة، ثُمَّ تراجَعْنَا إلى الوراء. رأينا شجرة كرز كبيرة جدًا وعليها عصافير تنقرها ويسقط من ثَقَرها الكرز على رؤوسنا، فرخْتُ وهمسْتُ: "كم يُشبه كرزٌ حديقة بيتنا". وصرنا نأكل ممّا يسقط من نقر العصافير، وبدأ المطر في تلك اللَّحظة ينهم، وقادنا الشَّبع من أكل الكرز إلى النَّوم، وهذه أوَّل مرّة نمنا فيها نومًا طويلاً، فنحنُ لم ننم بشكلٍ كافٍ منذ سِتَّة أيام.

كانت كرامةٌ سماويّة، وكُنَّا نرفعُ أبصارنا إلى السَّماء مبتهجين، كأننا مُعذِّبُو الأرض النَّاظِرون إلى رَحْمَاتِ السَّماء، ونرى المطر وهو يتساقط علينا، ونمنا على الأرض. عندما استيقظنا لم نعرفْ هل نمنا أربعًا وعشرين ساعة، أم نمنا دقيقة واحدة! كُنَّا نسيخُ في ماء

السَّماء، وَقَرَرْنَا أَلَا نَسَلَّمَ نَفْسَيْنَا مَهْمَا كَلَّفَ الْأَمْرَ. وَهَا هُوَ الْإِنْسَانُ يُمكن أَنْ يَجِدَ شَيْئًا يَأْكُلُهُ، وَيُمْكِنُ أَنْ يَرَى إِشَارَةً سَمَاوِيَّةً تُرْشِدُهُ.

وَقَبْلَ أَنْ نَغَادِرَ الْمَكَانَ، شَرَبْنَا مَاءً عَذْبًا صَافِيًا مِنْ نَبْعِ الْقَرْيَةِ، ذَهَبْتُ إِلَى التَّبَعِ حَافِيًا وَخَلَعْتُ جُورَبِي، وَغَسَلْتُهِمَا بِالْمَاءِ، وَهَذِهِ أَوَّلُ مَرَّةٍ أَخْلَعُ فِيهَا حِذَائِي مِنْذُ بَدَايَةِ الْمَسِيرِ قَبْلَ أَكْثَرِ مِنْ أُسْبُوعٍ، وَقَدْ كَانَ جُورَبَايَ مُتَسَخِّينَ جَدًّا، فَتَرَكْتُهُمَا قَرِيبِي؛ لِيَجِفَّا.

كُنْتُ مِنْ قَبْلُ قَدْ وَجَدْتُ قَرِيبَةً مَاءٍ فِي مَتَاعِ جَنْدِي مَقْتُولٍ، مَلَأْتُهَا بِالْمَاءِ وَأَكْمَلْنَا مَسِيرَنَا. شَعَزْنَا أَنَّنَا شَحِينَا بِقُوَّةٍ لَا مِثِيلَ لَهَا. تَابَعْنَا سِيرَنَا فِي الْغَابَةِ، وَلَا أَعْرِفُ إِلَى أَيْنَ مَضِينَا، كُنَّا نَمْشِي وَحَسْبُ. صَعَدْنَا نَحْوَ مُرْتَفَعٍ، أَثْنَاءَ الصُّعُودِ وَقَعْتُ وَضُرِبَ رَأْسِي بِشَجَرَةٍ فَبَدَأْتُ أَفْقِدُ الْوَعْيَ. سَقَانِي (جَوَادٌ) مَاءً، وَظَلَّ يَسْقِينِي وَيَمْسُخُ بِهِ وَجْهِي حَتَّى اسْتَعَذْتُ وَعَيْيَ، يَوْمَهَا نَمْنَا فِي هَذِهِ الْغَابَةِ.

فِي الْيَوْمِ الثَّالِيِ انْتِظَرْنَا لِنَسْمَعَ صَوْتَ النَّاسِ، لِنَعْرِفَ إِنْ كَانَ فِي الْمُنْطَقَةِ جَيْشٌ صَرَبِيٌّ، وَهَلْ نَحْنُ آمِنُونَ؟! لَمْ تَكُنْ لَدَيْنَا خَرِيطَةٌ، وَلَا مَعْرِفَةٌ مُسَبِّقَةٌ بِالْمَكَانِ، لَمْ نَعْرِفْ إِلَى أَيْنَ نَذْهَبُ وَلَا نَحْنُ فِي أَيِّ أَتْجَاهٍ بِالضُّبُطِ. رَاقَبْنَا الشَّمْسَ مِنْ أَيْنَ تَشْرُقُ وَمَضِينَا بِاتِّجَاهِ الْغَرْبِ، فَفِي الْغَرْبِ مَنَاطِقُنَا وَهَنَّاكَ (تُوزَلَا)، أَمَّا فِي الشَّرْقِ فَمَنَاطِقُ الصَّرَبِ. رَأَيْنَا لِأَوَّلِ مَرَّةٍ الْفِظَرَ عَلَى الْأَرْضِ، قَطَفْنَا مِنْهُ كُلَّ مَا وَجَدْنَا أَمَامَنَا، وَصَرْنَا نَأْكُلُهُ دُونَ أَنْ نَعْرِفَ أَهْوَاؤَ سَامٍّ أَمْ غَيْرَ سَامٍّ؟ وَصَلْنَا إِلَى مَنْطَقَةٍ يَبْدُو أَنَّهُ دَارٌ فِيهَا قِتَالٌ مِنْ نَوْعٍ مَا، رَأَيْنَا عَشْرَ جُثَثٍ مُبَعَثَرَةٍ عَلَى الْأَرْضِ. كَانَتْ مُنْتَفِخَةً كَأَنَّمَا أُطْلِقَتْ عَلَيْهَا أَسْلِحَةٌ كِيمَاوِيَّةٌ. قَلْبْتُ إِحْدَى هَذِهِ الْجُثَثِ عَلَى ظَهَرِهَا أَمْلًا فِي أَنْ أَجِدَ مَعَهَا طَعَامًا، كَانَ

لون الزجل أسود مُتفحِّقًا، أحسست أنه رُشَّت عليه مواد كيمياويّة سامة. همست: "إنهم لم يكفهم أن يُسَقِّموا الماء حتّى سَقِّموا الأجساد المقتولة". كان واضحًا أن العصافير أكلت من هذه الجُثث، وكان يبدو أنهم ماتوا منذ خمسة أيّام أو أكثر. تابعت أنا و(جواد) تقليب الجُثث واحدةً تلو الأخرى، ولم نجد طعامًا ولا أسلحة ولا أي شيء، كانت رائحتهم الكريهة التي لا تُحتمل تزكّم أنوفنا، تركناها ومضينا.

دخلنا إلى غابة صنوبر، ووصلنا إلى أوّل شارع إسفلتي نراه منذ بداية مسيرنا، لبَدْنَا على بعد خمسين مترًا منه، وبقينا في موضعنا ننظر ونراقب، مرّ النهار كلّهُ وغيّونا مُعلَقةً بالشارع، لم نَر شيئًا، ولم نشأ أن نجتازه وقد هبط الليل، فنفضنا في موضعنا.

في تمام الساعة التاسعة صباحًا مرّت دبّابة، نزل منها بعض العساكر، وقفوا على بعد بضعة أمتار من الدبّابة، ونادوا: "غم، يوشف، رأيناكم، رأيناكم، سلّموا أنفسكم، هيا هيا". كانوا يفعلون ذلك؛ كي ينظفوا المنطقة، ولم يكونوا يروننا حقيقةً. وصلنا الساعة الثالثة ليلاً إلى منطقة أدغال لا أحد يُمكن أن يصل إليها لشدة وعورتها وخوفًا من الحيوانات المُفترسة، كنّا ساكّنين لا نتحرّك. وصامتين لا نُفوه بكلمة، وكُنّا نتبادل أنا و(جواد) نظراتٍ لا معنى لها أحيانًا، وتحمل المعاني كلّها أحيانًا أخرى. تذمر (جواد): "اللّعة، هل هذه منطقة مُستنقعات، أم أنّها منطقة جُثث متفسخة حتّى يكون فيها هذا الثاموس؟!". كان هناك ناموس صغير يلسع كلّ بوصة في جسدينا، ويمض دَمنا.

تابَعْنَا سِيرنا، حتّى تراءى لنا الإسفلت مرّةً أخرى. بقينا في مكاننا

نراقب على عادتنا، مرّت دبابة كسلى، ثمّ بعد عشر دقائق دبابة أخرى، ثمّ بعد نصف ساعة جرافة، ثمّ شاحنة، ثمّ مرّت حافلة مكتظة بالأسرى، كانوا يُخرجون رؤوسهم من الشبابيك من أجل أن يتنفسوا. كان هذا في الثاني والعشرين من تقوز. قال (جواد)، لا بُدّ أنهم يذهبون بهم إلى (نوفا) لذبّحهم. تساءلت: "ألم تنته مجازر (سربرنيتسا)؟". "ربّما انتهت، لكنّ هذه مذابح ما بعد (سربرنيتسا). إنهم لن يتوقفوا عن الذّبح". ثمّ سأل وهو ينفث زفيرًا حارًا من رئتيه: "متى سينتهي هذا الكابوس؟!".

مرّت فوقنا بعدها طائرة هليكوبتر، كانت قريبةً كثيرًا منّا، حامت فوق رؤوسنا، وشكّنا لوهلة أنّهم رأونا، فتراجعنا زحفًا على بطوننا، واختبأنا بين الحشائش الطويلة.

هل تريدون سماع الأخبار؟

ظلت الهليكوبتر تحلق على مسافة قريبة فوق رؤوسنا، كانت مراوحها التي تزمجر تصنع دوامة من الهواء فتعصف بالحشائش التي نختبئ تحتها، خفنا أن يرونا، ولكن طول الحشائش وتكورنا داخلها ربما لم يمكنهم من أن يعرفوا أننا موجودون، لا أريد أن أموت بقذيفة طائرة مقاتلة تبعثر جسدي إلى أشلاء لا تجمع، إذا كان لا بد من الموت فلتكن مثلاً برصاصة واحدة، رصاصة قاتلة ولكنها تبقى على جسدي، وإذا كان أبي لا يزال حياً أو أختي فإنه يمكنهما معرفة جثتي، لأحظى حينها بقبر لائق. هل من العدل أن أموت كالكلب هنا في هذا المكان المجهول بين هذه الحشائش؟ ما رأيك يا (جواد)؟".

كان (جواد) متكوراً على نفسه كقنفذ، لم يقل شيئاً. في الأيام الأخيرة زاد صفته، هذا أمر يقلقني، أنا لا أريد أن أحمل عبئاً إضافياً إلى عشرات الأعباء الأخرى!

دارت الطائرة بزاوية حادة، كان بطئها يرى من هنا بوضوح، مالت حتى خلنا أن طرف مراوحها سيقض أعناقنا، ثم مالت إلى الجهة المعاكسة، وراحت تبتعد، لقد غادرت بعد أن حلقت فوقنا قرابة ربع ساعة، اتضح لنا أنها لم ترنا، أو أنها استخسرت قذيفة في مجهولين يعبران طريقاً لا يعرفانها!

لم نغادر موقعنا حتى بعد رحيل الطائرة. كان الشارع مصدر خوف أكثر من أن يكون مصدر أمان. للشوارع طبائع. بقينا نراقب الطريق دون أن نتخذ قراراً، مزّت سيارات وشاحنات كثيرة، وكمنّا على

مقربة من هناك حتى خلا تمامًا من أي حافلة عابرة، أو حتى من صوتها.

قررنا قُبيل مُنتصف الليل أن نتحرك، وقفنا على أقدامنا، ومشينا باتجاه الشارع، عندما هَمَفنا باجتيازه انتبه (جواد) لوجود سلك ألغام على طول الطريق؛ كان الجيش الضربي يضع سلكًا على جانب الطريق أشبه بمصيدة، في حالة اجتيازك للسلك يكون هناك لغم في الشجرة يتكفل بقتلك. انتبه (جواد) في آخر لحظة، وكان قد سبقني إلى الشارع الذي كان غرضه عشرة أمتار، الجيش الضربي نُصِبَ أسلاكًا بمحاذاة الشارع وعلى امتداده، مُرتفعة عن الأرض حوالي متر، بحيث لا تقتل الحيوانات التي تعبر من تحته، أما البشر والحمير فتقتلهم، كانوا يعرفون أن الهاربين من المذابح أو من مُعسكرات الجيش البوسني سيعبرون هذا الشارع فنصبوا هذه المصائد، ما إن تلمس ساقك أو بطئك السلك الزفيع - الذي لا يرى في نهارٍ فكيف ونحن في ليل - فإنَّ اللغم الذي في الشجرة القريبة يثور فيحوّلك إلى فُتات. كان بيننا وبين الفُتات بضعة سنتيمترات، الموت قريب إلى هذا الحد، ولكنَّ العناية الإلهية أقرب منه. "توقّف" قال (جواد) مُحدّرًا. لا أدري كيف رأى السلك في منتصف الليل. وتابع: "الشياطين نصبوا الألغام والمُتفجرات في كل مكان. لكنهم لا يعرفون أنني عملت في المناجم وأنا أعرف هذه الحيل والخدع جيدًا". جمذث مكاني: "ماذا سنفعل؟". "بسيطة. نزحف تحتها دون أن نمسه". وزحف أمامي وتبعته، وصرنا في الجانب الآخر من السلك القاتل.

لم ندر أننا مضينا إلى وَكر الذب، لقد كان هذا السلك يفصل العابرين من الجهة الأخرى للشارع عن مخيم عسكري للضرب في

المنطقة، كانت خيامهم على الطرف الآخر، هل مضينا إلى حتفنا بأرجلنا؟! هل نجونا من سلك الألغام لنقع في فك الوحش؟! كان خيار الفضي عبر مخيمهم خيارًا صعبًا، ولكن خيار العودة أيضًا لم يكن مطروحًا، لقد اجتزنا الموت للتو، قرّزنا ما دام الليل في سواده أن نعبّر خفية ونجتاز المعسكر.

بهدوء وبانحناء أقرب إلى الزحف مررنا بجوار الخيم، وكان كل من في المخيم من الجيش الضربي يغرقون في النوم، كانوا يعتمدون على الألغام في أن تجعل عبور القادمين من الشارع إليهم مستحيلًا، لم ينتبه إلينا أحد، وفكّزث في أخذ بعض الطعام من الخيام، ولكنني تراجعث عن فكرة مجنونة كهذه، إذ إنها تتساوى مع الموت، ويمكن أن نبحث عن طعام تحت أقدام شجرة بدلاً من أن نبحث عنه بين أنياب ذب.

صار المخيم وراءنا، وعانقث (جواد)، وشكرثه على عينيّه الصقريّتين اللتين أنقذتانا من الموت، وهتفت: "يبدو أننا محظوظان"، كان وراء المخيم نهر، ورّذنا على الماء، شربنا، ملأنا القربة، ثم اجتزنا النهر إلى الضفة الأخرى، وركضنا بأقصى ما نستطيع. وحين شعزنا بأننا صرنا في مأمن من بنادق المخيم وعساكره، أبطأنا من سيرنا، وزحنا نواصل المشي، إلى أن مشينا الليل كلّه، ولولا شعور الثّجاة من الموت بعد سلك الألغام، وشربنا من الماء اللذان بعثا فينا قوّة كبيرة، لَمّا بقينا نمشي هذه الساعات كلّها.

في اليوم الثاني أكملنا سيرنا، ووصلنا إلى جبل شاهق، سلسلة من الجبال التي تقع شرق (توزلا)، قال جواد أظن أنه جبل

(ماجيفيتش). "كائنًا ما كان يا (جواد)، أنا تركت صفوف المدرسة، لو أن الأمور سارت بخير لكنت الآن في الثانوية العامة، أو تخرجت فيها، لكنني لا أدري إن كنت سأستطيع العودة إلى الدراسة، أو العودة إلى الحياة بعد هذا كله، على أية حال لم أكن مُجتهدًا في الجغرافيا، ولم يكن بإمكانني أن أحفظ سلاسل الجبال، ولا أسماء الأنهار، كنت سأعيش حياةً عادية، لكنني عشت أكثر من حياة، عشت حيوات لو قُسمت على آلاف البشر لكانت مُكتنزة غنية. إنها جبالنا، وليكن أسفها أيًا كان، إنها بلادنا، حبيبثنا، وإنه لا أمنية أكبر من أن تعودَ لنا، ونعيش فيها بأمان.

كان في الجبل أشجارٌ حانية، مثل العرائش، كانَ فيها العنب البري، كان أحمر اللون، إنه لا يُذكر بالذم، وإن كُنّا رأينا من الدّم ما يكفي، ولكنه يُذكر بالحب، إننا مقتولون بحب البلاد يا (جواد)، قَطَفْنَا مِنْهُ أَثْقَالًا وَأَثْقَالًا. وَرَحْنَا نَلْتَهُمْ بِلَذَّةٍ، وَنَمْلَأُ مِنْهُ أَفْوَاهَنَا، وَتَسِيلُ غُصَارَتُهُ مِنْ زَوَايَا شِفَاهِنَا، وَنَمْسُخُ بِهِ وَجُوهَنَا، وَنَضْحَكُ، وَنَفْرَحُ، وَنَشْعُرُ بِأَنَّنَا مُلُوكٌ. كَيْفَ يُمَكِّنُ لِقَطِفٍ مِنْ عِنَبٍ بَرِّيٍّ أَنْ يَجْعَلَكَ مَلِكًا؟!

تابغنا سيرنا ضعودًا حتّى اقتربنا من قمة الجبل، فجاءَ شَمَفْنَا رائحةً نار، فوقفنا، وبدأنا نستكشف الموقع؛ سمعنا أصوات أشخاص ظننّا أنهم صرب، فبقينا ننتظر حذرين، بعدَ مُضي بعض الوقت، صارَ يتوافدُ إلى الجبل آخرون، ومن اللهجة عرفنا أنهم بوسنيون، وركض بعضهم نحونا بعد أن رأونا، وتعاثفنا، وسرى دم الأخوة فينا، إنهم منّا، يُشبهوننا، لا يُمكن أن يُشكلوا تهديدًا لنا، وكانوا مثلنا تائهين، وإذا جَمَعَتِ المصائب بيننا وزُعنّاها علينا بالتساوي فصارت حديدًا يُسلي، وأمانًا، وفرحًا، وأشياءَ أخرى تُحش ولا تُقال.

تَجَمَّعْنَا كُلُّنَا عَلَى قِمَّةِ ذَلِكَ الْجَبَلِ، كُنَّا مِئَةً وَخَمْسِينَ شَخْصًا مِنْ الْهَارِبِينَ، كَانَتْ مَلَابِشُهُمْ مُمَرَّقَةً وَمُتَسَخَّةً، وَشُعُورُهُمْ مِنْكُوشَةً، وَجَرَّاحُهُمْ ظَاهِرَةٌ، وَعَيُونُهُمْ صَغِيرَةٌ تَدُورُ فِي أَحْدَاقٍ وَاسِعَةٍ، وَلَا أَحَدٌ يَعْرِفُ مِنْ أَيْنَ هَرَبُوا وَلَا كَيْفَ؟ رُبَّمَا كَانَ بَعْضُهُمْ فِي قَافِلَتِنَا الَّتِي تَبَعَثَتْ، رُبَّمَا هَرَبُوا مِنَ الْمُعْتَقَلَاتِ مِثْلِي، أَوْ مِنَ الْإِعْدَامِ مِثْلَ (جَوَادٍ)، أَوْ مِنْ أَيْ مَكَانٍ آخَرَ، كَانَتْ الْبِلَادُ كُلُّهَا فِي حَالَةٍ ذَبْحٍ وَهَرَبٍ مِنَ الذَّبْحِ، وَمَا بَيْنَهُمَا كَانَتْ الْفُوضَى سَيِّدَةً هَذِهِ الْبِلَادِ الْجَمِيلَةِ.

سَأَلْتُ أَحَدَهُمْ: "هَلْ هُنَاكَ نَاجُونَ آخَرُونَ؟". "لَا نَدْرِي. كَانَ مَعِيَ أَخِي الْأَصْغَرُ، رَأَيْتُ الضَّرْبَ يَحْرِقُونَهُ أَمَامِي وَهُوَ حَيٌّ. أُمِّي ذَهَبَتْ فِي الْحَافِلَاتِ وَلَا أَدْرِي أَيْنَ صَارَتْ؟!". وَقَالَ شَخْصٌ سَبَقْنَا جَمِيعًا إِلَى هَذَا الْجَبَلِ: "أَنَا هُنَا مِنْذُ عَشْرَةِ أَيَّامٍ، سَمِعْتُ أَنَّ بَعْضَهُمْ وَصَلُوا إِلَى (تُوزَلَا) وَنَجَّوْا". وَقَالَ آخَرُ: "سَتَأْتِي هَلِيكُوبْتَرٌ وَتُنْقِذُنَا، لَنْ يَتْرَكَنَا الْجَيْشُ وَحَدَّنَا". ضَحَكْتُ أَرَدْتُ أَنْ أَقُولَ لَهُ: "الْمَهَمُّ أَلَّا تَأْتِيَ هَلِيكُوبْتَرٌ فَتَقْصِفَنَا، فَنَذْهَبُ جَمِيعًا فِي شَرِبَةِ مَاءٍ!". قَالَ آخَرُ: "لَقَدْ قَتَلْتُ صَرَبِيًّا فِي الطَّرِيقِ وَأَخَذْتُ مِنْهُ رَادِيو تِرَازِسْتُورٍ صَغِيرًا"، وَأَرْدَفَ وَهُوَ يَرْفَعُهُ بِفَخْرٍ: "هَلْ تُرِيدُونَ سَمَاعَ الْأَخْبَارِ؟".

كَانَ الْمَذْبِيعُ يُعْلَنُ أَنَّهُ السَّابِعُ وَالْعِشْرُونَ مِنْ تَقْوِيزٍ مِنْ عَامِ 1995م، كَانَتْ الْأَخْبَارُ كُلُّهَا يَنْفَطِرُ لَهَا الْقَلْبُ، لَكِنَّ الْمَأسَاةَ لَهَا جَوَانِبٌ جَيِّدَةٌ، قَالَ الْمَذْبِيعُ: إِنَّ خَمْسَةَ آلَافٍ مِنَ الْهَارِبِينَ اسْتَطَاعُوا الْوُصُولَ إِلَى الْمُنَاطِقَةِ الْمُحْزَرَّةِ، اسْتَطَاعُوا تَجَاوِزَ مُعَسَّكَاتِ الْجَيْشِ الضَّرَبِيِّ وَحَقُولِ الْأَلْغَامِ، وَطَائِرَاتِ الْاسْتَطِلَاعِ، وَالْمَذَابِحِ، وَوَصَلُوا. وَكَانَ يَقْصِدُ (تُوزَلَا)، كُنَّا نُسَمِّيْهَا كَذَلِكَ. بَعَثَ الْخَبْرَ فِينَا أَمَلًا قَوِيًّا بِأَنَّنَا مِنْ

الْمُمْكِنُ أَنْ نَكُونَ مِنَ النَّاجِينَ مِثْلَهُمْ.

صَرْتُ أَطُوفُ عَلَى الْمِئَةِ وَالْخَمْسِينَ الَّذِينَ مَعَنَا، أَتَفَحَّصُ وَجُوهَهُمْ،
أُبَحِّثُ عَنْ أَبِي بَيْنَهُمْ. أَبِي مَا زَالَ يُمَعِنُ فِي الْغِيَابِ، وَلَمْ أَجِدْ حَتَّى
مَنْ يُشَبِّهُهُ. فَجَاءَتْ رَأَيْتُ ذَلِكَ الْوَجْهَ الَّذِي أَعَادَنِي إِلَى الْوَرَاءِ بِضَرْبَةِ
صَاعِقَةٍ، اقْتَرَبْتُ مِنْهُ أَكْثَرَ، تَفَحَّضْتُ مَلَامَحَهُ، لَا يُمَكِّنُ أَنْ تَعْرِفَ
بِسهولةٍ شَخْصًا مَرَّتَ عَلَى وَجْهِهِ مَصَائِبُ الْحَرْبِ ثَلَاثَ سَنَوَاتٍ، إِلَّا
إِذَا خَفَعْتُ، الْحَرْبُ الَّتِي تَغْيِرُ كُلَّ شَيْءٍ، مِنْ السَّهْلِ عَلَيْهَا أَنْ تُغْيِرَ
الْوَجْهَ، وَلَكِنِّي قَلْتُ لِنَفْسِي: "رَبِّمَا هُوَ. أَسْتَاذِي فِي الْمَدْرَسَةِ الَّذِي
كَانَ يُدَرِّسُنَا الرِّيَاضِيَّاتِ فِي الصَّفِّ السَّادِسِ"، أَرَدْتُ أَنْ أَطْرَحَ السَّوْالَ،
إِنَّهُ مَجْرَدُ سَوْالٍ، لَنْ يُعَذِّبَنِي كَثِيرًا، سَأَلْتُهُ عَلَيْهِ؛ إِذَا لَمْ يَكُنْ هُوَ فَمَا
الْمُشْكَلَةُ؟ إِنَّ تِسْعَةَ أَعْشَارِ أَسْأَلَتِي كَانَتْ بِلاَ إِجَابَاتٍ، وَنِصْفُ الْعَشْرِ
الْمُتَبَقِّي كَانَتْ إِجَابَتُهُ: "لَا". وَقَفْتُ أَمَامَهُ بِاحْتِرَامٍ: "هَلْ أَنْتَ الْأُسْتَاذُ
خَيْرِ الَّذِينَ؟". نَظَرَ إِلَيَّ مُتَفَحِّضًا، وَلَمْ يُجِبْ. سَأَلْتُهُ: "هَلْ أَنْتَ الْأُسْتَاذُ
خَيْرِ الَّذِينَ أَوْرِيْتَش؟". حِينَهَا لَمَعَتْ عَيْنَاهُ: "نَعَمْ". صَعَّقَتْنِي الْإِجَابَةُ،
إِنَّهَا أَوَّلُ (نَعَمْ) جَيِّدَةٍ. سَأَلْتُهُ لِأَتَأَكَّدَ أَكْثَرَ: "هَلْ عَمِلْتَ مُدَرِّسًا؟". "نَعَمْ".
"هَلْ كُنْتَ مُدَرِّسَ رِيَاضِيَّاتٍ؟". "نَعَمْ". إِنَّهَا ثَلَاثَةٌ مِنْ (نَعَمْ)، إِنَّهَا كَافِيَةٌ،
أَنْحَنَيْتُ وَصَافَخْتُهُ، ثُمَّ قَبَّلْتُ يَدَهُ، وَهَتَفْتُ: "أَنْتَ دَرَّسْتَنِي فِي قَرْيَةِ
فُوتَشَا. لَا يَضِيرُ إِنْ لَمْ تَعْرِفْنِي فَأَنَا أَعْرِفُكَ جَيِّدًا يَا سَيِّدِي. أَنَا اسْمِي
حَارِثُ لَاتِيْتَشْ"، وَحَدَّقَ فِيَّ مِنْ جَدِيدٍ، وَعَانَقَنِي وَبَكَى. سَأَلْتُهُ: "هَلْ
تَذَكَّرْتَنِي؟". رَدَّ: "أَنْتَ الَّذِي كُنْتَ تَبْدُو أَنْطَوَانِيَّا فِي الصَّفِّ؟". "أَنَا هُوَ
يَا سَيِّدِي". "أَرَى أَنَّكَ نَجْوَتُ. فَمَاذَا حَلَّ بِعَائِلَتِكَ؟!". "أُمِّي اغْثُصِبَتْ
أَمَامِي وَقُتِلَتْ. وَأَخَذُوا أُخْتِي، وَأَطْلَقُوا النَّارَ عَلَى أَبِي. كُنْتُ أُرِيدُ أَنْ
أَسْأَلَكَ إِنْ صَادَفْتَهُ فِي أَحَدِ الْمُعْتَقَلَاتِ؟". "أَبُوكَ إِنْسَانٌ طَيِّبٌ وَرَائِعٌ يَا

حارث. أعرّفه جيّدًا". "شكرًا يا سيّدي، ولكن هل تعرف إن بقي حيّا؟".
"لا أدري يا حارث؟! اعثقلنا معًا حينما اجتاحوا قرية (فوتشا)". قفزت
من الفرّح: "يعني لم يمّث؟". "حتى آخر لحظة رأيته فيها؟ لا. ظلّ
معي شهّدًا يُعاني من جراحه، كان مُصابًا في أسفل العنق، ثم ذهبوا
به في شاحنة أخرى، ولا أعرّف ما حلّ به بعد ذلك".

(57)

الثور الأسود

هل ما تزال حيًا يا أبي؟ أدفع ما تبقى من عمري، إن ظل في العمر بقية مقابل أن تكون الإجابة: "نعم". لو رأيثك حيًا فسينتهي نهز الأحزان والآلام الذي يتدفق بالدم القاني في أعماقي من أول ما فرقوا بيننا. أشعر أنك لا تزال حيًا. إن شعور الأبناء بأبائهم أدق شعور وأصدق، ألم يقولوا: "الولد سِرُّ أبيه"؟

لَسَعْنَا الجوع، إنا مئة وخمسون هاربًا، كيف يمكن أن نواصل هربنا ما لم نأكل. قررت مجموعة منا أن تذهب إلى قرية صربية تبعد عشرة كيلو مترات من هنا، وتسرق خروفاً أو حتى دجاجة. كانت مجموعة ثورية، كنت معهم، بقي (جواد) على قمة الجبل. وصلنا إلى القرية فهدوا تعرف أين تضع أقدامها، كانت القرية آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رَغَدًا، ولم تكن قوة شيطانية قد صبت عليها غضبها الناري فأحرقها، قلت للمجموعة: "لماذا نسرق خروفاً أو دجاجة؟! ما دُمنّا سنسرق فلنسرق ثورًا. نحن مئة وخمسون، وبطوننا خاوية، ولن يكون كافياً لإشباعنا غير الثور". رد أحدهم: "فكرة جيدة. ولكن من سيأتي بالثور دون أن ينتبه أحد من القرية؟". أجبت: "أنا".

وتسللت مع هبوط الليل، وبهدوء، وخطوات مدروسة، بعد أن اجتزت بعض البيوت القريبة، عثرت على المبتغى، كان ثورًا أسود لم أتبين موقعه لولا أنه خار، فدلني عليه صوته، مضيت نصف راكع إليه، حتى إذا صرث على مقربة منه حلت الحبل المربوط به، وهتفت به: "يا ثور. إنا جائعون. وأنت رزق الله. وتعرف حق الله

فيك، فبحق الله الذي تعرفه لا تُصدر صوتًا، فلو أُصدرت هذا الصوت فسنكون نحن الثيران المذبوحة بدلاً منك". والتفت نحوي، أراد أن يُحرك رأسه موافقًا، فهتفت به: "لا تحرك رأسك أرجوك، هذه الحركة إذا شذت الحبل وكان فيه شيء معدني وأصدر صوتًا فسثكلُفنا حياتنا". واستجاب. وحلثت حبله، وكان مُذعنًا لكل ما أطلبه منه، وشقته بهدوء، حتى إذا صرث عند رفقائي العشرة، ابتسفت وقلث لهم: "إنه ثور يفهم".

ذهبنا بعشرة، وغدنا بأحد عشر، كان مُساليقًا، وانقاد لنا بشكل عجيب. وفي موقعنا الذي نتمركز فيه، ذبّخناه، ووزعنا لحمه علينا بالتساوي، وأقمنا حفلة شواء على نار كبيرة لم يشهدها أحد من قبل، وأكلنا لحمًا مشويًا، وملأنا بطوننا، وإذا أعطى الله أدهش.

غسلنا أيدينا في بركة صغيرة أقرب إلى الحوض تتجمع فيها المياه من عيون في الجبل، وقزرت أن أتوضأ وأصلي، رأني أحدهم فصرخ بي: "ماذا تفعل؟". واستغربت سؤاله، وأجبت: "إنني أتوضأ". لماذا تتوضأ؟". ارتخت قليلًا، هو يعرف الوضوء، إذا فهو مُسلم، لأن سؤاله الأول وخزني بشوكة شك: "ماذا لو كان صربيًا؟". تجاوزت الخاطر الآثم الذي داهمني، لأجيبه: "أريد أن أصلي". وسألني من جديد: "ثصلي لمن؟". وأردت أن أضربه حينها، إنه ثقيل دم بهذه الأسئلة المُزعجة، لكنني تحملت وخامته، وأجبت: "له". وحينها قلبت كفي بعد أن كان عاقدهما مع ذراعيه على وسطه، وصرخ بشكل مُبالغ فيه: "الله. ثصلي لله؟ هل تعتقد أن الله ما زال موجودًا؟! لو كان موجودًا فلماذا يحدث لنا كل هذا؟!". تركته فلحق بي، قلث له: "يا أخي لا تكن جاجدًا، قبل قليل كنت ستموت من الجوع، أتدري من أنقذك؟ الله.

الله الذي بعث لك ثورًا يا ثور". ونفضت يده التي تمسك بذراعي. وتخيزت مكانًا نظيفًا من الأرض، وتوجهت لله بالصلاة، شعزت أنها أول صلاة دون خوف، أول صلاة أخاطب الله فيها وأنا أدرك أنه يراني حقًا ويسمعني حقًا، وشعزت حينها أن جبالاً من الهموم قد انزاحت عن كتفي، وأنه كتبت لي حياة جديدة.

مزيومان آخران، ونحن لا نزال على قمة الجبل، كان بعضنا ينتظر أن تتبين الأمور أكثر، وبعضنا كان ينتظر بالفعل أن تأتي طائفة هليكوبتر لتنقذنا، أو أن تحدث معجزة من نوع ما تنهي هذا الترقب، بالنسبة لي قزرت أنا و(جواد) أن نتابع سيرنا باتجاه (توزلا)، لا بد أننا قطعنا أكثر من نصف المسافة إليها، وأنها صارت قريبة. ثم إن مجموعتنا هذه تكبر من الشباب والشتائم مع كل جملة، إنهم يجحدون الله، وأنا لا أريد أن أبقى معهم أكثر من ذلك.

جفنا، ذهب الثور ولحمه في أجسادنا، وداهقنا الجوع من جديد، لن أذهب مع أي أحد إلى القرية الضريبة، لكنني دللثهم على الموضع الذي يكمن فيه العنب البري، سيفي بالغرض مؤقتًا، وبالفعل ذهبوا وعادوا وقد تلطخت وجوههم وثيابهم بحمرته.

في اليوم الثاني الذي قزرت أنا و(جواد) فيه ترك المجموعة ومتابعة المسير، وجذنا طنجرة محروقة، يبدو أن الضرب كانوا يتنزهون في هذه المنطقة قبل الحرب وكانوا يطبخون بها، أو أنه مز من قوافل الهاربين بهذا الجبل من فعلها قبلنا، رخت أجمع بعض النباتات التي أحدث أنها غير سامة، وما تبقى من أشياء صالحة للأكل، وألقيناها في الطنجرة، وأضفنا إليها الماء، وأوقدنا تحتها النار،

وطبخنا طبخةً لا ندري ما أسفها، لقد كانت طبخةً خاصةً بمجموعة الهاربين فوق ذلك الجبل في ذلك المساء، وأكلنا. كانَ طعمها مُرًا، ولكن أحسنَ من أن تُزقِرَق مَعَدُنَا.

وقبلَ أنْ نمضي، أخذتْ نبتةً من الأرض، وقرأتْ عليها آية الكرسي، وفركتها، وقلتُ (جواد) افتحْ كَفِّيك، ووضعتُ نصفها هناك، وأبقيتُ على نصفها الآخر بين كَفِّي، ورفعتهما قليلاً عند وجهي، كانت رائحتها عِطريةً، وفعلَ (جواد) مثلما فعلتُ، ورحتُ أدعو الله أن يكتبنا في الناجين، وكان (جواد) يقول بعدَ كلِّ جملة: "آمين".

كان (جواد) يحمل في جيبه ثلاث سجاجر، لم يكن مُدخِّنًا، لكنّه غَنِمَ السَّجائر من جنديّ صربيّ فقايضها مع واحدٍ من المئة والخمسين مقابل عشر حلزونات، كانت تلك مُقايسةً رابحةً بالنسبة لنا، (الحلزون) ثمينٌ ونادرٌ ومُغذٍّ، وإذا سلقته وأكلته فإنَّكَ تحصلُ على وجبةٍ ممتازة. كانت (الحلزونة) أصغر من البيضة، وكانت لا تعدو لقمةً واحدة.

لم نقل لأحد عن قرارنا بالذهاب دونهم، كان قرارًا سرّيًا احتفظنا به لأنفسنا، لقد قرّرنا أنْ نمضي وحدنا خفية بعيدًا عن الأضواء. وتركنا المجموعة دون أنْ نودّع أحدًا، وحملنا معنا الطنجرة المحروقة والحلزونات، ومضيّنا.

تحوّلتِ النبتة التي فركناها بين أيدينا إلى جناء، ظلَّ أثره واضحًا، وكلّما نظرْتُ إليهما شعزتُ بالظمأنينة. قلتُ لصديقي (جواد): "هذه إشارة جيّدة"، تابَعنا سيرنا، بقينا نسيّر من الليل إلى الصباح، مُتجهين غربًا، لا بُدَّ أنْ (توزلا) ستلوح لنا فجأة، ستطلع لنا من خلف

هذا الجبل أو ذاك؛ هكذا كنّا نفكر.

كنث في المرحلة السابقة قد أضعت أحد جوربيّ اللّذين وضعتهما كي يجفّا، ولم أجد قطعة من النيلون أو الكرتون كي أغلف رجلي بها، فأدخلتها عاريةً في الحذاء، كنّا قد سزنا أكثر من اثنتي عشرة ساعة متواصلة، حتّى وصلنا إلى نهرٍ نظيف، كان صافيًا صفاء السماء، وكان لشدّة صفائه ثرى الأسماك التي تسبح فيه، قرزنا أن نتوقف هنا ونرتاح، ولما أزدث أن أخلع حذائي لم أستطع، كان لحم قدمي قد التصقّ به، وأصابني ألمٌ فظيف وأنا أفعل ذلك، ونجحت بعد أن أخذ الحذاء شيئًا من اللحم، وسالّ الدم، وهرعث إلى النهر فغمست قدمي فيه، وكانت الآلام تهزني هزّا. ورأيث (جواد) يخلع ثيابه "ما الذي تنوي فعله يا (جواد)؟". "ماذا برأيك؟ أريد أن أستحم، أليست فكرةً جيّدة؟" وتردّذت، فأردف: "نحن لم نستحم منذ فترة، وهذا ماءٌ عذب سيشفى أجسادنا. هيا. لن تندم".

ورحث أخلع ثيابي كما فعل (جواد)، وبدت الثّقرات على جذوعنا والبثور، والبقع، والطفح، ولم يكن شبرٌ من جلدنا سليمًا، وتعجّبنا كيف بقينا أحياء حتّى هذه اللحظة، وغطسنا في الماء، وشعرنا بنشوة غامرة، ورحنا نبلعُ كالأطفال، وننظرُ إلى نحول أجسادنا ونضحك، وبقينا في الماء أكثر من ثلاث ساعات، كأنّ الماء أعادَ لنا بهجةً مفقودةً، وعوّضنا عن سنين من الحرمان.

ثم خرجنا من النهر شبه غراة، وغسلنا في النهر ثيابنا، وتركناها في الشمس كي تجفّ، واستلقينا بجانبها، ونمنا في الذفء، ولما استيقظنا، أوقدنا نارًا، وسلقنا الحلزونات العشر في الطنجرة

المحروقة، وأكلنا أشهى طعام، ولَمَّا هَبَطَ اللَّيْلُ، لبسنا ثيابنا التي جَفَّتْ، وملأنا القربة بالماء، ومضينا.

كَانَ شَهْرُ آبٍ قَدْ دَخَلَ. وَسَمِعْنَا مِنْ أَحَدِ الْهَارِبِينَ أَنَّ الْجِيْشَ الصَّرْبِيَّ فِي الْيَوْمِ الَّذِي تَرَكْنَا فِيهِ الْمَجْمُوعَةَ قَدْ أَحَاطَ الْمَوْقِعَ بِالْمَدْرَعَاتِ، وَقَصَفَهُ بِالْقَذَائِفِ، فَقَتَلَ كُلَّ مَنْ فِيهِ. وَتَلَقَّسْنَا أَجْسَادَنَا وَأَعْنَاقَنَا، وَقُلْتُ (لِجَوَادٍ): "سَنَنْجُو". كَانَتْ تِلْكَمُ الزَّكْعَتَانِ تَمِيمَةُ النَّجَاةِ لَنَا، هَكَذَا شَعَرْتُ.

وَمَشِينَا لَيْلَتَيْنِ بَعْدَ أَنْ تَرَكْنَا النَّهْرَ، كُنَّا نَمْشِي مِنَ الْعِشَاءِ إِلَى مَا بَعْدَ الْفَجْرِ بِقَلِيلٍ، وَبِمَجْرَدِ أَنْ تُشْرِقَ الشَّمْسُ كُنَّا نَخْتَبِئُ بِأَكْثَرِ مَكَانٍ مَنْزُوٍّ، فِيهِ حَشَائِشٌ عَالِيَةٌ، وَنَكْمُنُ هُنَاكَ دُونَ أَنْ نَنْبَسَ بِأَيِّ كَلِمَةٍ إِلَى أَنْ تَغِيبَ الشَّمْسُ، فَنَبْدَأُ الْمَسِيرَ مِنْ جَدِيدٍ، كُنَّا نَمْشِي بِهَدْوٍ، وَلَا أَحَدٌ يَشْعُرُ بِنَا. وَكَانَتْ الشَّمْسُ دَلِيلَنَا، تُشْرِقُ فَنُغْرِبُ، كَانَتْ (تُوزِلَا) فِي الْغَرْبِ، وَكَانَ الْغَرْبُ يَوْمَهَا جِهَةً النَّجَاةِ.

فِي أَيَّامِ الْجُوعِ، كُنَّا نَحْلُمُ بِأَنَّا نَأْكُلُ، نَجْلِسُ مَعَ الْعَائِلَةِ نَتَحَدَّثُ الَّذِي حَدِيثٌ، وَنَأْكُلُ أَطْيَبَ طَعَامٍ. نَحْنُ نَسِيرُ عَلَى حَذِّ الطَّرِيقِ وَعَلَى حَذِّ الْجُوعِ، كَانَ الْجُوعُ الْعَقْبَةُ الْكُبْرَى فِي هَذَا الْمَسِيرِ، إِنَّهُ أَقْلُ إِقْلَاقًا مِنْ بِنَادِقِ الْجِيْشِ الصَّرْبِيِّ، كَانَ يُمَكِّنُ أَنْ تَتَفَادَى الْأَخِيرَ بِأَحْسَنِّ مَقَامٍ تَتَفَادَى الْأَوَّلَ. كَانَ صَعْبًا جَدًّا أَنْ تَحْلُمَ بِالْأَكْلِ، ثُمَّ حِينَ تَصْحُو لَا تَجِدُ شَيْئًا، تَأْتِي لِتَأْكُلَ فَلَا تَجِدُ حَوْلَكَ أَيَّ طَعَامٍ، لَا تَصَدِّقُ أَنَّ هَذَا كَانَ حَلْمًا، تَتَلَفَّسُ فَمَكَ؛ تَنْظُرُ إِلَى مَائِدَةٍ مُتَخَيَّلَةٍ فَلَا تَجِدُ إِلَّا الْفَرَاغَ. تَشْعُرُ بِالْقَهْرِ، تَنْسَابُ دُمُوعُكَ عَلَى خَدِّكَ، تَمْسُحُهَا، وَتُوَاصِلُ النُّضَالَ فِي وَاقِعِكَ.

لا بُدَّ للسَّائر أن يَصِل

بشنا في مكانٍ مجهولٍ، نحنُ المجهولان السَّائران عبرَ المجهول إلى أملٍ مجهول. هذه المَرَّة توجَّهنا قبل الغروب بقليل، وكان الهدوء سائِدًا حتَّى العصافير لم تكن أصواتها مسموعة. وصلنا إلى مُنحَدٍ، نزلت قبل (جواد) بسرعةٍ إلى أن وصلت إلى مجرى نهر، قرفضت على حافَّته، وانْحَنَيْتُ، ملأتُ كَفِّي بالماء وشربت. كنت مُتَقَدِّمًا على (جواد) في المشي، وكان آنذاك قد نال منه التَّعب. بعد أن شربْتُ نفَضْتُ كَفِّي ومسحتُ بهما وجهي، ولما رفعت رأسي لمخِث مدْرَعة تابعة للجيش الصَّرْبِي على الجانب الآخر من النهر، كان فيها أربعة جنود. ذُهلْتُ. كتفتُ صرخةً كادت تخرج من فمي، ستكون صرختي اليتيمة لو خرجتُ، ما خَفَّف المفاجأة أن الجنود الأربعة كانوا يُعطونني ظُهورهم، فلم يَزُونِي، ولكنهم لو استداروا لتقابلنا وجهًا لوجه، ولم يكونوا يبعدون عنا أكثر من ثلاثين مترًا.

وقبل أن أقوم، وجذتُ قطعة خُبز، فقبضتُ عليها، ثم لَوَّختُ بذراعي مُشِيرًا إلى (جواد) ألا يتحرَّك وألا يُصدر شيئًا، وبدأتُ أمشي بهدوءٍ إليه حتَّى نبتعدَ عن النهر وعن المدْرَعة، ما كدتُ أمشي خُطوَيْنِ حتَّى انتبه أحدهم إلينا، وصرخَ بالجنود: "أتراك..."، وبدأ إطلاق النار على الفور، هربنا إلى أقرب شجرة واختبأنا خلفها، ظلُّوا يُطلقون النار علينا أكثرَ من ساعة، كانوا يُطلقون في البدايات القذائف من المدْرَعة، ثم الرصاص من الرشاشات، حتَّى قَدَرْتُ أنهم أطلقوا ألفَ رصاصةٍ اخترقت جذوع الأشجار، ونقبت الأرض،

وأصعدت دُخانًا وغبارًا، وتطايرت صخورٌ وشظايا من حولنا. ولحسن الحظ أن المدرعة لا تستطيع أن تعبر النهر، وإلا لَكُنَّا في خبر كان، وقدزث أنهم خافوا أن نكون مُسلحين أو أن يكون معنا مُسلحون آخرون، فلم يترجلوا من مدرعتهم ويسبحوا في النهر ويأتوا إلينا، فاكثفوا بإطلاق النار من هذه المسافة القريبة التي لا تزيد عن أربعين متر طَوال هذه الساعة، وبعدها توقّفوا. بعد أن سكن كل شيء، سأل أحدهم: "هل تسمع صوت جرحى؟"، ردّ عليه صوت آخر: "لا أسمع شيئًا". "يبدو أنهم ماتوا". ونَجونا.

بقينا مُختبئين خلف الشجرة حتّى غَمَّ الليل وغطّى كل شيء، ولشدة ترقبي وخوفي، وعدد القذائف التي انفجرت حولنا، أحسنت بأن جسدي لم يعذ لي، تخذرت كل بُوصة فيه، وأيقنت أنني هالك لا محالة، وقلت لـ (جواد): "إذا مُت، فهل تقدر أن تدفني هنا؟". ظل صامئًا. وأردفت: "أنا لا أقصد أن أدفن هنا، أنا أعرف أنك لا تستطيع حملي عشرة أمتار، إنما قصدت أن تحفظ المكان الذي دُفنت فيه، إنه سهل، قرب هذا النهر عند هذه الشجرة، وحتّى تعرف الشجرة سأحفر عليها اسمي واسمك. ثم بعد أن تنتهي الحرب عذني أن تأتي إلى هنا وتنقل رُفاتي، وتدفني في قريتي في (فوتشا)، في ساحة بيتنا، حتّى لو احتلّه الصّرب، استأذّنهم في أن تدفن صاحب الدار في حديقة الدار". كنت أهذي، ولم يكن (جواد) يردّ بكلمة، وانتظرت منه أن يوافق أو يُعقب أو يقول شيئًا، ولكنه اكتفى بالصمت، وبعد ساعة لم نقل فيها كلمة، سمعته يقول بصوت يائس: "هل سنبث هنا أم سنواصل السّير؟".

كان الجزء الذي تقف عليه المدرعة هو طرف الشارع المُحاذي

للنَّهْرِ. شَغَلَ الضَّرْبُ موسيقى عالية، ثُمَّ خَفَضُوا الصَّوْت، ثُمَّ أَسْكَتُوهَا. وَسَمِعْنَا أَحَدَهُمْ يَتَكَلَّمُ بِاللَّاسِلَكِي: "تَاكَذْنَا مِنْ خَلْوِ الْمَنْطِقَةِ مِنْ الْمُخْزَبِينَ. تَسْتَطِيعُونَ الْآنَ السَّمَاخَ لِلشَّيَارَاتِ بِالْمَرُورِ، دَعُّوا الْعَبُورَ يَكُونُ مُتَاحًا". وَبَدَأَتِ الْحَافِلَاتُ بَعْدَ رِبْعِ سَاعَةٍ تَمَرُّ فِي الشَّارِعِ، كَانَتْ قَافِلَةٌ تَتَكَوَّنُ مِنْ عَشْرَاتِ الْمَرْكَبَاتِ الثَّقِيلَةِ وَالشَّاحَنَاتِ، وَأَحَدَتْ مُرُوزَهَا ضَبَّةً كَبِيرَةً، فَانْسَحَبْنَا شِمَالًا، وَسَزْنَا أَكْثَرَ مِنْ سَاعَتَيْنِ، وَنَحْنُ نَرَاقِبُ النَّهْرَ، ثُمَّ قَطَعْنَاهُ بَعْدَ أَنْ تَيَقَّنَا أَنَّ الْجِهَةَ الْآخَرَى خَالِيَةٌ.

حِينَ صَزْنَا عَلَى الْإِسْفَلْتِ كَانَ الْقَمَرُ يَضْحَكُ، أَعْنِي رَأَيْنَاهُ يَضْحَكُ، فَقَدْ مَرَّ عَلَيْنَا رَبُّهُ بِالْحَيَاةِ، وَلَقَا أَوْغَلْنَا فِي الْحَقُولِ الَّتِي غَرِبَتْ، قَلْتُ (لِجَوَادٍ): "حَانَ الْآنَ أَنْ نَأْكُلَ"، وَأَخْرَجْتُ قِطْعَةَ الْخُبْزِ الَّتِي التَّقْطِثُهَا قَرَبَ الْمُدْرَعَةِ، كَانَتْ يَابِسَةً، وَمَتَعَفْنَةُ، حَالُ لَوْنِهَا إِلَى الْأَخْضَرِ، رَطَبْنَاهَا بِالْمَاءِ، وَأَكَلْنَا نِصْفَهَا بِشَهِيَّةٍ، وَأَبْقَيْنَا نِصْفَهَا الْآخَرَ لِعَوَادِي الزَّمَنِ.

كَانَ (جَوَادٌ) قَدْ بَدَأَ يَنْهَارُ مِنَ الثَّعْبِ وَمِنَ الْخَوْفِ وَمِنَ الْمَرَضِ وَمِنَ الْوَهَنِ. "هَلْ أَحْمَلُكَ يَا صَدِيقِي؟". "إِنَّكَ لَا تَسْتَطِيعُ أَنْ تَحْمَلَ نَفْسَكَ". فِي تِلْكَ اللَّحْظَةِ حَانَتْ مِنَّا التِّفَاتَةُ إِلَى الشَّارِعِ الْمُحَازِي لِلنَّهْرِ، فَرَأَيْنَا عَلَى ضَوْءِ الْقَمَرِ أُرْتَالًا مِنَ الْجُنُودِ الضَّرْبِ يَعْتَنِقُونَ بِنَادِقِهِمْ وَهُمْ يَمْشُونَ عَلَى ظُولِهِ، كَانَ يَبْدُو أَنَّهُمْ يُمَشِّطُونَ الْمَنْطِقَةَ بَعْدَ أَنْ وَصَلَ إِلَيْهِمْ خَبْرُنَا. انْخَفَضْنَا فِي الْحَقْلِ، كُنَّا قَدْ ابْتَعَدْنَا مَسَافَةً كَافِيَةً لِكَيْ تَزْرَعَ شَتْلَةٌ وَلَوْ صَغِيرَةً مِنَ الظُّمَانِيَّةِ فِي نَفُوسِنَا وَسَطِ أَشْوَاكِ الْخَوْفِ الْكَثِيرَةِ. هَمْسَتْ: "سَنَبْقَى مُنْخَفِضِينَ، وَسَنَزْحِفُ مُبْتَعِدِينَ عَنْهُمْ. الْمَهْمُ أَلَّا تُصْدِرَ صَوْتًا". وَزَحْنًا نَزْحِفُ بِالْفِعْلِ، وَتَجَرَّحَتْ أَكْفُنَا وَزَكَبْنَا مِنَ الشُّوْكِ وَمِنَ الضَّخْرِ، وَلَقَا زَحْفُنَا مَسَافَةً كَافِيَةً، نَظَرْتُ إِلَى

(جواد)، وسألته: "هل تستطيع الركض؟". فهدّ رأسه بالموافقة. وقفنا على أقدامنا، ورحنا نجري بأقصى قوّة كامنة في أجسادنا، وجرى (جواد) بأسرع مني، وكنت أريد أن أقول له: "لماذا إذا كنت تريدني أن أحملك قبل قليل؟". إنها الزّوح العزيزة على المرء، ولا تفسير لهذه القوّة المفاجئة التي دبّت في ساقي (جواد) إلّا حبّه لهذه الحياة.

وصلنا قبيل الفجر إلى تلة صغيرة، تسلّقناها، وأرخنا في قمّتها، وأكلنا نصف قطعة الخبز التي معنا، وأبقينا على ربّعها لليوم الثّالي، فلا ندري ماذا تُخبئ المسافات والغابات والأيام لنا. بتنا اللّيلة على التّلة، وفي الثّاسعة من صباح اليوم الثّالي بدأنا نمشي، وبعد ست ساعات من المشي، أكلنا الزّرع المتبقي من قطعة الخبز بعد أن قسّمناه إلى ثمنين، وشرّبنا آخر ما تبقى في قربة الماء التي معنا.

في المساء أكلنا ورق الشّجر، لم نجد أشجار كرّ ولا توت ولا عنب، فاضطررنا إلى أكل الأوراق والخشب والذّود، كنّا قد تحوّلنا إلى هياكل عظمية، لا أعتقد أن وزن (جواد) الذي هو بعمر أبي يزيد عن خمسين كيلو غرامًا، وأنا الذي يصل طولي قرابة المترين أعتقد أن وزني قريب من هذه الخمسين أيضًا. وكُنّا عندما نذهب للتّفوّط تنزل منّا خيوط الدّم بدلاً من البراز، وإذا تقيّأنا نتقيّأ صفرة تميل إلى حمرة، وكُنّا منهكين أشدّ إنهاك.

واصلنا المسير تاركين التّلة الصّغيرة خلفنا، مشينا حوالي ساعة في أرض مفتوحة، يبدو أنّه حدث فيها مذبحة، ظهر ذلك من المشهد الأوّل الذي واجهنا، رأينا أربعين شخصًا مقتولين في تلك المنطقة، وصورهم وصور عائلاتهم تتناثر من حولهم، كان كثير

من الهاربين يحملون معهم تلك الصور إِمَّا لينظروا إليها كُلِّمَا هَذَّهم الحنين والشوق إلى أحبائهم الزاحلين أو أولئك الذين حيلَ بينهم وبينهم، وإِمَّا لكي يتعرَّف النَّاسُ عليهم فيُخبروا مَنْ بقي من ذويهم بمصيرهم.

رُحْتُ أَنَا وَ(جواد) نلتقط الصور، لم نتعرَّف إلى أحد، كانوا بوسنيين فحسب، مَسْتَهْم يذُ القدر، فماتوا على نحوٍ لم يخطر لهم ببالٍ. رأيتُ صورةً لثلاثة أصدقاء، لقد الثَّقِطْتُ لهم وهم يلعبون كرة السَّلَّة، وقد وقَّع الثلاثة عليها، وكتبوا تحتها اسم النادي الذي كانوا يلعبون فيه، وتحتها عبارة: "سنبقى أصدقاء حتَّى النهاية"، وأَيَّة نهاية أصعب من هذه. صورةٌ أخرى كانت لحبيبتين، يبدو أنَّها صورة زفاف، كان العريس قد كتب عليها بخط يده: "حبيبتي دائمًا وأبدًا، لن يفرقنا حتَّى الموت". عبارات كثيرة، وأسماء أكثر، وذكريات، وأشواق، وأحزان، ودموع. "لقد ضَعِثْتُ بالكهرباء مئة مرَّة، وفي كُلِّ مرَّة حين كان وجهك يلمع في ارتعاشة جسدي أحتمل العذاب على أمل أن أراك". "لن أنسى العهد. أنا سأعود ولو جُثَّة، سأعود". المسكين لم يعد. "لي ألف أمنية، كلَّها تصغرُ أمام أن أرى وجهك ولو بعد ألف سنة". وعلى صورةٍ تضحك فيها فتاةٌ عشرينيَّة بينما يُحيط زوجها أو حبيبها على ما يبدو عنقها من الخلف بذراعيه: "اشتقت لضحكك". كُلِّمَا استعذتُ صوَّتُها احتملتُ العذاب". "يا أُمِّي ادعي لي. أنا مَجُوع". "لو أستطيع أن أعودَ إليك وأراك للحظة وأطلب منك أن تسامحيني، ولأُمث بعدها". لقد مات دون أن يقول لها هذه الكلمة التي كانت أمنية الآلاف من المُعَذِّبين والمُعْتقلين والمنسيين: "سامحيني".

كانوا جميعًا قد انتقلوا إلى العالم الآخر. بحثنا في جيوبهم عن نقود أو طعام فلم نجد إلا الصور والأوراق، قلبت أحدهم على ظهره، كانت عيناه مفتوحتين مُمتلئتين بالزَّعب، شعرت أنهما تنظران إليّ مباشرة، أغلقتهما لكي أتمكن من فعل ما نويث على فعله، خلعت بنطال الجينز عنه، قذرت أنه مناسب، كان بنطالي ممزَّقًا، قلت له، وأنا آخذه، وأقوم بلبسه: "سامحني. لست سارقًا، ولكنني مُحتاج إليه". وبحثنا في الأربعين عن ثياب مناسبة لنا، أخذت قميصًا من أحدهم، وفعل (جواد) مثلي، وتركناهم في العراء ومضينا!

سزنا ساعة أخرى، جُفنا، لا ندري أي يوم نحن فيه، على الأرجح مضى من آب ستة أيام أو أسبوع، وجدنا في الطريق شابًا ميتًا، كان معه نصف كيلو من الملح، وثفاحتان، وقارورة ماء، فيها ما يكفي لثغبتين. قلنا له: "شكرًا". كان في موته حياثنا. ملأنا الثفاحتين، وأكلناهما بنهم. كان الليل قد هبط. كمنا، استلقينا على ظهورنا، وبقينا ساعتين ننظر إلى السماء وإلى النجوم، ولم نبس بحرف واحد حتى نمنا.

أيقظت (جواد) قبل الفجر: "علينا أن نسير. ربّما بقي ثلاثون كيلومترًا إلى (توزلا)، علينا أن نصل إليها خلال يومين". ردّ وهو يفرك عيونه: "تحلم. سنضطر أن نكمنَ يومًا أو يومين في أكثر من نقطة حتى ننجو". "ولتأخذ الطريق إليها أسبوعًا. لا بُدّ للسائر أن يصل في نهاية المطاف". ومضينا.

مشينا ساعة، أشرقت الشمس، رأينا رجالاً قطعوا من جسده كلّ جراحة، كانوا قد قطعوا ذراعيه، وسلخوا أجزاء من جسده وهو حي،

واقتلعوا لسانه، حين وصلنا إليه كان في النزع الأخير، وكان يُتمِّم بكلمات لا نكاذ نسمعها، وقد أرغمه الضرب على أن يجثو على ركبتيه كأنه يصلي. اقتربت من فمه لأسمع كلماته الأخيرة: "قل لأمي إنني أحبها". وسقط.

لا بد أنه تعرَّض لهذا التعذيب المروع من ساعات فقط، لأنه كان لا يزال حيًّا، فرحنا ننظر حولنا خائفين من أن نقع في قبضة الضرب. ورأيته وجهه (جواد) قد اصفّر، وعيناه قد زاغتا، ولم يحتمل، فسقط مغشيًا عليه. بقي غائبًا عن الوعي ساعة، كنت أحاول أن أوقظه، أقطر في فمه بعض الماء، ولكنه لم يكن يتحرك، حتى خلت أنه فارق الحياة. قلت لنفسي: "سأنتظر حتى يستيقظ. لا يمكن أن يموت". ولا أدري لماذا فكّرت في ذلك. ولكنه استيقظ بالفعل بعد ساعة أخرى. وضغث في فمه بعض الملح، وهتفت: "هل يمكنك أن تسير؟! المكان هنا خطير. علينا أن نمضي". ومضينا.

لا خوف ولا حزن

وصلنا إلى غابة زان. إنها أسوأ مكان يُمكن أن تصل إليه. حيث لا أشجار يُمكن أن تجدَ فيها ما تأكله سوى الحشرات. وجدنا سحلية، راوَدَنا أنفسنا أن نصيدها، ونسلخ جلدَها ونأكلها، حدثت (جواد) بالفكرة فكادَ يتقيأ. ولكن هل هناك في هذه الغابة ما يصلح للأكل؟

كانت قربة الماء التي معنا قد خلت من الماء تمامًا، وجفَّت وتيبَّست. وجدنا حفرةً تجمعُ داخلها بقية مياهِ سوداء اللون؛ ولأننا لم نكن قادرين على أن ندخل رأسينا فيها، أخذنا ما يُشبه الماصة من أحد الأعشاب، وامْتَصَصْنَا الماءَ الذي فيها كُلَّه، وشعرنا بشي من الانتعاش. وسزنا. كانت الشمس لاهبة، كانت لدينا حُطَّة أخرى حتَّى لا نموتَ عَطَشًا، كانت آثار العجلات العملاقة التي تنحفر في الأرض تميمة النجاة من العطش، كانت هذه العجلات تُحدث أثرًا بعد مرورها، حُطوطًا من مفازلها المُنطبعة على الأرض تتجمع فيها المياه، وكنا ننحني كالقطط، ونشرق الماء، ولا يهقنا ما في الماء من أوساخ، لكثته الماء، والماء غاية كل ذي كبد رَظبة.

أثناء سَيرنا رأينا رجلين محروقين، واحدًا منهما تعرَّفت عليه كان في معسكر القائد (مُصطفى) في (سربرنيتسا)، أما الآخر فلم أعرفه، كانا شبه ميّثين، وقد ربطوهما برباط الحذاء، وحين حرقوهما لم يحرقوهما بالبنزين؛ بل ألَقُوا فوقهما جذوعًا من الخشب وأحرقوهما، وكانت رائحة تفحُّمهما تزكم أنوفنا، وكانا في النزع الأخير حين وصلنا إليهما، وقدزَّت أن ما بين إحراقهما ووصولنا نصف ساعة.

ولم نستطع أن نفعل لهما شيئًا، وشكّل مشهدهما وهما يموتان أمامنا صدمةً كبيرة، كان أثرها على (جواد) أكبر من أثرها عليّ، وإن كنت قد شعرت بأن الأرض تدور بي وأنتي سأسقط، حاولت أن أتماسك فنجحت، أمّا (جواد) فسقط.

أثّرت المناظر الثلاثة التي رأيناها على جواد كثيرًا، فخمّ، وصار يهذي، وارتخى كلّ جسده، وظلّ ممدّدًا على الأرض، أسمعته يقول: "يا حارث أنا ميت". "اقتلني أرجوك. أليس معك سيّكين، اذبحني كما كان الضرب يذبحوننا. لم أعد أحتمل يا أخي. لماذا أنت قاسٍ عليّ هكذا؟ أنا لا أريد أن أصل إلى (توزلا). إذا أردت أن تصل إليها فلتذهب. اتركني هنا وحدي، هيا تناول سيّكينك واذبحني. لا تقل ليس معك سيّكين. لقد رأيتهَا معك طوال الطريق. لا تكذب. أنا أريد أن أموت، لا أريد الزحمة، ولا أريد أن أعيش أكره من هذا، لماذا تريّذني أن أعيش؟ لم يبقَ من عائلتي أحد. أريد أن ألحقَ بهم. سادعو الله أن يحرقك في جهنّم إذا لم تقتلني أو تدعني وتذهب".

ظلّ يهذي نصف ساعة، لم أرَ عليه بكلمة، ماذا يُمكن أن أقول له؟ لا حلّ سوى أن أبحث عن ماء أو طعام، فلربّما أعادًا إليه شيئًا من عقله. تركّضه بين الموت والحياة، ورحّض أبحث عن طعام. بعد ساعة من البحث وجذّث علبة سردين فيها بقايا زيت، أخذتها وغذّث إليه، أذبت ملعقةً من الملح فيها، وخلطتها جيّدًا وسقيّتها له، فشربّها، ونام. وحين استيقظ كُنّا قادرين على أن نواصل مسيرة الموت التي طالّت حتّى أكلت منّا كلّ شيء.

بعد أن سرنا نصف ساعة رأينا بيتًا قديمًا ملغمًا ومتهدمًا، وفكّرت

في أن أدخله من أجل أن أبحث عن طعام فيه، فلا بُدَّ أن تجد شيئًا، ولكّني خفت أن أتناثر من الألغام المزروعة حوله، أشزّت على (جواد) أنّه لا يمكن أن نغامر، فتركناه خلفنا ومشينا، كان البيت على طرف غابة، دخلنا إلى الغابة التي ترتفع فيها الحشائش من الأرض أعلى من قامّة الواحد منا، حدّث نفسي: "إنّه مكانٌ مناسبٌ للاختباء ربّما يُقدّر الله لنا أمرًا آخر". سحبْتُ (جواد) واختبأنا هناك، ولم تمرّ دقائق حتّى رأينا رجلًا يثّجه إلى موضع اختبائنا، فأيقنْتُ أنّها النهاية وأننا مقتولان لا محالة، وحزّنْتُ على أنّنا تعبنا هذا الثّعب كلّهُ ونجونا من الموت في كلّ مرّة لنقع في قبضته، هنا بين هذه الحشائش العالية مُحاصرين بينَ الأشواك.

خفضْتُ رأسَ (جواد) بكفّي، وقلْتُ له: "لا تُحدِث أيّة ضوضاء. هناك رجلٌ يمضي باتجاهنا". ظلَّ الرّجل يمشي نحونا كأنّه يرانا، وتسارعتْ دقّات قلوبنا، وها أنذا يا ربّ أنتهي هنا. حين وصل إلينا كان أشعث أغبر، لديه لحية، لا يحمل أسلحة، أدركنا أنّه ليس بعسكريّ؛ بل هو منّا ويريد أن يختبئ من الضّرب مثلنا، فأطلقنا زفرة الفرح، أخبرنا أنّه كان مع الاثنين المحروقين وهو الوحيد الذي نجا، وقد رأى من بعيد هذه الحشائش العالية، وقدر أنّها منطقة آمنة فجاء ليختبئ، ولم يدر أنّنا كنّا مُختبئين قبله.

لم أصدّق في البداية أنّه بوسني، فسألته: "من أنت؟" فردّ: "أنا عصمت" وكان يبدو أنّه غدّب كثيرًا من قِبَل الضّرب، فالضّرب قبل أن يحرقوا أو يقتلوا شخصًا، يتسلّون بتعذيبه، كانت قدماه مسلوختين، وثيابه ممزّقة، وجروحه بليغة، وعيئه نازفة، وذراعه تنزف. سألته: "هل لديك طعام؟". ردّ: "معي شكّر". ونحن معنا ملح. هل نأخذ

أربع قطع من الشكر مقابل ما يساويهما من الملح". وافق. وأخذ كل واحد منا قطعتين من السكر، كل قطعة بحجم حبة الحقص، ذابث في الفم شهذاً، ودب فينا أثرها سريعاً. وحمدنا الله على هذه النعمة. سأله عن قدميه المسلوختين، فرد: "زحفث على أسلاك الكهرباء ذات الضغط العالي". "كيف ذلك؟!". "الكهرباء مقطوعة. أنا أعرف ذلك لأنني أعمل في شركة الكهرباء، اضطررت إلى تسلق الأبراج والزحف على هذه الخطوط حتى لا أقع في يد الضرب". وأخبرنا أن خطوط الضغط العالي التي تعبر هذه الجبال تصل إلى (توزلا)، فإذا أردتم الوصول إلى هناك فاتبعوا خطوط الضغط العالي هذه المُنجهة غرباً. كانت أئمن معلومة نحصل عليها. ونمنا نحن الثلاثة في ذلك المخبأ، وفي الصباح، كان ثالثنا قد فارق الحياة، أخذنا ما بقي معه من شكر، وشكرناه عليه وعلى معلومة أمس، ومضينا.

صار اتجاهنا واضحاً. ولدينا دليل في مسيرنا، إنها خطوط الضغط العالي، وبدل أن نشعر أننا تائهون كما كنا في الماضي، نخبط خبط عشواء، صرنا نعرف إلى أين نمضي، وملأت هذه المعلومة الثمينة جوارحنا بثقة كبيرة. وصلنا إلى قرية صربية، لبذنا عند أولها، وزحنا نراقب المشهد، رأينا أطفالاً يلعبون، ويركضون، ويصيحون من البهجة، وكانت الحيوانات ترعى في الحقول مطمئنة، تأكل رزقها وفيذاً، وذهشنا أن الناس في حياتهم اليومية العادية الهائنة، ونحن نعاني هذه الأهوال كلها مختبئين في مكان قريب.

انتظرنا حتى حل الليل، ووصلنا إلى وسط قريتهم، لأننا كنا نعرف أن الجيش الصربي قد يربط على حدود قراه أو في الشوارع الخارجية، ولكنه لا يدخل إلى وسط القرية. اجتزنا القرية ودخلنا

إلى الغابة، مشينا بعيدًا جدًا، ثم بدأت تهطل أمطار قوية. "أمطار في آب؟! لا بُدَّ أنها إشارة سماوية" هكذا حَدَّثْتُ نفسي. بقينا نمشي إلى أن وصلنا إلى خندق تابعٍ لهم لم نجرؤ بطبيعة الحال أن ندخله، ولكن كان علينا أن نجتاز القرية مسترشدين بخطوط الضَّغط العالي حتَّى نصل إلى (توزلا). ولم ندرِ ما نفعل. ولشدة الإنهاك والتَّعب، نمنا دون أن نشعر. واستيقظنا في الصُّباح لنكتشف أننا نمنا في فك الأسد ولم يُطبَّق شدقيُّه علينا، قلْتُ (لجواد): "هيا. علينا أن نخرج من هنا بسرعة".

كانتِ الشَّمْسُ قد أشرقت حينَ سَمِعنا صوتَ الأذان، فرحَ (جواد)، وقال لي وعيناه تلمعان فرحًا: "إنَّهم مُسلمون". طلبتُ منه أن يصمت حتَّى أسمع الأذان بوضوح، حينها قلْتُ له: "لا. إنَّهم ليسوا مسلمين. هؤلاء صرب ملاعين. أنا أعرف الأذان الحقيقي، هذا ليس أذاننا، هذا الضَّرْبُ يحاول تقليده. هذه خدعة، إنَّ نُطقه لعبارة: (الله أكبر) ليس صحيحًا، ثمَّ إنَّ الشَّمْسَ طلعت؛ فهذا ليس وقت الأذان أصلًا".

إنَّه يُوهم البوسنيِّين أنَّه الأذان ليأتوا إلى مصدره، إلى هذا الخندق، ومن يأتِ بائجاهم يقتلوه. كانوا إلى ذلك في بعض المرات يُجبرون الأسرى أن يؤذِّنوا، فيأتي النَّاسُ الهاربين من القرى الثانية إليهم ظنًّا منهم أنَّهم من الجيش البوسني؛ فإذا وقعوا بين أيديهم ذبحوهم.

انسحبنا أنا و(جواد) من المكان بهدوء وخُفاء، واجتزنا القرية، ووصلنا إلى مقبرة صربيَّة على أطرافها، من السَّهل أن تعرفها من خلال الصُّلبان المرفوعة فوق شواهد قبورها. قلْتُ (لجواد): "ما أجملَ ما وجدنا! الضَّرْبُ حينَ يزور الواحدٌ منهم قبرًا يحمل معه

طعامًا ويضعه بجانب القبر، فلندخل المقبرة لعلنا نجد ما نأكل". ودخلنا إليها فعلاً، وبحفنا تحت كل صليب، ولم نجد قطعة خبز واحدة، وكادَ (جواد) ينهار على إحدى الضلبان من التعب ومن خيبة الأمل، وحملته على ظهري، وخرجنا من المقبرة، فلما صارت بيوت القرية بعيدة عن ناظرينا، أرخنا أجسادنا.

تناهى إلى سمعي خريز ماء. هَزَزْتُ (جواد) من كتفه: استيقظ. ألا تسمع؟". أضعى سفعه، ونهض، وقال جذلاً: "الماء؟". "هو". وركضنا نتبع الصوت، فإذا ماؤه يلمع على رأٍ الضحى، فشربنا منه حتى ارتويينا.

ثم وصلنا إلى جسرٍ رأينا الجنود الضرب يمشون فوقه بخطواتٍ عسكرية، وكمنا حتى عبروه، وعبرَ بعدهم الليل، فعبزنا من بعدهما، واجتزنا إلى منطقةٍ قدزت أنها الفاصلة بين نقاط سيطرتهم ونقاط سيطرة الجيش البوسني، وبدا أن النجاة قريبة، وأن الرحلة شارفت على النهاية.

ثم دخلنا إلى تلةٍ بين الخطين، وكان الفجر قد طلع، ولم نكن متأكدين أنها أرض بوسنية؟ كان جسمي كله يرتجف؛ لا أدري أفرحاً أم خوفاً؟! واختلطت علي المشاعر، ورفعت وجهي إلى السماء، وقلت: "يا رب". وشعزت أن الملائكة في طبقات السماء كلها قد سمعت ندائي، وأن الله من قبل سَمِعَ النداء، فقال: "لبيك".

في الساعة التاسعة صباحاً، مضينا باتجاه خطوط قتالنا، وكنا حذرين جداً من الألغام، وصلنا إلى قريةٍ قرب خطوط قتالنا، كنا على بُعد خمسين متراً منها فقط، رأينا الشواثر الثرابية على الشبابيك في

القرية، وكان مكتوبًا عليها شعار: "اقتل الصربي؛ وأتِه المشكلة".

كانت بيوت القرية كلها مهذمة، وصلت إلى طرف بيت أمامه سواتر ترابية. أحد الجنود رأني، فوجه بُدقيته نحوي، وصاح: "قف. ارفع يديك". لم يكن يعرف أنني بوسني. كان يُدرك أنه لا يمكن لأحد أن يجتاز خطوط الجيش الصربي أولاً، وحقل الألغام الذي قبل هذه الدفاعات البوسنية، ويبقى حيًا!!

رفعنا أنا و(جواد) أيدينا، وأخذونا إلى أحد البيوت، ثم تعرّفوا إلينا وقال لنا عسكري: "لا تخافوا. أنتم في (توزلا)". وكاد يُغمي عليّ من الفرح، لم أصدق أننا نجونا أخيرًا، كانت دموعنا أنا و(جواد) تنهمر على خدودنا، ولم نتفوّه بكلمة. أحضروا لنا: الشاي والبسكوت، واثصلوا بالقيادة وأخبروهم أنه يوجد اثنان ناجيان من (سربرنيتسا)، ليبعثوا حافلة ثقلنا إلى المستشفى فقد كنا شبه أموات؛ فردّ الطرف الآخر عليهم: "إنّ الحافلة لا تستطيع الوصول إليكم. لكنّ يُمكن حملهم بالعربات". قلنا لهم ونحن ما زلنا في غمرة الفرح وعدم التصديق: "لا داعي. نحن شربنا الشاي وأكلنا البسكوت، الآن نستطيع أن نمشي على أقدامنا إلى ألمانيا، لا ينقصنا شيء".

أخذونا إلى مستشفى ميداني، حين أرادوا أن يخلعوا ملابسنا، وجدوا أنّها التصقت بجلودنا، وأخذوا يضعون علينا اليود حتّى ينزعوا اللباس عنا، وأصعب شيء كان خلع الأحذية. بقينا في المستشفى خمسة أيام حتّى بدأنا نتعافى. وبدأنا نشعر أننا بشر، وأتينا يُمكن - مثل البقية - أن ننام على أسرة، ونأكل طعامًا ساخنًا،

ونشرب ماءً نظيفًا، ونقول ما يحلو لنا، ولا نتعرض لتحقيق، ولا
لتعذيب، ولا إهانة، كانتِ النعمة أكبرَ من أن تُصدَّق، وبقيت طوال
الأيام الخمسة أبكي.

العودة إلى فوتشا

كتبوا أسماءنا في قائمة الناجين، وعرضوا عَلَيَّ أسماء أخرى، وسألوني إذا كنت أعرفها من أجل أن يُخبروا أهلهم. لم أعرف أحدًا، ولم يكن في القائمة ناجون من قرية (فوتشا).

ودغث (جواد)، قلت: "يجب أن أذهب. لن أبقى في المستشفى". بكى. ناح. نظرَ إليَّ بعينين يملؤهما الدمع: "لا تتركني وحدي. أنا أحببُكَ كابنٍ لي. أنت ابني حقًا. لا عائلة لي سواك. أرجوك لا تذهب". عانقته وأنا أبكي أيضًا، وقلت: "وأنا أحببُكَ كأبي. لكن عليَّ أن أتدبر أموري. الحياة التي تنتظرنا ليست أحسن من الحياة التي عشناها". "ألا يمكن أن نبقى معًا؟". "أنت تعرف أنني لا أستطيع. يجب أن أبحث عن أبي وأختي إذا ما زالا على قيد الحياة". "لن أنسى أنك أنقذتني عَشْرَات المَرَّات، وَحَمَلْتَنِي، واعتنيت بي في أشد حالاتي عجزًا". "كان هذا واجبي، أنت أيضًا كنت تعطيني أملًا في استمرار نضالنا معًا في هذه المعركة". "هل تعتقد أنها انتهت؟". "لا أحد يدري كيف ستؤول الأمور. لكن أنا الآن في حالة أحسن بمئة ضعف مما كنت عليه قبل أسبوع".

كان أيلول من عام 1995م قد دخل. تركت (جواد) خلفي في المستشفى، ولا أدري متى خرج منه، وماذا حدث معه بعد ذلك؟! مشيت في شوارع (توزلا)، كانت آثار الحرب والدمار في كل مكان، شارع (كاييجا) حيث قتل فيه واحد وسبعون بوسنيًا قبل بضعة أشهر لا يزال أثر القصف فيه واضحًا. دخلت إلى المتاجر واحدًا

واحدًا طوال اليوم، أسأل كل متجر: "هل عندك عمل؟ أنا أتقن كل شيء". لكنهم كانوا يقولون لي: "لا أحد يملك مالاً من أجل أن يشتري، فكيف ندفع لك؟". قبلت في بعض الأحيان أن أعمل شهذاً تحت التجربة ومن دون مقابل، ولكنهم رفضوا أيضاً، قائلين: "نحن لا نستطيع أن نقدم لك وجبة طعام واحدة في اليوم".

بقيت أبحث عن عمل أكثر من أسبوعين، كنت أنام في الشوارع، وفي البيوت المهذمة، أو المهجورة. المياه ما تزال مقطوعة عن المدينة رغم بدء توقف القصف حولها وفي المذن البوسنية الأخرى. والكهرباء تأتي يوماً وتنقطع أياماً، والناس تتدبر أمورهم بصعوبة. فكّرت أن أبحث عن عمل خارجها. ولكن هل سأعود أمشي على قدمي مئات الكيلومترات مرة أخرى؟! فكّرت أن أهاجر إلى ألمانيا أو إلى النمسا أو إلى أي بلد آخر، لكنني قلت إنني لن أخرج قبل أن أعرف مصير عائلتي.

المشردون من النازحين أو اللاجئين مثلي في الشوارع بالمئات. إنهم يأكلون القمامة إذا وجدوا فيها شيئاً صالحاً للأكل، ويبحثون عن ماء تحت الحاويات. أيتام الحرب وجه البوسنة الأبرز في هذه الأيام السوداء، بؤس، وفقد، وحياة بلا معنى، وانطفاء، وسؤال جريح: "أين أهلي؟"، وقبله السؤال الأشدّ ألماً: "من أنا؟".

كانت تداعيات الحرب أشدّ من الحرب نفسها. البلد دخلت في نفق مظلم ليس له نهاية، ولا يلوح في أي جزء منه ضوء. الفراغ والضياء عنوان المرحلة. الضرب لا زالوا يقصفون ويقتلون في كل مكان. البنادق المشهورة. السواتر الثرابية. الوجوه العابسة. الموت في كل

يقولون إنَّ هناك اتِّفَاقِيَّةَ سلامٍ وهُدنةً تُطَبَّخُ في الأجواء. أيُّها البوسنيُّون اتَّفَقُوا مع الشَّيْطان، ولكنَّ لا تتركُونَا أَيْتامًا. لا تتركُونَا نتعذَّبُ أَكْثَرَ من ذلك. فَكَّرْتُ أنَّ أَعْمَلَ حَارِسًا لِبَعْضِ المَراكِزِ التَّجاريَّةِ الَّتِي لا تزالُ تَعْمَلُ في (توزلا)، قال لي أَحَدُهُم: "لقد عَرَّضَ عَشْرُونَ قَبْلَكَ أَيْنَ يَقُومُوا بِهَذَا العَمَلِ. لا نَسْتَطِيعُ".

أُبَحِّثُ عَنِ الفُتَاتِ أَيُّهَا السَّادَةُ، يا ثُجَّارَ الحُرُوبِ أُبَحِّثُ عَنِ لُقْمَةِ خَبِزٍ صَغِيرَةٍ فِي اليَوْمِ فَقَط. هل أنا أَطْلُبُ الكَثِيرَ؟ أنا لا أريدُ أنْ أَكُونَ عالَةً عَلَى أَحَدٍ، فَلْتَقْبَلُوا أنَّ أَعْمَلَ عِنْدَكُمْ بِالشَّخْرةِ، لكنَّ لا تتركُونِي أَمُوثَ جَوْعًا.

مَرَّ شَهْرٌ آخَرُ، كُنْتُ مُسْتَلْقِيًا مِثْلَ كَلْبٍ أَجْرَبُ فِي الشَّارِعِ، جَاءَ أَحَدُ البوسنيِّينَ، هَبَّطَ مِنْ شاحنةٍ، كانَ هَبُوطُهُ فِي تِلْكَ الظُّهيرةِ يُعَادِلُ هَبُوطَ ملائِكٍ مِنَ السَّمَاءِ، رَأَيْتُ المُشْرَدِّينَ فِي الشَّارِعِ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ، وَهُمْ يَتَعَلَّقُونَ بِهِ مُتَوَسِّلِينَ، كانَ يَبْحِثُ عَنِ غُفَالٍ فِي شَرِكَةِ تَكْرِيرِ المَلَحِ. وَهَكَذَا صَزَتْ فِي قَلْبِ الشَّاحنةِ.

اكتَشَفْتُ أنَّ المَدِينَةَ تَعُومُ عَلَى بَحْرِ مِنَ المَلَحِ، وَأَنَّ اسْمَهَا مُشْتَقٌّ مِنَ الكَلِمَةِ التُّرْكِيَّةِ (توز) الَّتِي تَعْنِي المَلَحَ، وَأَنَّ طَبَقَاتِ المَلَحِ الغَنِيَّةِ فِيهَا تَشكِّلُ مِنْ جَفَافِ بَحْرِ يُسَمَّى (بانونيا). إِنَّهَا نِعْمَةُ المَلَحِ يا قَوْمَ. المَلَحُ الَّذِي يُنْقِذُنِي ثَانِيَّةً مِنَ المَوْتِ.

أَخَذُونَا إِلَى المَصْنَعِ، لَمْ نَكُنْ نَعْرِفُ كَيْفَ يُصَنَّعُ المَلَحُ وَلَا كَيْفَ يَتَمَّ تَكْرِيزُهُ، كَانَتْ مَهْمَتُنَا نَقْلَ المَحَالِيلِ المَلحيَّةِ المَأخُوذةِ مِنَ الطَّبَقَاتِ إِلَى أَمَاكِنَ تَبخِيرِهَا. هَذِهِ المَهْمَةُ كَانَتْ تَعْتَمِدُ عَلَى نَقْلِ العَرَبَاتِ بِاليدِ،

تولّى العشرات الذين كُنْتُ أنا واحدًا منهم هذه المهمة، لم تكن شاقّة بالنسبة لكائنٍ مُرشَّحٍ للموت من الجوع في أيّة لحظة، ذلك الكائن الذي كُنْته. كُنّا ننقل عربات الملح إلى أماكن التبخير والتّنقية طَوال عشر ساعاتٍ، مقابل وجبة طعام واحدة في اليوم، و(مارك) ألماني واحد، وكان (المارك) الألماني يساوي دينارًا يوغسلافيًا. وكان هذا أكثر من كافٍ بالنسبة لي.

كُنْتُ أحتفظُ بالثلاثين ماركًا التي أحصلُ عليها طَوال الشهر وأكثفي بوجبة الطّعام الواحدة التي يُقدّمها المصنع، وكُنْتُ أبيتُ في أكواخٍ مهجورة قريبة من المصنع أنا والعُقال الآخرون، وكُنّا نجتمع أكثر من عشرين عاملًا في الكُوخ الواحد. ولم أكن خائفًا من شيءٍ أكثر من أن تُسرق (ماركاتي) التي أَدخَرُها.

دخلت اتّفاقية (دايتون) حيَظ التّنفيد في أواخر عام 1995م، كُنْتُ قد جمعتُ مالًا يُعَدُّ بالنسبة لي ثروة يوميّ، حوالي (150) ماركًا، وبدأتُ أمور البلاد الاقْتِصاديّة تنفرُج شيئًا ما، وذاتَ يومٍ قال لي أحدُ العاملين إنّه وجدَ عملاً في مصنع خشبٍ في (إيليجا) إحدى ضواحي (سراييفو). فقلْتُ له: "إنَّ لي خبرةً ممتازة في مصانع الخشب أيام المُعسكرات، ولن يجدَ صاحبُ العمل أحسنَ مِنّي لهذه المهمة". جاءَتْ حافلةٌ صغيرةٌ وحملتُ حوالي عشرةً للعمل في مصنع الخشب في (إيليجا). وهكذا انتقلتُ جنوبًا في منتصف شهر كانون الثّاني من عام 1996م إلى العمل.

كان الشّتاء والضّباب والثلج يُسيطر على الضّاحية، وكُنّا لُحْسن الحظّ نحصلُ على الدّفء من بقايا الخشب المُصنّع. مرّت الحياة

رتيبةً عاديةً في العمل، ولكنني اذخرت مالا أكثر من ذلك الذي اذخرته في مصنع الملح، وبدأت في حزيران من ذلك العام بالتفكير بالعودة إلى بيتنا في قرية (فوتشا)، كان مجرّد التفكير بالأمر يُصيبني بالرّعب. إن قرار العودة ليس سهلاً، ولكنه كان يملأ عَليّ كياني في كلّ ساعة من ليلٍ أو نهار. ماذا لو كان الضربُ الذين يسكنونه قَتلة؟! ماذا لو أنّي لم أستطع أن أواجههم؟ لحظة؛ ربّما يكون قد ظلّ على حاله بعد خرقه لم يلتفت إليه أحد، ولم يهتم بالسكن فيه آدمي! وسيفتح البيت ذراعِيه لأهله الأصليين ويُرحّب بهم. ماذا لو كان البيت ينتظرُ من ساكنيه هذه الخطوة، ويتحرّق شوقاً للقائهم؟!

بقيت في مصنع الخشب حتّى انتصفَ صيفُ ذلك العام. وعندئذٍ قرّرت العودة. اعتذرت من ربّ العمل وشكرته على الأيّام التي مضت في مصنعه، وركبت المواصلات، وأنا أحمل حوالي (500) مارك ألماني في حقيبتي، وبعض أغراض الشخصية، ومضيّث باتجاه (فوتشا).

كانت (فوتشا) حلمَ الطفولة، حلم الأيّام لا تنسى. مهد النشأة. ومرتع الذكريات الجميلة. كان مجرّد التفكير بطاولة الطعام التي كانت تجمعنا على الغداء أو العشاء يُعير فيّ أشجاءً وأشواقاً لا توصف، ويُحرّك فيّ حماسةً للعودة مهما كانت النتائج.

كنت أنظرُ إلى الأشجار التي تقذفها نافذة الحافلة التي أستقلّها في كلّ مرة خلفي وأنا ساهم الطّرف، دامع العينين. أهذه البلاد التي أملنا أن نعيش فيها؟! لقد عاشت فينا أكثر ممّا عشنا فيها، لقد جعلت

معنى للحب لم يكن مُتحققًا لولا الحنين والالتصاق بكل ذرة ترابٍ على أرضها.

وصلت إلى القرية بعد يومٍ كاملٍ من التنقل في أكثر من محطة. كانت القرية ككل القرى والمدن البوسنية الأخرى قد تعرّضت في السنوات الأربع الأخيرة إلى التطهير العرقي المُفنهج، إلى القتل والذبح والحرق والاعتقال، كانت قد مُسحت أو كادت، فماذا حلّ بها بعد كل هذا؟ هل يُمكن للعنقاء كما يقولون أن تنهض من رمادها؟ إن العنقاء نهضت من رمادٍ تحته جمر، ولكنهم حولوها إلى رمادٍ لا جمر تحته، إلى فناء لا وجود بعده، إلى موتٍ لا قيامة منه.

لقد قتلوا نصف سُكّانها، وهجروا النصف الثاني الذي تاه في الأرض يبحث عن موضعٍ لا يكون فيه موت، وإن كان هذا هدفًا عزيزًا على المُحقّق. وضفوها إلى جمهوريّة (صربسكيا)، هل يُمكن أن تتحوّل المُدن تحت حراب البنادق إلى آخرين بمجرد أنهم كانوا يملكون تلك البنادق، ويملكون القدرة على إشهارها في وجه الضّعفاء؟ هل يُمكن أن يتغيّر وجهها بمجرد أنهم جرّحوه بسكّين العنصرية الذي يخفونه تحت ثيابهم؟!

كان عددٌ كبيرٌ من سُكّانها، ومن مُلاك أراضيها الحقيقيين يخشون العودة إليها خوفًا من الانتقام. هل هناك انتقامٌ أفضغُ ممّا حدث؟ الحق لا يتحوّل ولا يتبدّل ولا يصطف إلى جانب المحتلّ مهما كانت قوّته وجبروته.

آلاف المشاعر تختلج في أعماقي. لقد تغيّر وجه (فوتشا) بالفعل، هذه الشوارع لم تعذ لها، لقد ذُمّرت بالكامل، وهذه الحقائق أحرقت.

وتلك المتاجر التي كنت أشتري منها الحلوى وأنا صغير أصبحت خاوية على عروشها، أو يقطئها الغرباء. المساجد لا تزال مُدمرة. البيوت في المناطق البوسنية ينعق فيها إلى هذه اللحظة البوم والغربان. أعمدة الكهرباء كانت حزينة. أضواء الأزقة كانت مُطفأة. وحتى نهر (درينا) الذي كان يُغني سمعته اليوم يبكي، وينوخ بأغانٍ يدمى لها القلب وهو يُنادي على أهله الذين ألقهم وألقوه.

كنا نعيش مع الضرب والكروات في هذه القرية الوايدة. كان الجار يحفظ حقّ جاره. اليوم لم يعد للبوسنيين فيها وجود. إنّ لونا واحداً في اللوحة لا يُعتبر أبداً عن حقيقة اللوحة، لقد كانت ألواناً متعددة مُبهجة، لكنهم طمسوها، ولطخوها بلونٍ بغيض هو السواد.

حين صرّث على قارعة الشارع المؤدي إلى بيتنا خفق قلبي بشدة، وتوقفت كأني صخرة مزروعة في الأرض. وشعرث بأني لا أستطيع أن أخطو خطوةً باتجاهه. ولكن: أليس بيتي؟ أليس حقي؟ فلماذا أتنازل عنه، ولماذا أخاف من أن أعود إليه؟ شجعت نفسي بألف عبارة اخترعتها آنئذٍ ومضيت.

وقفت على أول السور. هألني ما رأيث. لم أصدق أنه بيثنا. كان قد رُمّ بشكلٍ مُمتان، وأعيد طلاؤه، واعثني بحديقته، ومن هنا رأيث شجرة الثوت الأحمر التي تتوسط جنيّة البيت الصغيرة، كانت مُنتعشة ريانة كأنها لم تتأثر بجنون الحرب، شعرث نحوها بحنينٍ جارف، وارتجف جسدي كله كأنما مشته صاعقة من السماء، فيما راحت عيناي تهملان.

لَنْ يَسْرِقُوا بَيْتِي!

كنت أبكي فيما كانت شجرة الثوت تبتسم. كنت أنوخ فيما كانت البوابة تُنادي عليّ. تشجفت وخطوت حتى صرث في الحديقة، غمرثني نسائم عيلة، وملأت رثتي روائح الماضي البعيد. لم يعد ممكناً أن أراجع الآن، لقد صرث في البيت؛ ماذا بعد؟

قبل أن أطرق الباب تناهى إلي صوت طفل صغير في البيت. وحين فُتح واجهتني فتاة قدزت أنها في منتصف العشرينيات، وعرفت على الفور أنها صريّة، نظرت إلي مُستنكرة. فعاجلثها وأنا لا أكاذ أبلغ ريقى: "هذا بيتي؟". تطلعت إلي متسائلة: "بيثك؟!". "نعم". "إنه بيت يعود لأبي، وأنا أعيش فيه". "ليس لك ولا لأبيك. هذا بيتي أنا وعائلي التي قتلتموها وهَجَزْتُمُوهَا". سادث لحظة طويلة من الضفت، تطلعت حولها كأنها تريد أن تستنجد بأحد، ثم همت أن تغلق الباب في وجهي. واثنتي شجاعة لا أدري من أين جاءتني. أمسكت الباب، وصرخت: "أخرجي من البيت أنتِ وابنتك". لم تقل شيئاً، ظلث تُحدّق في بعينين مرعوبتين، ثم هتفت بعد صمت: "سيأتي أبي وسيقتلك". "إذا جاء أبوك أنا من سيقتله. قلث لك هذا بيتنا، كنت أعيش فيه أنا حارث لاتيتش وأبوي وأختي سلمى، وأنتم سرقتموه". هدأث قليلاً فيما يبدو، وهتفت: "قالوا لنا إن أهل البيت قد ماتوا جميعاً، وإننا اشتريناه من الحكومة، وصار لنا". "كذب، صحيح أنكم قتلتم أمي، لكن أختي وأبي..." وتوقفت قبل أن أتم، وعدلث عبارتي الأخيرة: "ولكنني ما زلث حيًا كما ترين". عندها قالت بصوت فيه

شيء من الرجاء: "أمهلنا أسبوعًا إذا حتى نتدبر أمرنا". "معكم ثلاثة أيام، وسأعود لأجدكم قد رحلتم، وإلا". ونطقت كلمة الأخيرة بنغمة تهديد، وأدرث لها ظهري ومضيت.

رُحْتُ أسيّر في شوارع (فوتشا) وأنا أشعر بنشوة انتصار كبيرة. لقد تغلبت على مخاوفي، وطالبت بحقي، إذا كنت قد نجوت من الموت خلال السنوات الأربع الأخيرة، فأنتي مستعدّة الآن إلى الموت في سبيل أن أعود إلى بيتي وأنتزع حقي.

استعدت سيلاً مُتدفّقًا من الذكريات الجميلة في كل مكانٍ مررت به. رأيت جامع (الأدوا) ما زال مُهدّمًا بأسوأِ مَما رأيتُه يومَ اعتقالوني، لم يعد المسجد دوحة الأمان والرضا، وموئل الأُنس والسّلام كما كان. لقد حلّ محلّها الوحشة والخوف، تذكّرت الشيخ (شريف)، ومنظره مُعلّقًا على بابهِ عاريًا إلّا من عمامته، وقرأت على روحه الفاتحة. ومررت بالحديقة التي كنّا نصيد فيها الفراشات أنا وأختي، ولم أجد فيها إلّا الرّخم وغير السّواد والفحم. وتخيّلت مئات الجثث التي تحلّت تحتهّا، ولم يبقَ منها إلّا أسنانٌ جماجمها، وأربطة الأحذية التي كانوا يُقيّدون أيدي المقتولين بها خلف ظهورهم، واستعبرت.

قضيت أيام المُهلة الثلاثة في الحديقة، كنتُ أشتري من المال الذي معي طعامًا، وأضعُ الحقيبة التي معي تحت رأسي، وأناّم دون أن أشعرَ بخوفٍ من لُصٍّ أو قاتل. كان شعورُ اللامبالاة وعدم الاكتراث يُسيطران عليّ طوال الوقت. وفي الثّوم، كنتُ أحلمُ بالموتى المدفونين تحت الحديقة، يخرجون من بين الثّرى، يجلسون

معي حول نارٍ موقدةٍ في الوسط، ونبدأ نغني، أو نتحدث عن الأيام الخلوة، وكان بعضهم يقول لي: "لقد غدت أخيرًا".

في اليوم الرابع بعد انقضاء المهلة توجهت إلى بيتنا. كنت مُصمِّمًا على أن أنتزعه بأيّة طريقة ولو أدى ذلك إلى موتي. في منتصف المسافة غيَّرت الطريق ومضيت إلى الشوق. كان مَنْ في الشوق صرَبًا أو أكثرهم كذلك. رأيت جنديًا يحمل بندقيّة، أوقفه وسألته: "أريدُ بندقيّة". نظرَ نحوي وتحفّز، قلثَ له: "سأدفعُ ثمنها، ذلّني على أحدٍ يبيعُ البنادق". خَفَفَ ذِكرُ المال من حِدّة الموقف، وسأل ليتأكّد: "تريدُ أن تشتري بندقيّة؟". أجبته: "نعم". ضَحِكَ وهو يسيّرُ إلى التي يتجنّد بها: "هذه البندقيّة للبيع". "بكم؟". صمّت قبل أن يُجيب: "بمئة مارك ألماني"، قلثَ مُستنكرًا: "هذا سِعْرٌ مرتفع، فيما مضى لم تكن تُباع بأكثر من عشرة ماركات ألمانيّة، أو ثَقايضُ بعلبتي سجائر". "وهل معك سجائر؟". "لا. ولكنّ علبة السجائر بخمسة ماركات". "أنتَ تحلم. كان هذا قبل الحرب. الآن علبة السجائر بخمسة وعشرين ماركًا". "أعطيك في البندقيّة ثلاثين". "بل أريدُ خمسين" "سأشتري من غيرك. يبدو أنّك لا تعرفُ الأسعار". كنتُ أهجسُ بالأسعار من خيالي، وتظاهرتُ بأنني أعطيه ظهري وأنصرف، حينها قال: "أقبلُ بأربعين". فقلت: "بأربعين مع ثلاثة أمشاطٍ من الرصاص". ضَحِكَ وهو يقول: "أنتَ تاجرٌ مُحنك". أخذتُ البندقيّة مع الرصاصات، وأعطيته أربعين ماركًا، ومضيتُ باتجاه البيت.

على السور الخارجي لَقَفْتُ البندقيّة، ودخلتُ بثقةٍ أكبرٍ من السابقة. فتحتُ الفتاةَ نفسها الباب. هتفتُ قبل أن أُلقي الثّحية: "جئتُ لأستردّ بيتي". "قلثَ لك أمهلنا أسبوعًا". رفعتُ البندقيّة

وصوبتها إلى وجهها: "اخرجي الآن أنتِ وابْنُكِ وإلا فُجِزَتْ رأسُكِ".
أصابها الدُّعْر، هُرِغَتْ إلى الدَّاخل، حملت ابْنها وخرجت حافِية،
وكانت تصرخ وتقول: "سأجعلُ أبي يقتلك". نادیثها: "يا سيدة، خُذي
متاعكِ ومتاع ابْنكِ، أنا لستُ سارقًا، أنا أستعيدُ حقِّي". توقَّفت. لم
تُصدِّق. كزرت: "احملي ما شئت من المتاع، وسأعطيك عشرة ماركات
من أجل أن تستأجري حافلةً تُوصلكِ إلى أهلك".

دخلت إلى البيت بعد أن خرجت منه الصَّربية وابتها على ذراعها
وهي ثولول. لقد غُذت هذه المزة بالفعل. طُفَتْ أتلَقَس الجدران،
قَبَلْثُها، ومسحَّها عليها بأصابعي كما يَمسُحُ العاشق على خَد حبيبته،
دخلت أوَّل ما دخلت إلى الغرفة التي قُتِلَتْ فيها أُمِّي، كان طيفُها
لا يزال يحوم في الأرجاء. قلْتُ والذَّموع تنسابُ على وجهي:
"سامحيني يا أُمِّي. لم أكنُ أستطيع أن أفعل شيئًا. كنتُ طفلًا.
سامخني يا أبي. سامحيني يا أختي". بقيت طَوال النَّهار أتجول في
البيت الذي ضَمَّ العائلة التي كانت، أتذكر كل لحظة، وأستعيدُ كلَّ
ذكري.

فكزْتُ بعد أن هبطَ اللَّيل أن أخرجَ ثانيةً إلى الشَّوق وأبحثُ عمن
يبيعني القنابل أو الألغام، كنتُ أتوقَّع زُوار اللَّيل، خفتُ أن تأتي
قُوَّة صربية لتقتلني. لكنني سأدافع عن البيت كما لو كان دفاعًا عن
وجودي، دفاعًا عن وطني، دفاعًا عن هُويَّتي، لن أسمح لأحد أن
يأخذه مِنِّي ولو طوَّقَتْه كتيبةٌ كاملةٌ من الجيش الصَّربي، سأموثُ
دونه وأنا راضٍ.

لم أخرج من أجل ذلك. وضعتُ البندقيَّة على الثَّقِيم، وبقيتُ

متأهبًا لأي طارئ. لم يحدث شيء في الليلة الأولى ولا الثانية، وباستثناء بعض الطلقات التي كانت تطيش حول البيت من مجهولين بين الفينة والأخرى فلم أرَ قوّة أو مجموعة من الجنود تدهم البيت. صاحب الحق منفردًا أقوى من جيش على باطل.

بدأت أفكر بالطريقة التي أجد فيها أبي وأختي إذا كانا لا يزالان حيّين. البحث في سجلات المستشفيات التي عادت للعمل. البحث في قوائم الناجين، في المراكز التي تهتم بالمنفيين وبضحايا الحروب. مرّ شهر من البحث الحثيث، ولم أهتم إلى طرف خيط يدلني عليهما، حظ غراب الياس في أعماقي وعشش، في لحظات اليأس كنت أقول: "لقد ماتا. لماذا ترهق نفسك بالبحث عنهما. انتبه لحياتك المتبقية. ما فات مات". ولكنني في لحظات أخرى كنت أتخيلهما قادمين من البوابة الخارجية وهما يضحكان، وأنهما يجلسان معي على طاولة الطعام، لم أستطع أن أتخلص من الماضي، كان الماضي يسيل في دمي.

بدأت نقودي تنفذ. لا بُد من العمل. صار الجوع أقل. ولكن الحياة لا تسير من دون مال. بدأت البحث عن عمل. فكّرت في أن أعمل مؤدّنًا أو إمامًا في أحد الجوامع فأنا أحفظ قدرًا ممتازًا من القرآن، وأعرف بعض الأحكام الشرعية من الشيخ (شريف). ولكن الجوامع كانت كلّها مهذّمة، لم يكن قد بدأ العمل على ترميمها، كانت الأولوية في إعادة البناء للمؤسسات الحكومية والمستشفيات والمدارس.

وجدت عملاً ثانية في مصنع للخشب، خبرتي الطويلة في ذلك سهّلت لي الحصول على الوظيفة، وقبل أن أبدأ أول يوم في عملي

الجديد، اشتريث كلب حراسةٍ أسودَ ضخماً، ودرّبته على أن ينهش لحمَ أيّ مُتطفّلٍ على البيت. واشتريث أقفالاً جديدةً للأبواب، وفكّرث في أن أكهربَ السورَ الخارجي للحديقة، لن أسمحَ لأيّ صربي ولا لسواه أن يسرقَ مني البيت مرةً ثانية.

كان لديّ وقتٌ كافٍ بعدَ ساعات العمل أن أطالع الأخبار في الجرائد. بدأتِ المُنظّمات الأُمميّة تعمل من أجل أن تُعالجَ الجروح والتّصدّعات التي نتجت عن الحرب. كان هناك منظمّات تسجيل أسماء الشّهداء والمفقودين. تعرّفث على كلّ مَنْ فيها. وتواصلث معهم جميعاً.

كانت الحرب في الثّلاث الأخير من عام 1996م قد وضعت أوزارها، أو هكذا كنّا نأمل. سافرث إلى (سراييفو) لأبحث في (معهد البوسنة والهرسك للمفقودين) عن أختي وأبي، قالوا لي إنّ قائمته هي الأوسع من بين المُنظّمات العاملة في المجال نفسه. كان المعهد يعمل على توثيق أسماء الشّهداء، ويقوم بفحوص الـ (DNA) لرفات الموتى وتأكيد هُويّتهم، ولديه فريقٌ خاصٌ يعمل على تحديد المقابر الجماعيّة التي كانت بالآلاف، وأنا حفرتُ بنفسِي تحت التّهديد العشرات منها. وكانوا يعملون على انتشال بقاياهم وتحديد هُويّاتهم وتسليمهم إلى عائلاتهم. وكانت لديه كذلك أسماء الذين بقوا أحياءً وتوزّعوا على مراكز اللاجئين المُنتشرة في أكثر أنحاء البوسنة والهرسك.

بحفث في القوائم المُتاحة عن اسم أبي ولكنني لم أعثر له على أثر. كادث خيبة الأمل تفتك بي، لولا أنّني استعذّته حينَ بدأت بقراءة

أسماء الإناث الذين توزّعوا على المراكز، لم تكن الأسماء مُرتّبة بشكل هجائي أو بأي نوع من الترتيب، فاضطررت إلى البحث في عشرات الآلاف من الأسماء، بقيت في هذا الأمر يومين، وفي النهاية لاح خيط من الثور، عثرت على اسم (سلمى)، واتسعت حدقتا عيني بحيث إنني لم أعد أرى، أعدت التركيز في الاسم، كان: (سلمى عبد الرحمن لاتيتش)، وصرخت "إنها أختي... إنها أختي...". انتبه إليّ أحد العاملين في المعهد، وهرع إليّ، أشدّ إلى الاسم وكررت صرختي: "إنها أختي"، وساعدني في التأكد من بقية المعلومات، العمر: اثنا عشر عامًا. اسم المكان: ملجأ (سوسنيتشا) للأيتام. سألت العامل وأنا غير مُصدّق: "وأين يقع هذا الملجأ؟". فردّ: "هو في إحدى ضواحي (سراييفو)، لا يبعد عن هنا أكثر من عشرة كيلومترات. لكن عليك أن تنتظر إلى الصباح، فهو الآن مُغلّق".

الحرب التي سَرَقَتْ أُخْتِي الجميلة!

خرجت من المركز أجري، لم أستطع أن أنتظر حتى الصباح كما قال العامل. استأجرت سيارة، قال لي: "لا يوجد بنزين كما تعلم. إنها الحرب. نحن نأخذ إلى (سوسنيتشا) عشرة ماركات" وافقت دون أن أفأوضه، كنت مُستعدًا أن أدفع له مئة مارك لو طلب ذلك.

وصلت إلى الملجأ حوالي الساعة السادسة من مساء ذلك اليوم، كان الملجأ يقع في منطقة هادئة، كان مُكوّنًا من طابقين، وأمامه حديقة يلعب فيها الأطفال، وتحيط به أشجار الصنوبر من كل جهة. نزلت من السيارة وتوجّهت للبوابة مباشرة، قال لي الحارس: "تعال في الصباح". "أختي هنا. أريد أن أراها.". "البوابات أُغِلِّقت. قلت لك تعال غدًا". لم تكن لدي نية للمجادلة أكثر. توجّهت إلى الجرس الخارجي ضربت عليه بقوة، تدخل الحارس، أراد أن يمنعني بالقوة، قلت له: "لن أعود دون أختي". في غمرة الجدل خرجت قيمة المركز، حلّت الخلاف بسهولة: "تفضل". تبغثها مثل قِط أليف، عبرت بي الممرّات حتى أدخلتني إلى مكتبها. سألتني. قلت: "أختي اسفها سلمى لاتيتش". راحت تتفحص السجل الذي أمامها، نقرت بإصبعها على موضع ما، وهتفت: "ها هو". قفز قلبي فرحًا. وأردفت: "الغرفة (12) في الطابق الثاني. اتبغني". وقفنا أمام باب الغرفة، صوت خوت المحيطات هو صوت قلبي، هل يمكن أن أرى أختي بعد غُهور الموت حية؟! هل هي أم أنه تشابه أسماء؟! دخلنا إلى غرفة فيها أربع فتيات. أربعة أسرة تتوزع على زوايا الغرفة، أشارت القيمة إلى

الفتاة الأبعد عن يسار الباب: "تلك". أرسلت نظرة الخوف والخب والقلق والثرقب معًا. تلاقث عيناها، عرفتها: إنها هي حقًا. صرخت: "سلمى". نظرت إلي ولم تعرفني، كنت قد صرث طويلاً، وغير التعذيب بعض تضاريس جسدي، هتفت ثانية: "سلمى أنا أخوك". تحرك شيء ما في قلبها، أريد أن أركض وأحتضنها، ولكنني خفت من ردة فعلها ما دامت لم تعرفني حتى الآن. اقتربت حتى صارت في مواجهتي تمامًا. انحنيت حتى صار وجهي قريبًا من وجهها، وابتسفت ابتسامة واسعة، وكذت أبكي أمامها لولا أنني تماسكت لأقول: "الفراشات يا سلمى. الفراشات. هل تذكرين؟". ضربت صاعقة الذكرى في مكان ما من عقلها لم يهترئ بعد، لمعت عيناها، وأشرق وجهها، وهتفت: "من يصيد فراشات أكثر يأخذ شطيرة الآخر؟! وانهار كل سد.

أخذتها بين ذراعي: "سلمى.. سلمى.. سلمى..." كنت أنتظر هذه اللحظة أربع سنوات، لا أحد يدري كم تعذبت لأجلها. توجهنا معًا ثانية إلى مكتب المديرية. "تقضي الإجراءات أن ننتظر أسبوعًا حتى تتسلم أختك، ولكنها الحرب". هتفت مؤمنًا: "إنها الحرب يا سيدي". وأضافت: "سوف تسمح لتيمة أخرى أن تحظى بسريرها". قلت وأنا جذلان: "فليبارك الرب من حل مكانها". وأردفت بيني وبين نفسي: "إنها ليست يتيمة. من قال لك إن أبانا قد مات".

غابت المديرية من أجل إتمام الإجراءات حوالي ثلث ساعة، ثم عادت ووجهت كلامها لسلمي: "ستأخذين كل ما يتعلق بك؟". هزت أختي رأسها موافقة. "والولد؟". الولد!! أرسلت نظرة مستريبة إلى المديرية، ثم حولتها إلى أختي: "هل هناك ولد؟". ردت سلمى: "ماذا؟!

ألا تريد أن يأتي معنا؟". تشوّشْتُ، لا أدري كيف صار هناك ولدٌ في المسألة. سألت أختي مُستطِلِّعًا مع شيءٍ من الشك: "هل أنجبت ولداً؟". ردت وهي تُشيخ برأسها يمينًا، ونبرة الحزن واللامبالاة في كلماتها: "نعم"، وسكّث برهة قصيرة قبل أن تعقّد يديها وتُغطّي بهما النصف الأسفل من وجهها: "من الاغتصاب". ومزّت لحظات صمت بيننا جميعًا، قبل أن تقول (سلمى): "هل ذلك يغيّر في الأمر شيئاً؟". نفضت رأسي نفَضَاتٍ كثيرة قبل أن أقول: "لا.. لا... أنا مُشوّشٌ قليلاً فقط. على الزّحَب والسّعة، سيعودُ بالطّبع معًا". وأردفت متصنِّعًا الذّعابة: "سيعودُ مع خاله".

حينَ خرجنا من ملجأ الأيتام، كانتِ الشّمسُ تختفي رويدًا رويدًا خلف الأشجار الطّويلة، كانت أشعتها قد بردت إلى الحدّ الذي يجعل موجةً من الرّضا تنداحُ في الأعماق. استأجرتُ سيارةً، وغدنا معًا إلى (فوتشا).

في الطّريق كانت صامتة. أسألها ولا تُجيب. أخرجت سيجارة وأشعلتها وراحت تُدخّن بشراهة. يبدو أن المفاجآت لا تتوقّف اليوم. سألتها مُحاولاً أن أبدي شيئًا من التّفهم: "أنتِ تُدخّنين؟". لم تُجب. سألتها ثانية. ردت: "نعم". كانت لفظةً مشحونة بالانزعاج من أسئلتي ومن تدخّلي في شؤونها الخاصّة على ما يبدو. صمت. قطعنا الطّرق من سراييفو إلى (فوشتا) ونحنُ خُزّشٌ تقريبيًا. كنتُ أنتظر أن نفيضَ بالحديث، وأن نحكي كل شيءٍ، لكن يبدو أن الأمر ما زال مُبكّرًا على مثل هذا. نظرتُ إلى الطّفل الذي تضعه إلى جانبها في الكرسيّ الخلفي من السّيارة، بدا وسيقًا جدًّا، وقدزّت أن عمره سنة أو أكثر قليلًا. أردتُ بالفعل أن أسألها عن عمره، ولكنني خفتُ أن أزعجها. أن

أسألها كيف أنجبته، ومن أبوه، وفي أي مكان، ومتى؟! ولكنني كنت قد
هذه الأسئلة كلها، وقلت لا بأس من سؤال يتيم. وتشجعت، فقلت:
"أختي الغالية، ما اسم ابنك هذا؟" ردّت وهي لا تزال تنفث دخان
سيجارتها في الأجواء: "فيليب". وكادت تتفجر مني صرخة عالية،
لولا أنني وضعت يدي على فمي، واستبدلت بها نحنة متذبذبة،
وقلت: "فيليب. إنه اسم مسيحي". ولم تردّ. وأردفت: "نحن مسلمون
أنسيّت؟". ولم تردّ. "إنّ لدينا أسماء جميلة. لماذا لم تُسمّه اسماً من
أسمائنا؟". ولم تنبس بحرف، تابعت تدخين سيجارتها بصمت.

وصلنا إلى بلدة (فوتشا) حوالي العاشرة مساءً. توقفنا على
حواجز عدة في الطريق، كانوا يفتشون السيارات بحثاً عن الأسلحة
والفخدرات، ويدققون أحياناً في الهويات، مع أنّ الشعب البوسني
يومئذ كان بلا هوية. نبخ الكلب الذي على باب البيت مُرحباً بي. قلت
له وأنا أمسح على رأسه: "رحّب بأختي وابنها. سيعيشان معنا في
هذا البيت الأنيق".

دخلنا. هُرعت إلى غرفتها، كانت مُذهلة، طافت البيت وابئها على
ذراعها، وهي تمسح دموعها بكفها الأخرى. قلت لها: "ستعود العائلة.
قد تكون الفرحة ناقصة. ولكن شيئاً من الفرح أحسن من السواد
القاتم الذي غلّف حياتنا. نحن أبناء اليوم. كلّ ما في البيت لك. أنا
أعمل. وأكسب نقوداً لا بأس بها، تكفيني وتكفيك وتكفي ابنك. لقد
مِت ألف مرة قبل أن أعيش اليوم".

أخذتها إلى غرفة الطفل التي كانت العائلة الضريبة قد وضعت
فيها سريرًا لابنها. قلت لها: "هذا المهد لابنك". ردّت: "اشتريته؟".

"لا. كان لابن العائلة الضريبة التي احتلت بيتنا". "لا أريده. الضرب قذرون". ابتسفت: "الآن أحظمه لأجل هذه الكلمة. سأشتري لك غذا أحسن مهدي في البوسنة كلها".

مرت الأيام. إنها تمر، ما الذي سيوقفها؟! كانت أختي لا تقول في اليوم الكامل سوى بضع كلمات. كانت بخيلة جدًا في هذا الشأن. وكانت لا ترضع ابنها، وكانت تهمله إهمالاً واضحاً، وتقضي وقتها في التدخين، وكلما نصختها أن تهتم بطفلها صمتت، أو أشاحت برأسها بعيداً، وفي المرات القليلة التي كانت تتكلم، تقول: "لا أريده. إنه ابني من الاغتصاب"، فأحاول أن أهدي من روعيها وأقول لها: "ولكنه ابنك على أية حال". "إنه قذر". وانخرطت بعدها في البكاء.

كانت تجلس على الشرفة التي عن يمين المدخل، وتدخن طوال الوقت. وكانت تطلب مني نقوداً لتشتري به حليباً لابنها، فأعطيها كل ما تطلب وفوق ما تطلب، كنت أحبها؛ كيف لا يحب الأخ أخته؟! لقد تعبث كثيراً حتى وجذتها، وعانيت حتى تكون في بيتي، لم أكسر لها خاطراً، ولم أرفض لها طلباً. ولكنها كانت تشتري بالنقود التي أعطيها لها خمراً وسجائر. وتقضي الوقت على الشرفة وهي تدخن وتشرب.

قلت لها ذات مرة: "هل رأيت أبي؟!". ردّت باستهزاء: "أبوك مات في ذلك اليوم المشؤوم". "هل أنت متأكدة؟!". "أبوك مات. لا تتعب نفسك في البحث عنه". "إنه أبونا يا سلمى، لقد كان حنوناً علينا مثل أمي وزيادة، كيف تطاوعك نفسك أن تقولي هذا". "انس أمره. افرض أنه ما زال حياً. هو ميت بالنسبة لي". وتركناها وأنا أبكي.

صارت أختي تخرج من البيت. وحين أسالها: "إلى أين؟". تقول: "لا

شأن لك". وكنت أحاول التلطف معها حتى لا أغضبها. ورأيثها مرة
قد تزيتت، ولبست ثيابًا قصيرة ولطخت وجهها بالمكياج، فوقفث
هذه المرة في طريقها: "لن تخرجي". "ليس لك سلطة عليّ ل تمنعني".
"بل لي سلطة. أنا أخوك الكبير، وأنت لا تزالين طفلة، أنت في الرابعة
عشرة من عمرك. هل جئت؟". "نعم جئت حين قبلت العودة معك".
وأردت أن ألين لهجتي معها: "ولكن يا أختي أنا أخاف عليك. ما
زال الوضع في بلادنا خطيرًا". "لقد كان هكذا على الدوام". "طيب،
سأتي معك". وضحكت ضحكة مُجلجلة، وقالت: "هل تعرف إلى
أين أنا ذاهبة؟ أنا ذاهبة إلى حفلة رقص. هل تريد أن تأتي معي أيها
الإمام؟". "أستغفر الله. أرجوك يا أختي لا تذهبي". وانسلت من تحت
ذراعي وخرجت.

عادت في تلك الليلة مخمورة. كانت رائحتها كريهة، وكانت تشتم
طوال الوقت وتلعن كل شيء. ولم تعد تهتم بابنها أبدًا، وصارت
تسهز كثيرًا. وعرفت أنني أفقدها، وأني توقفت في رحلة البحث
الطويلة عنها شيئًا والذي حدث شيء آخر. وبعد أن كنت أعد كل
ثانية من أجل أن أراها صرث أتحاشى النظر إليها، ولم تكن هي ثقيم
للبيت أو لي أو لابنها أي اعتبار، وشعرث بطعم المرارة في فمي.
وكنت في الخلوات أبكي، وأقول: "أهذه أختي التي قاتلت من أجل
أن أجدها؟! أهذه التي كانت صغيرتي وأثيرتي وحببتي؟! أهذه التي
كانت تصيد الفراشات معي؟! إنها ليست أختي. ليست أختي ولا
تشبهها، أيتها الحرب اللعينة أعيدي لي أختي الجميلة التي سرقثها
مني!!

ذات يوم تسلت إلى غرفتها. كانت قد خرجت لإحدى سهراتها،

وتركت ابنها يبكي. فتشئت في الأدراج. وجذت شيئاً صعقني؛ إنها تتناول المخدرات. وتساءلت: من أين تأتي بالنقود لشراء المخدرات؟ إن النقود التي أعطيها لها لا تكفي لغير احتياجاتها واحتياجات ابنها الضرورية؟ وتخيلت أنها ربما تشتري النوع الزخيف من المخدرات، أو أنها تبيع جسدها مقابل جرعة واحدة!

(63)

يا أخي

لقد استعذت بيتي، ولكن استعادة أختي كانت شيئاً آخر. كانت استعادة مسلوقة. نعم؛ عادت إلى البيت ولكنها لم تعد. هذه ليست أختي التي أعرفها، أو التي كنت أعرفها. وما زلت لا أعرف شيئاً كثيراً. إن (فيليب) هذا ينشأ نشأة مضطربة. لعنة الله على الشيطان، ومن ينشأ في الحرب نشأة طبيعية؟ لماذا كانت الحرب؟ من أجل أية غاية؟ ما الذي حققه الضرب والكروات والبوسنيون من ورائها؟ ما الذي قَدَّمته الحرب غير الخراب والضياع؟!

الناس بدأت تنبش القبور الجماعية، تبحث عن رفات أحبائها. تبكي بكاءً كان مُوجعاً. ليت البكاء يأتي في وقته. أحزان البوسنيين لا نهاية لها. النعوش تُحمل فوق الأكتاف، الذين لم يستطع أن يحلمهم ذوهم وهم أحياء ويحملونهم من الطلقات العمياء ها هم يحملونهم في هذه النعوش الخضراء، أو يحملون ما تبقى من عظامهم، كل شبر في البوسنة فيه قبر، كل أرض في بلادنا تخفي تحتها مقبرة جماعية.

يخز الأب أمام نعش ابنه الوحيد، الأب الثمانيني يبكي نعشاً واحداً من مئات النعوش التي تنتشر عن يمينه ويساره ومن أمامه وورائه، إنه نقطة في بحر الموت، كان لون بحر الموت أخضر، كان لون وجه الأب أحمر، كانت لوحة لا يمكن أن تظفر بمثلها في العالم كله إلا في البوسنة، بلد المذابح التي لم يمز مثلها في التاريخ.

كانت بعض القبور الجماعية التي حُفرت تُظهر مجموعة من القتلى مُكومين في حفرة شبه دائرية، وقد تحوّلوا مع ملابسهم التي قُتلوا فيها إلى موميات، هل رأيت الموميات الفرعونية؟! إنّ لدينا في البوسنة نُسخًا حديثة منها، كان على مجموعات البحث هذه أن تفصل كل مومياء عن الأخرى، فيما بدا أنّهم كانوا يلتفون حول بعضهم بعضًا في محاولة يائسة للنجاة.

تسلّلت ثانية إلى غرفتها وهي في إحدى سَهَراتها. وجذت في أحد الأدراج دفتر رسم. أختي كانت تُحب الرسم. وكان أبي يشتري لها الألوان والأوراق. كان الدفتر يضم لوحات لا تنتمي إلى الآدمية، فهفت شيئًا من اللغز، فهفت طرفًا من الأذى الذي تعرّضت له أختي، إنّها تحتاج إلى فريق كامل من الأطباء النفسيين من أجل علاجها، أو ترميم جروح روحها.

كانت إحدى الرسوم تُظهر طفلة تقرفض وهي تحاول أن تتقي بكفيها الصغيرتين المرفوعتين أمام وجهها يدًا ضلبة خَشنة طويلة تمتد إليها، كان نصف وجه الضحية يغرّق في السواد، فيما كانت العين في النصف الظاهر تنضخ بالرعب والزجاج، ماذا تفعل يدان صغيرتان أمام كف متوحشة قادرة على فعل كل شيء؟!

لوحة أخرى كانت تُظهر طفلة نحيلة مُمددة على ظهرها فوق الأرض تلبس ثوبًا رقيقًا أزرق قد انكشف عن ساقبيها، وهي تفرد ذراعيها على اتساعهما باستسلام، فيما كان هناك ذئب قد تمدّد فوقها له ذراعا بشريّ وساقاه، ولكن رأسه رأس ذئب يُكشّر عن أنيابه، ويرتفع خلفه ذيله الأسود المعقوف، فيما كانت خطواته التي عبر

بَها الباب إلى منتصف الغرفة حيث الطفلة مصطبغة باللون الأحمر، وكانت أنياب الذئب تقطر. ووجهه يهَم أن يلتهم عُقّ الطفلة.

عادت أختي من إحدى سَهراتِها. دخلت إلى غرفتها، نظرت إليّ كأنها تقول: "اخرج من هنا". تناولت كرسيًا وجلست بالقرب منها، أخرجت سيجارة، أخذت القذاحة منها، وأشعلتها وقربتها من طرف سيجارتها، فنظرت إليّ وقد شعرت بطمأنينة، عَبَثَ نَفْسًا فتجمر الظرف. أخذت تنفث دُخان السيجارة في فضاء الغرفة وهي صامتة، فيما كان ابنتها يلعبُ خلفها بإحدى الألعاب ويلعُ ببعض الكلمات. انتظرتُ حتّى انتهت من سيجارتها ولم أقل شيئًا، ثم تناولت سيجارةً أخرى، فسارَغتُ بإشعالها لها كما في المرة الأولى، وزادت معها جرعة الطمأنينة. سألتها: "ألا تريدان أن تتحدثي؟". "لا". "لماذا؟". "أنت لا تعرف شيئًا ولا تفهم". هزئت رأسي موافقًا: "بالطبع؛ لا أعرف عَمَّا مررت به شيئًا. ولهذا أنا أسألك؟". "ما الجدوى؟". "أن أساعدك". "ساعد نفسك". "حينَ أساعدك فأنا أساعد نفسي". "لا أريدُ مساعدةً من أحدٍ". "ولكن هل يُرضيك ما تقومين به؟!". أَرَمَ سُؤالي الأخير الموقفَ قليلًا، فنظرت إليّ وهي تُضيق عينيها: "مَن يهتم؟!". "أنا". "قلْ لك دغني وشأني". "لن أسمع أن تسير الأمور بهذا الشكل". وكانت هذه العبارة قد فجرت الموقف. نهضت على قَدَميها، وراحت تصرخ: "مَن أنت حتّى تسمح أو لا تسمح؟!". اقتربت منها لكي أهدئ الأوضاع: "أنا أخوك". "لا أعرف لي أخًا ولا أبًا ولا أُمًّا. اتركني أعش كما أريد". وراحت تضربُ بكفيها على صدري، وتخمشُ وجهي في حركة هستيرية، تركتها تفعل ما تريد، حتّى فرَغت شيئًا من غضبها، وبدأت حِدّة ضرباتها تخف. اقتربت في هذه اللحظة

منها، واحتضنتها، وهمست: "لقد رأيت دفتر رسوماتك. شيء فظيع. شيء لا يُحتمل. أنا أعرف الآن". أرخت رأسها على صدري باستسلام، فيما بدا أنني نجحت في تهدئتها، قالت وهي تضع باطن كفها على يمين صدري عند وجهها الذي ثريخه هناك: "لا أريد أن أعيش". "الحرب انتهت يا أختي". "الحرب لم تنته". "ها نحن معًا. ألا يكفي هذا من أجل أن ننظر إلى حياتنا؟". وكأنها تذكرت شيئًا، فرفعت وجهها وابتعدت خطوتين، وصرخت: "لا يكفي... أنا حشرة. أنا نكرة. أنا أكرهك. أكره كل الرجال. أنتم كلاب. إذا لم تدغني وشأني فسأنتحر". ثم اقتربت مني وراحت تضربني بكامل قوتها، احتضنتها هذه المرة بقوة أكبر من السابقة، بقيت ألف ذراعٍ حولها وأنا أبكي وأقول: "لن أتركك حتى تقولي لي كل شيء. أنا أخوك. أنا جدارك. أنا من سيحميك. ثقي بي. إذا أردت مساعدةً من شخص فلن تجدي أفضل مني. يا سلمى أنا أحبك. نحن هبطنا إلى هذه الأرض التَّعيسة من بطن واحدة. أمنا واحدة. كان حنائها وحنان أبي لي ولك، لم يفرقًا بيننا، نحن عائلةٌ حقيقية. يجب أن تقولي لي كل شيء".

خارث قواها. كادَتْ تسقط من بين ذراعِي. حملتها ووضعتها على السرير. كانت بحاجةً للنوم. غطيَّتها. وخرجت إلى الشرفة. غرقت في الذكريات الأليمة. خيَّل لي أنني أسمع صوتَ النهر. استرجعت صوتَ أبي وهو يقول لي هنا قبلَ سنواتٍ سحيقة: "أترى هذه الورود الحمراء في تلك السهوب، وتلك الزنابق البيضاء على ضفاف نهر درينا؟! لو حفرْتَ تحتها لوجدتَ جماجمَ فارغةٍ العيون فاعرةٍ الأفواه". إنَّ ما فعلته بنا الحرب أكبرُ من كلِّ كلام. وراحت دموعي تنسابُ على خدي.

أيقظني من خيالاتي صوت ابن أختي. دخلت إلى الغرفة كان يلعب ويقفز ويضحك، فيما كانت أختي لا تزال نائمة، حملته وغذت به إلى الشرفة، رُخت ألعبه، وأضحك معه، أتيث بالكرة، ورحت أدفعها باتجاه فيتلقاها وهو يضحك، وسناه الأماميتان الوحيدتان تزيديان ضحكته إشراقًا. "هيا يا (فيليب). ادفع الكرة باتجاهي". ودفعها فيما غصصت وأنا أرى ضحكته التي تكرر في الشرفة. أنت لست (فيليب)، أنت منذ اليوم (حميد)، أنت ستكبر وتصبح مثل الدكتور (حميد)، طبيبًا يُنقذ الناس بيد، ويرفع البندقية بيد. لن أناديك (فيليب)، لا بُد أنهم سَمَوْكَ بذلك في الملجأ. الملجأ يُشرف عليه الصليب الأحمر أو منظمة أخرى تُسقي هذه الفسقيات التي لا نعرفها ولا تنتمي إلينا. لينادِكَ الناس ما شاؤوا، أما أنا فساناديك (حميد)، وسيكون هذا سِرنا الصغير. ما رأيك؟ وراح يضحك.

سمعتُ خُطوات أختي من الداخل. جاءت إلى الشرفة ولم تُعزني أنا وطفلها أي اهتمام. جلست على كرسي، وعقدت إحدى ساقيها فوق الأخرى، وتناولت سيجارتها كالعادة وراحت تُدخن وهي صامتة. ناولت الكرة لابنها، وجلست إلى جانبها. كان يبدو عليها الهدوء والصفاء أو هكذا قذرت. وحدثت نفسي: إنها اللحظة المناسبة لأستمر معها في حديثي السابق.

أشزت إلى (حميد) الذي يلعب، وقلت: "انظري إليه. ما شاء الله. إنه جميل" وأردفت وأنا أضحك: "بالطبع سيكون جميلًا، ولكنه ليس أجمل من أمه". ولم تحرك الكلمة فيها ساكنًا باستثناء دوائر الدخان التي تصعد بكثافة. قلت: "إنه ولد ذكي. سنعلمه في أحسن المدارس. وسيكون بوسنيًا رائعًا". ظلت على صمتها. "في أي

مُستشفى أنجبته؟". وشعرث أنها حرَّكت جذعها إلى الأمام بوصة،
وأنها تريد أن تقول شيئًا، ولكنها ظلت صامتة. "لا بُدَّ أن حملَه على
طفلة في العاشرة أو الحادية عشرة صعب". قالت دون أن تنظر إلي:
"وماذا تعرف أنت عن حمل الأمهات؟! أنتم الرجال ماذا تعرفون؟!".
وفرخت أنها استجابت أخيرًا، فأردفت: "ليس كثيرًا، فأنا لم أجرب
الحمل في حياتي" وضحكك مُتوقعًا أن تجاريني في ضحكي.
ولم تفعل. وتابعت: "الذي أعرفه أن حمل الأمهات وخاصة إذا كنَّ
صغيرات إلى هذا الحد في السنَّ يُسبب آلامًا لا تُطاق"، وحينها فقط
التفتت نحوي، وتحركت شفتاها وهمت أن تقول، فشجَّعتها بنظرة
مئي، فقالت بعد تردد: "لأصعب من الحمل والولادة النَّظرُ إليه بعد أن
يخرج من أحشائي". "كيف؟ ألا تُحب الأم أن تنظر إلى رضيعها؟!".
"يا أخي..." وبكى، بكى على الحقيقة، لأوَّل مرَّة تقول لي يا أخي.
وكاد دموعي تُفقدني سماع الجملة التي ستقولها بعد (يا أخي).
ولكنني سمعتها لأنها توقفت بضع ثوانٍ لتنحسر موجة الشعور التي
داهمتني لِئُطَقها هذه الكلمة، فأردفت: "كنت أتمنى أن أكون أما
حقيقية. ولكنني لم أحمل بهذا الطفل برغبتني. كان ينمو في أحشائي
كأنه فأر أو مَسَخ، لم أكن أشعر أن الذي ينمو هناك آدمي، ولم يكن
لدي أي إحساس الأمومة تجاهه. كنت أتمنى لو أنني أستطيع أن
أسقطه. كنت أضرب بطني باستمرار ليموت في أحشائي، ولكنه كان
عنيذًا، بقي ينمو في رَجَمي كأنه يتحدثاني، ويستمر في إرغامي على
الإحساس بالعار الذي حلَّ بي، كنت أتمنى أن أشعر يومًا واحدًا من
أيام الحمل بأنه لي، وأنه طفلي، كنت أشعر باحتقارٍ لنفسي، وفكرت
بالانتحار أكثر من مرَّة. ويومَ ولذته، رفعته القابلة، وأعطتني إياه من

أجل أن أَرْضعه، فَدَفَعْتُهُ بَعِيدًا وَأَنَا أَصْرَخُ: لَا أُرِيدُهُ، هَذَا لَيْسَ ابْنِي.
أَبْعَدُوهُ عَنِّي. لَمْ أَكُنْ أُرِيدُ الْإِحْتِفَازَ بِهِ، كُنْتُ أُرِيدُ أَنْ أَخْنُقَهُ، وَلَوْلَا
أَنْتِي صِرْتُ فِي مَلْجَأِ الْإِيْتَامِ لَتَخَلَّضْتُ مِنْهُ، وَلَكِنَّهُمْ كَانُوا يَرْعُونَهُ،
وَيُرَاقِبُونَ الْأَمَهَاتِ اللَّوَاتِي تَرَاوِدُهُنَّ أَفْكَارٌ فِي قَتْلِ أَبْنَائِهِنَّ. وَمَزَتْ
الْأَيَّامُ. تَخَلَّضْتُ مِنْ أَيَّامِ (فِيلِينَ فِلَاس) وَلَوْ بِشَكْلِ جُزْئِي، وَنَجَا هُوَ
مِنْ أَنْ أَخْنُقَهُ.

كائنات غير مرئية!

في ذلك اليوم يا (حارث) تغير كل شيء. في اليوم الذي ساقوك إلى مصيرك البشع، ساقوني إلى مصيري الأبدع. أخذوني مع عشرات الفتيات الصغيرات، كنا بين السادسة والثامنة عشرة. أخذونا إلى (فيلين فلاس) معسكر الاغتصاب الأبح في البلاد كلها. وهل يتفاوت الاغتصاب في القبح؟ نعم يا (حارث)، يتفاوت، كنا نُغتصب بصورة لا يمكن أن تُصدق!!

أخذوني إلى غرفة خالية، أدخلوا عليّ عشرة، اغتصبوني واحدًا واحدًا، ثم تركوني أنزف طوال الليل، كنت سأموت، ليتني مت. لكن الله أرادَ لآلامي أن تستمر. كنت أتقيا طوال الوقت، واشعرُ بالآلام في بطني وفي حوضي. أدخلوا عليّ طبيبة في صباح اليوم التالي، نظفتني، وأعطتني بعض المسكنات، وجاؤوا لي بطعام، وقالت لهم: "لا يمكن أن تغتصبوها ثانية وتحتمل قبل أن تتركوها أسبوعًا". في مساء اليوم نفسه اغتصبني أربعة.

استمر الاغتصاب في (فيلين فلاس) ستة أشهر، لم يتوقف يومًا. كنا حوالي مئة فتاة من الصغيرات، وزُعنونا على عُرف المركز، لا أدري كم عدد الغرف، ثلاثين أربعين، لا أدري. بعض الفتيات أصغر مني، كنَّ يُغتصبنَ كذلك. بعد مدة صاروا يضعون في الغرفة عددًا من الفتيات ويقومون باغتصابهن بشكل جماعي.

أدخلوا في أحد الأيام جارنا الضربي. قال لهم: "إنني أعرفها. إنها

فتاة جميلة وشهية". اغتصبني، بعد أن فرغ قال لي: "لن يغتصبك
سواي. أنا أخبزتهم بذلك". حين خرج دخل علي ثلاثة واغتصبوني.
تمنيث الموت، بحث عن شيء أنهي به حياتي. لكنني بقيت حية.

كانوا يأخذوننا لمشاهدة اغتصاب الأخريات. كانوا يكبلون اللواتي
يستطعن المقاومة بالقيود إلى الأسرّة، ويغتصبونهن أمامنا. كان
يدخل على الغرفة ثلاثة أو أربعة، ينظرون في وجوهنا، كل واحد
يختار واحدة يستحسنها. يغتصبها، يقول للآخر: "إنها جيدة. تعال
هنا. إنها جاهزة".

كانت العاشرة مساءً في (فلين فلاس) هي ساعة الرعب. إنه
الثوقيت المثالي بالنسبة للجنود الضرب للبدء بالاغتصاب. يعودون
من المعارك، أو من الخنادق، أو من خطوط القتال الأمامية، جائعين
إلى الجنس، وحوشاً لا ترحم، كل واحد يختار رقماً عشوائياً من
أرقام الغرف، يُعطى المفتاح ويدخل إلى الغرفة، ويغتصب من فيها،
واحدة، اثنتين، أكثر. ثم يلتقون في منتصف الليل في بار الفندق
يسكرون ويضحكون، وكل واحد يتحدث عن بطولاته في الفتح،
عن معركته الكبيرة، لا في الميدان، بل هنا. كان بعضهم يدعو غيره
أن يجزّب في المرة القادمة مفتاح غرفة أخرى، قائلاً: "إنها ناضجة
وحارة".

كانوا ينزلوننا إلى البار السفلي عندما يكونون في مزاج جيد،
يدعوننا إلى الشراب والرقص معهم: "لا تخافي، أنت في أمان. لن
تسقط قذيفة واحدة بالقرب من فلين فلاس. إنهم يعرفون ما يدور
في داخله. القادة مهتمون بأن تُرفّه عن أنفسنا هنا". وفي البار حين

يدور الثمار في الرؤوس تبدأ حفلة الاغتصاب الفروعة. كانت أرضية البار تمتلئ بالدم، وقذاراتهم، والخمر، وبقايا الطعام.

بعد بضعة أشهر، بدأت تظهر أعراض الحمل على عددٍ منا، كانوا يغتصبون الحوامل. أسقطت كثيرٌ منا ما في بطنها دون أن يأخذوها إلى مستشفى، في المستشفى كان الخراس يقتحمون الغرف على المريضات ويقومون باغتصابهن.

كانت لديهم طبيبةٌ خاصة تزورنا في (فلين فلاس)، تنظف آثار قذاراتهم، وتُعطينا بعض الأدوية والفهذئات؛ لتهيئنا لهم من جديد. وُلدَ في (فلين فلاس) عددٌ كبيرٌ من الأطفال جزاء الاغتصاب، أخذوهم إلى ملجأ تابع للصليب الأحمر، وسقوا الأولاد على رغبتهم. أنا لم أحبل. كنت صغيرة، كان عمري ثماني سنوات. لكنني لم أدخل إلى التاسعة إلا بعد أن اغتصبت أكثر من مئتي مرة.

اقتربت منها. كان شعور القهر والعجز يُقطع شراييني. ماذا فعلوا بأختي الجميلة، ماذا فعلوا بصغيرة العائلة، أي وحوش هؤلاء؟ احتضنتها، وزحنا نكي معًا. "لقد انتهى كل ذلك يا سلمى". "لا. لم ينتهِ يا (حارث). إنني أشعرُ بالدوار والإغماء كلما تذكرت ذلك، أنا أرى وجوههم في كل لحظة. أراهم فوقي. أسمع أصواتٍ خيرهم. أرى عيونهم التي تفيض بالشهوة والوحشية. لا يمكنني أن أتخلص من ذلك". "لن نبقى أسرى الماضي. سنحاول أن نتخطى ذلك معًا. سنذهب إلى أمهر الأطباء النفسيين". "لا أريدُ أطباء. إن كل أطباء العالم لن يستطيعوا مسح صورة مسخ صربي واحدٍ منهم. اتركني، أريدُ أن أقول كل شيء. ربما أرتاح". تركتها.

كانوا يقولون لنا: "إنك عاهرات. أنتن تستفتغن بذلك. نحن نقوم بمهمة مقدسة، ولكنها ثرييكن أيتها البوسنيات القذرات". كانوا يقولون: إن قساوسة الضرب يأمرونهم بذلك. يشجعونهم. ويقولون لهم: نفذوا مشيئة الرب، وإذا قاومن فاقطعوا أئداءهن عقاباً لهن. أي رب هذا يا (حارث)؟ أي رب يعرفونه ذلك الذي يأمر بهذه الفظاعات؟!

كم مر على انتهاء الحرب. عام. اثنان. ما الذي تغير؟ الذين كانوا يقومون باغتصابنا ما زالوا ظلقاء، إنهم يمشون في الشوارع بكل حزية، ويعيشون حياة طبيعية دون أية مساءلة. إنني أرى بعضهم هنا. في بلدتنا. إنهم أحرار. أولئك الذين يجب أن يُعدموا ما زالوا أحراراً!! هل تعرف ماذا حدث لـ (فيلين فلاس)؟ لم يُغلق، ولم يُحاسب من قاموا بآلاف عمليات الاغتصاب فيه، على العكس يا أخي، لقد أعيد فتحه كفندق مرة أخرى، وها هو يستقبل الشياح كل يوم. الشياح الذين يدخلون إلى غرف وثيرة ونظيفة وأنيقة، ويستمتعون بها، لا يدرون ماذا كان يحدث على هذه الأسرة؟ ولا يمكن أن يسمعوها صيحات الرعب والاستغاثة التي كانت تملأ المكان؟!

في الأيام التي كانت تدور فيها معارك طويلة على الجبهات. كانوا يبعثون بما يُسقونهم (المتطوعون)، كانوا يقومون باغتصابنا بدلاً من الجنود والضباط، كانوا يقولون: "إنهم مبعوثو الكنيسة". كانت ثقلهم حافلات من أماكن بعيدة، وتأتي بهم إلى هنا، وكانوا يفعلون ذلك بكل برود!!

لا أدري متى حملت بطفلي؟! لكن في إحدى سهرات البار السفلية،

رأني ضابط كبير واختارني. كان الضابط إذا أعجبته فتاة منا يأخذها إلى بيته. كنا نقوم بتنظيف البيت، وإعداد الطعام، وكانوا يغتصبوننا بعد أن يأكلوا ويسكروا. كُبر بطني في بيت الضابط. وبدأ الطفل ينمو في أحشائي. كنت في العاشرة من عمري. خُفت. أصابني دُغْرٌ شديد، كنت أعرف أن الضابط إذا لم يُعجبه الحمل فإنه إما يُسقطه، وإما يُعيدني إلى (فيلين فلاس) لأعاني من الاغتصاب اليومي. أو كانوا يبقرّون بطون الحوامل ويتركونهن يَفْثن، أو يضعون في بطونهن قطّطا بدلاً من الجنين الميت!!

كنت خائفاً على حياتي. أما طفلي فلم أكرهه في حياتي أحداً مثله. كنت أكرهه أكثر من الذين اغتصبوني مَجفوعين. إنه بذرة شيطانية. بذرة مجهولة الأب، أو مُتعددة الآباء. لقد اغتصبني عبر عامين أكثر من مئة صربي، كلهم محتمل أن يكون أباه. ولكنه مع ذلك بلا أب. وبلا أم. أنا لست أمه. هو نبت في رَحْمي رغماً عني. من دون أن يكون لي أدنى خيارٍ في الأمر. كيف تريّذني أن أقول إنه ابني، أو أشعر بأنه ينتمي لي؟! لقد كان ينتمي للجحيم الذي كنت أعيش فيه. لم تذهب أختي إلى أي طبيب. عاشت حياتها على آلام ماضيها. كانت تسكر وتسهر مثل آلاف اللواتي تعرّضن لمثل حالتها. كنّ يُنكزن أبناءهن، يَقْلن: "إنهم أطفال غير مرئيين. هؤلاء لا يمكن أن يكونوا قد نزلوا من أحشائنا".

حين صارت في الثامنة عشرة من عمرها استخرجت أوراقاً رسمية. وقَدِّمَتْ للهجرة إلى ألمانيا وهاجرت دون أن أعرف. أخذت ابنها إلى أحد ملاجئ الأيتام، كُبر دون أب ولا أم. ظل اسم (حميد)

الذي أطلقته عليه سِرًّا لم يُقل لأيّ بشريّ. كان اسفه (فيليب)، علّموه النصرانيّة، وكبّرَ مسيحياً. وكان يزورني بين فترة وأخرى، والصليب يتدلى فوق صدره، كان يحفظ الودّ، ويقول: "يا خالي. لا شيء مقنّع؛ لا الإسلام ولا المسيحيّة ولا أيّ دين آخر". "فلماذا تضع الصليب في عنقك إذا؟". "إنني أحمي نفسي به. أحاول أن أعيش. إنّ الحياة ليست عادلة. ما زال المسيحيّون يتمتّعون بمزايا جيّدة. من أجل هذا أضع هذا". وكان يُشير إلى الصليب.

لم أستطع أن أقنعه بأنّ يُصبح مُسلّقاً. كان يقول: "إنني لست مسيحياً كذلك. أنا كائن حيّ غير مرئيّ. لا أب لي. لا أمّ. أين هو أبي؟! إنّهُ واحدٌ من مئات. أين أمي؟ إنّها تعيش حياتها في ألمانيا. تبيع جسدها الذي لم يكن هو الآخر ملكاً لها يوماً. لقد سلب منها وهي في القامنة. أنا لا ألومها. ولا أشعرُ ثجاهاً بأيّ شيء. ولو رأيثها في الشارع لما تحرّكت عندي أيّة عاطفةٍ ثجاهاً. لماذا أهتمّ؟ لم تُرضعني يوماً، ولم تُطعمني، ولم تقل لي كلمةً حانية واحدة. لقد اختارث حياتها. كلّ واحدٍ منا يختار حياته. ولكنّ حياته اللعينة التي يختارها يتدخل فيها مع ذلك ألف شيطان. أنا أزورك لأنني أحببثك. أنت الوحيد الذي أهتمّ بي. أنت لست خالي؛ أنت صديقي".

يُبْقِيكَ مَا يُؤْلِمُكَ!

مَرَّتْ أَعْوَامٌ طَوِيلَةٌ. مَا زَالَ الْبُوسَنِيُّونَ يَبْحَثُونَ عَنْ مَوْتَاهُمْ بَعْدَ أَكْثَرِ مِنْ ثَلَاثِينَ عَامًا عَلَى انْتِهَاءِ الْحَرْبِ. إِنَّهُمْ يَنْبَشُونَ كُلَّ شَبْرِ فِي هَذِهِ الْبِلَادِ الْمَنْكُوبَةِ. وَفِي كُلِّ شَبْرِ كَانَ هُنَاكَ زَفَاتٌ. بَعْضُ الْمَقَابِرِ الْجَمَاعِيَّةِ نَبَتْ عَلَيْهَا أَشْجَارٌ عَمَلَاقَةٌ، وَانْتَشَرَتْ فَوْقَهَا مَسَاحَاتٌ مِنَ الزِّيَاضِ الْعُغَاءِ، وَتَمَايَلَتْ فَوْقَ كُلِّ جَمْعَةٍ بَائِسَةٍ وَرْدَةٌ حُمْرَاءُ. حَتَّى الطَّبِيعَةُ تَرِيدُ أَنْ تُخْفِيَ الْجَرَائِمَ الَّتِي لَا تُغْتَفَرُ.

بَقِيتُ أُبَحِّثُ عَنْ أَبِي أَكْثَرَ مِنْ عَشْرِينَ عَامًا. قَرَأْتُ كُلَّ الْأَسْمَاءِ الَّتِي فِي قَوَائِمِ النَّاجِينَ، أَوْ فِي سَجَلَاتِ الْمُنْظَّمَاتِ الْحَقُوقِيَّةِ، أَوْ فِي مَلَفَاتِ الْمُسْتَشْفِيَّاتِ. لَمْ أَعْمُرْ لَهُ عَلَى أَثَرٍ ظَلٍّ طَيِّفُهُ يَزُورُنِي. لَمْ يَكُنْ بِخِيَالٍ مَعِي. غَيْرَ أَنَّ مَوْتَهُ أَوْ حَيَاتِهِ بَقِيََا لُغْزًا لَمْ يُحَلَّ. وَمَعَ بُلُوغِي هَذَا الْعُمْرَ، وَمَرُورِ هَذِهِ السَّنَوَاتِ الطَّوَالِ الْعِجَافِ، مَا زِلْتُ آمُلُ أَنْ يَطْرُقَ بَابَ الْبَيْتِ، وَيَدْخُلَ عَلَيَّ غُرْفَتِي، وَيَقِفَ فَوْقَ رَأْسِي، وَيَقُولَ: "أَنَا عَبْدُ الرَّحْمَنِ لَا تَيْتَشُ. أَنَا أَبُوكَ".

كَلَّمَا عَاوَدْتَنِي ذِكْرِيَّاتِ الْمَاضِي هَزَّتْنِي هَؤُلَاءِ، وَبَسَّتْنِي بَسًّا. كَانَ الضَّرْبُ الَّذِي ذَبَحُونَا يَسِيرُونَ مَعَنَا فِي الطَّرِيقَاتِ، تَابَعُوا حَيَاتَهُمْ كَأَنَّ شَيْئًا لَمْ يَحْدَثْ. كُنْتُ أَرَى أَيَْادِيهِمُ الْبَيْضَاءِ النَّظِيفَةَ يَقْطُرُ مِنْ تَحْتِ أَصَابِعِهَا الدَّمُ. لَمْ يُحَاسِبْنِهِمْ أَحَدٌ، وَلَمْ يَأْخُذْ حَقْنَا أَحَدٌ. عَشْرَاتٌ فَقَطْ مِنَ الْكِبَارِ أَوْ أَوْلَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يَنْجَحُوا فِي الْهَرُوبِ هُمْ مَنْ حُوكَمُوا، فِي حِينِ أَنْ مِائَاتِ الْأَلْفِ مِنَ الْمُجْرِمِينَ مَا زَالُوا طَلِيقِينَ. لَمْ يَكُنْ فِي الْأَرْضِ عَدَالَةٌ أَلْبَثَّةٌ. لَمْ يَبْقَ إِلَّا عَدَالَةُ السَّمَاءِ.

آلاف الأمهات بَقِين يلبسنَ السَّواد طَوال حَيَاتِهِنَّ، لم يكن يعرفنَ أماكن المقابر التي دُفِنَ فيها أبناؤهنَّ. كانت الواحدة تسهر أمام البيت كلَّ ليلة، كل ليلة تنتظر أن يعودَ لها ابنُها، أو تسمع خبرًا عن قبر عثروا فيه على عظمة من عظامه، لكن ذلك لم يحدث، وظَلَلْنَ في جَدَادٍ دائم.

صرت أحلمُ بأُمِّي. ليس في الهيئة التي اغتصبت فيها أو قُتِلت. بل بهيئتها التي كانت تملأُ فيها رثَّيها بالهواء من أجل أن تنفخَ بالونًا. كنت أراها تفعل ذلك، ثم تقول لي: "هَيَّا يا حارث. أمسك بالخيط، وسافر". ليتني أمسكتُ بالخيط وسافرت حقًا ولم أعذ. ليتني سافرت إلى بلادٍ لا أرى فيها وجوه القتلَة، إلى بلادٍ نظيفة لا يعيش فيها معي أحد!

وحدها دروس الشيخ (شريف) في جامع (الأدوا) هي التي كانت تُشكِّل لي عزاءً كلما ذبحتني الذكريات. كانت النقطة المضيئة، تلك التي لها القدرة على أن تنشلك من بحار اليأس قبل أن تفرق. رَمَمُوا الجامع، وبنَّوه ثانية، وصارت تُقام فيه الصلوات والجمع؛ لقد أعادوا الجامع ولكنهم لم يُعيدوا الإمام.

لم أتزوج. أعني لم أشعر بالجرأة على الزواج. بقيت عَزْبًا، لا أريدُ أن أجعل المأساة تتناسل من خلالي. فكزت بالهجرة ألف مرة، وقدمت أوراقِي إلى أكثر من سفارة، وفي كل مرة أقتربتُ فيها من إتمام الأمر أترجع، شيء ما في البيت ظل يشدني. من العجيب أن يُبقيك ما يؤلمك. استفزرتُ أعمل طَوال الثلاثين عامًا التي مرَّت بعدَ الحرب في مصانع الخشب، أنا الآن في العقد الخامس من عمري، وحيثُ بلا

عائلة. وحيد بلا ظل!

انتهت

أيمن العتوم

عقّان

15-5-2025م